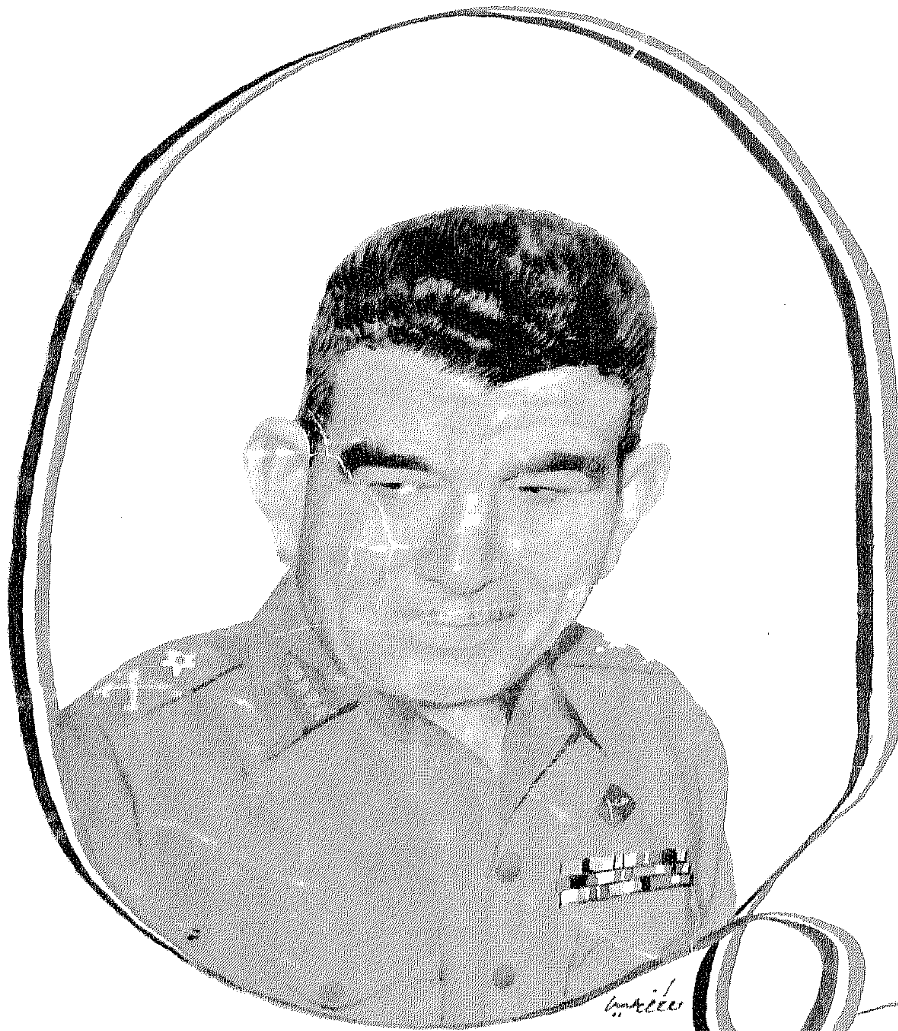
مذكرات محمد نجيب

كنت رئيسا لمصر



المكتب المصرى الحديث

أهداء ألي منتدي أل :
DVD4ARAB

Blackdivel2000

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٨٤

الطبعة الثانية اكتوبر ١٩٨٤

الناشر : المكتب المصرى الحديث
ـرة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
ـكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

مقدمة

اقترب الآن من النهاية . . واحزم حقائبى استعدادا للرحيل . .

انني في الأيام التي يكون فيها الانسان معلقا بين الأرض والسماء .

في تلك الأيام التي يختفي فيها تأثير الجسد على البشر ويبقى نفوذ الروح . . ويبتعد فيها الانسان عن المادة ويغطي نفسه بالشفافية . . وينسى الالم والدنيا والسلطة والمال والولد ولا يتذكر إلا الحق والتسامح والصدق والخير . .

أنام على فراش . . واقرأ على فراش . . واجلس وأكل واتحدث مع زوارى واقاربي واصدقائى . . إنه مابقى لى فى الدينا وأخر ما سأراه والمسه فيها . .

أحيا ايامى الآخيرة مع امراضى وشيخوختى . . جسدى نحيف شهيتى ضائعة . . بصرى ضعيف . . حركتى نادرة . . النوم يخاصمنى والارق يرافقنى . . ومع ذلك فالذكريات تلاحقنى . . التفاصيل الصغيره والكبيرة . . وذاكرتى لا تزال تعذبنى بكل ما رأيته وعشته منذ طفولتى إلى الآن . .

انني انام ساعات قليلة جدا . . لا اتناول فى الصباح سوى بيضة واحدة مسلوقة . . وفى الظهر كوب من العصير . . وفى العشاء كوب آخر من العصير . . أما الادوية فلا حصر لها . . دواء لفتح الشهية . . ولتصلب الشرايين . . وفيتامينات . . وقطرة للعين . . واقراص مهدئة . . ودواء منشط للكبد . . وادوية آخرى لا احب أن اسرد اسماءها ولا وظيفتها . .

ويومى الطويل . . وليلى الأطول . . اقضى ساعاتها فى القراءة المصحف الشريف . . وقراءة دفاترى القديمة التى نجحت فى الا
طوال أكثر من ٣٠ سنة . . واحيانا فى قراءة كتب اليوج

وفى هذه الحياة الرتيبة التى احياها جاءنى بعض الاصدقاء ورحبت بهم . . وتساءلت عن سر زيارتهم لى فأجابوا بأنهم يطالبوننى بمذكرات كاملة أودعها صفحات التاريخ . . وقد حاولت الأعتذار فى أول الأمر بأننى قلت كلمتى من قبل . . ولكنهم لم يقبلوا الاعتذار قائلين أن الكثير من الاوراق والوثائق والذكريات لا تزال حبيسة فى حوزتك . . وهى ليست ملكا خاصا لك وحدك . . ولكنها ملك الأجيال الجديدة وملك التاريخ . .

وتركنى الاصدقاء لأفكر فى الأمر وحدى . . إننى فى أيامى الهادئة هذه لا أريد أن اجرح احداً . . ولا اريد أن اعبث بسكينى فى جرح قد التأم . .

وقلبت فى اوراقى الخاصة . . وذاكرتى . . وقرأت ما نشرته من قبل ، وما نشر عنى . . واحسست فعلا أن عندهم حق . . فهناك وقائع لم أجد من المناسب ذكرها ، وهناك تفاصيل تجاهلتها . . وهناك أسماء لم انشرها . .

وأدركت أنه قد بقى على واجب لابد من ادائه قبل الرحيل . . أن اكشف ما سترته . . وازيح ما واريته وأكمل الصور التى اشرت إلى وجودها . .

وبدأت رحلتى الشاقة فى التفتيش عن الاوراق والذكريات . . وفى مواجهة الاخطاء التى وقعت فيها . . والعيوب التى لم اتخلص منها . .

لم أكن اتصور أن اعيش واكتب هذه المقدمة . .

ولم أكن اتصور أن الله سيمد فى عمرى إلى هذه اللحظة . . لحظة قراءة هذا الكتاب قبل أن تبتلعه ماكينات الطباعة . .

يمكننى الآن أن اموت وأنا مستريح البال والخاطر . . والضمير . .

فقد قلت كل ما عندى . . ولم اكتم شهادة . . ولم اترك صغيرة ولا كبيرة الا كشفتها . .

إن هذا الكتاب سيعيش اطول مما عشت . . وسيقول أكثر مما قلت . . وسيثير عنى جدلا بعد رحيلى أكثر من الجدل الذى اثرته وأنا على قيد الحياه . .

ولا يبق سوى أن تؤكد صفحات الكتاب صدق ما أقول . . أسأل الله أن يتجاوز عما قصرت ويغفر لى ما اذنبت ويتقبل منى ما وفقت فيه .

محمد نجيب

الفصل الأول

ابن النيل

- لا اعرف تاريخ ميلادى بالضبط حتى الآن .
- دش بارد من جدتى على رأس ابى .
- عشر جلدات على ظهرى من الانجليز بسبب مصر .
- ابن أحمد عرابى قال لى : الضابط فى جيش الاحتلال مقاول أنفار .
- سنتيمتر واحد كان سيمنعنى من ان أكون ضابطا .

انا لا اعرف ، بدقة ، تاريخ ميلادى . .
او . . اعرف ثلاثه تواريخ لميلادى ، ولا اعرف ايهم أصح . .

ففى مفكرة ابى الخاصة ، كتب التاريخ الاول وكان ٢٨ يونيو ١٨٩٩ . . وكتب امامه نمرة واحد ولانه كان يطلق علينا ارقاما . . فيكتب نمرة واحد ولد يوم كذا . . ونمرة اثنين ولد يوم كذا . . وهكذا ولاننى كنت اعتقد اننى اكبر اخوتى ، فأننى تصورت اننى المقصود بنمرة واحد . . وتصورت ان هذا التاريخ يصبح تاريخ ميلادى . . لكننى اكتشفت ، فيما بعد ، ان ابى كان متزوجا من اخرى ، قبل امى ، وانه انجب منها اخى الاكبر عباس الذى توفى مبكرا . . ولذا اشك فى هذا التاريخ .

اما التاريخ الثانى ، فقرره القسم الطبى بالجيش . . وكان ١٩ فبراير ١٩٠١ . . واشك فيه ايضا ، لانه يخضع لتقديرات الآخرين . . والتى يسمونها عملية التسنين .

التاريخ الثالث ، وهو الذى اطمئن اليه اكثر . . فمأخوذ من تاريخ ميلاد احد اقاربى . . حيث اكد لى كبار العائلة انه أصغر منى باربعين يوما . . وبالحساب يصبح تاريخى الذى ولدت فيه هو ٧ يوليو ١٩٠٢ .

واذا كنت لا اعرف بالضبط ، تاريخ ميلادى ، فأنا اعرف جيدا ، اننى ولدت فى الخرطوم . . وكذلك امى . . اما جدة امى فمصرية الاصل . . من المحلة الكبرى .

وانا اعرف ان جدى لأمى كان ضابطا كبيرا فى الجيش ، برتبة اميرالاى . كان اسمه محمد عثمان بك . . وكان قائد حامية بوابة المسلمية ، احدى معاقل الخرطوم الجنوبية ، ومنها يبدأ الطريق الى واد مدنى .

وكان رجلا تقيا . . كريما . . يعرفه العربان الذين يعيشون فى الصحراء ، ويأتون الى الخرطوم لبيع المواشي والاغنام . . لانهم كان ينزلون فى بيته الذى حوله الى مضيفة لهم . . فى وقت لم يكن فيه فنادق او لوكاندات . . وفى هذه المضيفة ، كانو يأكلون ويشربون وينامون يستمعون لآيات الذكر الحكيم .

وقد انقذت هذه المضيفة جدى ، عند قيام الثورة المهدية وسقوط مدينة الخرطوم في يد انصارها يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥ ، من التنكيل به . . وانقذت اسرته من الذبح .

ففى ذلك اليوم هاجم انصار المهدى الخرطوم . . وكان بعضهم من العربان الذين يعرفون جدى جيداً . . سيطروا على سنار . . ودخلوا الخرطوم . . وامسكوا بالضابط الآخر الذى كان عليه حماية اجزاء اخرى من الخرطوم . . وكان اسمه فرج باشا . . وقطعوه بالساطور . . ثم زحفوا الى بيت جدى ليقضوا عليه ، ربما بنفس الطريقة ، ويسيطروا على الخرطوم تماما .

لكنهم ، قبل ان يصلوا اليه ، جاء له ضابط من ضباطه ، اسمه يوسف مصبعجى عائلته لاتزال فى السودان الى الان ، وقال له : يامحمد بك . . ماذا تنتظر . . لقد دخل انصار المهدى المدينة وقتلوا فرج باشا بالساطور . . لابد ان تهرب . . خذ هذا الجلباب الذى احضرته لك . . البسه على بدلتك العسكرية . . واهرب . . .

فقال جدى فى غضب :

اغرب عن وجهى . . اما انا فمن الركاب الى التراب .

واصر جدى على ان يقاتل حتى قتل ، هو واخوته الثلاثة : رضوان واحمد وشرف ، وكانو هم ايضا ضباطا .

بل انه قبل ان يواجه قوات المهدى ، اوصى ابنه الاكبر ، صباح ذلك اليوم ، بأن يقتل كل افراد اسرته ، اذا سقطت الخرطوم ، حتى يجنبهم ذل الاسر ، ومهانة العدو .

لكن . . هذا لم يحدث . .

لم تقتل الاسرة . .

ولم تذق ذل الاسر ومهانة العدو ...

فقد تقدم ، اثنان من العربان ، الذين كانوا ينزلون فى مضيفة جدى ، ويعرفون كرمه وشجاعته ، وكانا من امراء جيش المهدى ، ليرفعا راية بيضا على باب هذه الاسرة ، بامر من السيد محمد احمد المهدى ، فأصبحت الدار حرما لاينتهك ، وصبح اهلها فى مأمن من اى اعتداء . .

بهذه الصدفة ، نجت عائلة جدى من الذبح .

وكانت تلك العائله الصغيرة مكونة من جدتى . . وابنها الراشد اسماعيل واخيه الطفل عبد الوهاب واخته الرضيع زهرة . . وهى التى اصبحت ، فيما بعد ، امى .

وعاشت تلك العائله فى ظروف صعبة جدا . . لم يكن لها معين . . ولم يكن لها اى مصدر من مصادر الدخل الثابت . . واضطرت جدتى ان تعمل فى حياكة ملابس الدراويش . . وخرج ابنها اسماعيل مع قوافل التجارة ، التى لم تنقطع بين شمال الوادى وجنوبه ، لاسيما عن طريق درب الاربعين ، الذى كان يربط غرب السودان بمدينة اسيوط ، وغيرها من مدن الصعيد . . ودرس عبد الوهاب على يد واعظ الخرطوم ، اصول القراءة والكتابة وعلوم الدين . . وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره ، اشتغل هو الآخر بالتجارة . . وبعد عام هرب مع قافلة من التجار ، برفقة تاجر من اسنا الى مصر . . وسعى لمقابلة الخديو عباس حلمى ، الذى كان معنيا بشئون السودان ، ويعرف عنه الكثير . . ونجح فى ان يقابله .

عرفه خالى بنفسه . .

فقال له الخديو :

انا اعرف اباك ، واعرف شجاعته ، واسمه ومواقف مسجلة عندى فى المحفوظات . . وقد امرت بتعليمك على نفقتنا الخاصة ، من المدرسة الابتدائية الى المدرسة الحربية .

فى المدرسة الحربية التقى خالى عبد الوهاب ، بأبى يوسف نجيب ، الذى كان طالب برتبة انباشى فى المدرسة . . التى كان مقرها وقتئذ بالعباسية مكان السرايا الصفراء . . مستشفى الامراض العقلية الان .

يوسف نجيب - ابى - كان يتيماً من سن ١٣ سنة .

ولد فى قرية النحارية . . مركز كفر الزيات مديرية الغربية اشتغل بالزراعة والرعى . . وكان من الممكن ان يظل كذلك حتى آخر عمره ، لولا ابن عمه فتح الله رضوان ، المحامى ، الذى كان مقيما فى بنى سويف ويزور اسرته فى النحارية ، من وقت لآخر . .

اعجب فتح الله بحسن استعداد يوسف نجيب ، وسرعة خاطره ، فأصر على ادخاله مع نجله محمود فتحى المدرسة ، حتى حصلا معا على الشهادة الابتدائية ثم التحق يوسف بمدرسة الفنون والصنايع . . واكمل محمود دراسته القانونية حتى حصل على الدكتوراة من فرنسا .

فى اثناء دراسته بالفنون والصنايع كان يوسف ماهرا فى الالعاب الرياضية . . خاصة كرة القدم . . وكثيرا ما استغل هذه المهارة فى تدريب الطلبه على هذه الالعاب ، مقابل اجر ، يستعين به على نفقات المعيشة .

وفى سنة من سنوات الدراسة فى الفنون والصنايع وقعت له مفاجأه غيرت مجر حياته كان يعود فريق المدرسة فى احدى مباريات كرة القدم . . وكان فى مقدمة المتفرجين كتشنر الحاكم العام الانجليزى . . وفى احدى الهجمات ، وقع على الارض ، وانكسر ذراعه . . لكنه قام ليكمل المباراة ، بعد ان وضع ذراعة المكسور وراء ظهره . . وتحمل الآلآم حتى انتهت المبارة . . وفاز فريقه . . وطلب كتشنر -ان يصافحه . . فاعتذر . . وعرف كتشنر سبب الاعتذار . .

وقال له :

ـ انت مكانك الطبيعى فى المدرسة الحربية .

ـ لكننى طالب فى الفنون والصنايع وامتحاناتى على الابواب . .

ـ ولا يهمك . . نحن سنساعدك ، وسنسهل عليك كل شيء .

وتخرج يوسف نجيب من مدرسة الفنون والصنايع ، ودخل المدرسة الحربية . . وهناك التقى بخالى عبد الوهاب محمد عثمان . .

فى ٢٦ مارس ١٨٩٦ تخرج يوسف نجيب من المدرسة الحربية . . وسافر على الفور الى السودان ، ليلتحق بالكتيبة ١٧ ـ مشاه . . وكانت حملة دنقله الكبرى قد بأت ، فاشترك فى اغلب معاركها ، واشترك فى اغلب معارك استرجاع السودان حتى عام ١٨٩٨ . . وجرح ثلاث مرات . . كانت احداها شديدة من اثر ضربة سيف فى ركبته اليسرى . . ونفذت رصاصة اخرى من طربوشه ، واحدثت جرحا سطحيا فى الرأس . . والجرح الثالث كان فى صدره .

ويشاء القدر ان تكون الكتيبة ١٧ ـ مشاه ، التى التحق بها والدى فى بداية خدمته ، هى نفس الكتيبة التى التحقت بها فور تخرجى من المدرسة الحربية عام ١٩١٨ . . بل ان قائد سرية الوالد عام ١٨٩٦ ، اصبح قائد كتيبتى عام ١٩١٨ ، وهو الاميرالاى حامد سعد بك . . وصادفت ايضا قائد آخر عندما التحقت بهذة الكتيبة هو الاميرالاى عبد الله فهمى بك . . وكان من زملاء والدى فيها .

ولم يكن هذا ، فقط ، وجه الشبه الوحيد بينى وبين ابى . .

فقد اصبحت يتيما مثله فى سن ١٣ سنة .

واصيبت فى المعارك بسبعة جروح ، لم اسجل منها سوى ثلاثة ، مثله

وتزوج هو اكثر من امرأة .. وانا كذلك .

فبعد موقعة الحفير بدنقلة ، عام ١٨٩٨ تزوج بسيدة سودانية من قبيلة الشايقية ، اسمها سيده محمد حمزة الشريف ، وانجب منها ثمره واحد .. او ابنه الاكبر عباس .. ثم طلقها..

بعد الطلاق ارسل والدى ابنه عباس الى النحارية ليشتغل بالزراعة .. لكنه لم يعش طويلا .. وان كان اولاده واحفاده يعيشون هناك الى الان .

وبعد استرجاع السودان .. استقرت احوال يوسف نجيب .. فقرر الزواج مرة اخرى .

سمع عن اسرة المرحوم محمد عثمان فى ام درمان .. وشجعه البعض على الزواج من ابنته زهرة .. فلم يكذب خبرا .. وراح يلف وهو على ظهر جواده حول البيت لعله يراها .. وعندما طلب ماء صرخت فيه الام :

- ماذا تريد بالضبط؟

لم يرد ...

فاذا بها تسكب الماء على رأسه بدلا من ان يشربه ..

وقالت له :

- لعلك تفيق ..

لكن لم يستسلم .. وعاد يطرق الباب ..

وقبل ان تغلظ له القول .. قال لها :

- اريد ان اتزوج ابنتك !

فاذا بها تصفع الباب فى وجهه ، وتقول له :

- ليس بهذه الطريقة تزوج العائلات المحترمة بناتها .. ان للبنت رجالا يجب ان تتكلم معهم ..

فقال :

- انا اعرف ان ابن عمتها عبد الله حسن كان وكيل مديرية الخرطوم لكنه مات .. ولا اعرف لها اقارب آخرين ..

قالت :

- ان ابنى ضابط مثلك فى الجيش واسمه عبد الوهاب محمد عثمان .. اسأل عنه ..

قال :

- مش معقول .. عبد الوهاب .. انه صديقى جدا ..

قالت :

ـ اذن اكتب له . . واذا وافق . . تتزوج .

وكتب يوسف نجيب لعبد الوهاب عثمان خطابا يطلب فيه الزواج من اخته زهرة . . ووافق عبد الوهاب . . وحضر الزفاف بنفسه . . اذ انه عين ضابطا بالكتيبة ١٥ ـ السودانية ، فى نفس التاريخ الذى تزوج فيه ابى . . عام ١٩٠٠ .

انجب ابى ثلاثة ابناء . . إنا أكبرهم . . والثانى على نجيب الذى كان ضابطا بالجيش المصرى حتى يوليو ١٩٥٢ ، ثم سفيرا لمصر فى سوريا . . والاخير هو الدكتور محمد نجيب . . وانجب ايضا ست بنات (دولت . زكية . سنية . حميدة . نعمت . ونجية) .

فى السودان ، حيث عاش والدى ، من يوم ان وصلها حتى مات ، ولدت . . وتفتحت عيناى . . وعشت سنوات طفولتى وصباى . . كان بيتنا بالقرب من الجامع العتيق فى الخرطوم . . كان منزلا متواضعا . . مكونا من اربع حجرات . . واصبح فيها بعد ناديا للموظفين المصريين .

ثم بيع للكونت ميخالوس عام ١٩٢٥ بعد الاحداث التى وقعت فى هذا العام ، بناحية ساقية ابو معلا .

فى هذا البيت . . ولدت .

وقبل ان ابلغ الثالثه من عمرى ، انتقل والدى الملازم اول يوسف نجيب ، ونحن معه الى وادى حلفا . . حيث عين مأمورا لسجنها الحربى . . ومن حلفا الى واد مدنى . . مأمورا للسجن الحربى هناك ، ايضا .

فى واد مدنى دخلت كتابها الصغير . . والكتاب يسمى فى السودان بالخلوة . . والتلاميذ يسمون بالحيران . . والكتاب مثل اى كتاب مصرى . . يقوم بتحفيظ القرآن وتعليم اصول القرآن والكتابه ويشرف عليه فقيه يدفع له الاهالى راتبا منتظما وعند ما يتم جزءا من القرآن يأخذ مقابلا يسمى حق الشرافة .

وقد كنت احب عريف الكتاب . . وكنت اساعده فى جمع الحطب يوم الاربعاء . . آخر يوم بالنسبة لنا فى الاسبوع . . اذ ان اجازة الكتاب كانت يومى الخميس والجمعة . .

وكل يوم اربعاء ، قبل ان نودع شيخنا ، كنا نأكل معه الذرة المسلوقة ، ونأخذ شيئا منها الى بيوتنا للتبرك . . وكانت هذه العادة تعرف بكرامة الاربعاء .

ومن واد مدنى ، انتقل ابى الى بلدة سنجا ومنها الى ابو نعامه بمديرية سنار . . ثم الى دلقو بمديرية حلفا . . .

وهذه المناطق لم يكن بها مدارس . . وكان على ابى ان يعمل كمأمور لها فى الصباح ، وكمدرس لنا فى المساء . . وكثيرا ماشجعنى على استذكار دروسى بمكافآت سخية فى صورة هدايا . . ساعة يد . . اكورديون . . بندقية صيد . شىء من هذا القبيل .

وفى دلقو . . ترك هذه المهمة لصديقه عمدة البلدة الشيخ فرح صالح . . والد الاميرالاى السيد فرح واحد من ابطال احداث ١٩٢٤ بالسودان . . وفى عام ١٩٠٨ انتقل ابى الى وادى حلفا وعين مأمورا بها . . واستقرت اسرتنا فيها حوالى خمس سنوات . . وفى ذلك العام بدأت دراستى النظامية فى مدرسة حلفا الابتدائية . . وهى من اوائل المدارس التى اقامتها الحكومة المصرية لتعليم ابناء المصريين الذين يخدمون فى السودان . واعترف اننى وانا تلميذ فى المدرسة الابتدائية لم اكن متفوقا فى دراستى . . فى السنه الأولى كان ترتيبى السادس عشر وفى السنه الثانيه

كان ترتيبى الخامس عشر . . وفى السنة الثالثة ، رسبت .

ولعل السبب فى ذلك هو عدم الاستقرار الذى كنا نشعر به ، لترحال ابى المستمر فى اربعة ارجاء السودان . . ولعل السبب هو انه كان يتركنا بعيدا عنه ، احيانا ، لصعوبة الاقامة فى بعض المناطق التى خدم بها . . كأقليم الزنك بمديرية اعالى النيل . . ولعل السبب هو اننى كنت افضل عن الدراسة ، حفر الخنادق ، والاستحكامات ، والتشبه بالجنود والضباط ، حتى اننى كنت البس قايش ابى حول وسطى واصف امامى اشقائى وبنات خالى ، واعلمهم الضبط والربط . وكان جزائى على ذلك ، دائما ، الضرب . .

وعندما زاد الامر الى حد تفجير البارود فى حوش البيت ، تحول الضرب الى عقاب اشد . . وهو جرحى بالموس . . وكانت امى هى التى تتولى عقابى . . وكانت جدتى لاتمنعها من عقابى . . ولكنها ، كانت تضمد جراحى ، برش الملح عليها . . وربطها بالشاش . . ثم . . تضع رأسى فى حجرها ، وتقص على جزءاً من تاريخ جدى . . وجزءاً من كفاحها من اجل اسرتها بعد استشهاده . . وجزءاً من كفاح خالى ، الذى سافر الى مصر على قدميه . . ومن بين كل الشخصيات التى كانت تحكى عنها ، كانت تبهرنى شخصية خالى عبد الوهاب كنت احلم ان اكون مثله . . وان اهرب مثله فى درب الاربعين الى القاهرة . . وكنت اتعجل الايام لاكبر الى العمر الذى هرب فيه من اسرته . . وكنت احب الهوايات التى كان يحبها ، مثل الصيد والرماية وركوب الخيل . .

كنت احبه جدا . .

لكن . .

جاء الموت ليخطفه على جواده الاسود . .

فى عام ١٩١٠ كان مأمورا للرهيعه وحضر الى حلفا مريضا بحمى الكالازار وسرعان ماتوفى ودفن بها .

وبكيت عليه كما لم ابك من قبل . .

واعتصر الحزن قلبى عليه . .

وما كادت الدموع تجف فى بيتنا ، وما كادت الاحزان تغرب عنا ، حتى وقعت فاجعة اشد . .

مات ابى . .

كان فى مأمورية باحدى ضواحى واد مدنى ، واضطر ان يقطع مسافة اربعين ميلا على ظهر جواده ، فأصيب بالتهاب فى الزائدة الدودية ، فنقل الى المستشفى بالخرطوم لاجراء جراحة سريعة له . . لكن . . الموت كان اسرع من الاطباء .

كان ذلك فى ٩ يونيو ١٩١٤ .

كان عمره ٤٣ سنة . . وكان برتبة يوزباشى . .

وكنت ساعة الوفاه ، على بعد خطوات من المستشفى التى مات فيها ، طالبا بكلية غوردن . . لايزيد عمرى على ١٣ سنة .

وعرفت الخبر . .

ودخلت غرفة المشرحه . . ورفعت الغطاء من على وجهه . . وامسكت بدموعى امام الاطباء المصريين والانجليز . . وقبلت جبينه . . وتقبلت العزاء فيه . . وظللت صامدا ، متماسكا ، حتى انفردت بنفسى ، وانفجرت بالبكاء .

بكيت على ابى بحرقة . .

وبكيت على حالنا من بعده . . .

فقد ترك ابى اسرتنا المكونة من عشرة افراد ، دون ان يترك إلا ١٩٦ جنيها ، مكافأة خدمته ، وجنيهين و ٣٠ مليما كمعاش شهرى ، وسبعه جنيهات ونصف ايجار منزلنا المؤجر لنادى الموظفين .

وكان ابى قد ورث عن جدى ثمانية فدادين . . اشترى عليها اربعه اخرى ، فأصبح مجموع ثروته من الارض نحو اثنى عشر فدانا . . وكان من الطبيعى ان تساعدنا هذه الافدنه على تحمل نفقات الحياة من بعده ، الا ان عمى وضع يده عليها ، واصر على انها من حقه ، لانه ، كما قال ، قد سلف والدنا الف جنيه .

لم يردها له قبل رحيله . . وقال : انه سيأخد الارض الى ان نسدد له الالف جنيه . . وكان مستحيلا ان ندفع له مايطلبه ، لان دخلنا لم يكن ليكفينا . . اصلا .
واحسست بالمسئولية قبل الاوان .
لكن . . ما باليد حيلة .
لم يكن امامى سوى الاجتهاد فى دراستى بكلية غوردن .
وكلية غوردن افتتحت عام ١٩٠٣ ، بعد ان جمعت لانشائها تبرعات فى لندن والقاهرة ، بلغت نحو ١٣٠ الف جنية . . وكان كل من يشرب عليها من الانجليز ، يشجعون دخول السودانيين فيها ، ويمنعون دخول المصريين . . وكان دخولى فيها استثناء ، لان والدى كان من موظفى الحكومة السودانية قبل ان يكون من ابناء الجالية المصرية .
كانت مدة الدراسة بهذه الكلية اربع سنوات . . وكانت مقسمة الى ثلاثة اقسام مستقلة . . المعلمين . . المهندسين . . والقضاه . . وكانت رغبتى ان ادخل قسم المهندسين ، لكنهم رفضوا واصروا على أن ادخل قسم المعلمين . . ولان ابى كان يعمل فى واد مدنى . . وغير مقيم بالخرطوم كان لابد ان ادخل القسم الداخلى بالكلية .
وأيام الدراسة فى غوردن لم تكن هادئة ، ولا هانئة . . . ابدا . .
كنت طالبا فى السنة الثانية بالكلية (١٩١٤) وجاء المستر ن . ر . سمبسون ، مدرس اللغة الانجليزية ، ليملى علينا قطعة املاء . . جاء فيها : ان مصر يحكمها البريطانيون .
فلم يعجبنى ذلك . . وتوقفت عن الكتابة . . ونهضت واقفا . . وقلت له : لاياسيدى . . مصر تحتلها بريطانيا فقط . . ولكنها مستقلة داخليا . . وتابعة لتركيا .
فثار المدرس الانجليزى ، غضب ، واصر على ان اذهب ، امامه الى مكتبه وامر بجلدى عشر جلدات على ظهرى . . واستسلمت للعقوبة المؤلمة دون ان اتحرك ، أو افتح فمى .
كنت متأثرا ، فى ذلك الوقت ، بكتابات مصطفى كامل ضد الانجليز . . وكانت تلك الكتابات تهرب سرا من مصر الى السودان . . وكنا نقرأها بعيدا عن الاعين ، ونحاول ان نقلد صاحبها على قدر استطاعتنا .

وفى مرة اخرى ، كنت اجهز لالقاء محاضرة فى الكلية عن حضارة الاسلام . .
وكان معى اثنان من زملائى هما يونس نجم ، واحمد ماضى ابو العزائم . .
وعرف المسئولون فى الكلية الامر . . فجاء الينا المشرف الانجليزى ، وقال :
- ماذا ستفعلون ياحيوانات . . هل هى فوضى . . كان يجب ان تأخذوا اذنا منا ؟!
وغضبت من كلمة ياحيوانات ، وطلبت منه ان يعتذر فاذا به يأمر بجلدى عشر جلدات على ظهرى .
ولم تمر عدة ايام ، حتى جلدت ، عشر جلدات ، مرة ثالثة . .
دخل مدرس اللغة الانجليزية الفصل ، ليوزع علينا كراسات الانشاء . . وجاء عند كراستى ، وقرأ الملحوظة التى كتبها فى نهاية موضوع . . وكانت ، كما قال :
(الانشاء جيد لكن الخط ردىء جدا) .
واذا به يلقى بالكراسة ، على طول ذراعه ، من النافذة . . ثم . . امرنى ان اذهب لأحضرها . . لكننى رفضت . . واصررت على الرفض وعندما كرر على الطلب ، قلت له :
- مادمت قد رميت الكراسة ، فارسل وراءها من يحضرها . . اما انا فلن اذهب !
فهددنى بالجلد . .
فقلت له :
- انا اقبل الجلد ولا اقبل الاهانة !
ونفذ الرجل تهديده . . وجلدت .
كان الجلد فى كلية غوردون هو العقاب الذى نناله بمناسبة او بدون مناسبة ، على يد الانجليز . . ولكن . . الاهانة التى كنا نذوقها على ايديهم اشد من قسوة الكرباج على ظهورنا .
واذكر بالمناسبة ، اننى بعد ان تخرجت ضابطا ، ذهبت لزيارة الكلية . . مثل اى تلميذ يذهب الى مدرسته القديمة بعد ان يكبر . . كنت قد نسيت الاساءه . وكان صدرى يمتلىء بمشاعر الود للمكان . . ولكن هذه المشاعر انقلبت الى غضب وقرف وزهق عندما دخلت من الباب ، ووجدت لوحة كتب عليها :
محظور على الطلبه السودانيين الاختلاط بأبناء المصريين ، عموما ، نظرا لما شوهد على الآخرين من قذى وقذارة وتفشى الامراض العفنه بيتهم كالرمد الحبيبى والتيفود وغيرهما .

ولم اشعر بنفسى الا وانا انزع الورقة المكتوب عليها هذا الكلام ، وحملتها الى قائد كتيبتى محتجا وثائرا ، فأخذنى ورحنا الى قائد حامية الخرطوم ، وكان اسمه سميث واجبر مستر يودال وكيل الكلية على الاعتذار علنا فى الكتيبة ، ونبه عليه بعدم تكرار مثل هذه التحذير ات الوقحة .

ويشاء الله ، ان يصاب ، مستر يودال ، بعد ذلك ، بمرض الجذام ، عام ١٩٣٩ ، فى جزر بهاما . .

الى هذا الحدكان الانجليز يتعاملون معنا . .

والى هذا الحد كنا نرفض هذه المعاملة .

ولكنى رغم ذلك ، لاانسى فضل كلية غوردن على . .

بعد ان تخرجت فيها ، التحقت بمعهد كان يسمى « معهد الابحاث الاستوائية » لكى اتدرب على الالة الكاتبة ، وعلى اعمال الموظفين الاداريين تمهيدا للعمل كمترجم . . وكان عمل المترجم ، عملا متواضعا ، ايامها .

وتخرجت فى هذا المعهد ، لاعمل موظفا بثلاثه جنيهات فى الشهر . .

لكننى لم اكن مقتنعا بذلك . .

وقررت دخول الجامعة . .

كنت اريد دراسة الطب ، او الحقوق ، لكننى تراجعت عن هذه الامنية ، بسبب مصاريف تلك الكليات التى لاتقدر عليها اسرتى . .

فقلت :

ـ ادخل المدرسة الحربية . .

وسيطر على كيانى ، من جديد ، المغامرة التى قام بها خالى ، على قدميه ، فى طريق الاربعين ، من الخرطوم ، حتى المدرسة الحربية وقلت ما فى داخلى لصديق العائله ابراهيم احمد عرابى . . ابن احمد عرابى باشا . . والذى كان باشكاتبا فى مديرية الخرطوم . .

فقال لى :

ـ هل تريد ان تصبح ضابطا ، حقا ؟

قلت :

ـ نعم !

قال في استنكار :
ـ هل تريد ان تكون ضابطا في بلد محتل ؟! . . ان الضابط في بلد محتل ليس الا مقاول انفار ، اورئيس « فعله » . . كل عمله الحفر والردم . . لا اكثر ولا اقل !
قلت وحلم المغامرة الى القاهرة يسيطر على عقلي :
ـ سأجرب حظي !
فلم يرد .
تركته لاستعد ، بيني وبين نفسي ، للسفر . الى . . القاهرة .
واعترف انني . . خفت . .
ليس بسبب الطريق ، ولكن بسبب قصر قامتي عن الطول المطلوب للقبول بالمدرسة الحربية . . وكنت اقل من ذلك الطول بسنتيمتر واحد . . وفعلت المستحيل ، بممارسة الالعاب الرياضية ، لكي انمي طولي واصبح لائقا . . لكنني فشلت . .
وكانت هناك مشكلة اخرى . .
كيف اصل من الخرطوم الى القاهرة »
هل اسير على قدمي ، في طريق الاربعين ، كما فعل خالي »
حسمت ترددي . . واحصيت النقود التي ادخرتها من عمل المتواضع ، كموظف . . وتوكلت على الله . . وقررت المغامره . .
كان معي ٩ جنيهات . . اعطيت امي منها ستة . . واحتفظت لنفس بالباقي ، لرحلتي .
وفي يوم ٥ يناير ١٩١٧ هربت ، دون ان اخبر احدا . . الى القاهرة . . الى مصر ام الدنيا .
ارتديت الزي الوطني السوداني ، وركبت الدرجة الرابعة في القطار ، والتي كانت ارخص ، لانها كانت مخصصة للسودانيين فقط . . ووصلت القاهرة بعد ستة ايام .
الى حلفا من الخرطوم في ٣ ايام بالقطار . . الى اسوان من حلفا بالباخرة في يومين . . والى القاهرة من اسوان في يوم .
وكانت رحلة من العذاب ، لكنني لم اشعر بذلك العذاب . . فالمسافة بين

الحلم والواقع . . بين المستقبل والحاضر . . بين المستحيل والممكن هى مسافة من الامل والعرق مهما كان طولها ومهما كان عذبها .

وصلت القاهرة فى ١١ يناير . . وذهبت للمدرسة الحربية . . وعرفت اننى وصلت متأخرا ١١ يوم . . وان الدفعة المطلوبة بدأت الدراسة فعلا . . واحسست اننى من مر عليه قطار الصعيد . .

كانت صدمة . .

لكننى لم اعلن هزيمتى . . وجاهدت حتى اتصلت بالسلطان حسين كامل . . ثم قابلت سردار الجيش الانجليزى ، سير وينجت باشا ، وعرفته بأبى وخالى . . كان اللقاء فى السفارة البريطانية . . وكان معه رئيس اركانه ، ميجور كامبل . . وقدمت له طلب الالتحاق بالمدرسة الحربية ، كنت كتبته على الالة الكاتبة . . فسألنى :

ـ من كتب لك الطلب على الالة الكاتبة ؟

ـ انا . .

ـ هل هذا اسلوبك فى الكتابة ؟

ـ نعم . .

ـ رائع جدا .

والتفت الى رئيس اركانه ، وقال :

ـ ميجور كامبل . . اكتب خطابا للمدرسة الحربية ليأخدوه فى الدفعه التالية .

وحملت الخطاب فى صدرى . . ولم اصبر حتى اصل الى المدرسة الحربية لاعرف مافيه . . ففتحته فى السكة . . وقرأته :

كان فيه عبارة واحدة :

« اقبلوا الطالب المذكور اذا كان لائقا ».

وفى المدرسة الحربية قالوا لى :

ـ يمكن نطلب دفعة فى ابريل او فى يوليو . . عد الى السودان . . وسنرسل لك تلغرافا على عنوانك فى الخرطوم ، لتحضر . .

واعطونى تذكرة مجانية للعودة الى الخرطوم . . وتذكرة اخرى من الخرطوم الى القاهرة .

وانقذتنى تذكرة العودة . . فقد نفذت الجنيهات الثلاثه التى كانت معى ، بعد ان بقيت فى القاهرة ، حوالى الشهر ، تقريبا ، عشت فيه على نوع واحد من الطعام هو الفول والطعمية والسلاطة الخضراء .

وعدت الى الخرطوم . .

وعشت اياما من الشماتة ، بسبب فشلى فى دخول المدرسة الحربية . . كانت الشماته من مستر سمبسون وغيره من المدرسين الانجليز فى كلية غوردن . . وكانت شماتتهم يومية . . اذ اننى لم اجد وظيفة اكسب منها الا بعمل الكلية التى يعملون فيها .

ولكن شماتتهم لم تستمر طويلا . .

ففى ٢٦ مارس ١٩١٧ جاء تلغراف من المدرسة الحربية ، لاحضر الى القاهرة .

وسافرت .

ونجحت فى الكشف الطبى . . فى الاختبارات الاولية الاخرى . . ولم تكن تلك الاختبارات لتزيد عن بعض التمارين الرياضية . . ومعرفة قواعد الحساب . . وقطعة من الاملاء . . فطلعت الاول . . وقال لى مدير المدرسة الحربية ، هربرت باشا :

ـ مبروك نجيب . . اتمنى ان تكون مثل والدك .

وعدت للسودان مرة ثانية فى انتظار البرقية التى تحدد لى ميعاد كشف الهيئة . . الكشف الذى سيكتشفون فيه اننى اقصر من المطلوب بسنتيمتر واحد . .

وجاءت البرقية . .

وكانت الرحلة هذه المرة على اعصابى . .

ففى المسافة بين حلفا واسوان دخلت السفينة فى الطين . . غرزت . . لمدة ٢٤ ساعة . . فارسلت برقية الى مدير المدرسة الحربية ، اعتذر فيها عن تأخرى عن الموعد يوما وقلت له السبب : المركب تعطلت .

ووصلت أسوان ، ورحت لاستقل القطار الى القاهرة ، فاذا بالقطار معطل ست ساعات ، بسبب انقلاب قاطرة على الشريط . . فارسلت برقية اخرى . . وذكرت السبب ايضا .

ونزلنا الاقصر لنغير القطار . . واذا بالقطار الذى سنركبه يتأخر هو الآخر . . فارسلت برقية ثالثة . . وذكرت السبب الجديد .

واخيرا . . وصلت القاهرة . .

وكان فى انتظارى على المحطة صديق لابى اسمه محمد السيد سماحة ، كنت قد ارسلت له تلغرافا ، اطلب منه ، فيه ، ان يحضر لى بدلة جديدة لكى ارتديها فى كشف الهيئة . .

واحضر الرجل البدلة . . ودخلت الاستراحة لألبسها . . لكنها كانت واسعة جدا . . ومع ذلك رحت بها كشف الهيئة .

اما المدرسة الحربية وجدت مئات الطلبة الذين لم ينجحوا فى كشف الهيئة ، يسدون الابواب ومن الصعب اختراقهم . . ماذا افعل ؟ . . طلعت بسرعة على اكتافهم ، وارتكنت على السور ، ورحت اصرخ بأعلى صوتى :

« انا الطالب الى جاى من السودان . .

فجاء لى « او نباشى » ما ازال اذكر اسمه ، وهو عبد الله النمر ، وقال لى :

ـ انت فين . . تعالى . .

ونزلت من على السور ، ورحت معه ، وتحت شجرة توت كبيرة طلب منى ان اجلس وانتظره . .

وقال :

ـ لاتتحرك من هنا حتى لاتضيع فى الزحام . .

وكانت الاوامر التى اصدرها رئيس اركان حرب المدرسة الحربية ، على باشا فهمى ، وكان برتبة صاغ ، هى : ان انتظر تحت الشجرة ، حتى اكشف هيئة لوحدى . .

وانتظرت الى ان انتهوا من الطلبه الآخرين . . ثم طلبونى . . جريت بالخطوة السريعة . . واديت لهم التحية العسكرية كما لوكنت فى الجيش فعلا . . نظر لى هربرت باشا ، وقال :

ـ انت قصير ! !

قلت :

ـ انا ايضا صغير فى السن ، وامامى فرصة للنمو . . وابى كان قصيرا مثلى ، ثم مرة واحدة . . انفرد !

وقال مستر براين الذى كان معلما لأبى من قبل :

ـ فعلا !

ونظر هربرت باشا الى د . كارول المسئول الطبى فى المدرسة ، فوافقه . ودخلت المدرسة الحربية .

كانت الدراسة فى المدرسة ، فى تلك الايام ، مقسمة الى خمس فرق . . الفرقة الخامسة ، ثم الرابعة ، فالثالثة . . وهكذا حتى الاولى . . ثم التخرج . . ومدة الدراسة فى كل منها ستة اشهر . .

دخلت الفرقة الخامسة لكننى لم امكث فيها سوى ٢٤ ساعة . . كانت معلوماتى تؤهلنى للانتقال ، فورا ، للفرقة الرابعة . . وبعد شهرين ونصف دخلت امتحانا . . وطلعت الاول وكان الفرق بينى وبين الثانى ١٠٧ درجات فى العلوم العسكرية والمدنية . . فنقلونى الى الفرقة الثالثة .

وفى العطلة الصيفية احتاج الجيش الى ضباط ، فصدرت الاوامر بترقية تسعه من طلبه الفرقة الاولى . . فاستتبع ذلك نقلى ، انا وخمسة طلبة معى ، الى الفرقة الثانية ، دون ان نمر على الفرقة الثالثة .

فى يناير ١٩١٨ جلسنا نؤدى امتحان الفرقة الثانية . . وكان هو نفسه امتحان الفرقة الاولى لان مقرر الدراسة فى الفرقتين كان لايختلف اطلاقا فى شيء . . سوى فى بعض التدريبات العملية المخصصة لطلبه الفرقة الاولى ، وتشمل ممارسة الادارة عمليا ، والتدريب على ركوب الخيل ، وضرب النار ، ومشروعات التكتيك المبسطة . .

وحصلت فى الامتحان على ٩٧٧ من ١٠٠٠ درجة . . وتفوقت بهذة الدرجات على اول الفرقة الاولى ، بنحو ٦٣ درجة . . وكان « باشجاويش » المدرسة محمد فؤاد ، الذى اصبح حكمدار بوليس السوارى بعد ذلك .

وكانت درجاتى مفاجأة مذهلة هربرت باشا . . فقال :

- هذه درجات قياسية فى تاريخ المدرسة الحربية !

وقرر ان اتخرج من طلبة الفرقة الاولى . . بدلا من طالب بالفرقة الاولى ، لم يحصل على الدرجات المطلوبة للتخرج . .

وهنأنى الرجل بنفسه . . لكنه فوجيء بى ابكى . .

فقال :

- هل هذه دموع الفرح يانجيب ؟

قلت :

- لا ياسيدى ، هل دموع حقيقية !

قال :

- لماذا ؟

قلت .
ـ لا ننى كنت اود ان استكمل دراستى . . اننى لم اضرب نارا . . ولم اركب خيلا . . وسأتخرج ضابطا جاهلا . . وسأكون فى ذيل ترقيات النشرة العسكرية . ولن تتاح لى فرصة اختيار السلاح الذى اريده . . ولن احصل على سيف الشرف الذى يمنح لباشجاويش المدرسة !!
قال :
ـ لاتكن احمق . . لقد رقيتك لانك ممتاز . . وفى الجيش ستستكمل تدريباتك العسكرية . . وامامك الفرص كبيرة للحصول على نياشين اهم من سيف الشرف الذى يحصل عليه باشجاويس المدرسة !!
الشىء الذى لم اقله لهربرت باشا فى هذا الحوار ، هو اننى كنت احلم ان اكون باشجـ يش المدرسة ، كى احقق ماكنت ارمى اليه ، وهو معالجة الغطرسة ، واللغة القاسية ، التى كان يتعامل بها ضباط الصف مع زملائهم الطلبه . .
واذكر اننى وقفت ، ذات يوم ، مع باقى الطلبه امام باشجاويش المدرسة لاداعى لذكر اسمه وكان غاضبا ، فقال لنا :
ـ انتم حثالة المدارس ، لو كان فيكم رجل ، فليتقدم خطوتين للأمام . .
فتقدمت اربع خطوات . .
وقلت :
ـ اننى عندما التحقت بهذه المدرسة لم اكن اتوقع ان اسمع ذلك .
فشكرنى الباشجاويش لجرأتى وصرفنى . .
كنت اريد فعلا ان ابقى فى المدرسة فترة اخرى ، وان اكون باشجاويشها . . لكن ليس كل مايتمناه المرء يدركه . . وتخرجت ضابطا ، قبل الاوان ، ورحت المشاه ، او « البيادة » بلغة تلك الايام .
بل انا رحت آخر كتيبة فى المشاة . . الكتيبة ١٧ ، التى خدم فيها ابى من قبل .
وبالمناسبة ، كانت المدة الى قضيتها فى المدرسة الحربية ، هى نفسها المدة التى قضاها ابى فيها . . وهى ١ شهرا .
وعلى الفور سافرت الى الخرطوم ، لأبدأ حياتى العملية كضابط فى الجيش المصرى .
كان ذلك فى ١٩ فبراير ١٩١٨ .

وكان عمرى يومها ، بالضبط ، ١٧ سنة .
وهو نفس العمر الذى اصبح فيه ابى ضابطا .
وفى الخرطوم ، هذه المرة ، بدأ فصل جديد فى حياتى .

الفصل الثانى

سنوات الخدمة

- بعد ستة شهور كضابط أدركت اننى ملاحظ عمال تراحيل .
- تحديت الجيش والانجليز والسرايه وشاركت علنا فى ثورة ١٩١٩ .
- ورطة مع وزارة الداخلية بسبب ستة قروش .
- مشوار الثائر السودانى « على عبد اللطيف » بدأ فى « اللواء الأبيض » وانتهى فى الخانكة
- دعوت الثوار السودانيين على الغداء فى قصر الحرس الملكى بقصر عابدين .
- الملكة نازلى تصورت أننى « باشا » وطلبت زيارتى فى بيتى .
- النحاس قال لى : أفضل أن يكون الجيش بعيدا عن السياسة .
- أول لقاء لى مع الملك فاروق كان بالمايوه والشبشب .

كل شيء هادىء فى الخرطوم .
الحياة . . البشر . . الشوارع . . ووحدات الجيش .
لكننى . . بمجرد أن سلمت نفسى فى الكتيبة ١٧ ـ مشاة بالخرطوم ـ بحرى ، حتى انقلب الهدوء الذى أحسست به ، إلى غضب . . صدر الأمر لى ، ولأربعة من الضباط ، أن نتحرك مع ٤٥٠ جنديا ، من الكتائب ـ ٤ ، ١٣ ، ١٧ ـ مشاة ، وفصيلة من الاستحكامات ، بقيادة الملازم عبد الله خليل ، للسفر فورا إلى منطقة وادى بناجا بالقرب من شندى على بعد ٣٠٠ كيلومتر . . للعمل فى مد وتقوية جسور السكك الحديدية التى كانت مهددة بمياه الفيضان . .

وفى هذه اللحظة فقط ، أدركت قيمة كلام ابراهيم أحمد عرابى . . وتأكدت أن الضابط فى بلد محتل ليس أكثر من مقاول أنفار . ورئيس فعلى . لقد تحققت نبوءته ، أسرع مما كنت أتصور !

سته شهور كاملة ، فى بداية خدمتى ، وأنا لا أرى سوى صورة واحدة . . الجنود يحملون المعاول والمقاطف . . الضباط يقفون وسطهم . . والأتربة تغطى الجميع . . أتربه الحفر والردم وليست أتربة المعارك .
نفس الصورة ، بالتأكيد ، كانت أيام حفر القناة . .
وأحسست أن مستقبلى فى الجيش أصبح مهددا . . وأحسست أننى يجب أن أغير مسار حياتى . . وأحسست أنه لا مفر من العودة للحياة المدنية من جديد . . ولم يكن أمامى للخروج من مطب الجيش الذى وضعت نفسى فيه سوى أن أكمل دراستى . .

كان على أن أحصل على الكفاءة ، ثم البكالوريا . . ومن يدرى ، فربما أنتسبت إلى مدرسة الحقوق ، وأصبحت محاميا ، أو قاضيا . وبدأت فى المذاكرة مرة إخرى . .

وفى نفس الوقت ، طلبت نقلى من المشاه ، إلى سلاح آخر . . السوارى (الفرسان) . . أو المدفعية (الطوبجية) . . وفوجئت بأنهم يوافقون على نقلى إلى السوارى . . فى نفس المكان . . فى شندى . .

لكننى كنت كمن خرج من حفرة ليقع فى بئر .

ففى السوارى كان القائد الانجليزى لا يحبنى .. لله فى لله وكان اسمه سميث .. وضاعف من هذه الكراهية ، أننى أصلا من المشاة .. يعنى من طينة أقل من طينة السوارى ..

ولأننى لم أكن أعرف عادات السوارى ، ظللت فى خيمتى حتى أسمع البروجى فى الصباح ، استعدادا للطابور كما فى المشاة .. لكن البروجى لم يضرب .. وخرجت ارض الطابور لأعرف سر تأخره .. فوجدت سميث أمامى .. وإذا به يقول لى فى سخرية :

ـ صباح الخير يا باشمفتش !!

قلت له :

ـ ليه الأسلوب ده ؟

قال :

ـ لأن عندنا فى السوارى الضابط لابد أن يكون فى اصطبل الخيل من الساعة الرابعة فى الفجر وأنت حضرتك لاتزال فى خيمتك إلى الآن !

قلت :

ـ لكننى مستجد فى السوارى ولا أعرف مثل هذة الأمور ..

ومن يومها ظل يترصدنى .. ويضعنى تحت ضرسه ..

وبعد أن ارتبطت بحصان لطيف وأصبحنا أصدقاء جاء لى ليقول :

ـ لا تركب هذا الحصان مرة أخرى !

ـ لماذا ؟

ـ لانه حصانى أنا !

ـ بكم اشتريته ؟

ـ هذا الحصان مخصص لى من الآن .. هذا أمر !

ـ هذا حصانى ، وسأظل أركبه مهما حدث !

وانتهى النقاش بيننا فى مكتب قائد عام السوارى .. الذى ترك موضوع الحصان ، وقال لى :

ـ سوف تنضم إلينا فى السوارى ، ولكننا سنؤخر ترقيتك . . وسنقدم عليك أربع صولات علينا أن نرقيهم إلى ضباط قبل أن يخرجوا على المعاش . .
ورفضت . .
وعدت إلى المشاة .
وعدت إلى الخرطوم .

وبعد أيام من وصولى الخرطوم ، جاء لى إبراهيم عبود ، الذى كان زميلى فى الوحدة ، وكان زميلى فى المدرسة الحربية ، وكان زميلى فى فريق الملاكمة ، وأصبح رئيسا لجمهورية السودان فيما بعد ، وقال لى :

ـ هل سمعت بما يجرى فى بلدكم
ـ لا . .
ـ بلدكم فيها ثورة . .

كان إبراهيم عبود يقصد ثورة ١٩١٩ . . بالطبع .

وقبل أن يكمل الرجل كلامه ، ويصف لى ماسمعه ، رحت للقائد ، وطلبت منه اجازة ، لأسافر إلى مصر .

وسافرت إلى السويس بالبحر عن طريق بور سودان . . ومن السويس إلى القاهرة بالقطار . .

فى محطة القطار ، مر أمامى أميرالاى انجليزى ، اسمه بيرسى سميث ، قائد الكتيبة الأولى للجيش المصرى . . كان سمينا مثل البرميل .. وكان مغرورا مثل الديك الرومى . . مر أمامى . . فلم أؤد له التحية العسكرية . . كنت مرهقا . . ومرتبكا بسبب تأخر حقائبى . . وكنت لا أجد مبررا لتحيته والبلد فيها ثورة ضد الانجليز . .

جاء لى الرجل ، وسألنى :
ـ لماذا لم تؤد لى التحية العسكرية ؟
قلت له :
ـ لأن بيننا وبينكم خصومة والبلد فى حالة ثورة ضدكم ولو أديت لك التحية

لاحسست بالعار وأتعرض لاحتقار المدنيين الذين يملأون المحطة من حولنا . . ثم إن المحطة كالميدان العام لاتحية فيه بين الرتب .

قال فى غضب :

ـ من علمك هذا الكلام ؟

قلت :

ـ قوانين الجيش !

سألنى :

ـ ما هى وحدتك ؟

قلت :

ـ الكتيبة ١٦ ـ مشاة .

وأعطيت له ظهرى ، وانصرفت ، دون تحيته ، فاذا به ينفجر فى وجهى ويقول :

ـ إذا لم تحيني فسأضعك تحت الايقاف العسكرى فورا :

ولأن أمى وإخوتى كانوا فى انتظارى . . ولأننى كنت لا أريد إفساد اجازتى . . ولأننى كنت أريد أن أرى عن قرب ، وبسرعة ، مايحدث فى شوارع القاهرة بعد أن انفجرت فيها الثورة . . قلت له :

ـ أحييك بشرط . . أن ترد لى التحية بنفس الطريقة .

وافق . .

وتبادلنا التحية كما اتفقنا . .

وانصرفت . .

لكن . . بعد ستة أيام ، فوجئت بخطاب استدعاء من هربرت باشا ، قائد منطقة القاهرة ، والمدير السابق للمدرسة الحربية ، لكى أحضر إلى مكتبه .

وفى مكتب هربرت باشا عرفت أن الأميرالاى بيرسى سميث ، قدم فى شكوى . . فرويت ماحدث بيننا . . وتوقعت عقابا صارما على ما فعلت . . لكن هربرت باشا أنهى الموضوع ببساطة وقال لى :

ـ إذا رأيته مرة اخرى فلاتتردد فى تحيته :

وخرجت ليلتف حولى الضباط . وليسألونى :

ـ عملت إيه ؟

فضحكت . .

وكان أكثر الضباط قلقا على ضابط اسمه على فهيم ، كان فى مكتب هربرت باشا . . وساعة أن وصلت عنده ، قال لى :

ـ وقعتك سودة . . هربرت باشا النهاردة زعلان .وأنصحك ألاتدخل عليه الآن .

وعندما دخلت عل هربرت باشا ، قال :

ـ ربنا يستر !

وعندما خرجت سليما من عنده ، قال :

ـ احمد ربنا دون انقطاع .

فقلت :

ـ الحمد لله .

فى ذلك الوقت كان الغضب يغلى فى عروق مصر . . وكانت القاهرة تمتلىء بوفود البشر الذين جاءوا يعبرون عن سخطهم لنفى سعد زغلول ، من كل ارياف وصعيد ومدن مصر . .

ولازلت أذكر إلى اليوم هتافات المصريين المدوية كالرعد : سعد . . سعد . . يحيا سعد ولازلت أذكر مظاهرات النساء والرجال . . الصغار والكبار . . شيوخ الأزهر وقساوسة الكنيسة . . ولا زلت أذكر أكوام الجثث والحجارة وعربات الترام المقلوبة فى الشوارع . . على أن الصورة التى لاتزال شاخصة أمامى إلى الآن . . كانت صورة شاب صغير . . غالبا ما يكون أحد تلاميذ المدارس . . كان راقدا عل الأرض . . وهو ينزف دماءه بعد أن أصيب برصاصة من عسكرى انجليزى . . ورغم ذلك كان يرفع قميصه المصبوغ بدمه ، ويلوح به فى الهواء على طول ذراعه ، وكأن القميص راية يستنفر بها باقى زملائه ليواصلوا الكفاح . .

إن هذا المشهد وحده يكفى لأن أحزن على تاريخ مصر ، الذى تصور البعض أنه لم يبدأ الا ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وكان هذا التصور الأبله عارا على ثورة يوليو .. وعلينا جميعا
فمن لا أصل له ،لا أوراق له ..
ومن ينكر ماضيه ، لايعترف أحد بمستقبله ..
لذلك ، لابد أن نعترف بأن ثورة ١٩١٩ ، كانت من أهم الثورات
الشعب المصرى .. وأنا أشهد بذلك .. خاصة أننى شهدت أحد
تفاصيلها .. وتابعت حركتها ..
ولا أدعى أننى اشتركت فيها .. وإنما كل مافعلته كان مجرد تقرب من
محاولة للانتهاء إليها ..

فقد ذهبت مع مجموعة من الضباط الصغار ونحن نرتدى ملابسنا
ونعلق رتبنا ، إلى بيت الامة ، لنعبر عن احتجاجنا ورفضنا وغضبنا
زغلول .. وجلس بعضنا على سلالم البيت .. كنت منهم .. لا نخ
علينا .. ولا نخشى محاكمتنا .. ولا نخشى الكاميرات التى كانت لا
التصوير ..

وقد التقطت لى صورة وأنا جالس على سلالم بيت الامه ، وأنا أرفع
والتقطت لى صورة أخرى وأنا أرفع صورة سعد زغلول ..

وكان جزاء الضابط الذى يفعل مثل هذه الأمور الخروج من الجيش
لم نكن نفكر فى ذلك .. بل كنا نرى أن الجيش لايمكن أن ينفصل
.. خاصة فى أيام الغضب والاحتجاج والثورة ..
وكنا نرى أن مافعلناه كان أبسط شىء يمكن أن نفعله لمصر .

وكان إحساسى بأن مافعلناه كان بسيطا ، هو الذى دفعنى لمضاعفة
بعد انتهاء الاجازة ، وعودتى للخرطوم ، فى الجمعية السرية التى
الضباط الوطنيين .. وكان أغلب أعضائها لايعرفون بعضهم

وفى يوم من الأيام ، جاءنى من قيادة هذه الجمعية أمرا بالوقوف
الضباط بالخرطوم ، خلف منضدة صغيرة ، وإقناع كل ضابط يدخل

أن يوقع على البرقية التى قررنا إرسالها إلى لجنة ملنر . . احتجاجا على نفى سعد زغلول ورفاقه . . والإصرار على عدم التفاوض إلا معه . . وتأييد حركة الشعب المصرى . .

ووقع على البرقية عشرات الضباط .

وفى اليوم الثانى أصدر سردار الجيش البريطانى فى السودان أمرا بإغلاق النادى بالضبة والمفتاح ، وأصدر أمرا آخر باعتقالنا . وفى المعتقل . . كانت فرصتنا كبيرة لنتعرف على زملائنا فى الجمعية السرية . . . . أو على بعض منهم . .

تعرفت على اليوزباشى احمد الصاوى (أصبح وكيلا لوزارة الحربية) ، واليوزباشى محمود هاشم (أصبح مديرا لسلاح الحدود) ،واليوزباشى عبد الوهاب البهنساوى (أصبح قائداً لمنطقة القاهرة العسكرية) ، واليوزباشى أحمد عطية ، والملازم أول طبيب سليمان أباظة . . وغيرهم . . وبعد أن أفرج عنا ، لم يتوقف نشاطنا . .

وكان على أن أكتب المنشورات وأوزعها على زعماء السودان ورجاله الكبار . .

وكان أسلوب التوزيع بسيطا . . من تحت الأبواب .

لكن هذا النشاط سرعان ماتوقف ، بعد أن سرحوا الكتيبة التى كنت أخدم فيها . . وبعد أن نقلت إلى فرقة العربة الغربية عام ١٩٢١ . . بالقاهرة .

كان على مهمتنا فى هذه الفرقة أن نركب بغال ونلف بها حول بعضنا البعض .

فقررت أن أتقدم إلى امتحان شهادة الكفاءة . .

وأن أطلب نقلى إلى البوليس . .

وحصلت على شهادة الكفاءة ودخلت مدرسة البوليس لمدة شهرين ، لدراسة القانون الإدارى ، ولوائح البوليس ، تمهيدا للعمل فى أقسام القاهرة . .

وبعد أن تخرجت من مدرسة البوليس ، خدمت فى قسم عابدين (٥ شهور) وفى قسم مصر القديمة (٤ شهور) ثم فى قسم بولاق (٧ شهور) . . وطوال هذه الشهور ، تعرفت على قاع القاهرة . .

وأقتربت أكثر من الناس . .

واقتنعت بعد ذلك ، بضرورة العودة للجيش . .
ووراء هذا الاقتناع قصة مسلية ، وقعت لى فى قسم مصر القديمة . .
فأثناء مرورى فى دائرة القسم فوجئت بولد يصرخ ، ويبكى ويقول :
ـ سرقونى . . سرقونى . .
وعندما سألته :
ـ ماذا حدث ؟
قال :

ـ الحرامية اعتدوا على وسرقوا طاقيتى وبها ٦ قروش .
وعلى الفور فتحت له محضراً ، واعتبرت ماحدث جناية ـ سرقة بالإكراه . . فصاح أومباشى الدورية :
ـ هل هذا كلام ياأفندم . . محضر وجناية ونيابة على ٦ قروش !
ووجدت أن عنده حقا ، فقطعت المحضر من دفتر الأحوال . . وعندما عرف المأمور ماحدث ، طلبنى الساعة الثالثة صباحا ، وقال لى :
ـ إن تمزيق دفتر الأحوال جناية أشد !
وهكذا أردت أن أخرج من حفرة فاذا بى احفر لنفسى حفرة اكبر منها .
وتركت البوليس . .
وعدت للسودان مع الأورطة ـ ١٣ السودانية . . وخدمت هذه المره فى واو وفى بحر الغزال .

كانت مشكلة السودان ، العريض ، متعدد الأطراف ، ولاتزال ، هى مشكلة الطرق والمواصلات . . فقد كانت المسافة بين الخرطوم وبحر الغزال ، مثلا تستغرق ٣٥ يوما ، منها ١٠ أيام تمشيها على القدمين . . وكان من الصعب على الصغار أن يمشوا على أقدامهم . . فأجرت حمارين . . ودفعت ٣ جنيهات . . وقررت أن يركبها أولاد العساكر . . وأن أمشى أنا مثل باقى العساكر على قدمى . . أكثر من ١٠٠ كيلو متر . . كل يوم ١٠ كيلومترات.
وكان مرتبى لايزيد على ١٢ جنيها . . يعنى دفعت ربعه فى إيجار الحمارين . .
وكان على أن أعيش بالباقى .
لكننى كنت سعيدا فى بحر الغزال . .

كنت فى أوقات فراغى أمارس هوايتى القديمة . . هواية الصيد .
وكنت فى المساء أذاكر دروس البكالوريا على مصباح غاز .

وبعد أن أنهيت تدريب ٤ دفعات من الجنود ، جاء لى قومندان الأورطة ، وقال لى :
- ماذا تطلب مكافأة على هذا المجهود الكبير ؟
قلت :
- أريد أن أنضم إلى وحدة مدافع الماكينة لآخذ فرقة على أستخدام الأسلحة الأتوماتيكية .
فوافق . .

وسافرت إلى مقر الوحدة فى مالكال . . وكانت المسافة بينها وبين بحر الغزال تستغرق ١٧ يوما . . قضيتها ماشيا على قدمى . . وما أن وصلت حتى فوجئت بالقائد ، وكان اسمه ناب بك يرفض ، ويقول :
- نحن لانقبل المصريين !

كان هناك ، فى الجنوب ، رفض للشمال ، ورفض للمصريين . .
فقلت :
- هذا كلام فارغ . . أنت ضابط مثلى فى الجيش المصرى ، حتى ولوكنت انجليزيا وإذا رفضت قبولى ، فسأرسل ببرقية إلى الملك . . فلا فرق بين الضابط من مصر أو من السودان . .
فقال :
- يقبل استثنائيا !
وطلعت الأول . . وطلب أصدقائى أن أدعوهم على الغداء . . وأثناء تناولنا الطعام ، جاء تلغراف لى يبلغنى أننى نقلت إلى الحرس الملكى فى القاهرة . .
كان ذلك فى ٢٨ أبريل عام ١٩٢٣ .
وكان الملك هو الملك فؤاد الأول .

وذات يوم ، فوجئت بكل جنودى فى الحرس بدون شوارب . .
فى الصباح كان تحت أنف كلٌ منهم شارب وبعد الظهر كانوا بدونه
وتعجبت لهذا القرار الجماعى ، المفاجىء الذى اتخذوه . .
وسألتهم السبب .

فقالوا لى :

ـ لقد فعلنا ذلك حفاظا على كرامتنا ، التى تدعونا دائما بالحفاظ عليها . . فقد جاء أحد الضباط وأمسك بشنب الشاويش ، وسخر منه . . وسبه . . قال له : ده شنب فالصو . . فخشينا أن يفعل بنا مثلما فعل بالشاويش . . ونحن لا نحتمل الاهانة . . فحلقنا شواربنا .

إلى هذا الحد كانت كرامة البسطاء تؤلمهم . .

إلى حد أن يحلق الرجال شواربهم ، التى كانت فى ذلك الوقت عنوانا للصرامة والخشونة . . والرجولة .

وإلى هذا الحد كنت أدعوهم للحفاظ على أحاسيسهم من المساس بها .

لقد كانت الكرامة والرجولة وقبول التحدى هى أشهر خصال الشعب المصرى . . من القائد إلى الجندى . . ومن الزعيم إلى رجل الشارع . . هذا ما تربينا عليه . .

وهذا ما علمناه لجنودنا . .

ولا أبالغ إذا قلت إننا كنا المثل الأعلى الذى يمشون وراءه . . ولم نكن لنخيب آمالهم فينا . . أبدا .

وليس هذا مجرد كلام من الذى شبعنا منه خلال السنوات الماضية ، وإنما كان حقيقة ، عندى الدليل عليها .

ففى أثناء خدمتى بالحرس الملكى ، وقعت أحداث ثورة على عبد اللطيف فى السودان ، عام ١٩٢٤ . . وأنا أعرف على عبد اللطيف . . كان طالبا بالمدرسة الحربية السودانية ، وكنت أنا طالبا بكلية غوردن . . والتقينا فى الخرطوم . . وأصبحنا أصدقاء وعندما أصبحت ضابطا فى الكتيبة ١٧ ـ مشاة كان هو من أبرز قواد الكتيبة ـ ٩ !!

وفى يوم فوجئت به يطالب الجيش السودانى بأن يقسم يمين الولاء لعرش مصر ، فاقتربت منه أكثر . . وزادت علاقتى به .

وفى مايو ١٩٢٢ ارتفعت حزارة مطالبه عشر درجات وأذاع منشورا حاميا ، تحت عنوان مطالب الأمة السودانية طالب فيه باستقلال السودان عن انجلترا وسرعة اتحاده مع مصر . . فقبض عليه وقدم لمحاكمة عسكرية بريطانية ، بتهمة

التحريض على التمرد وإثارة الشغب والقلاقل ، وخرج من السجن . . وفصل من الجيش . . وكون جمعية اللواء الأبيض .

أعلن على عبد اللطيف هذه الجمعية فى اجتماع عام بالخرطوم . . رفع فيه علما . . رسم عليه خريطة وادى النيل . . وفى ركنها رسم علم مصر الاخضر . . وكتب : الى الامام .

كان يقصد : إلى الأمام إلى مصر :

وفى ٩ أغسطس ١٩٢٤ خرج بعض الضباط ، يقودون طلبة المدرسة الحربية ، وهم يحملون السلاح ، إلى بيت على عبد اللطيف . . ويهتفون بسقوط الانجليز . . ووقعت الاشتباكات بين الطرفين . . وانتهى الأمر بسجن على عبد اللطيف . . ثلاث سنوات .

ولم يهدأ السودان بسجن على عبد اللطيف . .

فقد غضب سعد زغلول على سجنه ، وأرسل للحكومة البريطانية برقية احتجاج على ذلك ، وأعلن فيها أسفه وحزنه على الأحداث التى وقعت فى السودان . .

وكانت برقية سعد زغلول بمثابة البنزين الذى يسكب على النيران . . . فاشتعلت الأحداث الدامية مرة أخرى فى الخرطوم :

وردت الحكومة البريطانية على البرقية بزيادة قواتها فى السودان ، وفوضت حكومته بابعاد أى وحدة من وحدات الجيش المصرى ، على أرضها ، إذا شمت منها عدم الولاء لها . .

وتحول الرد البريطانى على سعد زغلول ، إلى إنذار لحكومته ، بسحب وحدات الجيش المصرى من السودان ، وتحويل الوحدات السودانية التابعة له إلى قوة خاضعة للحكومة السودانية وحدها . .

كان ذلك فى نوفمبر ١٩٢٤ . .

وكان السبب هو مصرع السردار سيرلى ستاك فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٤ .

ورفض سعد زغلول الإنذار وقدم استقالته بعد يومين .

وفى اليوم الثالث قامت القيامة فى مصر والسودان .

فى مصر أصدر اللنبى بيانا ، طالب فيه بالاعتذار الرسمى عن مصرع السردار

وطالب بغرامة مالية تصل إلى ٥٠٠ الف جنيه (حوالى ٢ مليون و ٤٣٠ ألف دولار فى ذلك الوقت) ، وطلب منع المظاهرات السياسية ، والبقاء على المستشارين الانجليز الذين قررت الحكومة المصرية الاستغناء عنهم ، وإلغاء الحظر على مياه رى مشروع الجزيرة (٣٠٠ ألف فدان) الذى كان الانجليز يسيطرون عليه ، دون مراعاة لكمية المياه التى تصل الى مصر .

وفى السودان أسرعت بريطانيا بمحاصرة القوات المصرية فى الخرطوم فتمردت الكتيبة ـ ٣ مشاة ، ورفضت العودة إلى مصر إلا بأمر من وزير الحربية المصرى ، وتمردت الكتيبة ـ ١١ ، السودانية ، وحاولت ، الانضمام لوحدات الجيش المصرى هناك ، فتصدت لها القوات البريطانية واشتبكت معها فى قتال لم ينته إلا عند نفاذ ذخيرتها ، ومصرع قائدها عبد الفضيل ألمظ .

كأغلب المصريين ، احسست بالندم على اغتيال السردار ، وكنت من المؤيدين لعقاب أى شخص ساهم فى ارتكاب هذه الجريمة . . لكننى فى نفس الوقت ، حقدت على اللنبى ، وعلى مطالبه التى نفذت ، لأننى أحسست أنها كانت حجة ليفرض هذه المطالب التى لم يكن له الحق فيها ، أكثر منها عقابا على جريمة قتل مهما كانت شخصية القتيل .

وضاعف من سخطى على اللنبى ما فعله الانجليز بنا بعد بيانه الشهير . . أعدموا ثلاثة ضباط فى السودان . .

وفصلوا ١٧ آخرين لأنهم رفضوا أن يقسموا يمين الولاء للحاكم العام وفروا إلى مصر . .

وفر معهم عدد كبير من طلبة المدرسة الحربية الذين سجنوا بعد الاحداث فى سجن كوبر بالخرطوم بحرى . .

وفر إلى مصر أيضا ، عرفات محمد عبد الله ، وكيل جمعية اللواء الأبيض وزميلى القديم فى كلية غوردن ، الذى اعتقل فى القاهرة لشبهه القوى بعبد الخالق عنايت ، أحد المتهمين فى قضية مصرع السردار .

واعتقل معه ، من أعضاء الجمعية فى مصر : محمود محمد فرغلى ، والشيخ محمد زكى عبد السيد ، القاضى الشرعى ، والمهندس محمد سر الختم ، والرحالة أحمد حسن مطر .

وقد عرفت بأمر اعتقالهم وانا فى الحرس الملكى . .
وعرفت أنهم فى سجن الاستئناف ـ بباب الخلق . .
فقررت زيارتهم . .
رحت لمدير السجن ، وكان اسمه صفوت بك ، لأطلب الإذن بالزيارة . .
فقال لى الرجل :
ـ يابنى أنت ضابط فى الحرس ، ولابس علاماته ، وترتدى بدلته ، وتطلب زيارة ناس مقبوض عليهم بتهمة التمرد والشغب . . انت كده تروح فى داهية! ،
قلت له :
ـ لكنهم أصحابى ، وأصدقائى من أيام الطفولة ، ومن أيام المدارس ، ولا يمكن مهما جرى أن أتخلى عنهم .
قال :
ـ أنا سأبلغهم بسؤالك . . لكن أرجوك . . أنصرف الآن . . هنا أنت فى خطر . . وأنا أيضا !
قلت :

ـ لكن . . . . .
ولم أكمل كلامى . .
قام الرجل من على مكتبه . . وترك الغرفة . . فانصرفت . .
ولم أجد مفرا من انتظارهم حتى يخرجوا . .
وعندما خرجوا ، دعوتهم لتناول الطعام ، فى مقر الحرس الملكى ، داخل قصر عابدين . .
وكان هذا الطعام هو الطعام الأخير لى فى الحرس الملكى . .
طردت من الحرس الملكى . .

لكننى لم اعتبر ذلك عقابا . . فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . . . فقد كان خروجى من الحرس ، فرصة لى لكى أترصد اخبار على عبد اللطيف ، حتى عرفت أنه فى القاهرة . . لكننى عندما عرفت هذا الخبر ، لم أفرح . . لأنه لم يكن حرا . . ولم يكن مسجونا . . وإنما كان فى مستشفى الأمراض العقلية . .

ففى أثناء سجنه فى السودان كان معه فى الزنزانة ، ضابط معتقل آخر ، أسمه عبده بخيت . . ضربه على رأسه بجردل ، دون معرفة السبب ، ويبدو أن هذا الحادث أثر على قواه العقلية . . ويبدو أن الانجليز وجدوها فرصة للتخلص منه ، فاتهموه بالجنون ، ونقلوه إلى مستشفى المجانين بالقاهرة .

ورحت لزيارته .

لكننى لم أر عليه أى علامة من علامات الجنون .

وخرجت من عنده والدموع تقفز فى عينى ، وقلبى يهتز بين ضلوعى ، وحسرتى تجعلنى لا أتبين الطريق أمامى بوضوح .

ولم تكن هذه الزيارة هى نهاية المطاف فى علاقتى بهؤلاء المناضلين . .

بل إن نقلى من الحرس ، ضاعف من حريتى فى الاتصال بهم . .

وكان من بينهم الأميرالاى السيد فرح ، ابن عمدة دلقو ، الذى كان يعلمنا ونحن صغار ، أصول القراءة والكتابة ، أيام كان أبى مأمورا لحلفا ، وكان السيد فرح صديق طفولتى ، وكان من أبطال أحداث ١٩٢٤ . . الذين حكموا عليهم بالإعدام . . فهرب لذلك من السودان إلى مصر . . وعاش فيها متخفيا حتى ساعدته على الهرب إلى ليبيا . . وظل بها حتى عاد إلى مصر ، بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وأصبح مسئولا عن إدارة منطقة الساحل الغربى فى مرسى مطروح .

على أن أيام الحرس الملكى ، كانت من الأيام التى جعلتنى أقترب من فساد الحكم فى مصر ، وأعرف الكثير من خباياه ، وأسعى بكل قوتى للتخلص منه . . .

فى أيام الحرس ، كنت ضابطا صغيرا ، برتبة ملازم أول . . . وكنت لا أرى الملك فؤاد إلا نادرا . . بالصدفة ولمدة ثوان . . لكنى عرفت عنه الكثير بحكم وجودى فى قصر عابدين . .

عرفت أنه لم يكن يحب فاروق . .

وعرفت أنه كان لا يعرف اللغة العربية ، وأنه كان يفضل عليها اللغة التركية ، التى كان يتحدثها فى قصره ، ومع أسرته وحاشيته . . أما فى المناسبات العامة فكان يتحدث اللغة الفرنسية . .

وهذا فسر لى ما كان يقوله أبى دائما عن الأسرة المالكة فى مصر . . كان يقول : إنهم أتراك .

وعرفت أن الملك فؤاد ، كان قبل توليه العرش ، لاهم له سوى إنفاق النقود واصطياد النساء ، لكنه بعد أن ارتقى العرش ، لم يكن له هم سوى جمع النقود . . ولم يكن ينفق قرشا كان من الممكن ادخاره ، ولم يكن ليعطى الهبات التى كان يعطيها الملوك عادة بمناسبة أو بدون . . وأذكر أنه أمر بعقاب واحد من الحرس الملكى ، التقط بعض بلحات من احدى نخلات قصر البستان .

وأذكر أنه فى عام ١٩٢٥ الغى علاوات ضباط الحرس حتى يدخر أكثر . وهو لم يكن ملكا بمعنى الكلمة . . وكان كل دوره الإشراف على النظام والنظافة فى القصر الملكى . . لكنه فى نفس الوقت كان يوحى للآخرين بأنه يفعل كل شىء فى الدولة . . فأطلق على نفسه لقب : عمدة عابدين . . واعلن نفسه ملكا على السودان أيضا ، وهذا أزعج الانجليز ، الذين جعلوه أول ملك فى تاريخ مصر الحديثة .

أما الملكة نازلى فكانت طيبة إلى حد ما ، رغم نزواتها التى اشتهرت بها . .

وأنا أذكر أن أمى وأختى كانتا مدعوتين فى حفل شاى لاسر ضباط الحرس بمناسبة افتتاح البرلمان فى قصر عابدين . . لكن بدلا من ان تدخلا مقر الحرس ، دخلتا الحرملك . . خطأ . . دخلتا جناح الملكة والأميرات . . واستقبلهما ، أحد الأغوات وأوصلهما إلى الملكة بعد أن تصور أنهما تريدان رؤيتها ، بعد أن قدمت أمى كارت يحمل اسمى ، كنت قد اعطيته لها حتى يسمحوا لها بدخول القصر . .

واستقبلت الملكة أمى وأختى ، بعد أن أخذت من الأغا الكارت وأكرمت استقبالهما ، وحملت كلا منهما بالهدايا ، ووعدت برد الزيارة لهما . . وأعتقد أن الملكة فهمت الكارت خطأ . . لم تتصور أن محمد نجيب ضابطا فى الحرس الملكى . . وتصورت أنه باشا من باشوات مصر . .

فى هذه الليلة بكت أمى على الخطأ الذى وقع ، وتصورت أنهم سيعاقبوننى على ذلك . . أما أنا فكنت مكسوفا من أن تأتى الملكة إلى بيتنا المتواضع جدا . .

بعد عدة أيام جاء ضابط بوليس إلى بيتنا وأعلن وصول بعض الوصيفات ، كمقدمة لاقتراب وصول الملكة . . فأفهمت الضابط بالخطأ الذى وقع . وطلبت

منه أن يعتذر للملكة وأن يشرح لها بطريقة مهذبة ما حدث . . وبـ
حدث فعلا ، لان الملكة لم تأت .
وتصورت أنهم لابد أن يعاقبونى على هذا الخطأ . .
لكن هذا لم يحدث . .

وبقيت فى الحرس إلى أن طردونى منه بسبب اتصالى بالمناضلين الـ
وكان طردى من الحرس نعمة من عند الله . .
فقد نقلت إلى الكتيبة الثامنة التى كانت فى ناحية المعادى ، وكانت مـ
بسيطة إلى حد ما . . وهذا شجعنى على مواصلة دراستى ،
حتى أننى حصلت على ليسانس الحقوق فى مايو ١٩٢٧ .
وفى ذلك العام تزوجت لأول مرة .

وشجعنى نجاحى فى الحقوق ، وأنا لا أزال فى رتبة الملازم أول علـ
للحصول على الدكتوراة ، التى مهدت لها بالحصول على دبلومة الدراسـ
فى الاقتصاد السياسى عام ١٩٢٩ ودبلومة الدراسات العليا فى القانون ١ـ
١٩٣١ ، وبدأت فى تحضير الدكتوراة عن العنصر الانسانى فى الجيش لـ
المتلاحقة بعد ذلك حالت بينى وبين إعداد رسالتى . والحصول على الـ

وأذكر وأنا جالس فى امتحان دبلوم الاقتصاد السياسى ، عام ٢٩
نجيب الهلالى كان يجلس إلى جوارى . . وتعرفت عليه يومها . . لكننـ
أن يكون رئيسا للحكومة التى كانت يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . تحكم
والتى كان علىّ اسقاطها .

وأذكر أيضا فى عام ١٩٢٩ أننى قابلت مصطفى النحاس . . ولم تكـ
صدفة كمقابلة نجيب الهلالى ، وإنما كانت مدبرة ، سعيت إليها بنفسى
ذلك العام حل الملك فؤاد البرلمان ، ومنع مجلس النواب من الانعقـ
الاغلبية فيه كانت للوفد . .
وقررت الذهاب لمقابلة النحاس
أردت أن أقول له : إن الجيش وراءك . .
وتحينت الفرصة لذلك . .

كنت سهران فى الكتيبة . . فجاء لى قائدها البكباشى عبد الله رشدى وقال :
ـ أريد أن أترك الكتيبة فى رعايتك حتى أتناول العشاء مع زوجتى وأعود لك !
قلت له :
تفضل !
ذهب . . وعاد . . ليجدنى متيقظا . . قال لى :
ـ مالك . . ماذا يضايقك ؟
قلت :
ـ أنت رحت تعشيت مع امرأتك ، وأنا أريد أن أذهب لأرى أمى المريضة ، التى لم أرها منذ أيام . .
قال :
ـ اتفضل !
ورحت للبيت . . ورأيت أمى فى ثوان . . وأخذت جلبابا سودانيا ولبسته فوق البدلة العسكرية . . كما لو كنت من أبناء النوبة أو شمال السودان . . ورحت لبيت مصطفى النحاس . .
كان البيت محاصرا بالبوليس والمخبرين . . خبطت على الشباك . . جاء البواب . .
قلت له :
ـ تلغراف !
ـ فين التلغراف ؟
ـ مفيش تلغراف . . أسمع أنا ضابط وأريد مقابلة النحاس باشا . .
ـ ياعم صلى على النبى . . انت بتضحك على . .
ـ بس . .
ـ مفيش بس . . مش ممكن أدخلك على الباشا دلوقتى . .
لم يوافق . .

فرحت للبيت المجاور وكان بيت حمد الباسل ، ونطيت على بيت النحاس . . فإذا بكلب وولف شرس يهجم على ، وكاد أن يمزقنى لولا أن أنقذنى منه البواب ، الذى أضطر أن يوصلنى للنحاس . .

طلعت على سلم خشبى إلى الدور العلوى . . وجدت النحاس ومعه مكرم عبيد ومحمود فهمى النقراشى . . وجدونى أمامهم . . فزعوا . قلت لهم :
ـ أنا أحمل لكم رسالة من الجيش . . الجيش مستعد لاى أمر توجهونه له . . سنكون أسرع من عود الكبريت فى الاشتعال . .
قال النحاس :
ـ كيف ؟
قلت
ـ نريد ان تقتحموا البرلمان وتدخلوا بالقوة ؟
قال مكرم عبيد :
ـ كيف ؟
قلت :
ـ الأورطة التى تحرس مجلس الشيوخ والأورطة التى تحرس مجلس النواب لن يتعرض أفرادها لكم . . بل إنهم مستعدون أن يفتحوا لكم الأبواب ويحلوا لكم السلال التى تربطها . .
قال النحاس :
ـ أنا أفضل أن يكون الجيش بعيدا عن السياسة ، وأن تكون الأمة هى المصدر الوحيد للسلطات . . وإن كنت فى نفس الوقت أتمنى أن يكون انتماء الضباط للوطن وللشعب اكثر من انتمائهم للملك .

كانت المقابلة مثيرة ومرحة . . خاصة بعد أن لبست الجلباب مرة أخرى . . وبمجرد أن خرجت للشارع ، كان مخبر سرب ورائى . . وظل يترصدنى حتى الساعة الثالثة صباحا . . فركبت عربة حنطور حتى الجيزة وإذا بالدنيا تمطر . . فأعطيت جنيها للعربجى ، وقلت له :
ـ آدى جنيه . . وامشى على طول . . لاتقف . . ولكن امش بهدوء . . واحدة . . واحدة . . لأننى سأنط من العربة . .
وقفزت من العربة . . ووقعت على الأرض . . ومرت عربة المخبر على دون أن يرانى . . ورحت وحدتى . . وقابلنى القائد . وسألنى :
ـ مالك مبهدل كده ؟!
ـ الدنيا بتمطر !

- ازى والدتك ؟!
- بخير والحمد لله !
ولم أقل له أننى كنت عند النحاس باشا .
ومنذ ذلك التاريخ توطدت علاقتى بالوفد . . وبرجاله . . وبزعمائه .

فكثيرا ما كان النقراشى باشا يأخذ رأيى فى الأمور التى كانت تتعلق بالسودان . . وكثيرا ما كان يسألنى رأى أخى على نجيب فى الأمور التى لم أكن أعرفها . . لأن على كان سكرتيرا للحاكم العسكرى السودانى لمدة ١٠ سنوات .

وعندما ذهب النقراش لعرض قضية مصر على مجلس الامن عام ١٩٤٧ حمل معه كتابى رسالة عن السودان الذى كتبته عام ١٩٤٣ .

وبعد عامين . . فى عام ١٩٣١ ، رزقت بابنتى الكبرى سميحة وسميحة من يومها ، كانت فتاة هادئة . . رزينة . . طيبة . . ومتفوقة . . واصلت دراستها حتى ليسانس الحقوق . . لكنها فى الليسانس ، ماتت بسرطان الدم . . كان ذلك عام ١٩٥٠ . . ويومها أحسست بنكد الدنيا يسيطر على كيانى . فى نفس العام . . عام ١٩٣١ فكرت أن أستقيل من الجيش لكنى رقيت إلى رتبة يوزباشي . . فأغرتنى الترقية بالاستمرار فى الجيش ، بدلا من فتح مكتب محاماه فى سن الثلاثين

عام ١٩٣٤ من الأعوام السعيدة فى حياتى . .

فى مايو ، من ذلك العام نقلت إلى سلاح الحدود ، وبدأت خدمتى فى الجبهات الأمامية .
وفى أغسطس فى ذلك العام تزوجت للمرة الثانية بعد أن طلقت زوجتى الأولى بأربعين يوما .
تزوجت عائشة محمد لبيب ، التى كانت مثل أمى . . يتيمة . . وابنة قائد عسكرى راحل فى سلاح الفرسان . . وكانت عائشة تعيش مع أمها الأرملة وثلاث بنات (عزيزة ، وفاطمة ، وخديجة) ، فى بيت كبير بحلمية الزيتون . . نفس الحى الذى عشنا فيه بعد حرب فلسطين .

وحين تقدمت لطلب يدها ، قالت لى بصراحة .

ـ أتمنى أن تفهم حقيقة مركزنا المالى . . فإن وزارة الأوقاف التى تولت أمر أطياننا أساءت التصرف حتى غدا كل مانحصل عليه منها هو الديون .

فقلت لها بصراحة أيضا .

ـ لو لم أتزوجك الأن فمعنى ذلك أننى طلبتك للزواج من أجل فلوسك

كانت عائلتها تعيش على ٨٠ جنيها فى الشهر ، رغم أن ثروتها كانت ٥١٢ فدانا فى بلدة بنى مزار ، فى صعيد مصر ، لكن كانت هذه الثروة موضوعة تحت إشراف وهيمنة وزارة الأوقاف ، والذين أداروها أساءوا استغلالها ، حتى أصبح الورثة مديونين بحوالى ٢٦ الف جنية ، وكان هذا نصف قيمة الأرض .

بعد الثورة ألغى نظام الوقف ، وصفيت التركة ، وورثت عائشة ٧٠ فدانا ، كان ريعها ١٤٠٠ جنيه سنويا ، وكان هذا الريع يعادل نصف مرتبى وأنا رئيس لجمهورية مصر .

ومن يوم أن تزوجتها إلى أن توفاها الله لم أقرب مليما واحدا من أموالها . . فى العام الأول لزواجى من عائشة ، نقلت إلى العريش ، فى سيناء . . وكنت أقضى أغلب وقتى فى الصحراء أطارد المهربين . . وبالرغم من قسوة الحياة فى الصحراء . . حرارة شديدة فى النهار ، وبرودة قارصة فى الليل ، ورياح ، وعطش ، ونقص فى الماء والطعام وسبل المعيشة ، إلا أننى كنت أشعر بروحانية وشفافية وانتماء لكل شيء من حولى .

وضاعفت هذه الأحاسيس من صلابتى فى مطاردة المهربين .

ومن أكبر المطاردات التى قمت بها ، مطاردة أخطر المهربين ، فى سيناء ، وكان أسمه سالم خضر سالم . . لكننى فى كل مرة كنت أقبض فيها عليه ، لا يكون فى حالة تلبس بالمخدرات . . كان يتخلص دائما من عبوات المخدرات قبل القبض عليه بدقائق . . إلا أننى بعد أكثر من سنة ، نجحت فى القبض علية متلبسا ، ودخل السجن .

وفى مرة اخرى ، كنت أطارد خمسة من المهربين ، كانوا يحملون ٩١٤٠ ط.ة

حشيش . . لم يكن معى سوى رجل واحد هو دومة عواد ، وهو رجل من البدو وكان قصاصا للأثر . . وفتحوا علينا النيران . . فأختبأنا وراء تل صغير . . ورحنا نرد عليهم بالنيران . . وحتى نخدعهم ، خلعت الكاب وأخذت عمامة أبو دومة ووضعتها بجانب الكاب على التل ، حتى نوهمهم أننا أربعة ، لا إثنان . . لكنهم لم يخدعوا وواصلوا إطلاق النار . . وبدأ أبو دومة يخاف . . وأمسكت بندقيته أمنعه من الهرب . . وواصلت إطلاق النار عليهم . . ولحسن الحظ قتل واحد منهم . . فبدأ أبو دومة يسترد حماسه وأخذ منى بندقيته . . ولم نتركهم الا بعد أن استسلموا .

وفى مرة ثالثة ، طلعت أنا وأبو دومة فى مطاردة وراء عصابة من المهربين لمدة أسبوعين . . وبعد طول هذه المدة انهارت الجمال التى معنا . . ونفذ الماء أيضا ، وكدنا نموت من العطش . . وجدنا بئرا قديمه . . شربنا منها . . أصبنا بإسهال حاد وكدنا نموت من الهزال . . حتى جاء راعى غنم متجول ، وباع لنا لبنا وأرشدنا إلى بئر ماء أفضل .

وسرنا على الأقدام مسافة طويلة وراء اثار أقدامهم ، حتى انضمت لنا مجموعة ، أخرى من حرس الحدود ، ونجحنا فى القبض على العصابة .
بعد هذه المطاردة نزلت السويس ، عند صديقى شوقى عبد الرحمن ، الذى قال لى بعد أن رويت له كل هذه القصص :
- لابد أنك ستحصل على نيشان !
قلت :
- لا أعتقد !
قال :
- تراهنى على أكلة سمك ؟
قلت :
- موافق !
وعدت لسيناء ، ورحت إلى دير سانت كاترين ، تحت جبل موسى ، المعروف باسم جبل سيناء ، واصطحبنى فى زيارتى للدير قس ارثوذكسى . من أصل يونانى أشار لى إلى ايقونة للعذراء وقال لى :

ـ إن اليدين تشيران ، فى الأيقونة ، إلى معجزة . . فقد كان على أن أستيقظ كل يوم لأضع الزيت فى قناديل الدير ، وفى ليلة راحت على نومة ، فإذا بيد تحركنى لكى استيقظ ، وقمت فعلا . . ومن يومها اعتبرت اليدين معجزة .

وفى نفس اليوم قابلت عبد الرحمن فى السويس ، فقال لى :

ـ مبروك أخذت النيشان وأنا كسبت الرهان .

وجاء الوسام بعد التقرير السرى الذى كتبه عنى الاميرالاى هاتون بك ، والذى قال فيه :

إن محمد نجيب ضرب رقما قياسيا فى دوريات الصحراء سواء على ظهر الجمال أم بالسيارة ، وهو رجل شجاع ذو مخالب قوية .

وكان ماجاء فى تقرير هاتون بك وساما آخر ! .

وقد أخفى جمال عبد الناصر هذا التقرير ، وغيره من ملف خدمتى بعد ذلك .

لقد كانت حياة الصحراء حياة خطرة ، وشاقة ، لكننى كنت استمتع بخدمتى فيها ، أكثر من استمتاعى بالخدمة فى أى مكان آخر . . وأنا خدمت فى الصحراء وسلاح الحدود حوالى ست سنوات . . ثلاث سنوات وأنا برتبة يوزباشى (نقيب) وثلاث سنوات ، أخرى وأنا برتبة قائمقام (عقيد) وثلاث سنوات أخرى . حتى عينت وكيلا لمحافظة سيناء ، وبعدها محافظا للبحر الأحمر . . وخلال سنوات خدمتى فى سلاح الحدود ، عشت فى بور توفيق ، و سيناء ، والجبل الأصفر ، وواحة المنايفة ، والواحات ، وفايد ، والقنطرة شرق ، والبحر الاحمر حتى الحدود مع السودان .

وفى كل مكان بالصحراء المصرية التى خدمت فيها ، كانت علاقتى بالبدو الذين يعيشون فيها ، علاقة شخصية جدا .

كنت أحضر لهم السجاير . . وكانت علبة السجاير بتسعة قروش ، وبها ١٠٠ سيجارة .

وكنت أعطيهم قدر استطاعى ، من الأغذية المحفوظة ، التى كنا نتناولها .

وكنت وهذا هو الأغرب ، أعالجهم من الأمراض المختلفة .

كان البدو يستعينون بى كطبيب . . وكنت أستجيب لذلك ، وأعالج أمراضهم البسيطة ، بالأدوية التى فى حقيبة الإسعافات الأولية . . الإسبرين . . القطرة . . المراهم . . والأربطة . . .

واصبحت لى شهرة فى الصحراء كطبيب . . وتحولت خيمتى إلى مستوصف . .

وفى يوم وقعت فى شر أعمالى ، وجاء لى أحد الشبّان ، من الذين ينتمون إلى اقوى وأكبر القبائل وطلب منى أن أعالجه من ضعفه الجنسى . . وارتبكت . . ولم أدر ماذا أفعل فى هذه الورطة . . وبلمحة فاحصة أدركت أن الشاب هزيل جدا وفى حاجة إلى تغذية قوية . . فقمت إلى مخزن الأطعمة وأعطيته منها بعض اللحوم والمأكولات الأخرى المغذية وأعطيته معها شرابا مقويا . . ولكى أوحى له بالشفاء أعطيته حبتين عاديتين للاسهال ، وأكدت له أن هذه الأقراص من نوع نادر جدا من الصعب الحصول عليه . . وخرج الشاب وكله ثقة فى نفسه وهو مقتنع بالشفاء . . وبعد فترة نقلت من هذا المكان . . لكننى عدت إليه مرة أخرى بعد ١١ سنة ، لأرأس محكمة عسكرية عرفية ، خاصة بنظر دعاوى القبائل . . وإذا برجل طويل القامة ، قوى العضلات يهجم على ويعانقنى بحرارة ويقبلنى فى كل مكان يصل إليه ، وعرفت منه أنه ذلك الشاب النحيل المريض الذى جاء لى يطلب العلاج المناسب لضعفة الجنسى . . ثم قدم لى غلاماً فى العاشرة من عمره وقال لى :

- هذا ياسيدى ابنى البكر .

وفى يوم آخر فوجئت برجل يطلب منى أن أكشف على زوجته التى تعانى من ورم فى بطنها . . وكانت المفاجأة ليست فى مرض السيدة ، وإنما فى السيدة نفسها . . فهذه هى المرة الأولى التى يسمح فيها البدو بأن يكشف رجل غريب على امرأة من نسائهم . .

ولم أحاول فى هذه الحالة أن أدعى شيئا وقلت للرجل :

- زوجتك محتاجة لعملية . . اذهب إلى السويس .

ومقابل هذه الخدمات كان البدو يرشدوننى على الأماكن التى يختبىء فيها المهربون .

وكانوا أيضا يقدمون لى كل المعلومات التى أطلبها عن الصحراء والتى كانت تفيدنى فى حل الألغاز الصعبة التى تحيط بى ، مع رمال الصحراء وأشجارها ومواردها وإمكانياتها .

حتى أننى بعد أن أصبحت عضوا عاملا فى معهد الصحراء نجحت فى إعداد الكثير من الدراسات حول : حياة البدو وكيف يمكن رفع مستواها و سر استغلال المعادن . . وكنت ألقى المحاضرات العلمية الدقيقة فى مثل هذه الموضوعات . . وتنشر العديد منها فى صورة مقالات . . ورفعت عنها أكثر من تقرير للملك فاروق ، طالبت فيها بالاهتمام بطرق استغلال الصحراء وتعميرها .

وفى عام ١٩٣٥ ، بعد هجوم إيطاليا على اثيوبيا ، نقلت من العريش إلى الصحراء الغربية . . كانت مصر وإنجلترا تخشيا من أن يهاجم الإيطاليين الصحراء الغربية ويدخلوا السلوم . . ولم يهدأ التوتر فى تلك المنطقة إلا فى عام ١٩٣٦ ، فعدت للقاهرة للعمل تحت قيادة البكباشى حسن عبد الوهاب
كان عام ١٩٣٦ من أهم الأعوام فى تاريخ مصر الحديث قبل الثورة .
مات الملك فؤاد فى أبريل ، وجاء الملك فاروق بعده فى مايو من نفس العام .
وفى أغسطس وقعت مصر وبريطانية اتفاقية ١٩٣٦ .

وهذه المعاهدة كما هو معروف ، أنهت الاحتلال البريطانى لمصر ، وحصرته فى جزء واحد هو قناة السويس ومدنها . . حوالى ١٠،١٠ آلاف جندى ، و ٤٠٠ طيار تمركزوا فى قواعد بريطانيا فى السويس ، بعد المعاهدة ،
وأزالت هذه المعاهدة الحصانة القانونية والمميزات الأخرى التى كان يتمتع بها الأجانب فى مصر .
وأيضا ، أعادت المعاهدة الوجود العسكرى المصرى فى السودان ، وأزالت التفرقة بين السودانيين والمصريين ، وشكلت لهذا الغرض لجنة برئاسة اللواء إبراهيم خيرى للسفر إلى الخرطوم ، لإعادة تنظيم الجيش ، كنت واحدا من افرادها .
لكن المعاهدة لم تمنع تدخل بريطانيا فى شئون مصر ، واستغلالها لكل إمكانياتها الحربية والمدنية ، فى حالات الحرب والاعتداءات الخارجية . . ولم تمنع ، أيضا تدخل بريطانيا فى الإدارة وفى التشريع .

لذلك لم تكن المعاهدة ، اتفاقا نموذجيا من وجهة نظر المصريين . . لأن الاحتلال لم ينته فعلا . . والنفوذ البريطانى ظل على نفس مستواه قبل المعاهدة تقريبا .

بل إن بريطانيا حاولت ، قبل أن يمر وقت طويل على المعاهدة ، أن تحتل غرب

القاهرة ، وتعسكر فيها ، بحجة أن هناك حربا على الأبواب ثم . . طلبوا الإذن بالقيام بمناورات فى صحراء الفيوم ، والصحراء الغربية . .

وقد اقترحت أن ترفض هذه الطلبات لانها تتنافى مع المعاهدة . .

وكان إحساسى أنا وقائدى أحمد حمدى ، أن الحرب ليست على الأبواب ، كما تحاول أن توهمنا بريطانيا .

وكان إحساسنا أن بريطانيا تريد أى مبرر يجعلها تعود لفرض احتلالها على كل أرجاء مصر ، كما كانت قبل المعاهدة .

ولم يكن فى طاقتى النفسية أن أراهم يعودون كما كانوا . . وهذا ماجعلنى أوقف الاتصال بهم من خلال البعثة العسكرية ، كما كان ، وطلبت أن يكون اتصالنا بهم عن طريق قيادة الجيش المصرى . . وأوقفت عادة إصدار الأوامر للجيش المصرى بالانجليزية والعربية . . ولم يكن عندى أى اعتراض على تقديم بعض النسخ للانجليز ، من الأوامر ، باللغة العربية . . على أن يتصرفوا هم فى عملية الترجمة .

فى العام التالى للمعاهدة . . عام ١٩٣٧ ، أسست مجلة الجيش المصرى . . وظللت أشرف عليها لعدة سنوات . . وكتبت فيها عشرات من المقالات .

ومن أهم المقالات التى كتبتها ، مقالات تدعو إلى ضرورة التدريب العسكرى لطلبة الكليات والمدارس الثانوية . . وهذا ما أخذ به بعد ذلك . . ولكن بجدية أقل .

وإلى الآن ، فى اعتقادى أن التدريبات العسكرية للجنسين ضرورة لخلق المواطنين الصالحين ، خاصة فى البلاد النامية ، كمصر .

و يوم أن تبنيت هذه الدعوة ، كان فى مصر جمعيات متنوعة (مثل جمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الشبان المسيحيين ، والكشافة ، والمرشدات ، وبنات النيل) وكلها جمعيات كان لها نشاط فعال ، لكن لأسباب ترتبط بوجود الاستعمار البريطانى ، لم يستطيعوا تبنى الفكرة ، ولم يتمكنوا من إقناع شباب مصر أيامها بالتدريب العسكرى .

وفى عام ١٩٣٨ ، طلب الانجليز الإذن بارسال بعض دباباتهم لمرسى مطروح ، لعمل تدريبات مشتركة معنا . .

سألت :

ـ أى الدبابات يريدون إرسالها إلى هناك ؟

قالوا :

ـ الدبابات التى سبق إرسالها إلى هناك !

فقلت لقائدى ، وكان اسمه عبد الوهاب ، فى ادارة الجيش :

ـ أرفض هذا الطلب ، لأنهم يعرفون المنطقة وسبق أن اختبروها من قبل .

فوافق . .

وأرسلنى إلى على فهمى وزير الحربية الذى كان سيوقع قرار الموافقة على إرسال الدبابات إلى مرسى مطروح ، ومعى قرار جديد برفض طلب الانجليز .

وكان ثمن هذا التصرف أن رفع الانجليز اسمى من كشف أسماء المجموعة المصرية التى ستسافر الى انجلترا ورفضوا منحى التأشيرة . . ووضعونى فى القائمة السوداء للجيش الانجليزى فى مصر .

وعندما حاولت ، بعد ذلك أن التحق بمدرسة أركان حرب ، رفضوا طلبى .

وأخيرا قبلونى فى خريف ١٩٣٨ بتدخل من ضابط مصرى كبير .

وفى عام ١٩٣٩ سمحوا لى بالسفر الى انجلترا .

قبل أن اروى ماحدث فى رحلتى لانجلترا ، سأتوقف قليلا عند حادث شخصى هام وقع لى فى ٥ مارس ١٩٣٨ .

فى هذا اليوم ولد ابنى الأكبر . .

كنت أريد أن أسميه صلاح الدين الأيوبى .

لكن زوجتى ارادت ان تسمية فاروق على اسم ملك مصر فاروق ، لتجلب له الحظ .

وقعدنا نتناقش معا ، حتى نفد صبرى ، وقلت لها :

ـ لو كنا نريد أن نسميه على اسم ملك ، فليكن اسمه جورج على اسم ملك انجلترا ، لأن حظه أفضل من حظ ملك مصر .

وكسبت زوجتى المناقشة ، لأنها ، كانت قد قالت للقابلة : أن نسميه فاروق ، قبل أن تفتح معى هذا الحوار .

وأكثر من مرة كنت أريد أن أغير اسمه إلى صلاح الدين . لكن اسم فاروق

كان قد لصق فيه ، رغم اعتراضى . . والطريف أننا كنا نقول له أحيانا : ياصلاح الدين . . وكنا من باب الدلع نناديه باسم جورج .

وبعد أن ولد فاروق ابنى ، جاءتنى الفرصة لأن أقابل فاروق ـ الملك . . كنت قد رقيت إلى رتبة رائد . . وكنت مسئولا عن المتحف الحربى فى القاهرة فى غياب المدير الذى كان يزور متحفا أو أكثر من متاحف أوروبا العسكرية .

صدر الأمر أن اسافر إلى الأسكندرية ، حيث كان فاروق يقضى الصيف ، ومعى سيارتين ـ لورى ، تمتلئان بالتحف العسكرية .

يومها كان فاروق عمره ١٨ سنة أما أنا فكنت ٣٧ سنة .

ويوم وصلت إليه فى الأسكندرية كان يستحم فى المنتزه ، فطلب رجاله أن نفرغ حمولة السيارتين ، أنا ورجالى ، وننتظر جلالته فى الحديقة .

وجاء لنا فاروق بلباس البحر ، وصندل ، وقبعة تحمية من الشمس ، وكنت انا ورجالى نرتدى كامل ملابسنا الرسمية .

واخرجت التحف التى كانت معنا لفاروق .

من ضمن هذه التحف كان هناك مسدسان صغيران ، احدهما من النحاس ، ويرجع الى عصر الخديو اسماعيل . . والآخر من معدن آخر . . ومن نفس العصر تقريبا . .

وعندما أخرجتهما بيدى ، قال لى فاروق .

ـ أنت قوى ماذا تأكل ؟

قلت له :

ـ فول .

وأراد فاروق أن يثبت أنه قوى هو الأخر ، لكنى لاحظت ان جسمه كان مترهلا ، رغم أن عمره كان ١٨ سنة . . وأنا كان جسمى متماسكا رغم أن عمرى هو ضعف عمره تقريبا .

وبقيت معه ٦ أيام . .

وكان معجبا بما كنت اقوله عن المتحف الذى لم يزره مرة واحدة فى حياته .

وفى ليلة كنت افرجه على شرائح أفلام عن المتحف ، فأخذها منى أو من المتحف ، ولم يرجعها وفى تلك الليلة سألنى :

ـ من أين يمكن أن آتى بأقدم مسدس فى مصر ؟
فقلت له :
ـ إسماعيل اشترى مجموعة من المسدسات عام ١٨٧١ أربعة منها موجودة فى الجيزة .
فأصدر أوامره لى أن أحضر له واحدا منها .
ورغم عنى أحضرت له ما طلبه .
وعندما أعطيته له ، فرح به كطفل حصل على لعبة .

ولما حاولت أن أنزع إبرة ضرب النار جاء مستشار الملك عبدالغفار عثمان ليساعدنى ، وإنحنى ليقبل يد الملك . . رغم أنى لم أفعل ذلك ، واكتفيت بتأدية التحية العسكرية له . . وكان معنا أنطون بوللى الكهربائى الإيطالى الذى أصبح بعد ذلك مستشار الملك الخاص .
وعرفت من بوللى انه اقترح على الملك ان يرتدي ملابسه قبل ان يرانا ، لكن الملك اصر على ان يقابلنا بالمايوه ؟؟

وعندما جئت اشرح للملك ، كيف يعمل المسدس ، ازاحنى عثمان من امامه ، ليحظى ، كما تصور ، بهذا الشرف . . وحاول عثمان محاولات يائسة لفك المسدس ، وفشل . . وحاولت ان اتدخل ، فغمز لى الملك ان اسكت . . وعندما اعلن عثمان فشله ، اعطانى الملك المسدس . . ونجحت فيما فشل فيه عثمان .
وسأل فاروق عثمان :
ـ اين تعلمت العسكرية
فقال :
ـ فى انجلترا :
فقلت :
ـ نحن فى مصر افضل من انجلترا .

وعثمان بالمناسبة رقى بعد ذلك أكثر من ترقية استثنائية ، وحصل على وشاح النيل ، واتهم بشراء بعض صفقات الاسلحة الفاسدة من ايطاليا ، وحوكم بعد الثورة وسجن ١٥ سنة .
وقد قابلت فاروق مرة اخرى فى نفس العام ، فى حفل تخريج دفعتى من كلية اركان حرب .

وأذكر اننى حرضت زملائى فى الدفعة على عدم تقبيل يد الملك .
لكن لم يسمع احد كلامى .
وعندما جاء الدور على ، لم أقبل يده ، ومثلت دور المرتبك الذى لايعرف التصرف فى مثل هذه المناسبات ، أمام الملك .
اديت له التحية وسلمت عليه بشدة . . فاذا به يغمز لى بعينه . . وظهرت هذه الغمزة فى صور جرائد اليوم التالى .
فى صيف ١٩٣٩ سافرت مع مجموعة من الضباط المصريين الى انجلترا وفرنسا لمدة شهرين .
فى انجلترا زرنا المدارس العسكرية والمصانع الحربية . .
وفى فرنسا زرنا خط ماجينو واماكن معارك الحرب العالمية الاولى . .
وكانت هذه الزيارة هى اول وآخر زيارة لى لاوروبا . .

وقد اثرت فى كثيرا

جعلتنى أحس بضيق من اغلب الذين يسافرون للخارج . . فهم يتمتعون بما يرونه . . لكن لااحد منهم يفكر فى بلده .
فقد رأيت كيف يتصرف الانجليز فى بلادهم بطريقة أخرى عن سلوكهم فى بلادنا . . فى بلادنا كانوا يتصرفون بغطرسة ودون أن يتصوروا أن الناس فيها لهم مشاعر وأحاسيس . . وفى بلادهم كانوا يقدرون شعورنا ويتعاملون معنا بانسانية لدرجة أننى لم أصدق أن هؤلاء هم الذين يحتلون أرضنا .
ولو كان الانجليز يتصرفون فى بلادنا كما يتصرفون فى بلادهم لقل السخط عليهم .
كانوا فى بلادهم يفعلون كل ما فى وسعهم ايشعرونا بالتقدم الذى يعيشون فيه . . لكنهم فشلوا فى اقناعنا بأنهم سيكسبون الحرب ضد المانيا الهتلرية . . فاستعدادهم العسكرى لم يكن يومها فى مثل استعداد دول المحور .
وأنا كمصرى لم أكن أهتم بالنصر الانجليزى . . بل كنت أهتم بأن يعاملونا كحلفاء . لا كتابعين . . ولم يكن يهمنى أن تنتصر المانيا ، لأنى لم أكن أريد أن أستبدل احتلالا باحتلال آخر .

كل ما تمنيته ان تقلل الحرب من قوة انجلترا وفرنسا ليشعروا بأهمية اطلاق حرية العرب .

وإنتهت الزيارة . .

وعدت لمصر . .

وبدأت الحرب . .

فى مصر أيام الحرب وضعونى فى قسم التدريب بإدارة الجيش .

كان القرار قد اتخذه رئيس العمليات .

وكان هذا الرجل لايحبنى . .

ويوم وصله تقرير من كولونيل بل القائد العام الانجليزى عن دراستى فى كلية الاركان ، وجاء فيه : ان محمد نجيب فى أدائه لعمله مثل النمر قال لى :

- طيب ياسى نمر تروح التدريب .

كان عملى فى التدريب ترجمة البرامج الأساسية للتدريب . . ولم يكن عملا مهما . . لكنها كانت فرصة للاطلاع والقراءة . .

ظللت بهذا المكان حتى بداية الاربعينيات . . ثم تركته لاشترك فى مناورات مع الجيش الانجليزى فى الصحراء الغربية . .

كان ذلك فى يونيو ١٩٤٠ . .

وفى ذلك الشهر ولد ابنى الثانى على الذى سميناه على اسم اخى . .

وفى ذلك الشهر بدأت ايطاليا تستعد للهجوم على ليبيا وتهدد مصر . . وبمساعدة الانجليز ، بدأنا نحصن البلد ضد اى غزو خارجى . . وكنت واحدا من اثنين طلب منهما اعداد خطة الدفاع عن مصر . . وكان على ان اقدمها خلال ٤٨ ساعة . . وخلال هذه الساعات كان على ان اقول لهم كيف يمكن حماية ٣٢ موقعا استراتيجيا مدنيا وعسكريا .

وسلمت الخطة فى الموعد . .

والغريب انهم قبلوها . .

وبعد أيام كانت ايطاليا فى سيدى برانى . . ووصل الى مصر اكثر من ٢٥ الف جندى من المستعمرات البريطانية لرد ايطاليا الى ليبيا ونجحت انجلترا فى ذلك ، واسرنا أكثر من ٢٠٠ ايطالى . . وضعوهم عند فايد . . وكلفت بالتحقيق معهم . . وفى اثناء التحقيق طلب منى بعض الايطاليين الذين قبض عليهم وكانوا

يعيشون فى مصر ان أوصل بعض الرسائل الى عائلاتهم فى القاهرة والاسكندرية .. وفعلا وصلتها .

وكان من بينهم مهندس ايطالى كنت أعرفه لأنه كان يتولى إصلاح سيارتى الفيات الصغيرة التى كنت امتلكها فى ذلك الوقت .

وبعد أن تخلصنا من الايطاليين جاء الالمان..

كانوا اخطر من الايطاليين..

وفى ٤ نوفمبر ١٩٤٢ كسب الانجليز المعركة ضدهم .

فى تلك الايام لم يكن فى ايدينا اى شيء يمكن ان نعمله .. كنا نتفرج وننتظر ..

ولم تكن التهديدات الايطالية والالمانية هى التى تشكل خطرا على مصر فقط ، وانما كانت التهديدات البريطانية ايضا ، والتى كانت تتزايد مع ازدياد اهمية مصر فى الدفاع عن مصالح الامبراطورية العظمى .

ووقت الحرب عانينا الكثير من استهزاء الانجليز بنا .. وكانوا يتعللون باننا حيوانات .. ولم يفهموا ان مايهمنا لابد ان يختلف عن الذى يهمهم .. كانوا يتوقعون ان يعاملهم المصريون كحلفاء مخلصين لهم ، مع انهم كانوا يعاملوننا كنكرات .

وكان جنودهم يغنون فى الشوارع اغانى غير مهذبة تمس الملك فاروق .. ورغم اننا لم نكن نحترم فاروق الا انه كان ملكنا ورمزا لبلادنا واى اهانة له اهانة لنا .

أننى لم أر فاروق يتعرض للاستهزاء كما حدث ايام الحرب العالمية الثانية ..

ويبدو أن الانجليز كانوا يعرفون أن السخرية منه ، هى سخرية منا جميعا .. ولكنهم لم يكتفوا بالسخرية من الملك ، وانما امتدت تصرفاتهم الى انتهاك الاعراض ، و التصرف فى البلد وكأنها كباريه كبير .

وقد رأيت ذلك بنفسى .. وعشته ..

ففى مرة رأيت عسكرى انجليزى فى حالة سكر وبدأ يهزأ من راكب مصرى إلى جواره فى أتوبيس عام .. وتدخلت .. واصر ت على أن ينزل من الأتوبيس بالقوة ..

وفى مرة اخرى تعرضت لموقف مشابه فى مصر الجديدة .. ثلاثة من جنود المستعمرات الافارقة ضربونى على رأسى وخطفوا محفظتى ..

ولكن ..

مثل هذا التصرف فى كفة . . وماحدث من الانجليز فى ٤ فبراير ١٩٤٢ فى كفة اخرى .

فى اول فبراير ١٩٤٢ بعد أن احتل الالمان بنغازى ، قام الطلبة فى مصر بمظاهرات لصالح على ماهر الذى كان ضد السياسة البريطانية .

فى اليوم التالى طرد الملك فاروق رئيس الحكومة الذى كان يؤيد الانجليز وجاء بحكومة حسين سرى .

فى ٣ فبراير قبل الملك دراسة تشكيل جديد للحكومة مع على ماهر . . وذهب سير مايلزلامبسون السفير البريطانى بالقاهرة إلى قصر عابدين وقابل الملك . . وقال السفير البريطانى للملك :

ـ لابد ان يشكل النحاس الحكومة .

كان الانجليز يثقون بالنحاس بقدر عدم ثقتهم فى على ماهر .

ورد فاروق :

ـ طيب !

وقال :

ـ سأدرس الحالة مع النحاس وماهر قبل ان اتخذ القرار .

فى ٤ فبراير . . وقبل ان يتخذ فاروق قراره قال له السفير البريطانى :

ـ لو لم تختر النحاس قبل الساعة السادسة سوف تتحمل العواقب !

ورفض الملك اقتراح الانجليز . . وارسل احمد حسين لابلاغ لمبسون بقراره .

فى الساعة التاسعة ذهب لمبسون الى الملك واقتحم الانجليز القصر بالقوة ، دون اى مقاومة من الحرس الملكى . . وقاد عملية الاقتحام الجنرال ستون قائد القوات البريطانية فى مصر . . وطلع الجميع الى حجرة نوم الملك ، وقالوا له :

ـ أنت سجين الجيش البريطانى !

وأخرج السفير له ورقتين . . الاولى قرار بالتنازل عن العرش . . والثانية قرار بتشكيل حكومة يرأسها النحاس . . وقالوا له :

ـ عليك ان تختار اى القرارين توقع !

ولا أحد يعرف . . هل أعطوه الورقتين بالعربية أم بالانجليزية . . ولا أحد يعرف ماذا قال فاروق بعد ان وقع قرار حكومة النحاس .

وفى اليوم التالى ، قبل ان يدخل النحاس مقر الحكومة ، قال :

ـ الحقيقة ان الملك سمح للسفارة البريطانية ان يسلبوه سلطته .
وعندما رأيت كل هذا ، احسست باحتقار وقرف من بدلتى العسكرية ، وكتبت استقالتى ، احتجاجا على ماحدث ، وقلت للملك فى الاستقاله :
« حيث انى لم استطع ان احمى مليكى وقت الخطر فانى لأخجل من ارتداء بذلتى العسكرية والسير بها بين المواطنين ، ولذا اقدم استقالتى » .
كنت الضابط الوحيد الذى قدم استقالته .
ولكن الملك اعاد الاستقالة مع ياوره عبد الله النجومى ، واضطررت لسحبها نزولا على رغبة زملائى . .
قال لى النجومى :
ـ بما ان الملك منع الحرس الملكى ان يقاوم الانجليز فهو لن يسمح لك بالاستقالة .
وعدت الى ادارة الجيش بعد ذلك . .
ورقيت فى العام التالى . . الى رتبة بكباشى (مقدم) . .
وفى اول ذلك العام . . فى ٣ يناير ١٩٤٣ جاء ابنى الثالث يوسف . . والذى سمى على اسم ابى .
وفى عام ١٩٤٤ عينت حاكما اقليميا لسيناء .
وأصبح على حتى ارقى مرة اخرى ان اكون فى وحدة مقاتلة ، فتركت الحدود وعدت الى الجيش .
فى عام ١٩٤٧ كنت مسئولا عن مدافع الماكينة فى العريش . .
وفى العام التالى كانت حرب فلسطين .
الحرب التى كانت بمثابة الخطوة الاولى فى مشوار الالف ميل نحو تغيير وجه الحياة فى مصر .

الفصل الثالث

حرب فلسطين

- نضال الجيش المصرى فى الأربعينات من مقاومة رئيس الأركان إلى مقاومة الحرس الحديدى .
- وجود السودانيين فى بيتى جريمة يرصدها البوليس السياسى المصرى .
- هددت بالاستقالة لو لم يفرجوا عن الضابط أنور السادات .
- طالبت القصر بعدم الدخول فى مستنقع حرب فلسطين لكن لم يستجب أحد .
- عامر لجمال عبد الناصر : عثرت فى اللواء نجيب على كنز عظيم .

« عندما تقع البقرة تكثر سكاكينها » !

وعندما وقع الملك فاروق من على عرش مصر ، كثرت السكاكين التى هوت عليه . .

وأنا لا أريد أن أزيد فى عدد تلك السكاكين . .

وقد كنت أفضل تجاهل الماضى ، تاركا لكم التفكير فى الحاضر والمستقبل . . ولكن . . الحاضر يبدأ من الماضى . . والمستقبل يبدأ من الحاضر . . لذلك ، فلا مفر من القاء نظرة إلى الخلف . . إلى الملك الحزين . . الملك فاروق الأول (والأخير) ملك مصر والسودان (سابقا) .

فى عام ١٩٣٦ ، عندما اعتلى الشاب فاروق العرش ، بعد وفاة أبيه أحمد فؤاد الأول ، صلى إلى الله ان يكون حاكما مثاليا . . وأن يكون اسمه على مسمى . .

ففاروق فى اللغة العربية معناه : الشخص الذى يمكنه أن يميز بعناية بين الحق والباطل . .

لكن . .

بمرور السنين والأيام أثبت فاروق أنه لم يكن قادرا على المحافظة على اسمه .

ففى عام ١٩٤٨ ، بينما مصر مشغولة فى حرب يائسة ، اختار فاروق هذا الوقت لأعلان طلاقه من الملكة ، وكذلك قام شاه ايران محمد رضا بطلاق الامبراطورة أخت الملك فاروق . .

وبالرغم من أن الملك فاروق ، فى ذلك الوقت لم يتعد الثامنة والعشرين من عمره ، إلا أنه انحدر إلى درجة منحطة جدا . . ولم يعرف كيف يحافظ على مصالحه . . وراح يبيع الألقاب والمزايا الملكية . . وراح يشترى بثمنها الفساد ، الذى استشرى فى كل مكان بمصر ، حتى أصبحت مصر رمزا لكل ما هو خطأ فى الشرق .

ملاك الأرض يدفعون الرشاوى لموظفى الحكومة للتخلص من دفع الضرائب . . وبدلا من استغلال أموالهم فى مشروعات انتاجية ، قاموا ، إما بتهريبها للخارج ، أو اشتروا بها العقارات ، دون أن يراعوا الغالبية العظمى من الشعب ، والتى كانت تعانى الحرمان .

والحكومة القائمة غير قادرة على الإصلاح . . بل . . وغير راغبة فيه .
ومع ارتفاع الأسعار ، ارتفعت معدلات البطالة ، إلا فى مجال البناء .
ولم يجد خريجى المدارس الثانوية والجامعات وظائف لهم .
وفى الريف كانت الحالة أسوأ . .

فأسعار القطن ترتفع . . وترتفع معها اثمان الأرض . . والإيجارات التى تؤخذ من المستأجرين من الفلاحين الذين كانت تتناقص دخولهم .
وأخفت العدالة رأسها . . وتوارى الناس أصحاب الشجاعة الذين لديهم رغبة فى الإصلاح . . وكان الكثير منهم فى الجيش .
وأصبحت الارستقراطية حكرا على العائلة المالكة . .
ولم يعبأ أبناء وكبار التجار بالخدمة فى الجيش . .
وكان معظم الضباط فى الجيش ، من أبناء الموظفين والضباط القدامى والفلاحين . .

وكان بعضنا بالطبع قد فسد من الرشاوى وغيرها ، وفقد الإحساس بالأهداف الوطنية ، ولكن الغالبية العظمى بقيت مخلصة تعرف ما يدور فى بلدها ، وتسعى للتخلص منه .

لقد كان الهدف من النظام العسكرى حماية الحكام من أعدائهم المحليين والأجانب ، ولم يكن من السهل على الجيش أن يبتعد عن السياسة . .
لأنه لم يكن من السهل عليه أن يترك بلاده تهوى إلى قاع الفساد . . وكان لابد أن يتدخل فى السياسة ليكون حكومة تدافع عن المصالح والرغبات المشروعة للشعب .
وهذا بالضبط ما حاولنا أن نفعله بقيام حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .
أمسكنا بزمام السلطة لأننا لم نعد نتحمل المهانة التى كنا نعيشها مع الشعب المصرى . .
وكانت نقطة التفجر هى انهزامنا فى فلسطين . .
ولكن . . بالنسبة لبعضنا كانت نقطة التفجر سابقة على الهزيمة فى فلسطين.
أنا شخصيا كانت نقطة تفجرى فى ٤ فبراير ١٩٤٢

وعبرت عن غضبى من هذا الحادث الذى داس فيه الانجليز كرامة الملك

بالدبابات ، بأن قدمت استقالتى من الجيش ، لكن الملك لم يقبل الاستقالة . . وبقيت فى الجيش ، منذ ذلك اليوم ، رغم إرادتى .

بقيت فى الجيش لأرى بعينى كيف يعامل القادة الانجليز الضباط المصريين . . وكيف يستهزىء الملك بالجيش ، الذى كان يدين له بالطاعة والولاء باعتباره رمزا لمصر فى مواجهة الاحتلال البريطانى .
فقد كان الملك يولى على الجيش من يدين له بالطاعة العمياء دون أى اعتبار آخر ، كالكفاءة ، أو البراعة العسكرية .

وكان من بين هؤلاء اللواء إبراهيم عطا الله رئيس الاركان ، الذى كان مرتشيا . . وكان معجبا بالضباط الذين يتملقونه ، ويغدق عليهم الرتب والنياشين ، فى حين كان يعامل الضباط الذين يحترمون أنفسهم بجفاء شديد . .
كان إبراهيم عطا الله يستقطب كراهية الضباط الشرفاء وعداوتهم . .
وكان ذلك الإحساس وراء محاولة الرائد رشاد مهنا ، عام ١٩٤٧ ، للتخلص منه . .

كان رشاد مهنا ضابطا محبوبا فى المدفعية . . وكان عمره أيامها ٣٩ سنة . . وكان عمرى أنا ٤٦ سنة . . وكان معه ١٦ ضابطا من رتب وأعمار مختلفة . . قبض عليهم . . ثم أفرج عنهم بعد أيام تحت ضغط السخط العام من ضباط الجيش . . وأحيل إبراهيم عطا الله إلى المعاش .
وبعد الإفراج عن هؤلاء الضباط ، انضم بعضهم إلى الحرس الحديدى .
والحرس الحديدى تنظيم كونته السراى ، وأشرف على اختيار أعضائه الطبيب البحرى يوسف رشاد ، ليكون عين السراية على الضباط الوطنين فى الجيش . .
ونجح يوسف رشاد فى تجنيد هؤلاء الضباط بعوامل الإغراء والإرهاب . .

ورغم ان حركة ١٩٤٧ كانت بعثا للحركات الوطنية التى لم تشتعل منذ أحداث ١٩٢٤ ، إلا أن تكوين الحرس الحديدى كان انتكاسة لها .

ورغم أن حركة ١٩٤٧ كانت ظاهرة طيبة تثبت ان الجيش لايزال فى صفوفه رجالا يرفعون علم الثورة والتمرد والغضب ، إلا أن تكوين الحرس الحديدى كان فصلا مؤسفا لها .

وعلى كل حال . . كان الحرس الحديدى بمثابة بقعة صديد على جسم ثوار الجيش فى ذلك الوقت . . كان من السهل على هذا الجسم القوى أن يحتملها ويلفظها .

ولقد أثارت حركة ١٩٤٧ فى نفسى سؤالا عن سر اعتمادها على الضباط الصغار دون الالتجاء للضباط الكبار . . على الأقل للمشورة . .
ولو كان ضباط هذه الحركة طلبوا منى الرأى وإلا ستشارة لكنت عارضت خطتهم ، لأنها لم تكن ناضجة .
وكنت أنا أيضا ، ضالعا فى مؤامرة أخرى . . تتعلق بمصر والسودان . .

فقد أرسلت السفارة البريطانية تقريرا لمحمد رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية تقول فيه : إن محمد نجيب يجمع السودانيين فى بيته . . نمرة ٧ شارع سكة الميدانية بسراى القبة ليتباحثوا فى المسائل السياسية ، الأمر الذى يهدد الأمن . . وطلبوا منه أن يعرف حقيقة هذه المؤامرة . .
استدعانى محمد رفعت وسألنى :
- إيه الحكاية :
فقلت له :
- كيف تقبل مثل هذه التقارير . . إنه تدخل فى شئوننا الداخلية . . ثم إنهم بهذا التقرير يتهمون وزارة الداخلية بالغباء ، لانها لا تعرف مايدور فى البلد . .
قال :
- بس قوللى إيه الحكاية ؟
قلت :
- كان عندى ٢٩ سودانيا فى البيت أصلح بينهم . . كان بعضهم متخاصما ، فاجتمع رأى الآخرين على أننى الوحيد الذى يمكن أن أسوى الخلاف وأجمع الشمل وأحل المشكلة ، لأننى صديق للجميع .
وقلت له :

إذا كان المقصود من هذا ألا اختلط بالسودانيين ، فأنا لن أفارقهم أبدا ، بأى حال من الأحوال . . وإن كنت تريد أن ترانى فى أى وقت فابحث عنى فى بيت الرءوس السودانية الكبيرة . . أو فى أى مكان آخر يوجد فيه سودانيون . . وإذا كنت الآن اراهم مرة كل أسبوع ، فإننى بعد ذلك سأراهم مرة كل يوم . .
ولم يمض شهران حتى نقلت من القاهرة إلى سيناء .

وإذا كان رشاد مهنا هو آخر ضابط رفع سيف التمرد على إبراهيم عطا الله عام ١٩٤٧ ، فإننى كنت أول من فعل ذلك عام ١٩٤٢ . .

كنت وقتها مساعدا لنائب أحكام . .

وأتهم أنور السادات ، وكان يومها برتبة يوز باشي ، بأنه يعمل جاسوسا لصالح الألمان . .

وجاء والده منزعجا من التهمة التى أسندت لابنه . .

وأنا أعرف والد السادات . . كان صديقا وجارا لى فى الخرطوم بحرى . . أعرفه من قبل أن يولد أنور . . أما أنور نفسه فلم أعرفه إلا فى اللواء الرابع ، حيث كنت أنا القائد وكان هو ضابط الإشارة . . واللواء الرابع كان من القوات التى حاربت فى فلسطين . . وكان أنور يتمتع بروح الدعابة . . ويميل إلى تقليد الممثلين . . وقد قلد أمامى ، ذات مرة ، نجيب الريحانى .

قال لى والد السادات :

ـ الحقنى . . ابنى قبضوا عليه . .

فطمأنته . .

وكتبت مذكرة رفعتها إلى إبراهيم عطا الله ، قلت له فيها : إنه حتى لو ثبتت تهمة التجسس ضده ، فإنها تهمة ليست ضد مصر ، وإنما ضد عدوتنا بريطانيا . . لصالح الألمان . .

ورفض عطا الله مذكرتى . .

فهددت بالاستقالة من منصبى كنائب أحكام ، إذا ما حوكم ، لأننى سأعتبر نفسى مقصرا فى عملى .

فاكتفوا بطرده من الجيش . .

وخرج أنور السادات من الجيش ليدخل الحرس الحديدى . .

وقد حزنت على هذا التصرف منه . .

فبعض من رجال الحرس الحديدى ، حاولوا ضمى إليهم . . وحاولوا تحريضى على السير فى طريقهم . . وعندما رفضت دعوتهم ، وهددت بالإبلاغ عنهم ، اتهمونى بأننى سأقوم بانقلاب ، مع السيد طه . .

ورحت أقابل يوسف رشاد ، زعيمهم ، فى بيته بالجيزة . .

قلت له :

ـ هل بلغك ما بلغنى عن أكذوبه الانقلاب الذى سأقوم به أنا والسيد طه :

ـ ليست أكذوبة ، كما علمت ، وإنما حقيقة :
قلت :
ـ من أبلغك بذلك كذاب . . لأن لو أنا أردت أن أقوم بانقلاب ، ما أخذت معى السيد طه . .
قال :
ـ لماذا ؟
قلت :
ـ لأنه رغم كونه قائد اللواء الأول فهو لايتمتع بقدر مناسب من الشجاعة ، حتى أننا فى الجيش نطلق عليه « الضبع الأسود » لأنك كما تعلم الضبع حيوان غير شجاع .
قدم لى كأسا من الويسكى . . اعتذرت . . وطلبت كوبا من عصير الليمون . . وانتهت المقابلة . .

لقد كنت كثير التصادم مع أمثال أولئك الضباط الذين باعوا أنفسهم للشيطان . . إبراهيم عطا الله . . يوسف رشاد . . واللواء محمد حيدر الذى جاء بعد إبراهيم عطا الله . . والذى كان أحد ضباط البوليس السابقين ، ذوى الشهرة فى ضرب المتظاهرين أيام ثورة ١٩١٩ ، ثم رجع مديرا لمصلحة السجون .
وكان هذا الاختيار من الملك قمة المهزلة العسكرية . .
فجيوش العالم تتطور وهو يضع على رأس الجيش ضابط بوليس له تاريخ غير مشرف . .

وعندما عرفت هذا الخبر ، لم أذهب لتهنئته كما تجرى العادة . . وهاجمته فى كل مكان أذهب إليه . . وعندما استدعانى بالطريقة الرسمية رفضت أن أذهب إليه أيضا . .
وحاول أخى على المستحيل معى حتى أذهب إليه ، فلم أجد مفرا من ذلك . .
وبمجرد أن دخلت عليه مكتبه حتى قال لى فى غيظ واضح :
ـ أنت لا تعترف بى كقائد عام . . أليس كذلك ؟
فقلت :
ـ أنا لا أعترض عليك شخصيا وإنما أعترض على تعيينك فى هذا المنصب . .

فعندما يعين ضابط بوليس قائدا للجيش ، فهذا يعنى إما عدم توافر الكفاءات فى الجيش ، أو أن الجيش كله لا أهمية له . . وكلا الأمرين إهانة لنا .

فلم يجد حيدر باشا كلاما سوى :

ـ إن علينا جميعا الخضوع لإرادة مولانا !

وشاء القدر أن تأتى حرب فلسطين وهذا الرجل ، الذى لا علاقة له بالجيش ، هو قائدنا !

وعندما قامت هذة الحرب ، كنت معارضا لها من الرصاصة الأولى . .

فلم يكن هناك شيء يمكن أن نكسبه من ورائها ، بل بالعكس ، كان هناك الكثير مما سوف نخسره ، بسبب ضعف قوتنا العسكرية .

لقد كان من الأفضل لنا أن نخوض حربا من حروب العصابات ، مع بقية فصائل المقاومة العربية . . فهذة الطريقة كانت ستمنع تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين . .

صحيح أنه لن يكون بمقدورنا ، مع حرب العصابات ، ان نكسب الجولة . . لكن . . على الاقل لم نكن لننهزم هذه الهزيمة الساحقة .

إن باشتراكنا العلنى فى حرب فلسطين ، أعطينا الصهاينة ذريعة ليمارسوا حقهم ، كأقلية ، فى الحرب من أجل البقاء فى أرض لا علاقة لهم بها .

وكانت هذه الحرب فى حقيقتها عبارة عن سلسلة من الهدنة تتخللها معارك بسيطة . .

وكانت فترات الهدنة الطويلة تستغل لصالح اليهود . .

فقد كان علينا وقت الهدنة أن نتوقف عن فتح النيران ، بينما ينقل اليهود الأسلحة والذخيرة من مستوطناتهم إلى مواقع منعزلة . . بمعاونة رجال الأمم المتحدة أحيانا . .

وحدث مرة أن صممت على تفتيش قافلة من ٤٢ سيارة نقل ، قيل إنها إمدادات مسموح بها ، إلى مواقع فى جنوب النقب . . كانت كل عربة تحمل نصف دستة من إطارات الكاوتش وقطع غيار وبراميل وقود . . وكان هناك ضابطان من ضباط الامم المتحدة . . أمريكى وفرنسى . . يقفان إلى جانب القافلة . .

لم يكن من الصعب التخمين بأن هذه القافلة تحمل أسلحة وذخيرة . . ورغم ذلك رفض الضابطان التفتيش ، بحجة أن الهدنة سارية . . وأن المنظر الخارجى للسيارات لا يوحى بحمل أشياء غير قانونية . .

وكتبت تقريرا بهذا الشأن إلى رؤسائى ، الذين اعترضوا ، بدورهم ، رسميا للأمم المتحدة . . لكن دون جدوى . .

ولم يخل يوم من الأيام ، بعد ذلك ، من مثل هذه الانتهاكات . .

كذلك كان العدو يحصل على الذخيرة والأسلحة من الجو . .

أما نحن فكنا نحارب على قدر استطاعتنا ، رغم ضعف الأسلحة والمهمات التى تحت أيدينا . . وأحيانا لم يكن فى استطاعتنا استخدام بعض المدافع الإنجليزية بسبب نقص القذائف . . وكانت الدبابات التى نركبها تقف عاجزة عن الحركة لعدم وجود قطع غيار لها . . حتى القنابل اليدوية التى استوردناها من إيطاليا كانت سيئة الصنع لدرجة أنها كانت تنفجر فى وجوه الجنود . . أما البنادق التى اشتريناها من أسبانيا فكان يرجع تاريخ صنعها إلى عام ١٩١٢ . . وإذا كان لا بأس بها فى التدريبات ، فإنها لا يمكن أن تقف أمام الأسلحة الأتوماتيكية ، التشيكية ، والأمريكية ، والروسية الصنع ، التى كانت فى أيدى الأعداء .

وحدث فى عام ١٩٤٩ ، انفجارات متكررة ، وغامضة ، دمرت مخازن الذخيرة فى تلال المقطم بالقرب من القاهرة . . هذه الانفجارات أيدت شكوكنا فى أن الأسلحة التى حاربنا بها فى فلسطين كانت فاسدة . .

وعرفنا بعد ذلك أن الملك فاروق وحاشيته كانوا على رأس العصابة التى تاجرت فى الأسلحة الفاسدة . . كانوا يشترون أنواع رديئة من أسواق السلاح بأثمان رخيصة ، ويحاسبون الحكومة على أسعار أعلى ويقبضون الفرق . .

لذلك . .

فليس عجيبا أن ننهزم فى فلسطين ، وأن يحدث لنا ، ماحدث هناك .

إننى هنا لا أحاول أن أجد أعذارا للهزيمة ، ولكن . . من المؤكد أنه لو أتيح للجندى المصرى التدريب الكافى والقيادة السليمة والسلاح المناسب لكان حارب مثل أى جندى آخر فى العالم . . وانتصر .

لأنه هو نفسه الجندى الذى حارب تحت لواء إبراهيم باشا ونجح فى مواجهة الامبراطورية العثمانية . .

لقد كانت هزيمتنا فى فلسطين نتيجة لعوامل سياسية ، دولية ، لم نتمكن فى التحكم بها . . ونتيجة للفساد فى نظام الحكم الداخلى الذى تسامحنا كثيرا بشأنه . . ولم نقدر خطورته إلا بعد فوات الأوان . . فإن الحرب قصة طويلة يجب أن تروى . .

فى بداية عام ١٩٤٨ ، وقبل أن ندخل الحرب رسميا ، كنت برتبة مقدم ، وقائد الكتيبة الثانية مدافع ماكينات بالعريش . . فى سيناء . .

وفى يوم جاءنى الأمر بتشكيل فصيلة من المتطوعين للخدمة مع الفدائيين العرب فى فلسطين . . وقمت باستعراض الفصيلة ، وأمرت من يرغب فى الانضمام للفدائيين والتطوع للقتال معهم أن يتقدم أربع خطوات إلى الأمام . . وأستجاب الكل ، ماعداواحداً . . كان من أصل البانى ، مثل محمد على ، جد فاروق . . وعندما وجد هذا الألبانى كيف ألقى زملاؤه بانفسهم تحت قدمى تعبيرا عن الجميل لاتاحة هذه الفرصة لهم ، اقتنع وانضم إليهم .
وأبلغت القاهرة أن الكتيبة التى بها ٣٥ ضابطا و ٨١٧ جنديا ، قد تطوعت بأكملها لهذه المهمة .
ورقيت بعد ذلك الى رتبة عقيد . .
ولا أنسى أننى حذرت المسئولين من أننا قد نضطر لدخول الحرب مرغمين . . وكتبت عدة تقارير عن حالة الجيش رفعتها إلى القصر والوزارة ، لكنها كانت تقارير بلا رد فعل . . أو صدى .
وعندما قامت الحرب ، كانت مهمتى أن أكون الرجل الثانى فى قيادة القوات المهاجمة ، تحت قيادة اللواء أحمد على المواوى . . وهو رجل قصير ، بدين . . لا يتصرف فى أى شيء بالسرعة المناسبة . . وكان مريضا بالسكر وتصلب الشرايين . . وخلافه . .
ولقد أبديت له ملاحظة حول القوات المشتركة فى الحرب وقلت له :
- إنها أربع كتائب فقط . . وهذا لايكفى !
لكنه هز كتفيه قائلا :
- إن علينا تنفيذ الأوامر لا مناقشتها !
وأحسست بالألم . .

إن أربع كتائب لاتكفى . . خاصة وأنها ضعيفة وغير مؤهلة للقتال ، بعد أن ظل الجيش المصرى تحت قيادة الأنجليز لمدة جيلين حتى عام ١٩٣٦ ، ولم يرغب الانجليز فى إقامة جيش محارب قوى ، خوفا من أن ينقلب عليهم فى يوم من ا يام ويجبرهم على الرحيل .

وأحسست بالمسئولية الكبيرة التى وضعت على عاتقى . .

مسئولية تعويض الإمكانيات الضعيفة برفع الروح المعنوية لقواتنا المحاربة . .

كنت أنتظر وصول القوات إلى العريش . . كانت العريش نقطة تجمعهم . . وكنت أجهز لهم كل ما يحتاجونه من خيام وطعام . . كنت أضع لهم الشاى فى أوانى كبيرة على شريط السكة الحديد ، ليشربوه ، بمجرد وصولهم . . لأنهم كانوا يصلون فى الفجر . . فى عز البرد . .

ولما وصلت الدبابات ، أكتشفت أنه لا يوجد رصيف مناسب لتنزل عليه ، فأنشأت رصيفا سريعا حتى لا تتعطل . .

واضطررت فى إحدى المرات أن أستأجر ٢١ سيارة نقل لنقل جنودى من رفح إلى غزة .

إلى هذا الحد كانت الإمكانيات عاجزة .

وكانت القوة التى فى أيدينا هى قوة الروح المعنوية . .

كنت أتعامل مع جنودى كأى فرد منهم . . أتقاسم معهم الغذاء . . وأنام مثلهم فى العراء . . لافرق بينى وبينهم . .

وكانت هذه صدمة لأغلب الضباط ، حتى الصغار منهم ، والذين كانوا يحافظون على المسافة الكبيرة التى وضعتها التقاليد الانجليزية فى الجيش المصرى بين القائد والجنود . .

وكنت لا أتردد أن أكون بين جنودى فى كل معركة أقودها . .

وبين شهرى مايو وديسمبر اشتركت فى ٢١ معركة فى فلسطين ضد اليهود . . وكنت القائد الوحيد الذى يمر ليلا على جنوده . .

وهنا أذكر أننى ابتكرت أسلوبا جديدا لكلمة « سر الليل » غير الأسلوب الذى كان معروفا . .

كان معروفا أن هناك كلمة لسر الليل يتفق عليها . . فإذا ما دخل أحد المعسكر اعترضه الحراس وطلبوا منه هذه الكلمة . . وقد لا حظت أن الحراس

يزعقون فى طلب هذه الكلمة والجنود يردون عليهم بها بنفس درجة الصوت ، الأمر الذى جعل أى متسلل يهودى بالقرب منا يعرف كلمة السر ، ويدخل إلى معسكرنا بها ويفعل ما يشاء . .

وكان أن ألغيت التعامل بهذا الأسلوب ، وطلبت من الجنود الأ يبرحوا المعسكر فى الليل . . أما أنا فكان معروفا قدومى بألوان فوانيس سيار ة التى جعلتها بديلا لكلمة سر الليل . . كنت أدهن الفوانيس كل يوم بلون معين يعرفه الحراس ، فأدخل وأخرج دون أن يكشف أحد كلمة السر . . السبت أحمر وأبيض مثلا . . الأحد أخضر وأصفر . . الأثنين أزرق وأسود . . وهكذا . .

ولكن . . كانت مشكلة هذه الطريقة أن الفلسطينين الذين لا يعرفونها ، تصوروا أنها خدعة يهودية ، وأن الذى يركب هذه السيارة هو قائد يهودى . . فكانوا يطلقون على النيران . . وكان ربنا يسترها معى . . ولا أصاب . .

على أن هذا لا يعنى أننى لم أصب فى الحرب . . أبدا . . أصبت سبع مرات . . لم أسجل منها إلا الإصابات الكبيرة . . وكانت ثلاث إصابات . . الإصابات الصغيرة التى لم أسجلها ، كانت . . مرة من شظية فى قدمى . . وأخرى من الخلف وأنا أنقل ضابطا جريحا من دبابة ، وهذه بالذات رفضت أن أسجلها خوفا من أن يقال أننى أصبت بها وأنا أجرى ، لأنها كما قلت كانت من الخلف . . وباقى الإصابات الخفيفة كانت من مثل هذه العينات .

أما الإصابات الكبيرة التى سجلتها ، فكانت تستحق فعلا التسجيل . كانت هناك إصابة من لغم انفجر على بعد متر ونصف المتر منى ، أصابنى فى صدرى وتحت إبطى ويدى اليمنى .
الإصابة الثانية كانت رصاصة ، أخترقت شعرى ، واحتكت برأس ، وجرحتنى جرحا سطحيا .
أما الإصابة الثالثة والخطيرة ، فكانت فى معركة التبة ـ ٨٦ !
كانت هذه المعركة فى ديسمبر ١٩٤٨ .
أصبت فى صدرى . . فى الشرايين القريبة من القلب . . وعندما نقلت إلى المستشفى كنت فى حالة إغماء تام . . حتى تصور الأطباء أننى مت . . وفعلا كتبوا ذلك على الورق .

لكن . . النقيب صلاح الدين شريف رفع الغطاء عن وجهى ولاحظ أن عينى ترمش . . فأمر باستدعاء طبيب ثان ، نجح فى إعادتى إلى الحياة بواسطة الادريالين ، ونقل الدم ، وخيمة الاكسوجين .

وعندما عدت إلى الحياة تذكرت ما قاله لى عراف عجوز فى بيت صديقى المرحوم السيد عبد الله النجومى ، بالمعادى .

كان النجومى مريضا فرحت أزوره . . كان الوقت بعد المغرب وأنا أعرف أنه لايستقبل أحدا بعد المغرب ، حتى يتفرغ لصلاته حتى الفجر . . لكنى مع ذلك طرقت الباب . . وفتح السفرجى ؛ فقلت له :
ـ أنا أعرف أننى جئت فى وقت غير مناسب ، لكن أبلغ البيه أننى على الباب .
وجاء الرجل بنفسه ليستقبلنى . . وجاء بعدى عراف صديقه أسمه قاسم ، فاستقبله أيضا .
طلب العراف ، أن يقرأ طالعى ، فقبلت .
قرأ آيات من القرآن وكتب بعضها فى ورقة ، وضعها تحت الطربوش الذى يضعه على رأسه ، وبعد دقائق ، قال :

ـ حيقولوا عليك دخلت المولد وطلعت من غير حمص . . لا . . أنت هتاخد حمص ، وحمص وحمص . . حيقولوا مات ٣ مرات . . مش حتموت . . أنت عمرك زى القطط بسبع ارواح . .
وفعلا نجوت من الموت ثلاث مرات ، وحصلت على ثلاثة نياشين من الحرب .

وقد دفعت نجاتى من الموت أكثر من مرة ، أصدقائى ، وزملائى ، وجنودى إلى أن يقولوا عنى : « أننى ضد الرصاص » . . وأعتقد كثير من الجنود والضباط السودانيين الذين كانوا يقاتلون معنا ، أننى أحمل حول عنقى حجابا يحمينى من الموت .

قبل معركة التبه ـ ٨٦ بشهور . . بالتحديد فى شهر يونيو . . كسبت قواتى أكبر معركة فى تاريخ حرب فلسطين . . فى أسدود جنوب تل بيب . .
فبعد ثلاثة أيام من المعارك تمكنا من قتل ٤٥٠ فردا وأسرنا ١٢٢ رجلا وسبع بنات . . وكانت خسائرنا طفيفه جدا .
وبعد أسبوع من معركة نيتسانيم ، أشاد اللواء المواوى بشجاعتى ، وأوصى ، إما أن أحصل على رتبة اللواء ، أو أمنح وسام نجمة الملك فؤاد ، والتى كانت تعتبر أعلى وسام عسكرى فى مصر ، فى ذلك الوقت .

وفى تلك المعركة انفجر بالقرب منا اللغم الذى أصابنى فى صدرى وتحت إبطى ، لكنى حاولت أن أخفى الجروح السطحية التى أصبت بها عن اللواء المواوى ، خوفا من أن يأمر بعودتى للقاهرة .

وبعد أيام من تلك المعركة ، وصل اللواء محمد فهمى نعمة الله ، من القاهرة ، فسلمته قيادة اللواء الثانى ـ مشاة ، الذى كان تحت قيادتى ، وتسلمت قيادة اللواء الرابع مشاة ، لأحل محل اللواء محمد فوزى الذى وقع مريضا . . وكان اللواء الرابع يقاتل فى جبهة عريضة من بيت لحم إلى الفالوجا ، ومنها إلى المجدل على شاطىء البحر المتوسط .

وفى شهر يوليو . . قبيل الهدنة الثانية ، بليت قواتى بهزيمة قاسية فى معركة « نجبة » . . وكان سبب الهزيمة رفض اللواء المواوى خطتى وأصر على تنفيذ خطته التى كانت فى رأيى يشوبها الكثير من الأخطاء . . وعندما رفضت تنفيذها ، أضطر أن يعفينى من القيادة . . ولكن عندما أدرك أن الهزيمة واقعة . لا محالة ، طلب منى أن أقود الانسحاب . . وفعلا قمت بهذه المهمة ، فى ظروف بالغة الصعوبة ، وتحت القصف الجوى للاعداء .

وبعد عدة أيام ، طلبت من المواوى تعزيز قواتنا ، وتعويضنا عن الخسائر التى أصابتنا ، لكنه لم يصدق أرقام الخسائر التى أذكرها ، وأعتقد أننى أبالغ فيما أقوله ، وأحاول أن ألومه على الهزيمة .

وأمام جمع من الضباط تفوه المواوى بالفاظ أعتبرتها أهانة . . قال :
ـ أنت كذاب !
فغضبت وثرت وقلت له أمام أركان حربه :
ـ بل أنت الكاذب والمزور . . وكل ما تملكه هو أن تحاكمنى وتضربنى بالرصاص . . لكن لا تقل لى أنت كاذب .
أكثر من ذلك ، طلبت منه الاعتذار ، لكنه لم يعتذر .

وكتبت تقريرا إليه ، طالبا منه الاعتذار كتابة ، لكن أمر بأن أسلم نفسى إلى القيادة العامة بالقاهرة ، مع توصيه منه أن أحاكم بتهمة ازدراء قادتى . ولكن شيئا من هذا القبيل لم يحدث ، وذلك لتناقض هذه التوصية السابقة بترقيتى أو منحى وساما .

فى القاهرة كنت ألوم نفسى بشدة لما حدث . . ولم تكن هذه هى المرة الأولى ولا الأخيرة التى ألوم فيها نفسى على حدة طباعى . .

وفى القاهرة عينت قائدا لمدرسة الضباط العظام . .

ورغم أن قادتى أعتبروا هذا المنصب الكبير كتعويض لى ، فأننى كنت أشعر بالتعاسة ، وكنت أعتبر هذا المنصب بمثابة عقاب لى ، لأننى كنت أفضل أن أحاكم عسكريا ، أو أن يرسلونى إلى الجبهة .

ويبدو أن أحساسى بالتعاسة ، واختناقى فى القاهرة بعيدا عن الجبهة ، ضاعف من غليان الثورة فى داخلى ، وجعلنى أتحدث مع بعض الضباط ممن كنت أتوسم فيهم الرجولة ، بضرورة التغيير . . تغيير نظام الحكم الذى كبلنا بقيود من الاستهتار والفشل والهزيمة .

ولم تمض المشادة بينى وبين المواوى بلا نتيجة . .

فى شهر نوفمبر ، وبعد عدة انسحابات مخزية . أعفى المواوى ، وحل محله اللواء أحمد فؤاد صادق ، لقيادة القوات المصرية فى فلسطين . . وقام اللواء صادق بتعيينى قائدا للواء العاشر مشاة ، الذى كان يعتبر القوة الضاربة الرئيسية لنا .

وكان قرار تعيين اللواء صادق هو احد قرارات لجنة التحقيق التى شكلت لبحث الخلاف بينى وبين المواوى ، وكان يرأسها إسماعيل شيرين ، زوج الأميرة فوزية ، إمبراطورة إيران السابقة ، وأخت الملك فاروق . . وهو أصلا كان مقدم ـ شرف ، حصل على هذه الرتبة بفضل زوجته . . وهذا لا ينفى أنه كان شابا كفئاً . . أشكره على وقوفه بجانبى .

وعندما رفع إسماعيل شيرين تقريره إلى الملك ، أمر بترقيتى ، ترقية استثنائية إلى رتبة اللواء وقبل سفرى إلى الجبهة جاء ياوره الخاص ، وهنأنى أمام طلبة معهد الضباط العظام ، بالترقية ، وسلمنى علامتى الرتبة ، هدية منه ، وقال : إن الملك وقع أمر الترقية وسيظهر فى الأوامر بعد يومين .

- وخيرونى ، انا ، أو صادق ، أو اللواء عباس عبد الحميد لقيادة القوات فى فلسطين . .

لكن . . حيدر رئيس الأركان ، الذى رقى إلى رتبة الفريق ، التمس من الملك ألا يرقينى ترقية استثنائية طالما مازلت حيا . . ونزل الملك على رأيه . . واستبدلت الترقية بنجمة فؤاد الأول العسكرية التى حصل عليها الكثير من

الضباط وهم يجلسون فى النوادى بالقاهرة .

واختار حيدر الفريق صادق لقيادة القوات .

وطلبنى اللواء صادق للحضور فورا إلى الجبهة ، بغض النظر عن حالتى . . وفى الطريق ، سمعت فى الراديو ، خبر منحى نجمة فؤاد .

وتسلمت قيادة اللواء العاشر . . وكان يتكون من أربع كتائب مشاة ، ووحدات من المدفعية والدبابات والمهندسين والشئون الإدارية وقوات مساعدة أخرى . كان ذلك فى ١٩ نوفمبر .

وبعد أسبوعين أضافوا إلى قيادتى اللواء الرابع مشاة . . وبهذا أصبحت أول ضابط مصرى يقود ما يربو على الفيلق فى الميدان .

وفى ذلك الوقت ، كنا قد خسرنا أسدود والمجدل . . وتراجعت جبهتنا فى بيت لحم إلى خط يقع بين بئر سبع وغزة على البحر المتوسط .

وفى ليلة ٢٢ ديسمبر ١٩٤٨ ، اخترق العدو صفوفنا ، جنوب غزة بين دير البلح وخان يونس ، وتمكن من الاستيلاء على التبة - ٨٦ ، وكان يمكنهم وهم فوق هذه التبة ضرب دير البلح وخان يونس .

وفى فجر يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٤٨ ، حاولت بمساعدة ثلاث مجموعات وخمس دبابات ، محاصرة التبة - ٨٦ . . لكن الدبابات تعطلت قبل أن تصل إلى مواقع العدو . . وفقدنا ميزة المفاجأة .

ومن بين هذه الدبابات المعطلة وقعت إحداها بين نيران العدو وتمكن واحد من طاقم الدبابة من الخروج بسلام ، وقتل الثانى فى الحال ، أما الثالث ، فكان مصابا بداخل الدبابة . . وحاولت إنقاذه . . وتركت عربتى الجيب وسائقى وزحفت حوالى ٥٠٠ ياردة ، تحت النيران المكثفة لكى أتمكن من سحب المصاب . . وبينما كنت أجذبه لإخراجه من الدبابة ، أصيب فى رأسه ، ومات فى الحال . . وأصابتنى قذيفتين قبل أن أتمكن من الاختباء خلف الدبابة . . واستلقيت على ظهرى وفككت معطفه . . وتدفق الدم بغزارة من فتحة صدرى . . ورغم أننا كنا تحت ضوء النهار إلا أننى أحسست أن الدنيا أظلمت من حولى .

كانت هذه هى الإصابة التى ذكرتها من قبل .

وفى حوالى الساعة الثامنة إلا ربع ، أجبرت الدبابات الاسرائيلية على الانسحاب ، وتمكن النقيب جمال صابر بمساعدة اثنين من الجنود من الكتيبة السابعة ـ مشاة من إعادتى إلى عربتى الجيب . .

حاول الرجال حملى ، لكننى أصررت على المشى ، واضعا يداى على ظهرى ، لكى أخفى عن القوات مدى خطورة إصابتى ، ولرفع روحهم المعنوية ، وحتى لا يرى الجنود أن قائدهم حمل من أرض المعركة .
وفى مقر قيادتى شرحت ما حدث وأعطيت الأوامر للاستمرار فى المعركة .
وتولى اللواء محمد رفعت القيادة مكانى وفوجئت به يطلب منى أن أسامحه ، على ما بدا منه قبيل المعركة ، إذ قال لى :
ـ ربنا يرسل لك رصاصة لو أدخلتنا فى متاعب أكثر مما نحن فيها .
وبالرغم من الألم الشديد ، فقد حاولت إخفاء ما أشعر به ، وحاولت أن أبتسم ، وقلت له :
ـ أكتب وصيتى لأبنائى .
وكتب محمد رفعت ما أمليته عليه وكان :
ـ تذكروا يا أبنائى أن أبيكم مات بشرف . وكانت رغبته الأخيرة أن ينتقم من الهزيمة فى فلسطين ويجاهد لوحدة وادى النيل . .
ولكنى لم أمت ، كما رويت .
وعندما جاء اللواء صادق لزيارتى ، سألته :
هل أحرزنا انتصارات على العدو ؟
فقال والدموع فى عينيه :
ـ إننا أجبرنا العدو على الجلاء عن التبة ـ ٨٦ وخان يونس ودير البلح .
وعندئذ قلت له :
يمكننى الآن أن أموت سعيدا .

وبعد أسابيع نقلت إلى مستشفى العجوزة فى القاهرة . . وفى أبريل ١٩٤٩ كنت فى تمام الصحة والعافية ، وتركت المستشفى لألحق بأسرتى فى البيت الصغير الذى استأجرته زوجتى فى حلمية الزيتون . .
انتهت حرب فلسطين بالنسبة لى . . بعد هذه الإصابة . .
وعدت إلى القاهرة ، قائدا لمدرسة الضباط العظام ، مرة أخرى . .

لكن . .

تأثير ما حدث لنا فى فلسطين ظل فى صدرى كالرصاصة التى تستقر فى اللحم ولا تخرج منه ابدا . .

ففى فلسطين اكتشفت ان العدو الرئيسى لنا ليس اليهود وانما الفساد الذى ينخر كالسوس فى مصر ، والذى كان يتمثل فى الملك وفى كبار القواد والحاشية والاقطاع وباقى عناصر النظام ودعائمه فى مصر .

وكنت اول من قال : ان المعركة الحقيقية فى مصر وليست فى فلسطين . . وهى العبارة التى نسبها جمال عبدالناصر لنفسه بعد ذلك .

وكنت لا اتردد فى ان اقول هذا الكلام لكل من أثق فيه من الضباط .

كنت احرضهم على القتال فى فلسطين والانتباه لما يدور فى مصر

وكنت اوحى اليهم بضرورة عمل اى شىء لانقاذ البلد مما هى فيه .

وفى فترة من الفترات كان الصاغ اركان حرب محمد عبدالحكيم عامر اركان حرب للوائى . . ويبدو ان كلامى عن الفساد فى القاهرة اثر فيه ، فذهب الى صديقه البكباشى أ.ح . جمال عبدالناصر وقال له ـ كما ذكر لى بعد ذلك :

لقد عثرت فى اللواء محمد نجيب على كنز عظيم .

وخلال حلقات النقاش تعرفت على جمال عبدالناصر والصاغ كمال الدين حسين والبكباشى انور السادات ، وصلاح سالم وغيرهم من الضباط الذين كانوا يؤمنون بما اقوله .

وفى خلال شهور الحرب لم يلفت جمال عبدالناصر انتباهى .

لكنى اتذكر انه كان يحب الظهور ويحب ان يضع نفسه فى الصفوف الاولى والدليل على ذلك ما حدث فى الفالوجا .

كنا نلتقط صورة تذكارية فى الفالوجا ، ففوجئت بضابط صغير ، يحاول ان يقف فى الصف الأول مع القواد ، وكان هذا الضابط جمال عبد الناصر ، ولكنى نهرته وطلبت منه ان يعود لمكانه الطبيعى فى الخلف .

وعرفت عنه ، بعد ذلك ، انه لم يحارب فى عراق المنشية ، كما ادعى ، ولكنه ظل طوال المعركة فى خندقه لا يتحرك . . وفى الحقيقة كان الجنود السودانيون هم الذين حاربوا فى هذا المكان ونجحوا فى الاستيلاء على ١٣ دبابة من اليهود . . والمعروف ان السودانيين مغرمون بكتابة الشعر . . وقد سجل بعضهم تفاصيل القتال الذى دار فى عراق المنشية فى قصائد طويلة ، وصفوا فيها عبدالناصر وصفا

غير لائق بضابط مصرى .

وفى اثناء الهدنة مع اليهود ، جاء ضابط يهودى اسمه « كوهين» يسأل عنه . . ولم يكن موجودا . . فكتب له خطابا وتركه مع ضابط كان من الاخوان المسلمين اسمه معروف الحضرى .

ولم اعرف ما فى الخطاب ، لأن اخلاقنا لم تكن لتسمح بقراءته .

وفى الحقيقة ، لم اعر مثل هذه الامور اهتماما ، فى ذلك الوقت ، وكان هذا خطأ كبيرا من اخطائى ، التى اعترف بها . . لكنه اعتراف جاء بعد فوات الاوان .

فبعد ان نقلت الى مستشفى العجوزة بالقاهرة كان عبد الحكيم عامر يزورنى كثيرا . . وزارنى اكثر من مرة بعد ذلك فى مدرسة الضباط العظام . . وفى هذه الزيارات ، كان يقول لى :

- اننى وبعض زملائى من الضباط نريد ان نمحو الهزيمة التى بلينا بها فى حرب فلسطين . . ونحن نطلب منك النصيحة .

ووعدته بذلك . .

لكننى لم انفذ وعدى بسرعة . . لأن بعضا من الضباط الكبار ، من أقرانى ، كانوا يسعون وأنا معهم ، لارغام الملك على تطهير الجيش من العناصر الفاسدة . . وكان علينا ان نضع خطة عمل ، وننفذها . . وللأسف ، هذا لم يحدث . . لانهم كانوا يتكلمون اكثر مما يرغبون فى الفعل وبدأ صبرى ينفذ . .

وفى يوم من الايام جاء عامر ومعه جمال عبدالناصر . .

وعرفت يومها انه زعيمهم لتنظيمهم ، وانه جاء ليرى ويزن تقدير عامر لى ، ولشخصيتى . .

وكان هذا شيئا غريبا . . ان تقوم الرتب الصغيرة بفحص وطنية الضباط العظام ومع ذلك لم اعترض . . لاننى كنت مقتنعا بان خلاص مصر يقع على عاتق الضباط الاحرار الصغار . . فقد كان ينقص ضباطنا العظام الجرأة . . كنا نريد حيوية واصرار وحرارة الصغار وعقول وحكمة وخبرة الكبار . .

وكان عامر وعبدالناصر يوافقانى على هذا الرأى . .

ولم يمض وقت طويل حتى أصبحا يزورانى بالليل . . واحيانا كنت اتأخر لارتباطات ما ، واصل الى بيتى لاجد سيارة عبد الناصر الاوستن السوداء تقف فى زاوية قريبة من بيتى الذى كان يقع فى شارع سعيد ، فى آخر شارع جانبى من

شارع طومانباى .

فى الميدان كان يقع ملهى ليلى يسمى « حلمية بالاس » . . وعندما كنت اتأخر ، وحتى يبعد عبد الناصر الشبهات عن نفسه ، كان يتظاهر هو وعامر بانهما ينتظران شخصا ما فى النادى الليلى . .

واحيانا كان يأتى معهما صلاح الدين سالم ، وكان رائدا صغيرا ، وان كانت صلعته تعطيه سنا اكبر من سنه الحقيقى ، وهو ٣٠ عاما .

وقد كنت لا استريح لصلاح سالم ، وكان فى قلبى بعض الشكوك فيه ، لصلته الوثيقة بالفريق محمد حيدر ، لكن تبين لى ان شكوكى ليست فى محلها .

كان عبدالناصر ايامها ، أسمر اللون ، ذا أنف كبير ، ومستقيم ، وكان أضخم الثلاثة .

أما عامر فكان طويلا ونحيفا ودائم القلق .

بينما كان صلاح سالم فى نفس وزنى وحجمى تقريبا . . وكان يلبس نظارة سوداء لتعب فى عينيه .

وكان ثلاثتهم من اصحاب الشوارب . . مثلى .

وبعد لقاءات عديدة ، اتفقنا على الخطوط العريضة . . ودعانى عبد الناصر الى تنظيم الضباط الاحرار . . وهو تنظيم سرى كان هو مؤسسه ، ورئيسه . . ووافقت على ذلك .

ومن بين الضباط التسعة الذين كانوا فى مجلس القيادة بعد الثورة ، كنت اقابل خمسة منهم قبل الثورة : عبد الناصر ، عامر ، حسن ابراهيم ، صلاح سالم ، وزكريا محيى الدين .

وبعد حرائق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ كان عبدالناصر يأمل ان يضع اللواء صادق رئيسا للتنظيم ، لكن اللواء صادق تنحى واعتذر عن هذه المهمة ، وان كان لم يتوقف عن مساعدتنا بين الحين والآخر .

وفى تلك الايام كان كل شيء يدفعنا الى الاسراع بقيام الثورة .

الفصل الرابع

العد التنازلى

- الملك فاروق يبيع مخلفات الحرب العالمية الثانية للجيش المصرى .
- رفض عبد الناصر أن استقيل وقال : سيكون تنظيما بلا غطاء .
- قدمت للوفد مذكرة تشرح أسباب هزيمتنا فى فلسطين لم يأخذ بها .
- كنت أول من أطلق عبارة « تنظيم الضباط الاحرار » .
- احترقت القاهرة وانتهى الوفد والنحاس والملك فاروق أيضا .
- كاد عبد الناصر أن يكشفنا بحادث اغتيال حسين سرى عامر .

بدأت سنوات العد التنازلى للثورة من عام ١٩٤٩ .

فى اغسطس ١٩٤٩ ، عينت مديرا لسلاح الحدود . . وحمدت الله اننى لم انقل الى قيادة الجيش ، لان ذلك معناه اننى يجب ان اكون قريبا من الملك رغم ارادتى .

لكن . . هذا لا يعنى اننى لم اكن قريبا من فساد الملك ورجاله . . على العكس . . كان الفساد قريبا منى . . وكانت رائحته على مرمى انفى . . كان الفساد فى سلاح الحدود الذى كنت رئيسه .

فقد كان حسين سرى عامر وكيل السلاح . . وكان وجوده عارا على الجيش المصرى كله . . فقد ارتبط اسمه اكثر من مرة ، بتهريب المخدرات وبيع الاراضى بالطرق غير المشروعة ، واتهم بشراء الاسلحة المتخلفة من الحرب العالمية الثانية فى الصحراء الغربية ، وبيعها للجيش المصرى باسعار خرافية . . بخلاف اتهامات اخرى مثل سرقة ونهب اموال البدو ، ومصوغات نسائهم . . ومثل جرائم الرشوة والتزوير .

وكان الملك يشترك شخصيا فى مثل هذه العمليات ، خاصة عمليات بيع السلاح ، لكننى لم اعرف ذلك الا عام ١٩٥٠ ، وقبل ذلك التاريخ ، كنت بدون فهم ، ابلغ الملك بهذه الانحرافات .

فى عام ١٩٥٠ شكلت لجنة تحقيق فى الانحرافات والمخالفات التى ارتكبت داخل الحدود ، ووصلت الى ٦٠٠ جريمة ، كان اغلبها من فعل حسين سرى عامر . . وانتهى التحقيق بادانته . . وعندما رفعت نتيجة التحقيق الى اسماعيل شيرين ، تمهيدا لرفعها الى الملك ، قال :

ـ الملك لن يفعل له اى شيء ، لان حسين سرى صديقه ، وانت ستكسب عداوته وعداوة الآخرين بلا طائل .

فقلت :

ـ أنا أصر على رفع التقرير للملك .

وفعلا رفع التقرير للملك .

لكن . . الملك بدلا عن ان يعاقب حسين سرى على جرائمه ، طلب منى ان يرقى ترقية استثنائية .

ورفضت . .

فصعد الملك الموقف ، فأمر بترقيته استثنائيا ، وبتعيينه مديرا للسلاح بدلا منى .

فقررت الاستقالة . . وكتبتها فعلا . .

لكن اصدقائى الذين اثق فيهم اقنعونى بان الاستقالة ستضاعف من انتصار الملك على . . وطلب منى جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر ان اتريث فى هذا الموقف . . وقالا لى :

ـ انك فى حالة الاستقالة ستجعل تنظيم الضباط الاحرار بلا غطاء .

وفى ذلك الوقت كنت مريضا ، ولم ارغب فى مزيد من الجدل ، فقررت قبول المنصب الجديد الذى عرضه على حيدر باشا ، وهو مدير سلاح المشاة .

وبعد ايام سألنى حيدر باشا :

ـ هل قبلت المنصب الجديد ؟

فقلت :

ـ أنا غير راض عنه !

واقترحت عليه ان اكون مديرا للمخابرات . . فضحك . . وقال :

ـ انت تعرف ، كما اعرف انا ، ان الملك لن يسمح لك بهذا المنصب ، لانه للمقربين منه فقط ، وهو يعتبرك عدوا له .

قلت :

ـ ولماذا لا أبقى فى سلاح الحدود كما أنا !

قال :

ـ أنت لا تعرف صلة حسين سرى بالملك . . انه أقرب منى . . أنا لا أستطيع أن اقابل الملك بالسهولة التى يقابله بها حسين سرى . . يانجيب ، اسمعنى . . لا داعى للاستقالة ، لانك ستدخل فى متاعب اكبر . . اقبل المنصب الجديد . . على الاقل لمدة شهرين . . واعدك ان اتخلص من حسين سرى قبل انتهاء المدة .

كان حيدر باشا يفعل المستحيل حتى اقبل عرضه . . لان الملك كان غاضبا منه ، وقال له :

ـ لن أرى وجهك حتى تنفذ تعليماتى . . ويعين حسين سرى مديرا لسلاح الحدود .

وقبلت أن أكون مديرا لسلاح المشاة ، ليس من اجل خروج حيدر من ورطته ، وانما نزولا على رغبة الضباط الأحرار .

وفى نفس الوقت كنت قلقا مما قاله حيدر عن عداوة فاروق لى . . هل كان

يعلم بصلتى بالضباط الاحرار ؟ . . ام ان هناك سببا آخر وراء هذه العداوة ؟ .

وتذكرت واقعة ، جرت معى أنا والملك فى سلاح الحدود . .
فى رأس الحكمة ، على شاطىء البحر المتوسط ، بين الاسكندرية ومطروح اتخذ الملك لنفسه قصرا صيفيا ، بناه من الخامات المسروقة ، على أرض مسروقة وبعمال لم يدفع لهم أجورهم .
وعندما كنت مديرا لسلاح الحدود ، أمرت بعدم استخدام الجنود كخدم فى القصر . . وطلبت من وزارة الحربية عدم بيع الأراضى المملوكة للدولة . .
ولهذه الأسباب اعتبرنى الملك عدوا له . . وعين بدلا منى رجلا مثل حسين سرى لينفذ له رغباته . .

ولهذه الأسباب كان الملك يصفنى بدون كيشوت الذى يزحف إلى الهاوية .
وفى ذلك الوقت ، حصل الوفد على أغلبية ساحقة فى البرلمان ، وشكل مصطفى النحاس حكومة جديدة له . . فقررت أن أمد الجسور بينى وبينه . . فأبلغته عن طريق فؤاد سراج الدين وزير الداخلية الذى أصبح فيما بعد وزيرا للمالية ، بضرورة الإسراع فى بدء الإصلاح الضرورى ، لينقذ مصر من الكارثة التى تعيش فيها .

وكان يشاركنى فى هذا الرأى جمال عبدالناصر وأعضاء اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار . .
وكنا نرى أنه لا ضرورة اطلاقا للقيام بالثورة إذا ما تمت الاصلاحات المطلوبة .
لقد حاولنا الاصلاح قبل أن نلجأ الى القوة
وكنا نوزع المنشورات السرية التى تطالب بذلك .

وكتبت مذكرة من تسع صفحات للنحاس باشا ، شرحت له فيها ما حدث لنا فى فلسطين ، وما يحدث لنا على يد حيدر ، والنهب الذى يتعرض له تموين الجيش ، ونقص الأسلحة والعتاد الذى نعانى منه . . شرحت له أسباب تذمر الجيش فى ١٢ بندا . . ذكرتها له فى المذكرة .
وسلمت المذكرة لصديق وفدى عضو فى البرلمان ، فرفعها لفؤاد سراج الدين ، ليتولى رفعها إلى النحاس .

طلب منى فؤاد سراج الدين أن أشطب توقيعى من على المذكرة . . فرفضت وقلت له :
ـ المزور المزيف هو الذى لا يضع اسمه . . وأنا متحمل كل ما يترتب على هذه المذكرة . . من يزمر لا يغطى ذقنه .

ورفعت المذكرة الى النحاس . .
ولكنى . . لم اتلق ردا عليها . .
فعلى ما يبدو لم يؤخذ الكلام الذى جاء فى المذكرة مأخذ الجد . . واعتبرونا أطفالا . . لا يجوز ان نعمل بالسياسة .

وعلى ما يبدو ، كانت العلاقة بين الوفد والسراى فى اسوأ حالاتها . . ولم تكن فى حاجة الى مذكرتى ليقع الاشتباك بينهما . . فقد قرر النحاس اجراء تحقيق فى وزارة الحربية . . اسفر عن اتهام ١٣ شخصا ، من بينهم الامير عباس حليم ، ابن عم الملك ، الذى اتهم بانه تقاضى رشاوى وعمولات وصلت الى ٤٠٠ الف دولار . . وتمكن بوللى خادم الملك من سحب أرصدته من البنك قبل أن يفحصها المدعى العام ، الذى امر بمراجعة حسابات المتهمين فى البنوك . . أما أدمون جلاد الرجل الخطير والمهم فى عمليات بيع السلاح مع الملك ، فلم يكن محظوظا ، لانه كان بالمصيف مع الملك على شواطىء فرنسا . . ولم يتمكن من العودة الى القاهرة ليمنع المدعى العام من فحص حساباته .

وكان ادمون قد تمكن من ان يحصل على حوالى نصف مليون دولار عمولات من بيع الاسلحة الفاسدة . . وهو اصلا ، كان وكيلا لبيع اقلام الحبر الامريكية فى مصر .

لكن التحقيق لم يستمر . . فقد اقترب الملك من دائرة الاتهام . . وكان امام المدعى العام اما ان يتهمه ويحقق معه واما ان يقفل التحقيق . . وخشى المدعى العام ان يتهم بالعيب فى الذات الملكية ، فقرر على مضض اقفاله . . وسمح لجلاد بالهروب الى فرنسا واللحاق بالملك هناك .

ورغم انهاء التحقيق قبل ان يكتمل ، فقد اصبح معروفا ان الملك واقرانه حولوا كارثة فلسطين الى ثروات .

واذا كان النحاس قد فجر بالتحقيق الذى طلبه هذه الفضيحة . . فإنه لم تمر عليه اسابيع قليلة الا وكان بطلا لفضيحة اخرى . . كانت الفضيحة الجديدة هى فضيحة القطن ، التى شملت زوجته الشابة زينب الوكيل . . وشملت فؤاد سراج الدين وعائلة زوجته . . واتهموا جميعا بافلاس بورصة الاقطان بالاسكندرية لصالحهم .

كانت الفضيحة فى خريف ١٩٥٠ .
وفى نفس الفصل ، قمت بالحج لاول مرة الى مكة .

كنت فى حاجة الى العون الروحى . . فقد كانت ابنتى « سميحة » مريضة بسرطان الدم « لوكيميا » . . وكان قلبى يتمزق عليها . . وعلى شبابها وحيويتها ونبوغها . . فأحسست اننى فى حاجة الى زيارة بيت الله الحرام ، حتى استجمع شجاعتى من جديد .

كانت سميحة طالبة متفوقة فى ليسانس الحقوق . . وكانت محبوبة من الجميع . . وكان لها نشاط بارز فى الجامعة ، فى وقت كان دخول البنت فيه الجامعة امرا مرفوضا من المجتمع .

فى البيت الحرام ، طلبت من الله ان يشفيها . . او ينقذها من عذاب ذلك المرض اللعين . . وطلبت من الله ان ينهار عرش فاروق على يدى . . وطلبت من الله ان يظهرنى على العالم اجمع ، ويحقق آمالى فى تحرير بلادى .

وبعد عودتى الى القاهرة ، ماتت سميحة ، واستراحت من هذا العالم . وساعة ان كنت اتقبل العزاء فيها ، ابلغت بنبأ ترقيتى الى رتبة أعلى . فى ذلك الوقت كان الوفد فى قمة نجاحه الحزبى والسياسى . .

كان الوفد ، فى ذلك الوقت يشن حرب الكفاح المسلحة على الانجليز فى منطقة القناة . . وكان يساعده جنود بلوكات النظام ، وبعض اعضاء تنظيم الضباط الاحرار . . لكننا كجيش منظم لم نشترك فى هذه العمليات . وكان لهذا الموقف انعكاسات هامة فى صفوف الجيش . . تمثلت فى سيل المنشورات التى بدىء فى توزيعها باسم « الضباط الاحرار » وهو الاسم الذى اخترناه لتجمعنا الموحد بعد حرب فلسطين .
ولا أريد أن أنسب لنفسى ما هو ليس لى . . ولكن . . الحقيقة تقتضى أن أقول ، اننى أول من اطلق عبارة « الضباط الاحرار » على التنظيم الذى اسسه جمال عبدالناصر . .

وأنا الآن أعتذر عن هذه التسمية ، لأنها لم تكن اسما على مسمى . . فهؤلاء لم يكونوا أحرارا وإنما كانوا أشرارا . . وكان أغلبهم ، كما اكتشفت فيما بعد ، من المنحرفين أخلاقيا وإجتماعيا . . ولأنهم كذلك كانوا فى حاجة الى قائد كبير ، ليس فى الرتبة فقط ، وإنما فى الاخلاق أيضا ، حتى يتواروا وراءه ، ويتحركوا من خلاله . . وكنت أنا هذا الرجل للأسف الشديد .

لا أريد أن أبدو غاضبا أو ساخطا أو منفعلا ، بسبب ما حدث لى على

أيديهم ، بعد الثورة ، فهذه انفعالات ذابت مع السنين ، وتلاشت مع الشيخوخة ، التى تجعل الانسان معلقا بين الموت والحياة . . بين السماء والارض . . بين الوجود والعدم .

كانت منشورات « الضباط الاحرار » تملأ وحدات الجيش . . وأحيانا كانت تخرج الى المدنيين . . وكانت تتكلم عن فساد الحكم وتفضح عيوبه ، وتصرخ فى وجه انحرافات قادة الجيش ، وتطالب بالاصلاح والتغيير .

صدر المنشور الاول للضباط الاحرار فى اكتوبر ١٩٥٠ ، تحت عنوان : « نداء وتحذير » . . جاء فيه :

« إن الضباط جزء لايتجزأ من الشعب ، واذا كان الشعب يحكم حكما ملكيا مستبدا ، فان الجيش هو الآخر يخضع لنفس الظروف منذ سيق الى مجزرة فلسطين ، دون رأى ودون استعداد ، وفرضت عليه الخطط الفاسدة والاسلحة الفاسدة » .

وخرج هذا المنشور من جماعة او خلية الضباط الاحرار فى سلاح الفرسان ، والتى كان مسئولا عنها ملازم اول اسمه جمال منصور . .

ومن المهم ان اقول ان خلايا الضباط الاحرار لم تكن لتعرف بعضها البعض . . وكان من الطبيعى ان تصل منشورات البعض الى البعض الآخر طمعا فى اثارة وطنيته .

وبعد أن وجد المنشور الأول صدى كبير . توالت المنشورات الاخرى . . كان هناك منشوراً فى كل مناسبة تمر على البلاد ، تقريبا . .

فى عام ١٩٥١ استدعى الوفد جميع العمال المصريين الذين يعملون فى معسكرات الجيش الانجليزى فى منطقة القناة . . طلب منهم ان يتركوا هذا العمل ، فاستجابوا له . . كان عددهم حوالى ٤٠٠ الف عامل . . ووعدتهم حكومة الوفد بتدبير وظائف واعمال بديلة لهم .

فى اكتوبر من نفس العام ، دعت الامم المتحدة مصر للدخول مع بريطانيا وفرنسا وتركيا فى مشروع للدفاع عن الشرق الأوسط ، لكن الوفد قام بالغاء معاهدة ـ ١٩٣٦ ، واعلن فاروقا ملكا على مصر والسودان .

كان الوفد فى عز قوته . .

وظل على هذا النحو حتى احترقت القاهرة . . فاحترق معها . . فى ٢٦ يناير ١٩٥٢

فقبل حريق القاهرة بيومين ، رفض جنود بلوكات النظام انذار القائد البريطانى المقيم فى فايد ، على شاطىء القناة ، بتسليم انفسهم . .

وأذاع فؤاد سراج الدين وزير الداخلية ، بيانا من خلال الراديو طالب فيه الجنود أن يقاتلوا حتى اخر طلقة ، وهدد من يتراجع عن ذلك بالمحاكمة العسكرية .

فى فجر اليوم التالى قام ١٥٠٠ جندى بريطانى ، تساعدهم الدبابات باحاطة محافظة الاسماعيلية بصفوف من السلاح . . كان بداخل مبنى المحافظة ٢٥٠ جنديا من قوات الشرطة وبلوكات النظام . . يقودهم اليوزباشى مصطفى ابراهيم رفعت . . وقد طلب مصطفى رفعت مهلة ربع ساعة لكى يسلم نفسه ويسلم قواته . . وكان فى الحقيقة يريد مهلة للاتصال بفؤاد سراج الدين فى القاهرة . .

وفعلا اتصل به . . وسأله :

ـ ماذا نفعل ؟

فقال له فؤاد سراج الدين :

ـ قاتل حتى آخر رصاصة !

قال مصطفى رفعت :

ـ لكننا لا نملك سوى بنادق قديمة وقنابل يدوية ، بينما الانجليز مسلحون بالرشاشات الآلية والمدافع الكبيرة .

فصرخ فيه فؤاد سراج الدين :

ـ نفذ الأوامر !

ونفذ القائد المصرى الشاب الاوامر . . وقاتل بشجاعة وصبر تسع ساعات ، حتى نفدت ذخيرته . . فاضطر الى الاستسلام .

كانت نتيجة المعركة ٤٦ قتيلا ، و ٧٢ جريحا .

وبعد الاستسلام عبر البريجادير اكسهام القائد الانجليزى عن اعجابه واحترامه لمصطفى رفعت ورجاله .

وفى صبيحة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ . . اليوم التالى للاستسلام ، احترقت القاهرة . . تجمع الغوغاء فى أربعة أنحاء القاهرة ، واشعلوا النيران فى المؤسسات ودور السينما والفنادق والمحلات التجارية والمقاهى والمطاعم والبنوك ومكاتب الطيران . . ودمرت الحرائق هذه المحال تماما . . ومات فيها حوالى ٥٠ مصريا و٩ اجانب . . وذلك قبل ان يتدخل الجيش وينزل الشوارع ، ليفرض النظام .

وبينما كانت القاهرة تحترق ، كان الملك يحتفل بالمولود الجديد من زوجته ناريمان صادق .

كان ضيوف الملك من كبار قادة الجيش والبوليس فى قصر عابدين . . ورغم معرفة الملك بما يجرى فى القاهرة ، خارج قصره ، فانه لم يلغ الاحتفال ، ولم يأمر رجاله بالانصراف لمواجهة الحرائق . . بل انه استمر فى الكلام حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر . . وما ان غادر الملك القاعة حتى طلب رئيس الاركان من الضباط ان يستخدموا الشوارع الجانبية فى طريق عودتهم ، لان الحرائق تملأ قلب المدينة .

وفى الساعة الرابعة من بعد الظهر ، اعلنت الاحكام العرفية . . ونزل الجيش الشوارع . . وتمكن بصعوبة من إخماد الحرائق وتفريق المتظاهرين ، ولكنه لم يتمكن من معرفة : من حرق القاهرة ؟ . . وحتى الآن لا أعتقد أن أحدا قد عرف الاجابة .

لقد كان هناك من يعتقد ان حريق القاهرة مثل حريق « بوجوتا » عاصمة كولومبيا ، تم بتدبير من الشيوعيين . . وكان هناك من يعتقد انها مؤامرة بريطانية . . وكان هناك من يعتقد أنها مؤامرة وفدية . . ولازال آخرون يعتقدون أنها مؤامرة من القصر .

على أن السؤال الأهم كان هو :

ـ لماذا لم يستدع الجيش لفرض النظام فى الحال ؟

وربما كانت اجابة السؤال الاخير تنير لنا الطريق امام اجابة السؤال الاول .

فهناك من قال ان الملك هو الذى عطل قواده فى مأدبة الاحتفال التى اقامها فى قصر عابدين حتى تحترق القاهرة .

وهناك من اتهم فؤاد سراج الدين بخداع الملك وافهامه ان البوليس يسيطر على الموقف تماما . .

وهناك من اعترض على هذا الكلام وقال : ولماذا صدق الملك وزير داخليته فؤاد سراج الدين ، الذى كان مكروها منه ، فى حين ان مخابراته كانت اولى بالتصديق .

وبعد طرد النحاس والقبض على فؤاد سراج الدين ، لم تكن لدى الحكومة اى وثائق تدين الرجل ، او الوفد .

كذلك قبض على احمد حسين رئيس الحزب الاشتراكى وأخلى سبيله لقلة الأدلة . .

ماذا حدث اذا ؟ !

أنا أعتقد أن الملك وحاشيته بالاشتراك مع عملاء الانجليز حاولوا خلق موقف حرج للوفد حتى يتمكنوا من طرد النحاس وحكومته ويعطلوا البرلمان ، وتعين وزارة تطيع الملك .

وهذا ما حدث فعلا . .

فقد كان يوم حريق القاهرة . . يوم السبت الاسود ، هو يوم نهاية الوفد والنحاس وسراج الدين . . ولكنه . . كان ايضا يوم نهاية الملك فاروق .

فيوم الحريق كان بداية العد التنازلى لانهيار حكمه . . والذى انتهى بطرده من البلاد فى ٢٦ يوليو من نفس العام . . اى بعد ٦ شهور بالضبط من حريق القاهرة . .

وبين ٢٦ يناير و٢٦ يوليو كانت هناك سلسلة من الاحداث المخزية التى كان الملك بطلها . . فبعد طرد النحاس ، عين على ماهر مكانه . . لكن على ماهر طرد هو الآخر بعد شهر واحد ، وعين مكانه احمد نجيب الهلالى . . والهلالى كان وزيرا سابقا للمعارف . . وكان عضوا بارزا فى الوفد ، حتى طرد منه عام ١٩٥١ ، لمعارضته فساد زعمائه . . وبمجرد ان تولى الهلالى رئاسة الحكومة ، عطل البرلمان ، وفتح ملف التحقيق فى قضية الأسلحة الفاسدة ، وفى قضية بورصة القطن ، وقبض على السياسيين المتطرفين ، وحاكم بعض زعماء الوفد وأقام علاقة طيبة مع الانجليز .

وكان الملك يشجع الهلالى على كل ما يفعله ، لكنه عندما اقترب من جلالته شخصيا ، ومن حاشيته ، الذين اتهموا فى شراء الاسلحة الفاسدة لم يعجبه ذلك ، ووقف ضده ، حتى باءت محاولات الهلالى الاصلاحية بالفشل .

ويوم تولى الهلالى الحكومة فى اول مارس ١٩٥٢ ، اصدر الضباط الأحرار منشورا ، جاء فيه .

« . . دبر الاستعمار واذنابه انقلاب ٢٦ يناير الماضى ، وجاءت حكومة على ماهر وبدأت المفاوضات من جديد ، وكان الاستعمار والخونة المصريون يأملون كثيرا فى تسليم مصر تسليما كاملا بمطالبهم بقبول الحلف الرباعى ، وحل البرلمان ، واعتقال الآف الوطنيين واستعمال الاحكام العرفية للتنكيل تنكيلا واسعا بالشعب ، ولكن خاب رجاؤهم ولم يجبهم على ماهر الى كل مطالبهم . .

« فكان لابد من انقلاب جديد لتحقيق الاهداف الاستعمارية السابقة وتحويل الحركة الى الداخل ، والقيام بحركة تطهير واسعة بالبلاد بحجة تقوية الصفوف قبل محاربة الاستعمار ، وهكذا وصل الهلالى الى الحكم بعد تدبير سابق . . وقد جاء الهلالى واعلن برنامج الوزارة بصراحة ، وقال ان مهمتها الاساسية هى التطهير والقضاء على الفساد وقد تناسى أن الفساد الأكبر مصدره الاستعمار وانه لايمكن القضاء على الفساد الا اذا قضى على اسبابه ومصدره .

« ان من اهداف الضباط الاحرار الكفاح ضد الفساد . . ضد الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ ، ولكننا لايجب ان نتجه الى ذلك الا بعد القضاء على الاستعمار . » .

وبعد اقل من اسبوعين . . وفى ١٢ مارس صدر منشور آخر ضد الهلالى بمناسبة بدء المفاوضات التى يجريها مع الانجليز . . وجاء فى المنشور :

« ايها الضباط . .

« ان حريتكم رهينة بحرية الشعب فكافحوا من اجل الحرية فى كل مكان واعلموا ان الخونة من قادة الجيش هم الذين يعتمد عليهم الاستعمار . . استديروا لاعداء الوطن . . واجبروهم على احترام حريتنا وكرامتنا ووطننا » . .

« يسقط الاستعمار . . يسقط التحالف مع الاستعمار . . يسقط الدفاع المشترك . . تسقط الاحكام العرفية » .

وفى تلك الايام ، قام حسين سرى عامر ، ببيع البترول والذخيرة ، ومخلفات الحرب العالمية بالصحراء الغربية الى جماعة من اليهود فى غزة ، وارتكب بذلك جناية تستحق العقاب وتصل الى حد الخيانة العظمى .

ووصلت الينا هذه المعلومات . . وقررنا التحرك . . فوزع صلاح سالم منشورا سريا يدعو الى اتهام حسين سرى . . وعندما لم يحدث اى رد فعل لهذا المنشور ، وزعوا منشورا آخر ، طالبوا فيه بتعيينى وزيرا للحربية . . وعندما لم يجدوا رد فعل من ورائه ايضا . . قرروا اغتيال حسين سرى . دبر محاولة اغتيال حسين سرى ونفذها جمال عبد الناصر وحسن التهامى وحسن ابراهيم وكمال الدين رفعت . . تربصوا له بالقرب من منزله فى حى الزيتون . . وماكادت سيارته تقف امام

البيت ، حتى حاول اثنان منهم اغتياله بفتح نيران مدفعى رشاش . . ولكن المحاولة فشلت . . ونجا الرجل ، واصيب سائق سيارته .

فى هذه العملية كان عبدالناصر يجلس فى عربته الاوستن فى شارع جانبى . . وكان حسن ابراهيم يقوم بالمراقبة . . أما اللذان أطلقا النيران فكانا حسن التهامى وكمال رفعت .

والغريب أن أصابع الاتهام فى هذا الحادث أشارت الى . . وكان على ان اذهب الى زيارته حتى ابدد كل شك حولى حتى لا ينكشف أمرنا . . كما أننى حمدت الله أن أحدا من الذين نفذوا العملية لم يقبض عليه ، فلو كان هذا حدث ، لكان التنظيم قد انكشف . . ولكانت الثورة قد خمدت قبل أن تشتعل .

وآمن الضباط الأحرار بعد فشل هذه المحاولة بأن اسلوب الاغتيالات السياسية اسلوب غير فعال . . فحتى لو تمكنوا من قتل حسين سرى عامر ، فإنه من المحتمل ان يكون الثمن هو القبض عليهم .

وعدنا الى اسلوب المنشورات . . خاصة واننا احسسنا انها قد جاءت بنتيجة ، ووقع الخلاف المطلوب بين الملك ونجيب الهلالى ، بعد المنشورات الساخنة التى هاجمنا فيها الأخير .

وفى الحقيقة كان هناك سبب آخر جعل الملك يعادى رئيس الحكومة . . فقد كان الملك يريد رئيسا للحكومة يمثل الاصلاح ولا ينفذه . . كان الملك يريد رئيس وزراء يحافظ على النظام القائم ولايمسه . . ولم يكن الهلالى هذا الشخص المطلوب . . وفكر الملك فى حسين سرى عامر ليكون رئيسا للوزراء بدلا من الهلالى لكن الهلالى أفسد خطته وقدم استقالته . . واتهم مؤيديه احد رجال الاعمال البارزين فى مصر بانه دفع رشوة للقصر لتعيين حسين سرى عامر رئيسا للوزراء . . وانكر رجل الاعمال التهمة . . لكن حكومة الهلالى رفعت عليه دعوى لاعادة مبلغ ٤ ملايين جنيه مستحقة عليه للضرائب .

وفى هذا الجو الذى ارتفعت فيه رائحة العفن والفساد ، أحجم كثير من السياسيين المحترمين عن الاشتراك فى مثل هذه الحكومات الضعيفة ، التى تباع وتشترى . . والتى كانت تتم وكأنها صفقات تجارية . . صفقات كان سمسارها الاكبر كريم ثابت .

وكان كريم ثابت مكروها من المصريين الذين كان يسخر منهم بمناسبة او بدون مناسبة . . ووصلت سخريته منهم الى حد انه شجع فاروق على اعلان نفسه من الاشراف الذين ينحدرون من سلالة النبى محمد (ﷺ) . . على الرغم من ان الجميع كانوا يعرفون اصل فاروق الالبانى . .

وكانوا يعرفون ان عروقه وعروق اجداده لم تجر فيها نقطة دم عربية واحدة .

ومن بين الذين اشتركوا فى مؤامرة طرد الهلالى ، كان خادم الملك محمد حسن السلمانى ، الذى كان يوصل الاوامر من الملك للحكومة ، بعد حريق القاهرة .

لقد كان فاروق فى آخر ايامه لا يقبل مشورة احد ، سوى من حاشيته ، ومن بعض المغامرين والأفاقين الدوليين ، واشخاص مثل محمد حسن ، خادمه وبوللى ، وكريم ثابت ، وادمون جلاد ، والياس اندراوس الذى كان صاحب مكتبة واصبح فيها بعد المستشار الاقتصادى للملك . . وكذلك سائق الملك محمد حلمى الذى كان يلقب بمدير المركبات الملكية ، وساقى الملك عبد العزيز ، وطيار الملك الخاص ، ودكتور يوسف رشاد طبيبه الخاص ، ومحمد نجيب سالم ، وحافظ عفيفى وحسن يوسف .

وفى هذه الظروف اتفقنا ان مصر اصبحت ملائمة جدا لقيام الثورة .

بدأنا نتشاور بطريقة جدية لتغيير الاوضاع تغييرا جذريا . . احسسنا بضعف جهاز الحكم . . فبدأنا فى التدبير لمواجهته وتدميره واسقاطه .

لكن . . فى نفس الوقت كان جهاز الحكم قد عرف بامرنا وقرر التخلص منا . . ووقفنا وجها لوجه . .

وأصبح كل منا فى سباق مع الزمن . .

وجاءت لحظة الصدام بيننا والتى لم يكن هناك مفر منها .

كان أمامنا أحد أمرين : إما أن نحكم أو نموت .

الفصل الخامس

ساعة الصفر

- انتخابات نادى الضباط هى الرصاصة الأولى فى معركة الثورة .
- طلب رشاد مهنا نقله إلى العريش حتى لا يغضب منه الملك .
- لقاء ما بعد منتصف الليل مع وزير الداخلية فى بيت مصطفى أمين .
- ١٣ زنزانة جاهزة لقيادات الضباط الاحرار قبل ساعة الصفر .
- الملك يطلب تدخل الانجليز لانقاذه من الجيش .
- اعجبت بجمال عبد الناصر لأنه لم يوافق على ذبح فاروق .

كانت انتخابات نادى الضباط هى الخطوة الفعالة الأولى فى طريق ثورة يوليو . . .

وكانت أول تحدى علنى لتنظيمنا السرى . . .

وكانت الكلمة الأولى فى ملحمة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . .

أن الحديث عن الثورة لابد أن يبدأ بما حدث فى فيللا على الطراز الانجليزى بالزمالك ، كان يسكنها سردار الجيش الانجليزى قبل الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وأصبحت فيها بعد نواة لنادى الضباط الكبير الذى نراه الآن ..

كان ذلك فى الأسبوع الأخير فى عام ١٩٥١ .

وكان هذا الأسبوع هو أسبوع المعركة الانتخابية فى النادى بين أنصارنا . . أنصار الضباط الأحرار . . وأنصار الملك .

ان انتخابات نادى الضباط كانت فعلا هى الثورة .. وعندما يكتب التاريخ الحقيقى لثورة يوليو سوف يقرر المؤرخون أن الملكية انتهت فى مصر بعد انتخابات نادى الضباط .

فقبل انتخابات النادى كانت اللجنة التنفيذية لتنظيم الضباط الأحرار ، تعتقد أنه ليس من الممكن القيام بالثورة قبل عام ١٩٥٥ . لقد غيرت الانتخابات عقولنا . واحسستنا بقوتنا .. وأكدت لنا مدى ضعف الملك ونظامه .

وانتخابات النادى كانت تجرى عادة فى هدوء .. ولم يكن لها اى أهمية خاصة .. ولم تكن تلفت انظار أحد من خارج ثكنات الجيش .. وفى داخل ثكنات الجيش ، كانت الانتخابات بالنسبة للضباط ، مباراة بين مجموعة منهم يتنافسون على خدمتهم وتوفير وسائل الترفية والرفاهية لهم . ولكن الأمر هذه المرة كان مختلفاً تماماً .

قررت أن أرشح نفسى رئيسا لمجلس ادارة النادى ، لجس نبض الجيش ، ولاختيار مدى قوة الضباط الاحرار وتحدى الملك الذى نقلنى من سلاح الحدود وجاء بدلا منى حسين سرى عامر .

عرضت الفكرة على الأميرالاى محمد كامل الرحمانى نائبى فى ادارة سلاح المشاة ، فرفض ، وقال :

ـ هذا الترشيح يعتبر تحديا للملك .

ويبدو أن الملك قبل التحدى .. فرشح حسين سرى عامر أمامى رئيسا لمجلس ادارة النادى .. واشعل نيران المعركة الانتخابية .. والقى القفاز فى وجهى .

وضاعف من لهيب المعركة أن الجمعية العمومية للضباط رفضت قبول ترشيح حسين سرى عامر لأنه من الحدود .. والحدود ليست سلاحا مستقلا ، وإنما تضم ضباطا من مختلف الأسلحة .

ويوم أعلنت الجمعية العمومية هذا الكلام ، أعلن وزير المعارف اغلاق الجامعة ، بعد أيام من المظاهرات المعادية للانجليز ، والهتافات المعادية للملك ، والتى طالبت بصراحة بسقوطه .. بل أن طلبة الجامعة ألقوا بصوره على الأرض وداسوها بأقدامهم .

ويوم الانتخابات نفسه (٣١ ديسمبر) كان يوما من أيام التوتر السياسى فى مصر .. الجامعات والمدارس مغلقة .. المظاهرات تهتف ضد الملك والانجليز .. والچنرال روبرتسون قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط يصرح بتصريحات استفزازية ضد مشاعر المصريين .

ويوم الانتخابات والأيام التى قبلها ، كان الضباط يحتشدون فى النادى ويناقشون أوضاع البلد بصراحة .. وكانت نبرة الرفض والغضب تتصاعد ساعة بعد أخرى .. وكانت هذه المناقشات تختلف عن مناقشات الانتخابات السابقة والتى كانت تدور حول الأنشطة الاجتماعية ، والرياضية وأسعار المشروبات وأنواع الأطعمة .

ويوم الانتخابات كان ينافسنى على رئاسة النادى ، ثلاثة ضباط اخرين هم : اللواء حافظ بكرى مدير سلاح المدفعية ..واللواء إبراهيم الأرناءوطى مدير المهمات واللواء سيد محمد مدير الصيانة .

وكان اسمى على رأس قائمة مرشحى الضباط الأحرار .. وكانت تضم بكباشى ، رشاد مهنا (مدفعية) وأحمد عبيد ، وصاغ جمال الدين حماد (مشاة) وزكريا محيى الدين (مشاة) وقائد اسراب حسن ابراهيم (طيران) ، وقائد جناح صلاح سالم والبكباشى محمد فوزى .. وقد تولى حسن إبراهيم طبع هذه القائمة على الرونيو داخل سلاح الطيران ، ووزعت على أعضاء الجمعية العمومية .

لقد استغل الضباط الأحرار أسمى وسمعتى وشعبيتى ، أحسن استغلال فى اختبار قوتهم ، وفى احساسهم بذاتهم . وكنت كما قال خالد محيى الدين بعد ذلك بسنوات طويلة (الأهالى : ٢٦ يوليو ١٩٧٨): « الواجهة التى تتحرك جماعة الضباط الأحرار فى اطارها » حتى أتحمل المسئولية تجاه السلطة عن

هذه المعركة وعن نتائجها .. وقال خالد : « وكانت هذه خطوة شجاعة أكسبت نجيب احترامنا وثقتنا ».

وفى منتصف الليل ، ومع خيوط فجر اليوم الأول من عام ١٩٥٢ ، أعلنت النتيجة ..

حصلت على أغلبية ساحقة ، شبه ، جماعية ، ولم يحصل الثلاثة الآخرون سوى على ٥٨ صوتا فقط .

ونجح من قائمة الضباط الأحرار : رشاد مهنا وزكريا محيى الدين وحسن إبراهيم وجمال حماد ، وخان الحظ جمال سالم ومحمد فوزى .

ولا أريد هنا أن أتكلم عن نفسى ، وأحدد مدى أهمية انتخابى رئيسا للنادى .. وأفضل أن أترك هذه المهمة لواحد من الضباط الأحرار الذين خاضوا معى هذه المعركة وشاركوا بدور فعال فى ليلة الثورة .. أفضل أن أترك هذه المهمة لجمال حماد ، والذى سجل تفاصيل ماحدث فى كتابه أطول يوم فى تاريخ مصر (كتاب الهلال - أبريل ١٩٨٣) وقال :

"كانت معركة انتخابات النادى ونتائجها الباهرة فرصة هيأها القدر لاعداد محمد نجيب للدور الذى قدر له القيام به بعد أقل من سبعة شهور من وقوعها ، فقد أستأثرت بأهتمام دوائر الجيش وطوائف الشعب لما أحاط جو الانتخابات من عوامل التحدى والاثارة ، واهتمت الصحف اليومية بإبراز نتائجها فى أعدادها الصادرة صبيحة ليلة الانتخابات ، أى فى أول يناير ٥٢ كما نشرت نبأ فوز اللواء محمد نجيب برئاسة مجلس الادارة بعناوين بارزة".

"وهكذا توافرت فى محمد نجيب' فى أوائل عام ٥٢ افضل الصفات التى تؤهله لقيادة حركة عسكرية ناجحة يقوم بها الجيش .. فقد أصبح بالاضافة الى ما يتمتع به من سمعة وشهرة ، حائزا على ثقة الضباط مما يضمن معه سرعة . انضمام باقى الجيش الى القوات التى ستقوم بالحركة ، بمجرد الاعلان عن قيامها تحت قيادته".

انتهت معركة النادى بفوزنا وبهزيمة الملك .

لكن ..الملك لم يقبل هذه النتيجة بالطبع ، وكما توقعت .

استدعانى الفريق محمد حيدر الى مكتبه ، أنا ورشاد مهنا وقال لنا :

- إن أوامر مولانا أن يدخل حسين سرى عامر مجلس إدارة النادى :

فقلت لحيدر

ـ هذا ليس من حق مجلس الادارة وإنما من حق الجمعية العمومية .
قال :
ـ مولانا يصر على أوامره .
قلت :
ـ إذا .. سأعقد الجمعية العمومية وأعرض الأمر عليها .
وكان هذا الحوار هو خلاصة جلسة استمرت سبع ساعات ، حتى الثانية صباحا ، مع حيدر باشا وانتهت الى لا شيء .
وحاول الملك محاولة أخيرة لتعديل لائحة النادى عن طريق الجمعية العمومية ، حتى يدخل حسين سرى عامر ممثلا للحدود .. لكنه فشل فى هذه المحاولة أيضا .
ونفذ صبر الملك ..
واشتعل الدم فى عروقه ..
وفقد أعصابه ..
فأمر بحل مجلس ادارة النادى وتعيين مجلس مؤقت برئاسة شقيقى اللواء على نجيب وسحب الاعتمادات المخصصة لبناء مبنى النادى الجديد بالزمالك ..
فاشتعل غضب الضباط ، وزاد اصرارهم على تحدى الملك .
ووسط هذا الغضب المتبادل بيننا وبين الملك فوجئت بخبر غريب جدا ..
عرفت أن رشاد مهنا نقل من القاهرة الى العريش .. تصورت أنها مؤامرة لابعاده .. فأسرعت الى مكتب حيدر محتجا .. فقال لى :
ـ صدقنى يانجيب أنا لا أعرف شيئا عن هذا الخبر .
ورفع سماعة التليفون وطلب مدير سلاح المدفعية ليعرف منه الحقيقة .. وعندما وضع السماعة مكانها ، قال :
ـ رشاد مهنا نقل للعريش بناء على طلبه .
ولم أصدق هذا الكلام .. وقلت بينى وبين نفسى إنها ألاعيب كبار الضباط .. ونزلت من عند حيدر إلى بيت رشاد مهنا .. وقابلته ..
وللأسف ، تأكدت أن الخبر صحيح ، وأن رشاد مهنا هو الذى طلب نقله .. وكان تبريره هو أنه فضل الابتعاد عن القاهرة فى وقت يطاردنا فيه الملك .. ويحاول سحقنا .
وأحسست بصدمة .. خاصة وأن رشاد مهنا كان رجلا له تاريخ مشرف .
ولم أقتنع بتبريره ..

ولم أقتنع بانفراده فى اتخاذ القرارات التى تهمنا كتنظيم ، بمفرده ، دون الرجوع الينا .

وفى تلك الأيام العصيبة .. قاتل الفدائيون الانجليز فى القناة .. واحترقت القاهرة .. وأخذ الملك وحاشيته يلهون بكراسى الوزارة .. ونخر الفساد فى كل مكان بمصر .

ولاحظت أننى موضوع تحت المراقبة .. فى كل مكان أذهب اليه كنت أشعر بمن يراقبنى .. فى الجيش .. فى الشارع .. وحول بيتى .. ولاحظت ان بعض الناس ممن لا أثق فيهم يستدرجوننى فى أحاديث عن مايجرى فى البلد .. أحسست أننى محاصر .. وأن الملك ومخابراته يريدون وضعى فى المصيدة . واتصلت بعبد الحكيم عامر وطلبت منه المزيد من الحذر والسرية فى اتصالاتنا بالضباط الأحرار .

وفكرنا فى القيام بالثورة فى ذلك الوقت ، مستغلين وجود القوات فى الشوارع بعد حريق القاهرة .. لكن الموقف بالنسبة لنا لم يكن مناسبا تماما .. لأن الأنجليز كان من الممكن أن يتدخلوا .. ولأن وجود الضباط الأحرار لم يكن ليغطى كل وحدات الجيش التى نريدها أن تتحرك .. فطردنا الفكرة من عقولنا .

لكن .. كان علينا فى نفس الوقت ، أن نفعل أى شىء لنرد به على الملك خاصة بعد أن حل مجلس ادارة النادى .. وفكرنا فى ارسال برقية احتجاج له ، لكن خشينا أن يعرف الملك أسماءنا ويقبض علينا ، وينكشف أمرنا .. وفكرنا فى احتلال مبنى النادى بالقوة ، لكن خشينا من صدام الجيش بعضه البعض .. وفكرنا فى اعتقال كبار الضباط والقادة فى أقرب فرصة يكونوا جميعا فيها ، لنفرض بعد ذلك شروطنا ومطالبنا على الملك ، ووافقنا على الحل الأخير ، وقررنا الإخذ به ، وانتظرنا اللحظة المناسبة التى يكون كبار الضباط والقادة معا فى مكان واحد .

وكان هذا الحل هو الخطة الأولى للثورة .

وبقى علينا تحديد الموعد .

فى ٢ يوليو تولى حسين سرى عامر رئاسة الحكومة ، وبعد ثمانية أيام استقبل الرجل د . حافظ عفيفى باشا ، رئيس الديوان ومعه مذكرة بالقلم الأحمر ، من الملك ، بخط خادمه ، جاء فيها : "إذا لم يتمكن حيدر باشا نقل ١٢ ضابطا يتآمرون على الملك فى ظرف خمسة أيام ، يطرد فوراً".

وسأل حسين سرى رئيس الديوان عن من يكون أولئك الضباط ؟
فقال د . حافظ عفيفى :
ـ لا أعرفهم !
وإستدعي حسين سرى حيدر باشا بسؤاله عن هؤلاء الضباط ، فقال له حيدر :
ـ لا أعرفهم !
كان حسين سرى يعرف حالة التذمر التى تسود الجيش ، عن طريق صهره (زوج أبنتة) ووزير داخليته ، محمد هاشم باشا الذى التقى بى مرة ، وأحس بخطورتى ، قبل أن يكون حسين رئيس للوزراء .. وكان حسين سرى ، يوم شكل الوزارة يريد أن يضع الجيش فى جيبه ، فوضع اسمى فى كشف الوزارة ، لكن الملك شطب الاسم .

وفى تلك الأيام ، فوجئت باللواء أحمد فؤاد صادق يزورنى فى مكتبى ويقول لى :
ـ عرفت أنهم سيقبضون عليك بتهمة تزعم حركة ثورية داخل الجيش !
فسألت :
ـ كيف عرفت ؟
قال :
ـ كنت فى منزل الدكتور يوسف رشاد وتكلم أمامى فى التليفون ، وعرفت ذلك من المكالمة !
وبعد لحظات قال :
ـ لكننى نفيت هذا الكلام ليوسف رشاد ، ورغم أنه اقتنع بكلامى ،إلا أنه قال : المسألة خطيرة لأنها تتعلق بحياة الملك .

وكان كلام اللواء صادق سليما ، خاصة وأن مصدره د . يوسف رشاد ، الذى كون الحرس الحديدى ليكون فى خدمة فاروق .. وحدث أن استدعانى حيدر فى مكتبه ، وأتهمنى بتحريض الضباط ، وحملنى مسئولية تصرفاتهم ، فأنكرت ذلك ، وقلت له :
ـ إن الضباط يسلكون هذا الطريق لأنهم يصدمون بأشياء كثيرة لا يرضون عنها .. وأعتقد أن العلاج فى اصلاح الجيش لا فى اعتقال الضباط .

وخرجت من مكتب حيدر الى بيت جمال عبد الناصر .. أوقفت سيارتى بعيداً .. وسرت على الأقدام ... لكنى لم أجده فى المنزل .. واتصلت بحسن ابراهيم ، وقابلته فى النادى ، وطلبت منه أن يحذر زملاءه ، بعد أن رويت له ما

دار بيني وبين حيدر .. لكنى عرفت فيما بعد أن حسن ابراهيم لم يذهب لاحد وأنه خاف على نفسه من الاتصال بهم فى ذلك الوقت الحرج والصعب .
وفى ١٨ يوليو وقعت مفاجأة أخرى من هذه العينة ..
حضر الى بعد الغروب ، فى بيتى، شخص اسمه « غرس الدين » وهو رجل عرفته منذ كان يعمل مع محمود القيس باشا وكيل الداخلية ، وتربطنى به علاقة عائلية لأنه قريب زوجتى ، وقال لى :
ـ هاشم باشا يريد مقابلتك فى بيته !
ووافقت .. وذهبت معه الى شقة الوزير فى الزمالك .. دون أن أحمل طبنجة .. ودون أى احتياط .. لكننا لم نجد أحد فى الشقة ..كان على الباب شرطى .. وفتح لنا الباب شرطى آخر يرتدى الملابس المدنية .. وأنتظرت فى غرفة الصالون حتى الساعة الثانية الا ربع لأن الوزير كان فى اجتماع لمجلس الوزراء .. وبدأت الشكوك تلعب فى نفسى .. وتصورت أننى وقعت فى كمين لاغتيالى وللتخلص منى .. وحزنت لأننى لم أحضر مسدسى .. وانتقلت الى مقعد آخر بجوار « فازة » نحاس ، قد أضطر لاستخدامها فى الدفاع عن نفسى .. فى الساعة الثانية صباحا حضر الوزير .. وبعد السلامات والتحيات ، سألنى :
ـ لماذا يتذمر ضباط الجيش ؟
قلت :
ـ باختصار ، يتذمرون مما حدث فى النادى ومما حدث فى فلسطين ومن الأسلحة الفاسدة ومن الاعانة المخصصة للنادى والتى سحبها الملك
وفجأة سألنى :
ـ مارأيك فى منصب وزير الحربية ؟
ضحكت ..
قال :
ـ هل يعتبر ذلك كافيا لإزالة أسباب التذمر ؟
وقبل أن أرد، قال :
ـ هل تقبل هذا المنصب ؟
قلت :
ـ لو قبلت ، فسأكون سببا فى إقالة الوزارة فى ٢٤ ساعة .
وفى تلك الليلة علمت أن حسين سرى رشحنى ، مرة أخرى وزيرا للحربية ، لكن الملك رفض وأصر على أن يكون وزير الحربية هو اسماعيل شيرين .

ونشرت الصحف خبر احتمال تعييني وزيرا للحربية .
لكنها لم تنشر سبب رفضي لهذا المنصب بالطبع .
كان رفضي في الحقيقة سببة تمسكي بالبقاء في الجيش ، وتفويت الفرصة عليهم لابعادي عنه .
وخلال حديثي مع محمد هاشم باشا ، قال لي :
- إن هناك لجنة من ١٢ شخصا عرفت الجهات المسئولة أسماء ثمانية منهم .. قالها الرجل بطريقة عابرة .. ولم يصرح بأكثر من ذلك .. وحاولت قدر استطاعتي أن أبدو متماسكا أمامه وكأن الأمر لا يعنيني .. وفي الطريق من الزمالك الى بيتي في الحلمية ، أدركت أن الموقف خطير جداً ..
تناولت العشاء ونمت نوما متقطعا ..
في صباح ذلك اليوم ، عرفت أن جمال عبدالناصر وخالد محيي الدين زارا ثروت عكاشة في منزله بالعباسية وأبلغاه أن ساعة صفر الانقلاب ستكون ٥ أغسطس وليس في نوفمبر كما سبق الاتفاق .. ثم توجه الثلاثة الى حسين الشافعي لابلاغه بالموعد الجديد .. وصلى الأربعة صلاة الجمعة على صوت الراديو في شرفة فيلا الشافعي .
صباح اليوم التالي ، فوجئت بحضور جلال ندا الضابط السابق ، والذي كان يعمل محررا عسكريا بدار أخبار اليوم ، ومعه محمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة ، وقتئذ ، لسؤالي عما دار في مقابلتي مع محمد هاشم باشا ، وزير الداخلية .. ودهشت لتسرب الخبر اليهم ..
على أن هذا يعني أن مصطفى أمين كان يعرف هذا الخبر .
بل انني أشك أن المقابلة التي تمت بيني وبين محمد هاشم ، لم تتم في بيته ، وإنما في بيت مصطفى أمين .
لكن في ذلك اليوم كان معرفة هيكل بهذا الخبر مثار دهشة لي .
وأنا عرفت هيكل عندما كان مراسلا حربيا في فلسطين ، عندما جاء يغطي أخبار المعارك بعد معركة أسدود .. وأنا الذي عرفته على عبد الحميد صادق المحامي الذي كان يقود العمليات الفدائية ضد الانجليز في القناة .. خاصة في الاسماعيلية .. عام ١٩٥١ ، ليعمل تحقيقا صحفيا عن الكفاح المسلح للفدائيين في القناة .
وأذكر أنني قابلته بعد ذلك ، وقال لي :

ـ أنا كنت فى سراى عابدين وعرفت أن هناك أمرا سيصدر بالاستغناء عن خدماتك .. وسينشر فى صحف الغد .

كان ذلك قبل الانقلاب بساعات .

قبل ظهر ذلك اليوم حضر إلى بيتى ، جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر .. يرتدى كل منهما بنطلونا رماديا وقميصا أبيض .. ووضح من حركاتهما أنهما يريدان أن يسرا إلى بشىء ما .. فتركت هيكل وندا فى الصالون وأخذتهما الى حجرة الطعام .. ولكن بعد أن طلب هيكل أن أقدمه لهما .. وكان لقاءه الأول بهما .

فى حجرة الطعام قالا :

ـ إننا وإخواننا نرغب فى تقديم العملية الى ٤ أو ٥ أغسطس ، لسببين : الأول اكتمال وصول الكتيبة ـ ١٤ مشاة القاهرة ، والثانى هو أن يكون الضباط قد قبضوا مرتباتهم فى أول الشهر .

ورفضت السببين .. وقلت لهما :

ـ القوات التى معنا كافية لانجاح مهمتنا .. وليس هناك مبرر لانتظار المرتبات ، فالثوار لاينبغى أن ينظروا الى الماديات ، ويضحوا باسبوعين فى سبيل الحصول على مرتب شهر .. لقد أصبح معروفا أسماء ٨ من الضباط ولن يمضى أكثر من أسبوع حتى يكونوا فى السجن .. وهناك ١٣ زنزانة جاهزة .. فيجب القيام بالحركة فى أسرع وقت .. بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر .

واقتنعا بما قلته ..

واتفقنا على أن تكون ساعة صفر الانقلاب ليلة ٢١ ـ ٢٢ يوليو ..

واتفقنا على أن يعودا لى بعد الاتصال بزملائهما ليؤكدا الموعد ، اليوم أو الغد ..

وقلت لهما :

ـ لقد عرفت ان هناك مؤتمرا لرئيس الأركان حسين فريد الساعة العاشرة من مساء ٢٢ يوليو فى مقر القيادة ، وهذه فرصة ذهبية للقبض عليهم بسهولة .

وكنت قد عرفت ذلك من أخى اللواء على نجيب ، الذى عرفه من اللواء حسن النجار مدير المخابرات بالنيابة .

واقترحت محاصرة القيادة فى كوبرى القبة ، مع وضع قوات موالية على

بوابات الأسلحة : الفرسان ، والطيران ، والمدفعية ، مع التنبيه على الضباط أعضاء التنظيم بالموعد وبالمهام .
وقلت لهما :
- سأكون بجوار مبنى القيادة عند محطة البنزين القريبة منها داخل سيارتى الأوبل الخاصة ..
لكنهما قالا :
- لا .. أنت مراقب .. ولو قبض عليك فى الطريق ضاع كل شىء .. الأفضل أن تبقى فى بيتك بجوار التليفون حتى نبلغك بالاستيلاء على مبنى القيادة
فى اليوم التالى .. يوم الأحد ٢٠ يوليو .. قدم حسين سرى استقالة حكومته .. وتقرر عودة نجيب الهلالى الى الحكومة .
فى نفس اليوم كان حسين الشافعى يتناول طعام الغذاء فى بيت ثروت عكاشة ، عندما اتصل به زوج شقيقته أحمد أبو الفتح من الاسكندرية وأبلغه ان ١٤ ضابطا فى الجيش ، ينتظرهم التشريد والاعتقال .
فخرج الشافعى وعكاشة من البيت الى جمال عبد الناصر ، وأبلغاه ما قاله رئيس تحرير المصرى .. واتفق على أن يكون التحرك يوم ٢١ يوليو .. أى فى اليوم التالى :
لكنى اقترحت عندما جاء لى عبدالحكيم عامر ، أن يتأخر الموعد ٢٤ ساعة أخرى .
وقلت له :
- لا يجوز أن نتأخر عن ذلك لأن هناك اشاعة تتردد بأن حسين سرى سيتولى رئاسة الأركان بدلاً من حسين فريد الذى سيصبح قائدا عاما بدلا من حيدر وحسين سرى يعرفنا جيداً ولن يتردد فى القبض علينا .
وفكرت فى تضليل أجهزة الأمن التى تراقبنى ، بأن أسافر الى قرية النحارية .. مسقط رأس عائلتى .. على أن أتسلل عائداً ليلة الحركة .. لكنى تراجعت عن هذه الفكرة ، لان الذى يراقبنى فى القاهرة ليس صعبا عليه أن يراقبنى فى النحارية .. كما أن وجودى فى القاهرة أصبح ضروريا للرجوع الى عند أى ظرف طارىء .
يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو .. كان اليوم الأخير فى عمر نظام الملك فاروق أصبح مقررا أن تتحرك القوات فى منتصف الليل ..
وأطلق على اسم الحركة أسم كودى هو :نصر ..

كان الجو حارا جدا .. لدرجة جعلتنى أعتقد أن أحدا غيرنا كان لا يمكن أن يفكر فى أمكان حدوث انقلاب ..

وكان معظم الذين لهم صلة بالسياسة اما فى الخارج ، أو فى الأسكندرية ، حيث يقيم الملك فى قصر المنتزه ، أما اتباعه فكانوا اما فى بيوتهم الصيفية ، أو فى فندق سيسل .

وكان هذا اليوم فى الواقع هو اليوم المناسب للقيام بضربتنا ، قبل أن يتمكن الملك من تعيين وزارة جديدة وقبل أن يتمكن جواسيسه من القبض علينا .

فى صباح ذلك اليوم ، ذهبت فى سيارتى العسكرية الى بيت جمال عبدالناصر وكان شقة فى الدور الأول بشارع والى ، فوق دكان مكوجى ، خلف محطة بنزين كوبرى القبة ، ومن سرعة دخولى البيت ، أمسكت حديدة فى السلم ، ببنطلونى ، فمزقته .. طرقت بابه فلم أجده .

أسرعت الى كلية الأركان ، فوجدته هو وعبدالحكيم عامر .

كنت أريد أن أتأكد من أن كل شىء سيسير حسب أتفاقنا .

وقال لى جمال عبدالناصر :

ـ كله تمام .. وأنا أرسلت أستدعى أنور السادات من العريش ، ليستولى ، بصفته ضابط اشارة ، على الاذاعة والتليفونات .

عدت الى منزلى ..

بعد الظهر جاء الى بيتى محمد أحمد محجوب (رئيس وزراء السودان فيما بعد) وطلب منى أن أذهب معه الى نادى التجديف .. وقبلت على الفور دعوته .. فقد كنت أريد أن أفك من حصار المراقبة الذى حولى .. وكنت أريد أن أعرف ما يحدث فى البلد .. وكنت قلقا وأريد أن يمر الوقت .. وفى نادى التجديف قابلت محمد حسنين هيكل ، وقال لى خبر الاستغناء عنى .. وحاولت أن أجس نبضه وأعرف منه الى أى مدى يعرف من أخبار عن تحركاتنا .. خاصة وأنا أعرف صلته بالأمريكان والسراى لكنه لم يكن يعرف أكثر مما قاله .

كان كل شىء قد تم ترتيبه .. وكنت أخشى أن يربك أحد ما خططنا . كان يعرف خطة الانقلاب عشرة من أعضاء اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار .. أما الباقى فقد حددت لهم مهام معينة .. وقد كنت أعرف كل أعضاء اللجنة التنفيذية للتنظيم قبل الثورة ماعدا جمال سالم وعبد اللطيف البغدادى وأنور السادات وخالد محيى الدين .

وفى ليلة الثورة أضيف الى هذه اللجنة زكريا محيى الدين وحسين الشافعى وعبدالمنعم أمين ويوسف منصور .. وهذه اللجنة هى التى أصبحت فيما بعد مجلس قيادة الثورة .

وحسب الخطة الموضوعة ، كان على بغدادى الاستيلاء على القاعدة الجوية فى الماظة ، وكان على الشافعى وخالد محيى الدين الاستيلاء على سلاح الفرسان ، وكان على عبدالمنعم أمين الاستيلاء على المدفعية ، وكان على الأخوين سالم الاستيلاء على قوات العريش .

بعد نادى التجديف ، عدت الى منزلى فى المساء .

كان على ان أبقى فى منزلى حتى ينتهى الجزء الأول من الخطة وهو الاستيلاء على مقر القيادة ثم أنضم الى الآخرين ..

وكانت ساعة الصفر هى الساعة الواحدة من صبيحة الأربعاء ٢٣ يوليو ..

ومرت الدقائق على ، فى مساء ذلك اليوم ، وكأنها أعوام .. وقطعت الوقت بقراءة آيات من القرآن الكريم .. وتذكرت فى ذلك الوقت ما قاله صديقى السودانى أحمد المدثر .. وهو رجل تقى .. أعرفه من أيام الدارسة فى غوردن .. قال لى ذات يوم :

ـ صليت العصر بمسجد سيدنا الحسين ، وتمددت ونمت .. حلمت أننى أقف أمام ضريح الحسين ، فرأيت شعاعا من نور ينبعث من الضريح ، واذا بهذا الشعاع يتحول الى يد تمسك بورقة ، واذا بصوت يقول لى : اعط هذه الورقة لمحمد نجيب ، ليقرأها ، ولينفذ ما بها .. وعندما فتحت الورقة وقرأت ما بها عرفت أن عليك أن تقرأ الآية المكتوبة فيها ٤٥٠ مرة وكانت هذه الآية الكريمة هى : « الذين قال له الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

تذكرت هذا الكلام .. فصليت العشاء ورحت أتلو هذه الآية عشرات المرات .. وعينى على التليفون .. الجهاز الوحيد الذى يربطنى بالعالم الآن ..

عند منتصف الليل اتصلت زوجة شقيقى « على » لتسأل عنه .. قالت :

ـ أنا مشغولة عليه ، فليس من عادته أن يتأخر دون أن يقول لى :

طمأنتها .. وقلت لها :

ـ اطمئنى .. سأبحث عنه .

لم يكن على يعرف شيئا عن الحركة .. ورغم ثقتى المطلقة به الا أننى لم أحدثه عنها مطلقا .. خشيت أن يتعارض ذلك مع واجبه العسكرى ..فقد كان قائد حامية القاهرة والمسئول عن أمنها وحمايتها .. وإن كنت نصحته ، بصورة غير

واضحة وغير مباشرة أن يجرى بعض التدريبات لجنوده فى أماكن بعيدة عن مسرح الأحداث .

بعد دقائق ، طلبنى على فى التليفون .. ربما ليتأكد من وجودى فى البيت .. ثم أخبرنى ان بعض قوات الجيش تتجه نحو قصر عابدين .. فطمأنته هو الآخر ، وطلبت منه أن يتجه بنفسه الى قصر عابدين ليرى بنفسه ما يجرى هناك لعلمى أن قصر عابدين كان خارج خطة التحركات فى هذه الليلة ..

وأعدت السماعة إلى مكانها .. دون أن أرفع عينى من على التليفون .. ودون أن أعرف كيف ستمر هذه اللحظات دون أن أنفجر من القلق .. فكرت فى أن أرتدى ملابسى وأنزل الى القيادة .. لكنى رجعت فيما فكرت فيه لأن الالتزام بأى خطة هو السر الوحيد وراء نجاحها .. وخشيت أن يقبض على قبل أن أصل الى القيادة ، فينتهى كل شىء .

بعد قليل ، اتصل بى من الاسكندرية محمد مرتضى المراغى ، وزير الداخلية ، وقال لى :

ـ يانجيب بك ، أتوسل إليك كضابط وطنى أن توقف هذا العمل !

قلت له :

ـ ماذا تقصد بالضبط ؟

قال :

ـ إنك تعرف ما أعنى .. فأولادك بدأوا شيئا فى كوبرى القبة وإن لم تمنعهم فسيتدخل الانجليز .

قلت :

ـ أنا لا اعرف ما تتحدث عنه !

قال :

ـ يانجيب انت تعرف جيدا ما أقوله .. فتحرك قبل فوات الأوان .

قلت :

ـ هل تشك فى اننى ادبر انقلاب .. هل تريد ان تلصق بى هذه التهمة الخطيرة .. الا يكفى اننى مراقب وأنا فى بيتى !!

قال :

ـ أقصد أن لك سيطرة على ضباطك وجنودك .. اذهب الى كوبرى القبة واصرفهم .

قلت :

ـ كيف أعرف أن المتحدث هو مرتضى المراغى ؟
قال :
ـ يانجيب .. رئيس الوزراء سيستدعيك قريبا !
وأقفل الخط .
بعد أقل من ربع ساعة ، اتصل بى فريد زعلوك ، وزير التجارة والصناعة ، وقال :
ـ ولادك يانجيب عاملين دوشة فى كوبرى القبة قوم شوف الحكاية !
قلت له :
ـ أنا ماعنديش ولاد .
قال :
ـ إذا لم توقف الانقلاب فسوف يعود الانجليز لاحتلال مصر .
قلت :
ـ هذا اتهام أرفضه !
فأغلق الخط .
ثم .. تلقيت مكالمة من رئيس الوزراء ، نجيب الهلالى شخصيا .. قال لى :
ـ يانجيب .. أنا أستاذك فى مدرسة الحقوق .. ما يحدث الان مسألة عواقبها وخيمة .. وتفتح الباب لتدخل الانجليز ..لكنى عدت للمرة الثالثة أنفى معرفتى بما يجرى .
وانتهت المكالمة .
وتضاعف ارتباكى وقلقى ووصلت حيرتى الى القمة .. وظللت فى هذه الحالة الى أن جاء الفرج .
رن التليفون .. وعندما رفعت السماعة ، جاء صوت الصاغ جمال حماد ، يهنئنى بنجاح المرحلة الأولى .. قال :
ـ مبروك يافندم .. كله تمام .
استولى أولادى على القيادة العامة .. مركز الاتصالات الحيوية .. وتحركت المدرعات ودخلت القاهرة .. وتجمع الجنود بعرباتهم المدرعة فى شارع الخليفة المأمون ..
أى ان الخطة نفذت تقريبا كما رسمناها .
لكن بسبب خيانة أحد الضباط ، عرف المسئولون عن أمن القيادة خبرا بالحركة

فأستعدوا للمقاومة .. ولم يكن هناك مفرا من الاستيلاء على المقر بالقوة ، فمات اثنان من الجنود .. وجرح اثنان آخران فى القاعدة الجوية بألماظة .

وفى نفس الوقت قامت جماعات الأمن التابعة لزكريا محيى الدين بالقبض على اللواء أحمد طلعت قائد البوليس واللواء عبد المنصف محمد نائب وزير الداخلية ، واللواء محمد امام رئيس قلم البوليس السياسى ، واللواء حسن حشمت قائد القوات المدرعة .. وقبض على الباقى وهم فى منازلهم .

لم يكن هناك لواء عامل واحد فى الجيش ، فى ذلك الوقت ينعم بحريته سواى حتى شقيقى على دخل المعتقل مع زملائه .

كان ذلك فى الساعة الثالثة صباحا .

وقال لى جمال حماد :

ـ ان قولا من ثلاث عربات مدرعة يقوده اليوزباشى سعد توفيق فى طريقه الى الزيتون لاحضارك .

لكنى أخبرته أننى سأركب فورا سيارتى الأوبل الصغيرة التى يقودها سائقى الخاص ، توفيرا للوقت .

وتحركت سيارتى الأوبل فى طريقها الى كوبرى القبة .. ولكن قبل أن أصل الى مقر القيادة وجدت جمعا من الضباط والجنود فى إنتظارى ، فتركت سيارتى المدنية وركبت سيارة جيب ، دخلت بها مبنى رئاسة الأركان .

كان أول من استقبلنى على مدخل القيادة اليوزباشى إسماعيل فريد ، الذى أصبح ياورى الخاص بعد ذلك .. وعندما صعدت الى غرفة رئيس الأركان وجدت البكباشى يوسف صديق يتحدث الى بعض الضباط منهم القائمقام أحمد شوقى ، والبكباشى جمال عبدالناصر ، والبكباشى زكريا محيى الدين ، والبكباشى عبدالمنعم أمين ، وقائد أسراب حسن إبراهيم ، وقائد اسراب عبداللطيف البغدادى ، وقائد جناح على صبرى وكان البكباشى محمد أنور السادات متمددا فى غفوة قصيرة .

وللتاريخ اذكر أن يوسف صديق كان أشجع الرجال فى تلك الليلة ، وكان هو الذى نفذ عملية الاقتحام والسيطرة على مقر القيادة ، رغم أن دوره كان حسب الخطة حماية قوات الهجوم والوقوف كصف ثانى وراءها .

وللتاريخ أيضا ، اذكر أن جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر لم يقتربا من القيادة إلا بعد الاستيلاء عليها .. كانا يقفان فى مكان جانبى قريب ، أمام سيارة

عبدالناصر الأوستن السوداء ، وقد ارتديا الملابس المدنية ، ووضعا ملابسهما العسكرية وطبنجتين داخل السيارة .. وبمجرد أن احسا بنجاح الاقتحام ، ارتديا الملابس العسكرية ودخلا القيادة .

أما أنور السادات فكان أكثر منهما ذكاء ، اذ دخل ليلتها السينما ، وتشاجر مشاجرة مفتعلة ، وحرر محضرا بالواقعة ، حتى اذا ما فشلت الحركة نجح فى الخروج منها كالشعرة من العجين .

على مكتب رئيس الأركان اللواء حسين فريد وجدت مفكرته الخاصة .. وفى هذه المفكرة كان حسين فريد قد سجل أسماء ثمانية من أسمائنا تمهيدا للقبض علينا أو تشريدنا ، فى نفس اليوم .. يوم ٢٣ يوليو .

وعلى هذا المكتب بدأت بعد دقائق من وصولى ارد على المكالمات التى تلقيتها من الاسكندرية .. من الفريق حيدر ، ومن وزير الداخلية ، ومن رئيس الوزراء وكانوا جميعا يطلبون تأجيل اذاعة البيان الأول ، الذى عرفوا أنه سيذاع مع افتتاح الاذاعة ..

فقلت لوزير الداخلية :

ـ نحن مصرون على اذاعة البيان فى موعده .. ونأسف لعدم اجراء أى تعديل فى برنامجنا ..

ثم قلت له :

ـ نحن حركة لا هم لها سوى اصلاح الفساد فى الجيش ، فلا تنزعجوا .. وبعد خمس دقائق ، اتصل بى رئيس الوزراء فكررت عليه نفس العبارات تقريبا .. وأضفت :ـ لقد أستولينا على السلطة لمساعدة الحكومة فى تطهير الأمة من الفساد .

واتصل بى حيدر ، وقال :

ـ ان الملك سوف يعينك وزيرا للحربية ، ويغفر كل شىء ، اذا أوقفت الانقلاب !

فقلت له :

ـ سوف أدرس الأمر :

لكننى لم أعده بشىء .

فى نفس الوقت ، قام أحد ضباطنا بشرح الأهداف العامة للحركة للملحق بالسفارة الأمريكية كان يعرفه وكان السفير الأمريكى جيفر سون كافرى ومساعدوه فى الأسكندرية مع الحكومة . . كذلك أتصل نفس الضابط بالمستر كرزويل القائم

بأعمال السفارة البريطانية ،لغياب مستر رالف ستيفنسون .

ولوكان المستر كافرى موجودا بالقاهرة لكنا قد اتصلنا به مباشرة ، لأننا كنا نعتقد ساعتها أنه أحد القلائل بين الدبلوماسيين الأجانب الذى يستحق أن نثق فيه .

وكان على صبرى هو الوحيد بين الضباط الذى كان يعرف أحدا فى السفارة الأمريكية .. فكلف بإيقاظ الكولونيل دافيد ايفانس مساعد الملحق العسكرى الأمريكى وأبلغه بنوايانا .. وطلب منه أن يبلغ السفير الأمريكى والقائم بالأعمال البريطانى أن الانقلاب مسألة داخلية بحتة ، تخص المصريين وحدهم .. وأن حياة وممتلكات الأجانب سوف تحترم .. وطالما لايتدخل الانجليز فسوف يعاملون معاملة الأجانب الآخرين .. وحذر على صبرى ، مستر إيفانس بأنه إذا تدخل الانجليز فسوف يتحملون وحدهم مسئولية سفك الدماء .. وكان صبرى حريصا على ألا يبلغ خطتنا فى خلع الملك عن العرش لأحد .

وفى الحقيقة كنا نخشى من تدخل القوات البريطانية المرابطة فى منطقة قناة السويس ، واحتلال وسط الدلتا بحجة حماية أرواح وممتلكات الأجانب .. لكنهم لم يتدخلوا .

وكان علينا ، قبل أى شيء آخر ، أن نعد البيان الأول ونجهزه قبل أن تفتح الاذاعة إرسالها .

كنا نريد صياغة بيان موجز ومؤثر فى وقت قصير جداً .

وانتهينا إلى الصيغة التالية :

« اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش ، وتسبب المرتشون ، المغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين »

« وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها ، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا ، وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم ، ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب .

أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين ، فهؤلاء لن ينالهم ضرر ، وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب .

وإننى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أية غاية ، وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب الا يسمح لاحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف ، لأن هذا ليس فى صالح مصر وأن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل ، وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونا مع البوليس .

وإنى أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم .

والله ولى التوفيق .

القائد العام للقوات المسلحة

لواء أ . ح. محمد نجيب

ووقعت البيان بعد أن قام بتبييضة الصاغ جمال حماد ، وأرسل على وجه السرعة مع مخصوص إلى دار الاذاعة ، وكانت فى شارع علوى وسلمه إلى اليوزباشى محيى الدين عبد الرحمن ، الذى دخل به إلى المذيع ، الذى كان يستعد لقراءة النشرة فأذاعه دون اعتراض . . وان كان قد ترك الضابط يقراه بنفسه .

لكن عندما سمعت البيان بصوت ذلك الضابط ، لم يعجبنى فقد كان يتعثر فى النطق وكان مرتبكا . . مهزوزا . . ونظرت إلى بغدادى أو السادات وطلبت أن يتولى أحدهما مهمة إعادة البيان بطريقة أفضل . . فتحمس السادات ، وانطلق إلى مبنى الأذاعة ، وبعد نصف ساعة كان البيان يذاع بصوته المعبر .

كان البيان يذاع كل نصف ساعة تقريبا .

لكنه عندما أذيع أول مرة ، كنا نتحكم فى الموقف تماما . . وكانت طائراتنا ومقاتلاتنا تطير فى سماء القاهرة والاسكندرية وبعض مدن الدلتا . . واتخذت الدبابات أماكنها أمام المبانى العامة ، وفى الميادين الهامة بالعاصمة . . ولم تكن هناك أى مقاومة ، على العكس ، كان هناك ترحيب شعبي هائل .

وقبل أن تدق الساعة تمام الثامنة ، جاء للقيادة أول وسيط بيننا وبين الملك ، وكان عم الملكة ناريمان ، مصطفى صادق بك ، وقال :

ـ الملك مستعد لاجابة جميع مطالب الجيش بشرط أن تتوجه إليه وتستعطفه لتلبية هذه الطلبات .

وعندما رفضت ، عاد مرة أخرى وقال :

ـ الملك موافق دون أستعطاف !
وعندما رفضت ، عاد مرة ثالثة ، وقال :
ـ يمكنك أن تؤلف حكومة عسكرية والملك موافق على ذلك .
ثم غادر مصطفى صادق القيادة فى هذه المرة ، واستقل طائرته إلى الاسكندرية .
بعد ساعة ، خرجت للجماهير، فى سيارة مكشوفة وطفت بوسط المدينة .

وفى الظهر إتصلنا بعلى ماهر ، بواسطة إحسان عبد القدوس ، ليشكل حكومة جديدة . . وتوجه أنور السادات لمقابلته . . وفى نفس الوقت توجه بعض الضباط إلى بعض السياسيين الآخريين لجس نبضهم ، لتشكيل الوزارة ، فى حالة رفض على ماهر . وقبل على ماهر ، تشكيل الحكومة من حيث المبدأ . . وبشرط أن يصدر التكليف من الملك .

وأعتقد أنه كان أصلح سياسى مصرى فى ذلك الوقت ، للقيام بما نطلبه . . فهو يعرف الملك منذ كان طفلا . . ثم هو الذى وضعه على العرش ، وهو قد خدم كرئيس للديوان الملكى وكرئيس الوزراء ، قبل ذلك .

وكنت أشعر أن على ماهر سيساعدنا فى خلع الملك لأنه كان يشعر تجاهه بالاحتقار . . ولم يكن مدينا له بشىء .

فى هذه الأثناء اتصل فريد زعلوك بى تليفونيا وسألنى :
ـ ماهى مطالب الجيش ؟

فقلت له :
ـ نحن نطالب بتكليف على ماهر بتشكيل الوزارة . . وبتعيينى قائدا عاما للقوات المسلحة . . وبطرد محمد حسن وحلمى حسين وأنطوان بوللى من حاشية الملك .
وقد قدمت هذه الطلبات للملك لجس نبضه واختبار قوته فلو قبلها عرفت أنه فى مركز ضعيف . . وأنه لايستند إلى قوات انجلترا فى مصر كما سمعت .
وعندما شرحت مطالب الجيش لعلى ماهر ، تساءل :
ـ انتوا ناويين توصلوها لغاية فين ؟
فقلت مداعبا :
ـ الى حد أن تصبح أول رئيس جمهورية لمصر !
فى الساعة الثانية والنصف أعلن عن قبول استقالة أحمد نجيب الهلالى ، بعد يوم واحد فى الحكم .

وبعد ثوان اتصل بى على ماهر ، وقال :
ـ الملك كلفنى بتشكيل الوزارة .
ثم طلب منى أن أزوره فى بيته .
وذهبت اليه بعد أقل من ساعة ، أنا وستة من ضباط القيادة ، فى موكب تسير أمامه وخلفه سيارات الحراسة .

كان على ماهر مشرقا . . يتمتع بحيوية زائدة . . وأخذ يحاورنى طوال الجلسة لمعرفة موقفنا من الملك . . فقلت له :
ـ اطمئن . . اذا أستجاب الملك لمطالبنا ، أنتهى كل شىء بسلام .
ويبدو أنه اقتنع ، وقال لى :
ـ سوف أشكل وزارتى من نفس الوزراء الذين ألفوا معى الوزارة بعد حريق القاهرة .

وفى صباح اليوم التالى . . ٢٤ يوليو . . خرجت من مقر القيادة الذى قضيت فيه ليلتى ، فى السادسة والنصف ، ومعى جمال عبدالناصر وإسماعيل فريد لنلحق بعلى ماهر فى بيته بالجيزة قبل أن يسافر الى الاسكندرية ، ليقابل الملك . . وقابلت على ماهر ، ثم أخذته الى المحطة ، وودعته هناك . .

وعند عودتى للقيادة ، ذهبت لزيارة كبار الضباط المقبوض عليهم فى معتقل الكلية الحربية . . ووعدتهم بالافراج عنهم فى أقرب وقت وفعلا . . فى نفس اليوم قررنا الافراج عنهم جميعاً ، ما عدا ٣٤ شخصاً ، من بين ٢٣٦ سجينا ، كانوا من ذوى الميول الشيوعية .
وفى العصر عقدت مؤتمرا صحفيا لوكالات الأنباء العالمية .
وبعد العشاء اذعت أول بيان بصوتى . . قلت فيه :
« اخوانى أبناء وادى النيل ! .

لشد مايسرنى أن أتحدث اليكم مع ما أتحمله فى هذه اللحظات من مسئوليات جسام لا تخفى عليكم ، فقد حرصت على ان أحدثكم بنفسى لأقضى على ما ينشره خصومكم وخصوم الوطن من شائعات مغرضة ، لهذا أعلنا منذ البيان الأول أغراض حركتنا التى باركتموها من أول لحظة ذلك لأنكم لم تجدوا فيها مغنما لشخص ولا كسبا لفرد بل أننا ننشد الاصلاح والتطهير فى الجيش وفى جميع مرافق البلاد ، ورفع لواء الدستور والواقع . إن أشد ما أسفت عليه ان بعض ذوى

النفوس الضعيفة لايزالون ينشرون الشائعات المغرضة عن حركتنا . . ان حركتنا نجحت لأنها بأسمكم ومن أجلكم وبهديكم وما يملأ قلوبنا من إيمان إنما هو مستمد من قلوبكم .

بني وطني :

« إن كل شيء يسير على مايرام ، وقد أعددنا لكل شيء عدته فاطمئنوا الى نجاح حركتنا المباركة ولا تنصتوا الى الشائعات واتجهوا بقلوبكم الى الله العلى القدير وسيروا خلفنا الى الأمام ، الى رفعة الجيش ، وعزة البلاد ، والله نسأل أن يسدد خطانا وأن يطهر نفوسنا . وأنتهز الفرصة لأؤكد لكم أن كل شيء يسير على مايرام مرة أخرى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ظهر ذلك اليوم قابل الملك على ماهر فى قصر المنتزه . . واستمرت المقابلة ٣ ساعات . . أبلغ فيها على ماهر الملك بمطالبنا . . التى وافق الملك عليها . لكن . . جاءت موافقة الملك على مطالبنا متأخرة . . فقد كنا قد اتفقنا فى اجتماع اللجنة القيادية على عزل الملك . . وقررنا أن لا يعرف على ماهر هذا القرار الآن . وفى هذا الاجتماع قررنا إرسال بعض المدرعات والمدافع الى الاسكندرية تمهيدا لعملية عزل الملك .

وكلفت البكباشي زكريا محيى الدين باعداد خطة تحرك القوات الى الاسكندرية لحصار قصرى الملك ، وذلك امتدادا للخطة التى وضعها لتحريك القوات ليلة ٢٣ يوليو .

وتحركت القوات الى الاسكندرية . . وتحرك معها القائمقام أحمد شوقى والبكباشي يوسف صديق والبكباشي حسين الشافعى والبكباشي عبدالمنعم أمين .

وكانت الخطة التى وافقنا عليها تتلخص فى حصار قصرى المنتزه ورأس التين بالدبابات . . وان تقوم القوات البحرية بدوريات مستمرة ، وكذلك الطيران والمشاة .

وعلمنا ان الملك اتصل بالسفير الامريكى ، وطلب منه أن يبلغ الانجليز أنه فى حاجة الى عونهم ، لكن السفير الأمريكى اعتذر بحجة عدم تدخل حكومته فى الشئون الداخلية . . لكنه وعد الملك بحمايته وحماية أرواح عائلته اذا احتاج الأمر ذلك . . وغضب الملك من رد كافري ، وطلب قائد القوات البريطانية فى مصر وطلب منه أن يضع خطة لتهريبه هو وأعوانه خارج مصر ، لكن القائد البريطانى

تراخى فى الاستجابة لطلب الملك ، فإذا بالملك يطلب منه احتلال القاهرة ، وضرب الأسكندرية بالاسطول . . وفى هذه المرة رفض طلبه تماما .

ولم ييأس الملك . . فأتصل بأيدن وكرر عليه نفس المطالبة . . فعرض ايدن الأمر على حكومته ، التى عرضتها على الرئيس ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى ذلك الوقت . . الذى عارض بشدة أى تدخل فى شئون مصر الداخلية . . وأحبط محاولات الملك الأخيرة .

فى يوم الجمعة ٢٥ يوليو ، سافرت بالطائرة الى الأسكندرية . . وسافر معى أنور السادات وجمال سالم وزكريا محيى الدين وتوجهت الى معسكر مصطفى باشا . . وعلى طول الطريق من مطار النزهة الى مصطفى باشا كانت جموع المواطنين على الصفين ، يهتفون لنا وكان على ان اسلم انذار الملك الى على ماهر فى بولكى . . وفى الانذار مايكفى لتنازل فاروق عن العرش . . وساعتها تمنيت أن يقبل فاروق الانذار وينزل من على عرشه دون اراقة دماء أو قتال بين جنودنا وجنود الحرس الملكى .

لكن . . زكريا محيى الدين طلب أن نؤجل العملية الى اليوم التالى ، حتى يستريح الجنود الذين لم يناموا منذ قامت الحركة . . ورفض جمال سالم . . لكنى حسمت الأمر وأمرت بتأجيل العملية الى السبت ٢٦ يوليو حتى يستريح الجنود . . وقررت أن لا أفاتح على ماهر فى حكاية الانذار اليوم . . وتناقشنا فى بعض الأوضاع القانونية وانضم لنا المستشار سليمان حافظ ليوضح وجهة نظره ، وتذكرت أننى كنت عضوا معه فى محكمة عسكرية ، كان يرأسها اثناء الحرب العالمية الأخيرة .

وعندما عدت الى ثكنات مصطفى كامل فوجئت بجمال سالم يثير مشكلة فى غاية الأهمية عن مصير الملك فاروق بعد خلعه عن العرش . .

ماذا سنفعل به ؟ . . هل نحاكمه ؟ . . هل نطلق سراحه ؟ . . أم نرسله الى المنفى ؟

وقال جمال سالم :

ـ اننا قررنا عزل فاروق ، لكننا لم نقرر شيئا عن مصيره !

وقبل أن يتركنا نرد على سؤاله ، قال :

ـ من رأيى أن نحاكمه على جرائمه التى ارتكبها فى حق مصر وفى حق فلسطين .

قلت :

ـ من رأيى أنه مهما كانت جرائم الملك فاننا لا يجب أن نحاكمه او نسجنه . . لنتركه يقرر مصيره . ونلتفت نحن الى مستقبل البلاد .

فصاح جمال سالم :

ـ لا يجوز أن نترك الملك حرا .

وقال آخر :

ـ ان ثورتنا بيضاء ولا يجب أن تلوث بدماء أحد حتى ولو كان الملك .

فعاود جمال سالم الصراخ وقال :

ـ تذكروا شهداء فلسطين . . تذكروا أن عليكم الانتقام لهم .

فقلت فى حدة :

ـ ياجمال . . لقد قلت لك إنى لا اهتم بمعاقبة فاروق أم لا ، لكن إهتمامى الان بمستقبل مصر .

وامتد النقاش الى ما بعد منتصف الليل دون أن نصل الى نتيجة . . وفجأة لاح لى خاطر سرعان ما أعلنته . . قلت :

ـ اننا نشكل نصف أعضاء مجلس القيادة وفى مثل هذا القرار الخطير يجب أن نأخذ رأى الجميع .

قال جمال سالم

ـ ماذا تقصد بالضبط :

قلت :

ـ عليك أن تركب الطائرة وتسافر الى القاهرة وتعرض الأمر على جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وعبداللطيف البغدادى وكمال الدين حسين وتعود لنا برأيهم . . هل يسجن أم يعدم أم يطرد من البلاد ؟

قال :

ـ ولماذا لا نسألهم بالتليفون ؟

قلت :

ـ لان ذلك مستحيل فى هذه الظروف . . توكل على الله وسافر ياجمال .

وعاد جمال سالم بعد ساعات وسلمنا رسالة من جمال عبدالناصر تقول :

« ان حركة التحرير يجب أن تتخلص من فاروق بأسرع ما يمكن لكى نتفرغ الى ما هو أهم ، وهو القضاء على الفساد فى مصر ، ويجب علينا أن نمهد الطريق

لعهد جديد ، يتمتع فيه الناس بالحرية والكرامة والعدل ، واننا لا يمكن ان نضع فاروق أمام محكمة ولا نضعه أيضا فى السجن ، ونشغل أنفسنا بالخطأ والصواب وننسى أغراض الثورة . دعنا نترك فاروق يذهب الى المنفى ، ونترك التاريخ يحكم عليه بالموت » .

فجر ذلك اليوم . . السبت ٢٦ يوليو . . أمرت القوات بمحاصرة قصرى الملك بأسرع ما يمكن . . وأعطيت أوامرى بالهجوم عند الضرورة . . كنا نتصور ان الملك فى قصر المنتزه ، فقررت أن يحاصر القصر حسين الشافعى . . وتوجهت الى هناك أكبر القوات . . لكننا اكتشفنا أن الملك غادر قصر المنتزه سرا بالأمس ، ويقيم فى رأس التين الآن . . فقررت أن تحاصره القوة الكبيرة التى وصلت توا من القاهرة بقيادة عبدالمنعم أمين . . وبعد صدام خفيف جرح فيه ٦ أشخاص فقط استسلم حرس رأس التين .

فى الساعة التاسعة صباحاً قابلت على ماهر فى مقر الحكومة فى بولكى ، وكان معى جمال سالم وأنور السادات . . وبمجرد أن رأيته أخرجت ورقة كبيرة عليها الانذار الموجه للملك . فأخذها أنور السادات وقرأ ما فيها بصوت مرتفع . . وطلبت منه أن يوقع الملك وثيقة تنازله عن العرش قبل الثانية عشرة ظهرا . . ومغادرة البلاد قبل السادسة مساء .

وارتجفت شفتا على ماهر وشحب وجهه وقال :

ـ هل قدرتم كل شىء ؟

قلت :

ـ نعم !

قال :

ـ زى ماتشوفوا !

وغادر مقر الحكومة الى قصر رأس التين ليعرض على الملك مطلبنا فى تنازله عن العرش ، وتسليم الانذار الأخير له . . وكان نصه :

« من الفريق أركان حرب نجيب . . باسم ضباط الجيش ورجاله . . الى جلالة الملك . .

« انه نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وأمتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته . ولقد ساءت سمعة مصر

بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير .

« ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وماتبعها من فضائح الاسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة وساعد الخونة على ترسم هذا الخطأ فأثرى من أثرى ، وفجر من فجر وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

« لذلك قد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم السبت الموافق ٢٦ يوليو ١٩٥٢ والرابع من ذى القعدة سنة ١٣٧١ ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه .

« والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج .

فريق أركان حرب
محمد نجيب
الاسكندرية فى ٢٦ يوليو١٩٥٢
٤ من ذى القعدة ١٣٧١

وعدنا الى ثكنات مصطفى كامل فى انتظار رد الملك الذى سيحمله لنا على ماهر .

بعد نصف ساعة من المناقشات مع على ماهر قبل الملك الأنذار ووافق على التنازل عن العرش ومغادرة البلاد حسب الموعد المحدد فى الانذار . . لكنه اشترط :

١ ـ أن تكون وثيقة التنازل عن العرش التى سيوقعها مكتوبة على ورق لائق وبصيغة تحفظ كرامته كملك .
٢ ـ أن يبحر الى نابولى على اليخت « المحروسة »
٣ ـ أن نقدم له التحية الملكية والتى تطلق فيها المدفعية ٢١ طلقة .
٤ ـ أن أحضر أنا شخصيا لمقابلته قبل مغادرة البلاد .
٥ ـ أن تصحب المحروسة حراسة من المدمرات حتى المياه الاقليمية .

ووافقت على الشروط الأربعة الأولى ورفضت الخامس .
وأسرعنا بكتابة صيغة التنازل عن العرش التى سيوقعها فاروق كالتالى :
« أمر ملكى رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢ .
« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان
لما كنا نتطلب الخير دائما لامتنا ، ونبتغى سعادتها ورقيها ، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنب البلاد المصاعب التى تواجهها
فى هذه الظروف الدقيقة ونزولا عن ارادة الشعب :
« قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرنا بهذا الى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه »
التوقيع :
فاروق

والذى أعد هذه الوثيقة كان الدكتور عبد الرازق السنهورى رئيس مجلس الدولة وسليمان حافظ وكيل المجلس . . وكنت قد وافقت على هذه الصيغة بغد أضافة عبارة اقترحها جمال سالم وأيده فيها الدكتور السنهورى وهى عبارة : « ونزولا عن ارادة الشعب ».

ووقع فاروق على هذه الوثيقة مرتين من الأرتباك . . مرة أسفلها وأخرى أعلاها .

وشعرت بالراحة لأول مرة منذ ليلة ٢٣ يوليو وأنا استمع لحديث على ماهر وهو يروى لى ما حدث بينه وبين الملك قبل أن يقدم الانذار له . .
قال على ماهر :

ـ أحسست أن الانذار المكتوب شديد اللهجة ، فرفضت ان أقدمه له ، وأبلغته أهم ما فيه شفاهة مع نصيحتى بقبوله . . لكن الملك قال لى اننى لست جبانا . . والقوات الموالية لى أكبر من القوات الموالية للثائرين فقلت له : إن ذلك يعرض البلاد الى خطر الحرب الأهلية . .
واقتنع الملك دون نقاش طويل وطلب أن أكون أنا وأنت والسفير الأمريكى فى وداعه .

وأيقنت فى هذه اللحظة ان اختيارى لعلى ماهر رئيسا للوزراء فى هذه الفترة الحرجة كان اختيارا موفقا تماما .

وأتذكر فى ذلك اليوم أننا قررنا أن يأخذ الملك ملابسه وأمتعته ومجوهراته ومتعلقاته الشخصية .

وكان فى نيتى أن أكون فى وداعه عند مغادرته قصر رأس التين لكن ازدحام الناس حولى ، عطل مرورى ، كما أن سائقى ضل الطريق وتوجه الى ميناء خفر السواحل بدلا من أن يتوجه للميناء الملكى . . ولما عدنا الى الميناء ، الصحيح كان الملك قد توجه الى المحروسة منذ أربع دقائق ، أى فى السادسة تماما حسب الانذار ، ووجدت على ماهر وكافرى واسماعيل شيرين وبعض ضباط الحرس وقد بدا عليهم الصمت والوجوم وكأن الزمن توقف فعلا .

وكانت والدة ناريمان السيدة أصيلة صادق قد حضرت لوداع الملك ، ومعها اثنتان من أخواته : فايزة وفوزية وأزواجهن .

كان الملك يرتدى حلة أدميرال بحرى .

وكانت ناريمان قد سبقته الى المحروسة ومعها الأمير أحمد فؤاد تحمله مربية انجليزية ، ومعها أيضا بنات فاروق من زوجة سابقة :

فريال وفوزية وفادية .

وعزف السلام الملكى ، وتقدم الملك الى المحروسة . . واختلطت أصوات المدافع بصوت بكاء الخدم والحاشية .

وسألنى على ماهر :

ـ ماذا ستفعل الان بعد أن وصلت متأخرا .

قلت :

ـ سأذهب الى وداعه على ظهر المحروسة كما وعدت .

وأخذت لنشا حربياً دار بنا دورة كاملة كما تقضى التقاليد البحرية ... وحذرنى زملائى من الصعود الى اليخت ، إذا ربما أطلق على أحد أتباع الملك الرصاص . . فقلت :

ـ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

كانت المحروسة فى عرض البحر ، وأثناء مرور اللنش حولها رأيت الملك واقفا على سطحها ينظر إلينا ، فحييته التحية العسكرية أنا ومرافقى من الضباط ، لكنه لم يرد التحية . . وأعتقد أنه لم ينتبه الينا . . أو عاكسه ضوء الشمس عند الغروب .

وصعدت الى المحروسة ، يتبعنى أحمد شوقى وحسين الشافعى وجمال سالم

واسماعيل فريد . . وكان الملك ينتظرنى . . اديت له التحية فرد عليها . . ومضت فترة سكون . . سكون ثقيل ، كأنه جبل .
فمن الصعب إنسانيا أن تودع ملكا كان يملك الكل ويحكم كل شيء قبل أيام قليلة ، وكان من الممكن ان يعتقلنى ، أو يقتلنى . . أحسست أن هزيمة فاروق فى المباراة التى بدأت بيننا فى نادى الضباط ، كانت قاسية جدا . . وكان ثمنها غاليا . . انهيار السلطة . . والنفى بعيدا عن الوطن .
كانت مشاعرنا بالتأكيد فى هذه اللحظة متناقضة .
ومر الصمت الذى كان يسيطر علينا ويحكمنا ويربك أنفسنا ويجعل الكلمات عاجزة عن الحركة على شفاهنا ، وقلت له :
ـ أفندم . . أنت تعرف أننى كنت الضابط الوحيد الذى قدم استقالته فى عام ١٩٤٢ .
قال :
ـ نعم اتذكر .
قلت :
ـ لقد كنت خجولا للمعاملة التى لقاها الملك فى ذلك الوقت .
قال :
ـ أعلم !
قلت :
ـ كنا مخلصين للعرش فى عام ١٩٤٢ ولكن أشياء كثيرة تغيرت منذ ذلك الوقت .
قال :
ـ نعم أعرف أن أشياء كثيرة تغيرت .
قلت :
ـ أنت تعرف يافندم أنك السبب فيما فعلناه .
وجاءت اجابة فاروق محيرة جدا ، وشغلتنى طيلة حياتى . .
قال :
ـ أنتم سبقتونى بما فعلتموه ، فيما كنت أريد أن أفعله .
كنت مندهشا لهذا الرد . . ولم أجد شيئا أقوله له . . وقدمت له التحية ، كما فعل الآخرون ، وسلمنا بأيدينا على بعضنا البعض .
وقال فاروق :
ـ أرجو أن تعتنى بالجيش فهو جيش آبائى وأجدادى .

قلت :
- أعرف أن الكولونيل سليمان الفرنساوى هو الذى أسسه . . والجيش الآن فى يد أمينة .
ولاحظ فاروق أن جمال سالم يحمل عصاه وهو يقف أمامه فتوقف عن الحديث ، وأشار اليه قائلا :
- ارم عصاك .
وحاول جمال سالم أن يعترض لكنى منعته من ذلك ، فألقى عصاه ووقف بصورة تنم عن اللامبالاة .
وعاد الملك للحديث معى فقال :
- إن مهمتك صعبة جدا ، فليس من السهل حكم مصر
وكانت هذه آخر كلمات فاروق .
وأنتهى الوداع فى احترام ووقار ثم وقف الملك مع على ماهر وجيفرسون كافرى ، وقال :
- الان يجب أن أمشى .
ومشى فاروق دون أن يرجع .
وشعرت ان صفحة جديدة قد فتحت فى تاريخى وتاريخ مصر .
فى السادسة والنصف أذيع بيان تاريخى كان قد سجل بصوتى عن هذا الحدث . . قلت فيه :

« بنى وطنى . . اتماما للعمل الذى قام به جيشكم الباسل فى سبيل قضيتكم قمت فى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ الموافق ٤ من ذى القعدة ١٣٧١ بمقابلة حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء وسلمته عريضة موجهة الى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول تحمل مطلبين على لسان الشعب :
« الأول : أن يتنازل جلالته عن العرش لسمو ولى عهده قبل ظهر اليوم .
« الثانى : أن يغادر جلالته البلاد قبل الساعة السادسة .

« وقد تفضل جلالته فوافق على المطلبين وتم التنفيذ فى المواعيد المحددة دون حدوث ما يعكر الصفو . وإن نجاحنا الى الأن فى قضية البلاد يعود الى تضافركم معنا بقلوبكم وتنفيذكم لتعليماتنا وأخلادكم الى الهدوء والسكينة وأنى أعلن أن

الفرح قد يفيض عن صدوركم لهذا النبأ غير أنني اتوسل اليكم أن تستمروا فى التزام الهدوء حتى نستطيع مواصلة السير بقضيتكم فى أمان ولى كبير الأمل فى أنكم ستلبون ندائى فى سبيل الوطن . وفقكم الله لما فيه خيركم ورفاهيتكم والسلام »

وعدت الى ثكنات مصطفى باشا ، وأنا لا أفكر سوى فى العبارة الأخيرة التى قالها فاروق :

ـ ليس من السهل حكم مصر .

ساعتها كنت اتصور أننا سنواجه كل ما نواجهه من صعوبات الحكم باللجوء الى الشعب لكننى الأن أدرك أن فاروق كان يعنى شيئا آخر . . لا أتصور أن أحدا من الذين حكموا مصر أدركوه ، وهو أن الجماهير التى ترفع الحاكم الى سابع سماء هى التى تنزل به الى سابع أرض . . لكن . . لا أحد يتعلم الدرس .

الفصل السادس

اللحظة الحرجة

- نجحت الثورة تماما يوم رحل الملك فاروق عن مصر .
- السنهورى وسليمان حافظ يصيغان وثيقة تنازل الملك عن العرش وجمال سالم يعدل عليها .
- فاروق وقع الوثيقة مرتين لأن يده كانت ترتعش .
- الملك السابق يتهمنا بالفساد والدموية والفاشية رغم أننا كنا كرماء معه حتى اللحظة الأخيرة .

لازلت حتى اليوم أعتبر رحيل الملك ، أهم عناصر نجاح الثورة ، التى اعتبرها أهم حادث وقع فى تاريخ مصر الحديث .

ان كل الذين كتبوا عن الثورة لم يعطوا رحيل الملك ، ولا تنازله عن العرش ، الاهتمام المناسب لاهمية مثل هذه الحوادث التاريخية .. حتى أن الأجيال الشابة التى لم تعش أحداث الثورة ، أحست أن ما فعلناه لم يكن يستحق كل ما يقال عنها .

ولأننى بطل هذه الأحداث .. ولأن ما يمكن أن أضيفه عنها سيعد إغراقا فى النرجسية ، فإننى سأخرج من خزانة وثائقى التى لازلت أحتفظ بها ، بعض الأوراق والمخطوطات النادرة ، التى كتبها شاهد عيان ، عاصر هذه الأحداث ، وعاش تلك الساعات . شاهد العيان هو سليمان حافظ ، وكيل مجلس الدولة ، ومستشار الرأى لرياسة مجلس الوزراء .. أما الأوراق التى بخط يده فهى ، فى الحقيقة ، ورقتين .. الأولى : صفحة من مذكراته .. والثانية : التقرير الرسمى الذى قدمه لرئيس الوزراء على ماهر عن تنازل فاروق عن العرش .

أترك لكم أوراق سليمان حافظ ، واسترح أنا قليلا :

فى صفحة مذكراته الخاصة يقول سليمان حافظ :

« اويت الى فراشى ليلة ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ وأنا مرهف الحواس ، أتوقع حدثا قبيل الفجر . ولم أكد أنم الى أن طلعت الشمس ، فساءلت نفسى ، هل كذبنى ذلك الشعور الخفى الذى تملكنى عندما غادرت معسكرات مصطفى باشا فى منتصف الليل بعد مقابلة طويلة مع القائد وضباطه ؟

« وساورنى قلق مبهم وأنا أرتدى ثيابى وأستعد للافطار بيد أنه لم يدم إلا قليلا إذ سمعت جلجلة الدبابات على طريق الكورنيش فى سبيلها الى قصر المنتزه ، وشاهدتها تسير على بعد ، فزال القلق وحل محله الهدوء الكامل . واسرعت بتناول لقيمات ثم انطلقت مسرعا الى دار الوزارة ببولكلى ومنها أبلغت بالتليفون ما رأيت الى الرئيس على ماهر بفندق سان استيفانو فوعدنى بالمجىء الى فورا .

وماكدت أستقر حتى تحدث بالتليفون من قصر رأس التين من أخبرنى ان الجيش يحاصر القصر وقد أخذ يطلق نيرانه عليه طالبا منى أن أبلغ ذلك الى رئيس مجلس الوزراء ، وفجأة انقطعت المحادثة . ثم تكرر هذا الحديث من السفارة الأمريكية

، فأبلغت فحوى الحديثين الى الرئيس وفهمت منه أنه سيقصد قصر رأس التين على الفور ثم يعود إلى .

وبعد دقائق وصل المستر سبارك من السفارة الأمريكية وأخبرنى فى لهجة يخالطها كثير من الانفعال أن الجيش يحاول اقتحام القصر بالقوة وأن ذلك ليس فى مصلحة أحد ، فأفهمته أننى لست من رجال السياسة بل اننى المستشار القانونى لرئيس الوزراء فيجدر به ان يستبقى حديثه له عن حضوره ودعوته الى تناول القهوة معى فأمسك عن الكلام مستنكرا ما بدا له من هدوء منى ظنه برودا ثم اجاب دعوتى .

« وجاء القائد لموعد سابق مع الرئيس فتقابلا على خلوة ، وعلى أثر ذلك عهد إلى الرئيس أن أعد وثيقة لنزول الملك عن العرش فاشتركت مع الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة فى أعدادها .

وفى هذه الأثناء كان القائد قد عاد إلى دار الوزارة بصحبة قائد الجناح جمال سالم وبعد تعديل فى صيغة النزول ، طلب منى التوجه الى قصر رأس التين لتوقيعه من الملك السابق .

ولم أقبل ان يصاحبنى فى أداء هذه المهمة أحد من العسكريين تفاديا لاى أحتكاك يمكن أن يحصل بينه وبين فاروق ، بل وأصررت على الذهاب بمفردى .

وقد استقللت احدى سيارات حرس الوزارة منطلقا إلى غايتى وأنا أتأمل فى تصاريف القدر وعدالة السماء . وكيل مجلس الدولة ـ وهو الجهة التى يبغضها فاروق أشد البغض وعمل على تقويض أركانها الى آخر يوم من أيام ملكه ـ هو الذى يقع عليه أختيار القدر وتندبه عدالة السماء لاستيقاعه وثيقة النزول عن العرش .

ورأيت فى طريقى الى القصر مدافع الميدان مصوبة عند ثكنة خفر السواحل بالانفوشى ، الى القصر وهى على أهبة الضرب ، كما رأيت نطاقا من المدفعية والدبابات تحاصر ساحته الخارجية .

« وبعد أن اجتزت نطاق الحصار دخلت القصر فإذا به يبدو كالمهجور فيما عدا بضعة من جنود الحرس يحملون المدافع السريعة الطلقات مبعثرين فى مختلف أنحائه .

أما الضباط فقد رأيتهم محتشدين فى الصالة الخارجية لتلك الفيلا الأنيقة التى تم فيها نزول الملك السابق عن العرش وكانوا جميعا فى حالة وجوم وذهول .

وقد وقع فاروق الوثيقة على الصورة التى تناولها تقريرى المؤرخ ١١ أغسطس سنة ١٩٥٢ الى حضرة رئيس مجلس الوزراء وقد ضمنته تفصيلا دقيقا لما شاهدت وسمعت فى ذلك اليوم المأثور .

« ولم يبق الا ان أسجل هنا حادثة بسيطة فى ذاتها ، خطيرة الدلالة لمن يتأمل فيها وقد أثرت فى نفسى أبلغ تأثير .

ذلك أننى عدت الى معسكرات مصطفى باشا لابلاغ القائد نتيجة مهمته ، شاركته وضباطه طعام الغداء فى عصر ذلك اليوم وهو غداء لن أنساه ما حييت ، جلس اليه ستة أو سبعة رجال يقتسمون رغيفاً صغيرا من الخبز الأفرنكى وسلطانية صغيرة من اللبن الزبادى ، وقبل ان يفرغوا منه أرسل الله اليهم بفتى من الضباط يحمل سمكة مشوية ورغيفين صغيرين أو ثلاثة من الخبز البلدى حمد الجميع الله على نعمة الشبع بعد جوع .

« أما أنا فأحمده سبحانه وتعالى على نعمة هى من أعظم ما أنعم به على ، اذا أرانى فى آخريات حياتى ما لم أكن أطمع أن أعيش لأراه ومكننى من ان أسهم بجهدى القليل فى ثورة مباركة » .

أما تقريره الرسمى عن تنازل فاروق فكان نصه :

« القاهرة فى ١١ أغسطس سنة ١٩٥٢

حضرة الرئيس على ماهر رئيس مجلس الوزراء

طلبتم منى تقريرا مفصلا عن المهمة التى كلفتونى بها فى خصوص تنازل الملك السابق عن العرش والى سيادتكم هذا التقرير مراعى فيه الدقة بقدر المستطاع .

فى ضحى السبت ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ وفى مصيف الوزارة ببوكلى عهدتم الى بصياغة وثيقة تنازل الملك فاروق عن العرش فأثرت ألا أنفرد بهذا الأمر واشتركت مع حضرة الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة فى إعدادها .

وكنا بين أن تصاغ فى صورة كتاب من الملك الى رئيس الوزراء أو فى صورة كتاب ملكى فأثرت الأخرى واستلهمنا أسباب الأمر من مقدمة الدستور ثم عرضنا المشروع عليكم بحضور اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة والبكباشى جمال سالم من سلاح الطيران الملكى وبعد مناقشة وتعديل قليل بناء على طلبهما أقررتم المشروع وأمرتم بنسخه على الورق المعد للمراسيم . وطلبتم منى

التوجه الى قصر رأس التين لتوقيع الأمر من الملك وقد وعد القائد العام بالاتصال بالقوة التى تحاصر القصر للسماح لى بدخوله .

وقد طلب البكباشى جمال سالم أن يكون فى صحبتى ضابط من القيادة العامة يحضر التوقيع ، فصرفناه عن ذلك واستقللت سيارة من حرس الوزارة منفردا الى قصر رأس التين . وفى طريقى اليه شاهدت بطارية من مدفعية الميدان الثقيلة أمام ثكنة خفر السواحل بالانفوشى مصوبة مدافعها الى القصر وعلى استعداد تام للعمل وعند وصولى الى ساحته الخارجية رأيت نطاقا من مدافع الميدان والدبابات المسلحة والمدافع الرشاشة مضروبا على الساحة . وطلب منى الملازم المنوط بهذا الموقع أن أستحضر له من القيادة العامة اذنا مكتوبا بالمرور فأبلغته أنى فى مهمة يعلمها القائد العام للقوات المسلحة وأنه كان قد وعد باصدار هذا الأذن اليه مباشرة وكلفته بالاتصال به تليفونيا فى هذا الشأن فقصد الضابط الى قائد القوة المحاصرة وظللت حوالى ثلث ساعة حتى جاء البكباشى أنور السادات فى عربة چيب فأمر بافساح الطريق لى معتذرا من عدم وصول أوامر القيادة الى القوة المحاصرة لعطل مفاجىء فى آلة اللاسلكى وتبعنى بعربته الى الباب الخارجى للقصر وكان مقفلا ثم انصرف .

طرق سائق السيارة التى كنت اركبها الباب فانفتح جزئيا واطل منه حارس طلب منى أن أترك السيارة فى الخارج واستصحبنى الى ضابط فى مبنى للحراسة الى جانب الباب ، كلفته ان يبلغ الأميرالاى احمد كامل حضورى ، وبعد قليل قادنى أحد الحراس الى فيلا أنيقة فى الجهة الغربية من الديوان الملكى ، علمت من سيادتكم ، فيما بعد انها مخبأ للوقاية من الغارات الجوية كان قد اعد فى قصر رأس التين أثناء الحرب العالمية الثانية ولاحظت أثناء ذلك ان القصر يبدو مهجورا فيما عدا بضعة حراس مسلحين بالبنادق السريعة الطلقات .

وعلى باب الفيلا استقبلنى سيد يرتدى الملابس المدنية قال انه الأميرلاى أحمد كامل وادخلنى الى صالة فسيحة مستديرة فى وسطها منضدة كبيرة من الرخام الاسود المموه باللون الأبيض ، وفى محيط الصالة مقاعد كبيرة تتخللها آخرى صغيرة وإلى يمين الداخل اليها طرقة عريضة ، فاجلسنى على أحد المقاعد الكبيرة وغاب داخل الطرقة برهة

ثم عاد الى بعد قليل وأخبرنى ان الملك قادم لمقابلتى ، ثم عاد ليغادر الحجرة لبرهة أخرى ، وجاء ليقول ما محصلته أن لملك له أمنيه يريح خاطره ان تتحقق ،

فقد أعتقل رجال الجيش بوللى والاميرالاى محمد حلمى حسين عند خروجها من القصر صباح ذلك اليوم وبوللى عزيز على الملك اذ يلازمه منذ الطفولة وهو سيسر فى هذا الظرف العصيب اذا أمكن بتوسطى ان يسمح لبوللى بالرحيل معه اليوم لغير رجعة وكذلك الأمير الاى محمد حلمى حسين لوكان هذا مستطاعا والا فيكفى الافراج عن بوللى ، وتحدث فى هذا الشأن طويلا فكنت أعده أن أتوسط فى ذلك .

ومر حوالى ربع ساعة وأنا جالس فى مكانى ، والى جانب الطرقة اجتمع بعض الضباط وبينهم قليل ممن ظننتهم من المدنيين وعلمت فيما بعد انهم من ضباط الحرس الخاص ، ثم خرج الملك من الطرقة وهو يرتدى اللباس الصيفى لادميرال فى البحرية ، وقصد المنضدة التى فى وسط الصالة فنهضت عند رؤيته وقصدتها كذلك حتى التقينا فى جانب منها فصافحنى وأخرجت وثيقة التنازل من غلافها وقدمتها له فتناولها سائلا عما اذا كانت محكمة الوضع من الناحية القانونية ، فقلت : نعم والقى عليها نظرة عاجلة ثم سألنى عن أسباب النزول عن العرش فقلت أننا استلهمناها من مقدمة الدستور . وكان الملك يبدو هادئا لكننى لاحظت من سرعة خطواته ومن سعلات قصيرة سريعة كانت تنتابه عند مجيئه انه كان فى حالة انفعال عصبى يعمل جهده للسيطرة عليه .

وعاد الى قراءة الوثيقة مرة ثم تناول قلما من جيبه وقرأها مرة أخرى كلمة فكلمة وقال : الا يمكن أضافة كلمة « وارادتنا » بعد عبارة « ونزولا على ارادة الشعب » قلت لقد وضعنا نزولكم عن العرش فى صورة أمر ملكى قال تريد أن تقول أن الأمر الملكى ينطوى على هذا المعنى ، قلت : نعم ، قال : فليس اذن ما يمنع من أضافة تلك الكلمة ، فقلت : أننا لم نصل الى الصيغة المعروضة عليه الا بصعوبة ، قال فى اهتمام : اذن فقد كانوا يريدون منى ان اوقع ورقة آخرى ، قل لى يابيك ماذا فيها، قلت لم أطلع عليها . قال : أنت تمسك عن ذكر ما فيها حتى لا يجرح شعورى لكننى أعدك الا أتأثر مما أسمع ، فاكدت له بشرفى أننى لم أطلع عليها ، فوقع الأمر الملكى ، ثم قال : لعلك تقدر الظروف فتلتمس لى العذر فى ان التوقيع لم يكن كما اود ولذا سأوقع مرة آخرى ، ثم وقع فى اعلا الوثيقة ، وهنا اعتذرت من عدم امكانى الحضور بغير الملابس البيضاء التى كنت ارتديها وحاولت ان اهون عليه الامر مشيرا الى قضاء الله والرضاء به فقال لابأس

لابأس ، بلهجة فيها من الأسى والاسف بقدر مافيها من حزن لاح على وجهه وقتئذ .

واقترب الاميرالاى احمد كامل منا وقال للملك على مسمع منى انه حدثنى فى شأن بوللى والاميرالاى أحمد على حسين فكرر الملك الرغبة فى الأفراج عنهما باهتمام شديد كان من أثره أننى وعدته بالسعى لدى سيادتكم ولدى القائد العام لتحقيق رغبته .

« وسألته : هل من رغبة أخرى ، فقال : إن لديه فى الخارج من المال ما يكفيه ليعيش عيشة . بسيطة ولكنه يرجو لو بقيت أمواله فى المملكة المصرية على حالها حتى تؤول بالميراث الى أولاده فإن تعذر ذلك فإنه يود أن توزع عليهم من الآن بنسبة حصصهم الميراثية فوعدته كذلك بالعمل بقدر المستطاع على تحقيق هذه الرغبة . .

ثم صافحنى وعاد الى الطرقة التى قدم منها واتجهت أنا نحو باب الصالة الخارجى وقبل وصولى اليه أحسست بوقع أقدامه راجعا فوقفت عسى أن يكون يريد ابلاغى فى رغبة اخرى ، والتفت الى جهته فوجدته يحدث أحد ضباطه فانصرفت عائدا الى رياسة مجلس الوزراء وسلمتكم الأمر الملكى موقعا من الملك السابق وأبلغتكم رغبته فى خصوص بوللى ومحمد حلمى حسين فأبديتم أنها عسيرة التحقيق إذ أن رجال الجيش لن يسلموا بهما .

لكنى ذهبت الى القيادة العامة برا بوعدى وحادثت القائد العام والموجودين من ضباطه فى رغبة الملك هذه فاعتذروا من عدم امكانهم اجابة هذه الرغبة
أما الرغبة الأخرى فأظن أنها تحققت بالمرسوم بقانون رقم ١٣٦ لسنة ١٩٥٢ فى شأن الحراسة على أموال الملك السابق .
وتفضلوا بقبول عظيم احترامى .

وكيل مجلس الدولة
ومستشار الرأى لرياسة مجلس الوزراء
وديوانى المحاسبة والموظفين
سليمان حافظ

وبمناسبة رحيل الملك فاروق أيضا ، أريد أن أضيف الى الوثيقتين السابقتين ، وثيقة ثالثة . . كتبتها بخط يدى ، فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٢ ، لأرد فيها على ما قاله الملك فاروق من مغالطات لصحافة العالم ، وهو يروى لها قصة خروجه من مصر .

وقد تحولت هذه الوثيقة الى بيان اذيع فى نفس اليوم الذى كتبتها فيه . . قالت الوثيقة ـ البيان :

« كنت أربأ بالملك السابق وقد اعتز بماضيه الذى لايحسد عليه أن ينزل الى مستوى المتهم الذى لم يجد أمامه سوى ان يقول أى شيء خشية اتهامه بالرضى والسكوت عن مخاز يخجل لها هذا الماضى حياء وتأدبا .

« يقول صاحب الجلالة السابق أنه يتكلم لصالح المخلصين الطيبين الذين ماتوا وسيموتون دفاعا عنه ، ونسى ان العالم كله قد بهره نجاح حركتنا بدون أن تزهق روح لبرىء كأحد هؤلاء الأبرياء الذين كان يأمر هو باغتيالهم غدرا وافتئاتا اذا ما احس أنهم يأبون ان يكونوا من العبيد ، أما الذين اعتقلهم الجيش فهؤلاء لا ينتظرون الموت كما يقول ولكنهم ينتظرون أن تقول العدالة كلمتها فى تصرفاتهم السابقة وهؤلاء جميعا ـ ومنهم بطانته ذاتها وحاشيته ـ ليس بينهم واحد يذكر فاروق بالخير فكلهم يلعنونه ويلعنون الظروف التى جمعتهم به .

وانى لأعجب لتمسك فاروق بحبه لمبدأ حظر الحريات فيظن أننا سنمنع نشر قصته هذه فى مصر وكنت أتمنى أن يكون دفاعه دفاعا لا يزيده اتهاما ولكننا لم نمنع نشر القصة ، فنشرتها الصحف لكى تكتمل أمام عيون الشعب تلك الصورة البشعة لذلك الماضى الذى حطمه الشعب بيده وبإرادته ممثلا فى جيشنا الحر الأمين .

ولعل أحدا لم ينس كيف كان فاروق يمنع صحف العالم من دخول مصر خشية أن يعلم الشعب أنباء الفضائح والمخازى التى كان يرتكبها والتى أساءت الى مصر فكان العالم كله يعلمها والشعب لا يعلم إلا فئة آلت على نفسها ألا تسمح بنور المعرفة يصل الى أعين الشعب .

أما اليوم فليطمئن على الحريات التى لم تكن فى الماضى ممنوعة الا لمعاول الهدم الاجتماعى وشياطين الفساد الخلقى الذين يصلى الان من أجلهم كما كان يصلى لموائد الميسر والشراب فى شهر رمضان يوم كان ملكا لأمة اسلامية لها مكانتها المرموقة بين شقيقاتها فى العروبة والدين ، فأولئك الذين يصلى الآن من أجلهم

ليسوا فى حاجة الى هذه الصلاة لأن مصر كلها تصلى من أجل رجولتهم التى قدموها قربانا على مذبح شهواته وجبروته ونسوا أن الوطن ابقى من الأشخاص فاشتروا الضلالة بالهدى ولذلك كانوا عنده فى مقام المخلصين الذين يتحتم عليه حمايتهم والدفاع عنهم ونسى أن العدالة الآن ـ بعد أن زال هو من أمامها ـ قد وجدت طريقها حرا منيرا الى كل مظلوم ، فأفرجنا عن المعتقلين الذين كان يرمى بهم خلف القضبان ويأمر بارتكاب أبشع أنواع التعذيب البدنى والأدبى معهم ومع ذويهم الأبرياء .

« وأعود فأربأ بفاروق أن ينزل الى ميدان الاستجداء السياسى فيتملق دول الغرب بفرية يظنها سترضيهم ، ويصف حركتنا بأنها شيوعية ، ونسى أن ساسة الدول وحتى أبواق أذنابه لم تجد فى حركتنا سوى روحا نموذجية من الوطنية المخلصة .

وأختلط الأمر من هول الواقع على فاروق فوصف رجالى بأنهم من الأخوان المسلمين وهم براء من أى لون سياسى خاص ، كما نسى ان العداء معروف بين الشيوعية .والاسلام وبالتالى يصبح من غير المعقول أن يصدق العالم أن سفارة روسيا تمدنا بالأموال . إننا لسنا فى حاجة الى تلك الأموال مادمنا أغنياء بثروة الايمان بحقوق الشعب .

أما الخوف من حرب كورية ثانية فى مصر فأنى اشفق على خوفه هذا بالسياسة التى تتبعها حكومتى وهى توفير الحياة الكريمة لكل مواطن صالح بدلا من ترك الشعب على أبواب السفارة الروسية كما يقول الملك السابق كذبا . وهذا للأسف اعتراف منه بسوء الحالة التى وصلت اليها رعيته تحت ظل عهده الاقطاعى الذى كان يدفع الجماهير دفعا الى الشيوعية فجاءت ثورتنا لاقرار مبادىء الديمقراطية الصحيحة وهى هدفنا الذى قررنا أن نصل اليه بهذه الأمة التى زال عن صدرها كابوس الحكم الاستبدادى الذى كان يتستر خلف دستور لم يحترمه مطلقا .

« ومما يدهش أيضا أنه يدعى ان رجال الحرس دافعوا عنه مع أن الواقع انهم انضموا الى قوات الجيش التى كانت تطوق قصره لحراسته خوفا من بطش الجماهير ، أما الدبابات فلم تخرج من ثكناتها الا بعد وصوله الى قصر رأس التين كما لم يصدر أى قرار بحظر التجول ومن عجب أن يلجأ فاروق الى اختلاق وقائع تدل على تفاهة الخيال ثم ينسبها الى الضباط الأحرار فيقول أنهم قتلوا كلاب بناته وفقأوا عين المهرة ، وقد وصف الضباط الذين قاموا بالحركة بأنهم فئة قليلة من

رتب صغيرة تطمع فى الترقى مع أن العالم كله يشهد أنه لم يرق ضابط من ضباط القيادة الى رتبة أعلى من بدء الحركة حتى الأن فانكار الذات دستورنا .

وقد كنا كراما فى معاملته وتوديعه حتى آخر لحظة غادر فيها البلاد والسفير الأمريكى نفسه قد شهد هذا الموقف المشرف لرجال يقدرون الواجب عندما يطالبون بالحقوق .

ولما كنا فى شغل بما هو أجدى وأهم من تتبع كل قصة خيالية ينشرها فاروق استجداء لعواطف الدول فاننا من أجل الصالح العام سوف نجعل صالح أعمالنا خير رد على قصة كاذبة لأن مصر الآن أولى بأوقاتنا لنوفر لها حياة حرة كريمة فى نظام ديمقراطى سليم بدلا من الاهتمام بالرد على الاكاذيب التى تكذب نفسها بنفسها .

« والله ولى التوفيق .

الرئيس اللواء (أ . ح)
محمد نجيب

الفصل السابع

ما بعد الانقلاب

- ما حدث فى ليلة ٢٣ يوليو هل هو ثورة أم انقلاب ؟
- أول مهمة لى فى القاهرة كانت زيارة الرتب التى اعتقلناها فى الكلية الحربية .
- أراد رشاد مهنا أن يصبح ملكا فتخلصنا منه فورا .
- اخترق العسكريون كل المجالات وصبغوا الحياة المدنية باللون الكاكى .
- كان أجر الفلاح أقل من تكلفة اطعام الحمار فى اليوم الواحد .
- فى مشروع الاصلاح الزراعى كسبت السياسة وخسرت الزراعة .
- الأزمة الأولى بين الثورة والاخوان سببها رفضهم الوزارة العسكرية .

قبل أن أسترسل فى رواية ما حدث بعد خروج الملك فاروق من مصر ، أريد أن أحسم قضية هامة لاتزال تثير الحوار والجدل ، كلما جاءت سيرة ما فعلناه فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ :

هل ما فعلناه فى تلك الليلة ثورة أم انقلاب ؟

إن من يؤيدنا ويتحمس لنا ، يقول :

- ثورة !

وكأنه يكرمنا .

ومن يعارضنا ويرفض ما فعلناه يقول :

- إنقلاب !

وكأنه يحط منا .

وفى الحالتين لايجوز ان نأخذ بمثل هذه الانفعالات العاطفية .

وأنا لن أدخل فى مناقشات ومتاهات التعريفات والمصطلحات الاكاديمية حول الثورة والانقلاب . . ولن أتوه فى صحارى الخلافات النظرية . . لكننى سأقول رأيى فيما عشته ، وفيما رأيته ، وفيما صنعته .

ان تحركنا ليلة ٢٣ يوليو ، والاستيلاء على مبنى القيادة كان فى عرفنا جميعا إنقلابا . . وكان لفظ انقلاب هو اللفظ المستخدم فيما بيننا . . ولم يكن اللفظ ليفزعنا لأنه كان يعبر عن أمر واقع . . وكان لفظ الانقلاب هو اللفظ المستخدم فى المفاوضات والاتصالات الأولى بينى وبين رجال الحكومة ورئيسها للعودة الى الثكنات . .

ثم . . عندما اردنا ان نخاطب الشعب ، وان نكسبه الى صفوفنا ، او على الاقل نجعله لايقف ضدنا ، استخدمنا لفظ الحركة . . وهو لفظ مهذب وناعم لكلمة انقلاب . . وهو فى نفس الوقت لفظ مائع ومطاط ليس له مثيل ولا معنى واضح فى قواميس المصطلحات السياسية . . وعندما أحسسنا أن الجماهير تؤيدنا وتشجعنا وتهتف بحياتنا ، اضفنا لكلمة الحركة صفة المباركة ، وبدأنا فى البيانات والخطب والتصريحات الصحفية نقول :

- حركة الجيش المباركة .

وبدأت الجماهير تخرج الى الشوارع لتعبر عن فرحتها بالحركة . . وبدأت

برقيات التأييد تصل الينا والى الصحف والاذاعة ، فأحس البعض ان عنصر الجماهير الذى ينقص الانقلاب ليصبح ثورة قد توافر الان ، فبدأنا احيانا فى استخدام تعبير الثورة ، الى جانب تعبيرى : الانقلاب والحركة .

على انني اعتبر ماحدث ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ انقلابا . . وظل على هذا النحو حتى قامت فى مصر التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فتحول الانقلاب الى ثورة .

تحول الانقلاب الى ثورة من ساعة ان وضعنا عيوننا على الشعب قبل الجيش . . وعلى الصغير قبل الكبير .

وهذا ما كنت احلم به ، والجماهير تكاد تحمل سيارتى ، التى تنقلنى من راس التين ، بعد وداع الملك ، الى ثكنات الجيش فى مصطفى باشا . .

وكان اول مافكرت فيه فى تلك اللحظات التاريخية . الجنود الذين قتلوا ، واصيبوا من ليلة الثورة الى ليلة خروج الملك

فساعة ان اقتحم البكباشي يوسف صديق مبنى القيادة ، فوجىء بمن يطلق عليه النار . . وبعد ربع ساعة من الاشتباك ، اصيب احد رجاله ، وهو الاومباشى عبدالحليم محمد احمد ، من منقباد ـ اسيوط ، وقتل فى الحال .

وفى أثناء صعود يوسف صديق الى الدور العلوى ، صوب مكتب حسين فريد ، اعترضه الاومباشى عطية السيد دراج من نهطاى ـ الغربية ، فأطلق عليه يوسف صديق النار ، فأصابه اصابة قاتلة .

وفى الاشتباكات التى وقعت صباح اليوم بين قواتنا وقوات الحرس الملكى ، جرح ستة من جنود الحرس الملكى . . وكان من الممكن ان يكون عدد المصابين اكبر لولا حكمة الضابط الذى أصدر أوامره بوقف اطلاق النار واعتقد ان دماء الجنود الستة الذين اصيبوا جعلت الملك يشعر بعدم جدوى المقاومة . . وبالخوف من الحرب الاهلية . . وكانت أحد أسباب الاسراع بتنازله عن العرش .

فكرت فى اولئك الجنود . . وامرت بإرسال الحلوى لهم مع بطاقة خاصة منى ، تحمل لهم امنيات الشفاء . . وامرت بصرف مبلغ عاجل كأعانة لاسرتى الجنديين القتيلين .

كان على ان اعطى كل انسان حقه . . حقه المادى ، وحقه المعنوى . وكانت هذه أنسب ساعة لذلك . . الساعة الثامنة من مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ . . بعد خروج الملك بساعتين .

فى تلك الساعة ألقيت بيانا فى الاذاعة ، قلت فيه :

« بنى وطنى . .

« ان ما ينسب الى من عمل مجيد ان هو فى الحقيقة الا مجهود وتضحيات لرجال الجيش البواسل من جنود وضباط ، لم يكن لى الا شرف قيادتهم . . وان هذا العمل الذى قمنا به ما هو الا استمرار لجهاد مصر المقدس من عشرات السنين ، وقد ساهم فيه المصريون على اختلاف درجاتهم ، فان كان لنا اليوم ان نفخر بما نفخر به الآن فإنما نفخر بأبناء هذا الوادى الذين ساهموا فى حركتنا ، بقلوبهم وبأرواحهم . . ولا يفوتنى ان اقر بمزيد الشكر والاعجاب ذلك المجهود الرائع الذى قام به رفعة على ماهر فى اللحظات الحرجة التى تقرر فيها مصير الوطن .

وقد امر جلالة الملك فاروق عندما طلب الجيش إسناد منصب القيادة العامة الى بأن ينعم على برتبة الفريق ، بدرجة الوزير فلم أعلن رفضها حتى لا يعرقل غرضا أسمى وهو تنازل الملك عن العرش .

والآن وقد انتهت الأمور فإنى اعلن تنازلى عن هذة الرتبة قانعا برتبة اللواء ، مراعاة لحالة الدولة المالية ، وكفانى ما أسبغه على زملائى من شرف قيادتهم وما أسبغته على الأمة من ثقة وتكريم

وبهذا انتهت مأموريتى فى الأسكندرية .

وظهر اليوم التالى ، عدنا الى القاهرة . .

وعادت معنا الحكومة من المصيف . . بعد أن كانت تضيع الوقت والمال هناك . . على حساب أموال الدولة .

وأخلينا مبنى الحكومة فى بولكلى وأعطى للجامعة التى سميت باسم جامعة الأسكندرية ، بعد ان كانت تسمى بجامعة فاروق . . تماما كما غيرنا اسم جامعة فؤاد الى جامعة القاهرة .

فى القاهرة ، قبضنا على كل حاشية وأتباع الملك . . ومنهم حسين سرى عامر الذى قبض عليه اثناء هروبه فى عربة مسروقة الى ليبيا . . ومنهم كريم ثابت . . وعباس حليم . . وغيرهم .

وفى القاهرة ، زرت فى نفس يوم وصولى اليها ، معسكر الاعتقال بالكلية الحربية ، وقابلت زملائى القدامى من لواءات الجيش ، لأطمئن على حالتهم . . وبعد أن أمضيت نصف ساعة من المرح معهم ، قلت لهم :

ـ لا أحد سيصيبه أى ضرر أبدا إلا إذا كان هناك مبرر قانونى لذلك . . لقد

تحفظنا عليكم من أجل سلامتكم وسلامة الحركة فى نفس الوقت .
وأمرت الحرس أن يعاملوهم بالذوق وان يقدموا لهم ما يحتاجون إليه ، وان لا ينسوا انهم كانو قادتهم .
وقررت الإفراج عن بعضهم فى نفس اليوم ..
وقد افرج عنهم جميعا ، بعد ذلك ، ماعدا ثلاثة ..
كذلك افرج عن ٢٦٤ شخصا من الذين قبض عليهم اثناء حريق القاهرة ، واصدرنا عفوا شاملا عن المساجين السياسيين ، الذين اتهموا فى قضايا قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بما فيهم الشيوعيين ..

أردنا أن نبدأ حياة جديدة .. نعطى فيها الفرصة لكل سجين سياسى لكى يعيشها معنا ، دون اضطهاد أو قهر سياسى .. كان هذا احد أحلامى ، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه .. فقد اعتقلت الثورة ، ألفا مقابل كل فرد أفرجت عنه .. وهذه على كل حال قصة أخرى .. قصة كنت انا شخصيا واحدا من أشهر أبطالها ومن أشهر ضحاياها .

كانت الأيام الأولى التالية لطرد فاروق أياما تزدحم بالمقابلات واللقاءات والاجتماعات بيننا وبين الزعماء والسياسيين وكبار رجال الدولة .
وفى تلك الأيام قابلت مصطفى النحاس باشا ..
كان ذلك فى الساعة الثانية من صباح ٢٨ يوليو .. فى مقر القيادة العامة .. وكان معه فؤاد سراج الدين .. وكانا قد وصلا لتوهما من اوروبا حيث كان يستشفيان .. ومرا على وهما فى طريقهما من المطار الى البيت .

كنت قد آويت إلى سريرى السفرى الذى فرشته فى مكتبى .. فقمت وارتديت ملابسى .. وطلبت من الاعضاء الموجودين ان يحضروا المقابلة .. ورحبت بهما .. وتبادلنا عبارات المجاملة .. ولم نتحدث فى اى شى لانهما فضلا العودة للمنزل .. وعلى الباب وانا اودعهما قال مصطفى النحاس :
- انى اؤيدك وادعو الله ان ينصرك ويوفقك على الدوام .
وظللت طوال الايام التالية استقبل وفود المهنئين من جميع الهيئات والطوائف والطبقات .

وفى تلك الأيام اجتمع ضباط القيادة بكاملهم ، لأول مرة ، تحت رئاستى .. وأصبح عبدالناصر مديرا لمكتبى .

ويشهد الله ، أننى أزلت حاجز العمر والرتبة والخبرة ، بينى وبين الضباط فى مجلس القيادة ، وأزلت كل الحساسيات بينى وبينهم ، وكنت اناقشهم فى كل صغيرة وكبيرة ، واستشيرهم فيما يعرض على من امور وفيما نفكر فى اتخاذه من قرارات .

فى ٣٠ يوليو ألغيت الألقاب الرسمية . . من بك الى باشا . . ومن صاحب السعادة . . إلى صاحب السمو وهذه الالقاب هى فى الأصل ألقابا تركية . . وكانت تمنح ولا تورث . . وكانت منحة من الملك . . وغالبا ما كانت تمنح لمن لا يستحقها مثل سائق الملك محمد حلمى حسين ، الذى كانوا يقولون له : محمد بك .

لكن . . إلغاء هذه الألقاب بقرار حكومى لا يكفى . . فالناس تعودت عليها . . ولابد من ابتكار القابا بديلة لها . .

كان من السهل اختيار لقب بديل للقب مستر . . اخترنا كلمة حضرتك لكنها لم تكن ملائمة للمصريين . . فاستقر الرأى على لقب السيد .

واعترف اننا نجحنا فى الغاء لقب باشا من حياتنا ، ولم تعد هذه الكلمة تستخدم فى الشارع المصرى للاحترام انما للسخرية . . لكننى اكتشفت فى الأيام الأخيرة وفى عصر المليونيرات الجدد فى السبعينات ، ان هناك محاولة لإعادة الاحترام لهذا اللقب . . وفى نفس الوقت لا أتصور اننا نجحنا فى التخلص من كلمة بك واصبحت الكلمة هى اشهر لقب فى حياتنا حتى الان ، سواء كنا نعنيه او لا نعنيه .

وفى ذلك الوقت كان أديب الشيشكلى يحكم سوريا ، هو ومجموعة من الضباط ، وكان علينا أن نختار ضابطا عظيما ليمثل حكومتنا هناك . . فأخترنا على نجيب لهذه المهمة . . وقد وافقت على ذلك بناء على طلب الآخرين . . ودون اى اضافات فى مرتبه .

كان على مؤهلا جدا لهذه الوظيفة . . فقد خدم لمدة ١٠ سنوات فى السودان كسكرتير للحاكم العسكرى الانجليزى هناك .

وتصورت ان هذا الاختيار سيفتح النيران على . . لكن . . هذا لم يحدث . . فلا أحد حاول الطعن فى كفاءة على نجيب . لكن . . ما أن مر هذا القرار على خير ، حتى فوجئت بشقيقتى نجية تأتى لى ومعها أوراق منحة حصلت عليها

لدراسة الطب فى الولايات المتحدة وعرفت منها ان شقيقى الأصغر محمود حصل هو الآخر على منحة أخرى لتكملة دراسة الطب البيطرى فى انجلترا . . وفزعت من هذه الأخبار . .

وحاولت جهدى لمنعهما من قبول هذه المنح . .

فبالرغم من ثقتى انهما يستحقانها ، الا اننى كنت اعرف اننى وهما ستتعرض للنقد الشديد ، إذا قبلا المنحتين .

وقد نجحت فى اقناع نجية برفض المنحة ، وقررت ان تبقى فى القاهرة ، وتتزوج . . ولكنى فشلت مع محمود، الذى أصر على أن يكمل دراسة الدكتوراة ، فى الطب البيطرى من مدرسة جابى ميديكل بلندن . . فأصدرت قراراً بمنعه من استخدام المنحة ، فرفع قضية ضد وزارة التربية والتعليم ، وكسبها ، وسافر فعلا .

كانت مشكلة محمودونجية هى اول مشكلة خاصة اقابلها بعد نجاح الثورة . اما اول مشكلة عامة اقابلها بعد نجاح الثورة ، فكانت مشكلة الوصاية على العرش .

لقد تنازل الملك فاروق عن العرش لابنه الأمير أحمد فؤاد الثانى . . ولم يكن ممكنا أن يحكم مصر طفل طرد أبوه الى المنفى . . فماذا نفعل فى هذا الوضع ؟ معظم اعضاء مجلس القيادة طالبوا بأقامة الجمهورية . . لكننى اقنعتهم ان التحضير للجمهورية التى ستحل محل الملكية يحتاج الى وقت .

وكان من رأى الاخوان المسلمين إسقاط الملكية وإعلان الخلافة الأسلامية فوراً .

وكان من رأيى تشكيل مجلس الوصاية على العرش .

ووافق الجميع .

لكن . . كانت هناك عقبة دستورية كبيرة أمام تشكيل هذا المجلس . . فالدستور ينص (مادة ٥١) على ألا يتولى أوصياء العرش عملهم إلا بعد أن يؤدوا أمام مجلس النواب والشيوخ مجتمعين اليمين الذى يؤديها الملك امامها قبل مباشرة سلطته الدستورية .

وللملك حسب ، أحكام الأمر الملكى رقم ٢٣ لعام ١٩٢٢ اختيار هؤلاء الأوصياء على أن يقر المجلسان اختيارهم .

والدستور ينص (مادة ٥٢) على انه عند وفاة الملك يجتمع البرلمان بحكم القانون خلال عشرة ايام من الوفاة ، فإن كان المجلس منحلا وكان الموعد المعين لاجتماعة بعد انتخاب اعضائه يجاوز اليوم العاشر وجب ان يعود المجلس المنحل للعمل حتى يجتمع المجلس الذى يخلفه .

والدستور ينص (مادة ٥٥) على ان يتولى مجلس الوزراء بصفة مؤقتة ، سلطات الملك الدستورية حتى يؤدى أوصياء العرش اليمين أمام البرلمان .

على أنه رغم كل هذه النصوص ، فإن الدستور لم يذكر لنا أى شيء عن حالتنا التى نحن فيها الآن . . حالة ملك معزول . . تنازل عن عرشه لابنه الطفل

هل ننفذ نصوص الدستور التى ذكرتها على هذه الحالة .

أم أن الثورة تجب كل شيء ؟

وحدث جدل دستورى ومناقشات لانهاية لها حول هذة النقطة ، غير ان الرأى السائد لدى الفقهاء الرسميين وغيرهم ان الدستور مازال قائما رغم استبدال ملك بملك ، ورغم عنصر القهر الذى لازم ذلك التغيير لشخص الجالس على العرش .

لم أتدخل ، رغم دراستى القانونية العليا ، فى هذا الموضوع وتركته لاهل القانون حتى قالوا لنا هذا الكلام .

وبهذه الفتوى ، كان امامنا ثمانية أيام قبل أن تنتهى المدة الدستورية . . وكان مفروضا أن يدعى البرلمان الأخير ، المنحل ، وكان برلمانا وفديا للانعقاد ، قبل هذه المدة .

وتوقعت أن يصل مجلس الدولة الى هذه النتيجة . . وتوقعت أن يلتزم مجلس الدولة بالدستور . . لكن . . للأسف لم يحدث .

ففى أول أغسطس أصدر مجلس الدولة قرارا لم يوافق عليه الدكتور وحيد رافت فقط - ينص على عدم جواز دعوى مجلس النواب المنحل

فى حالة نزول الملك عن العرش ، ويجب اجراء انتخابات جديدة .

وخرجنا من حفرة لنقع فى حفرة اخرى . . .

وهنا قال مجلس الدولة (ماعدا د. وحيد رأفت) :

- طالما ان الانتخابات ستأخذ وقتا غير قصير ، فالحل يمكن ان يكون فى ايجاد نظام للوصاية المؤقتة ، وهذا يستدعى اضافة الى الأمر الملكى رقم ٥٢ لسنة ١٩٢٣ ، تنص على انه فى حالة نزول الملك عن العرش وانتقال وصاية الملك الى خلف

قاصر يجوز لمجلس الوزراء ، إذا كان مجلس النواب منحلا ، أن يؤلف هيئة للعرش من ثلاثة تتولى بعد حلف اليمين أمام مجلس الوزراء سلطة الملك إلى أن تتولاها هيئة الوصاية الدائمة .

ولا أعرف ماذا دفع مجلس الدولة لإستصدار هذه الفتوى ؟

هل هو الخوف من الضباط ؟

هل هى محاولة من البعض لتقديم خدماته إلى السلطة حتى ولو كان الدستور هو الثمن ؟

لا أعرف بالضبط . .

كل ما أستطيع أن أجزم به أنى لم أكن مستريحا لصحة هذه الفتوى ، وكنت أميل الى رأى د . وحيد رأفت ، لكن ماذا أفعل ، وماذا أقول ، أمام أغلبية قانونية فى مجلس الدولة أيدت هذه الفتوى ، التى وافقت عليها الحكومة ايضا ، ورحب بها أغلب ضباط القيادة وتحمسوا لها .

ثم . . أن الدكتور عبدالرازق السنهورى رئيس مجلس الدولة هو الذى رأس الاجتماع بنفسه ، بينما كان يترأسه عادة وكيل المجلس سليمان حافظ . . وفى ذلك الاجتماع ركز د . السنهورى بوجه خاص على أحكام دستور سنة ١٩٢٣ فى شأن الوصاية على العرش لانها واجهت فقط حالة وفاة الملك ولم تتناول الحالات الاخرى لانتهاء حكمه مثل خلعه او تنازله عن العرش . . وعقب د . السنهورى على ذلك قائلا :

- لا محيص ازاء هذا القصور من استنباط الحل المناسب وهو اصدار تشريع جديد بتعديل أحكام الأمر الملكى الصادر فى ١٣ ابريل ١٩٢٣ بوضع نظام لتوارث عرش المملكة المصرية ، وذلك بإضافة نص جديد يعالج خصيصا الحالة المعروضة ، حالة نزول الملك عن العرش وإنتقال ولاية الملك إلى خلف قاصر ، وفى وقت يكون فيه مجلس النواب منحلا .

لقد فصلوا قانونا حسب الحاجة .

فبركوا القانون .

وبعد أقل من أسبوع على رحيل الملك كنا نسير فى طريق تكييف القوانين الذى انتهى بنا الى هاوية اللاقانون بعد ذلك .

وأنا الآن أعتبر هذا الخطأ الصغير بداية مشوار طويل من الأخطاء التى لم نكن مسئولون عنها . . وانما كان مسئولا عنها الخوف من الضباط .

وقد انتقدت الصحف هذه الواقعة الجسيمة ، فقال أحمد أبو الفتح فى جريدة المصرى (عدد ٧ سبتمبر ١٩٥٢):

فى اعتقادى ان الخطأ قد بدأ يوم أن أفتى قسم الرأى فى مجلس الدولة فتواه فى مجلس الوصاية المؤقت ، وتلاه خطأ آخر يوم ان استمسك على ماهر بهذه الفتوى ، ويوم نادى بعض الكتاب بالفقه الثورى ، وأقول فى اعتقادى أن فى تلك الأيام بدأت الأخطاء فقد جانب الجميع نص الدستور الذى أعلن الجيش أنه عماد ثورته . . وبدأت الأخطاء وأخذ كل خطأ برقبة خطأ آخر واذا بأعاصير الأخطاء تهب ذات اليمين وذات الشمال ومن فوق ومن تحت ، والمرء وسط كل ذلك ذاهل ، تائه ، يحاول أن يصد هذا فيصرعه ذاك . . .

وأحمد أبو الفتح وغيره عندهم حق .

لكن . . ماذا نفعل وهذا رأى اهل الفقه والقانون ؟

قضى الأمر . . إذا . . واصبح علينا اختيار أسماء مجلس الوصاية .

اقترحوا الأمير محمد عبد المنعم . .

فوافقت .

واقترحوا بهى الدين بركات . .

فوافقت .

واقترحوا رشاد مهنا . .

فاعترضت .

وكان لإعتراضى مايبرره . .

فرشاد مهنا خشى مواجهة الملك ، بعد صدام النادى ، وطلب أن ينقل الى العريش ، وهو موقف لازلت أذكره له ، ولايزال عالقا فى نفسى .

ورشاد مهنا ضابط وأنا لا أريد أن أزج بالجيش فيما لم يخلق له .

ثم . . اننى خشيت عليه ان لايعرف حدوده فى هذا المنصب ، الذى يحل فيه محل الملك .

وحدث ماخشيته بالضبط . .

فبعد أن ألح زملائى فى المجلس على قبول تعيين ، رشاد مهنا كوصى ، وافقت . . وعين رشاد مهنا وزيرا للمواصلات ، بصفة شكلية ليستحق عضوية مجلس الوصاية دستوريا .

ولم تمر عشرة اسابيع على هذا القرار حتى وقع الخلاف بيننا وبينه .

فقد تجاوز رشاد مهنا حدود سلطته الدستورية ، بالتدخل فى شئون تطهير

الأحزاب والهيئات السياسية ، وبالاتصال بالوزراء وإقحام نفسه فى شئونهم ، وبالاتصال برجال الصحافة ومناقشة الامور معهم والأعتراض عليها .
كما أنه كان أيضا يسعى لإحياء الخلافة الإسلامية ليكون هو على رأسها .
لقد اعتدى رشاد مهنا على نصوص الدستور التى حددت سلطاته فى صراحة ووضوح ، ونسى أنه مجرد عضو فى هيئة تمثيل الملك ، الذى يملك ولا يحكم .

وفى يوم من أيام شهر أكتوبر ١٩٥٢ ، اتصلت به فى مكتبه بقصر عابدين ، لتهنئته بمولود رزق به ، ولتحديد موعد أراه فيه ، لتكون التهنئة مباشرة . . وجها لوجه . . فإذا به يصرخ فى وجهى ، ويقول :
ـ أريدك أن تأتى إلى مكتبى فى القصر ومعك السيد سليمان حافظ نائبك لمقابلتى .
كنت أيامها رئيسا للوزراء . .
وتعجبت من هذا الاستدعاء ، ورغم ذلك ، قررت أن أستجيب له ، لأنه صادر من أحد الأوصياء ، الذين لهم بحكم مناصبهم اتخاذ مثل هذه الخطوة .
وتوجهت فعلا ، انا وسليمان حافظ إلى القصر ، وقابلت رشاد مهنا فى مكتبه اكثر من ساعة .
كان رشاد مهنا ثائرا جدا . . يتحدث إلينا فى عنف . . ويضرب المكتب بقبضة يده . . ونحن نسمع ولانعلق .
قال رشاد مهنا :
ـ إننى أحب أن تعرف أن رشاد مهنا ليس بصمجيا . . إننى لا أقبل أن أجلس هنا أوقع المراسيم التى ترسلونها إلينا فحسب . . اننى الأحظ أن الوزارة تتخذ خطوات كثيرة لا أعرف عنها شيئا ، ولايعرض على من أمرها أية تفصيلات . . انك يانجيب تستقبل ستيفنسون (السفير البريطانى) وكافرى (السفير الامريكى) وتستدعى من السودان اقطابه ، وتتباحث مع الجميع دون علمى مع اننى واحد منكم ولابد أن يؤخذ رأيى فى كل شىء .
قلت له فى هدوء :
ـ أنت ثائر الآن ، وأنا افضل أن أتركك بضعة أيام حتى تستعيد هدوءك .
لكنه ازداد انفعالا وقال فى ثورة شديدة :
ـ اعلموا اننى لن اكون طرطورا .
لا اعرف ما الذى دفع رشاد مهنا إلى أن يقول مثل هذا الكلام .
ورغم ذلك ، حاولت أن أوضح له الأمر ، عندما انتقلت الى مكتب الامير محمد عبد المنعم ، ومعنا بهى الدين بركات ، لكنه اصر على موقفه ، وشاركه بهى

الدين بركات . . حاولت توضيح الموقف الدستورى لهم ، لكنهم لم يقتنعوا . . وأصر رشاد مهنا على ان يقدم استقالته . . وبقى الامير محمد عبد المنعم صامتا . . وأعلن بهى الدين بركات انه سيستقيل هو الآخر .

لقد أوصل رشاد مهنا الامر الى سكة مسدودة . .

فاتخذنا قرارا بإقالته وتحديد أقامته .

واقترحت على مجلس الوزراء أن نكتفى بوصى واحد هو الأمير محمد عبد المنعم ، بعد أن أصر بهى الدين بركات على الإستقالة . . ووافق سليمان حافظ ، وقال :

ـ لا مانع من الناحية القانونية إذ أن من السهل تعديل الأمر الملكى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٣ ، والذى يقضى بأن يكون مجلس الوصاية مشكلا من ثلاثة أعضاء . . وفى جلسة واحدة أخذنا الموافقة على اعفاء رشاد مهنا . . وتعديل الأمر الملكى . وفى ١٤ اكتوبر ١٩٥٢ اذعت البيان الخاص باعفاء رشاد مهنا والذى جاء فيه :

ـ لقد قام الجيش بثورته وكان اول اهداف الثورة القضاء على الطغيان ، فأقصت ملكا طاغيا لايحترم السلطات ودائب التدخل فى شئون الحكم ، ويؤسفنا وقد رشح الجيش احد ضباطه ، القائمقام أ . ح . محمد رشاد مهنا فى مجلس الوصاية المؤقت ، وطلب منه ان يلتزم حدود وظيفته كوصى لادخل له بشئون الحكم . فأخذ تارة يتصل بالوزراء طالبا اجابة مطالب شتى اكثرها وساطات ومحسوبيات وتارة اخرى يتصل برجال الادارة ، وتمادى الى ان حدث يوما أن أمر بمباشرة ايقاف اصدار احدى الصحف ، بل وسحب رخصة أخرى وقد نبه المرة تلو المرة ، ولكنه تجاهل ما كان يوجه اليه من نصح وارشاد ، فحدث ان سمح لنفسه بأن يعارض علنا قانون تحديد الملكية (الزراعية) رغم علمه التام بأن القانون هو حجر الزاوية فى الاصلاح الشامل الذى تريده الأمة والجيش وقيادته التى قامت بتوجيه الحركة . بل وبلغ به التمادى فأخذ يدلى بالتصريحات العامة للصحف والمجلات المصرية والأجنبية ، وبعض هذه التصريحات من صميم سياسة الدولة وهذا ما لا يجوز بحال أن يصدر من وصى على العرش . فتناول موضوع السودان ومواضيع شتى داخلية ، وأخذ يتصل بدور الصحف موحيا إليها القيام بدعاية واسعة النطاق له ، ودأب على بث روح التفرقة حتى خيل للبعض ان هناك جملة اتجاهات للجيش وليس اتجاها واحد قويا نحو غاية مرسومة . ولقد تحملت القيادة العامة تصرفاته هذه على مضض اسبوعا تلو الاسبوع الى ان تقدم حضرته رسميا لنا بطلب تدخله الفعلى فى كل امر من امور الحكم ومن ذلك ظهر لنا بوضوح ان حضرته لم يستطع التمشى مع اهداف الحركة والسير على مبادئها

المرسومة . لذلك قررنا اعفاءه من منصب الوصاية على العرش ، وليعلم الجميع ان هذه الحركة قائمة على المبادىء ولن تقف فى سبيلها نزوات اشخاص ، أو أطماع أفراد . والله ولى التوفيق »

واختفى بهذا البيان رشاد مهنا نهائيا من الحياة العامة .

وعلى ان ذلك كله ، لايمنع من ان اذكر اعجابى واحترامى لرشاد مهنا . . لايمنع ان اذكر انه كان ضحية مثلى . . فقد اراد جمال عبد الناصر ومجموعته ابعاده فى منصب شرفى (منصب الوصى) عن القيادة وعن السلطة الفعلية ، وعندما غضب ، سارعوا بابعاده . . اكلوه لحما ورموه عظاما ، كما فعلوا بى بعد ذلك تماما .

عموما . .

كان تعيين رشاد مهنا فى منصب كبير خارج الجيش فاتحة لتعيين ١٨ من اللواءات وكبار الضباط ، فى وظائف مدنية ودبلوماسية .

وتولد فى داخلى احساس بأننا فتحنا بابا أمام باقى الضباط ليخرجوا منه ، الى المناصب المدنية ، ذات النفوذ القوى والدخل الكبير ، وحاولت قدر استطاعتى اغلاق هذا الباب ، وابتعاد الجيش عن الحياة المدنية ، وعودته الى الثكنات ، وترك البلد للسياسيين .

لكن . . كان الوقت ، على ما أعتقد ، قد فات .

فقد اخترق العسكريون كل المجالات وصبغوا كل المصالح المدنية باللون الكاكى .

فمن العسكريين كونا لجان تطهير الجيش ، التى طهرت حوالى ٨٠٠ ضابط فى المشاة والبحرية والطيران ، والشرطة ايضا . واحالت بعضهم الى الاستيداع ، وقدمت البعض الآخر الى محكمة الثورة .

ومن العسكريين كونا لجان تقصى الفضائح ، مثل فضيحة الاسلحة الفاسدة ، وفضيحة بورصة القطن ، وفضيحة بيع اراضى الحكومة بطرق غير قانونية .

ومن العسكريين كونا محكمة الثورة ، التى صادرت اموال الذين اثروا بطرق غير مشروعة ، وامرت بانفاق هذه الاموال على بناء المدارس ، والمستشفيات ، والاسكان الشعبى .

ومن انجازات العسكريين ، ايضا فى تلك الفترة ، كان قانون الاصلاح الزراعى .

وأنا أريد أن أتوقف قليلا عند هذا القانون .. أريد أن أشرح ضرورته .. وأهميته .. والملابسات التى أحاطت به .

فى عام ١٧٩٨ ، عندما غزا نابليون مصر ، كانت مستعمرة تركية ، متخلفة ، يصل تعداد سكانها الى نحو ٢,٥ مليون نسمة ، يعيشون على ٣ ملايين فدان .. تزرع على ضفاف النيل .

عندما قامت الثورة .. بعد ١٥٦ عاما كان يقطن مصر حوالى ٢٢ مليون نسمة ، يعيشون على انتاج ومحاصيل ٦ ملايين فدان .. وباستثناء حوالى ٣ ملايين شخص كانوا يعيشون حياة معقولة فى مصر ، فإن باقى السكان كانوا يعيشون عند أدنى مستوى من مستويات المعيشة فى العالم كله .

ولأنه لم يعد يجدى أن نلقى اللوم على الأنجليز ، أو على الغرب ، أو على الشعب المصرى ، فإن البديل الوحيد هو أن نصلح أنفسنا بأنفسنا .. وذلك بزيادة الحد الأدنى فى الأجور ..

فلم يعد مقبولا أن يدفع للاجير ، فى تلك الأيام ، أقل من ١٨ قرشا يوميا ، ولا للنساء والأطفال أقل من ١٠ قروش .

وكان ملاك الاراضى قبل الثورة يدفعون للفلاح الاجير ٨,٥ قروش فى اليوم ، فى حين ان التكاليف اليومية للحيوانات كانت اكثر من ذلك .. كانت تكاليف البغل ١٢ قرشا .. والجاموسة ٢٢ قرشا .. والحمار ٩ قروش .

على أن زيادة الحد للاجور لم يكن ليكفى لاصلاح أحوال الريف .. وكان لابد من اتخاذ خطوة اكثر جرأة .. وكانت هذة الخطوة هى قانون الاصلاح الزراعى .

كان جمال سالم هو اول من تبنى المشروع ، وكان وراء جمال سالم الدكتور راشد البراوى . الذى كان على علاقة ببعض ضباط الجيش قبل الثورة ، خاصة ذوى الاتجاهات اليسارية منهم ، فهو من قدامى اليساريين الذين كتبوا عن الاشتراكية فى مصر ، وله ترجمة لكتاب كارل ماركس الشهير رأس المال كما أنه له كتب أخرى عن مشكلة البترول ، واقتصاديات الشرق الاوسط .

كان جمال سالم من أنصار تحديد الملكية ، وكان بلسان صديقة راشد البراوى ،

يطالب بمصادرة أراضى كبار الملاك على قدر استطاعتنا .. دون أى تعويض ..

وكان من رأى رشاد مهنا التعويض ، وعدم تفتيت الملكية بتوزيع الأراضى على الفلاحين فى حدود الخمسة افدنة .

وكان على ماهر أميل الى فرض الضرائب التصاعدية بدلا من تحديد الملكية .

وعرض المشروع على لجنة من مجلس الدولة ، يرأسها د . عبد الرازق السنهورى ، فصاغة صياغة قانونية مناسبة ، إلا أن على ماهر ظل مترددا أكثر من سبعة أسابيع لكى يوقع على القانون .

وبسبب هذا التأجيل وقعت أول أزمة بيننا وبين على ماهر ..

فقد عقد على ماهر مؤتمرا موسعا حضره الأوصياء على العرش ، والوزراء فى حكومته ، وبعض من مجلس القيادة ، وعدد من مستشاريه ، واعضاء مجلس الدولة ..

كان الاجتماع فى مبنى مجلس الوزراء .

وكان من بين الحاضرين جمال سالم ، وصلاح سالم ، ود . راشد البراوى ، و د . السنهورى ، ورشاد مهنا ، وعبد الجليل العمرى ، وبهى الدين بركات ، وسليمان حافظ .

وفى هذا الاجتماع استمرت المناقشات لساعات طويلة ، حول مايتبناه على ماهر ، وحول مايطالب به جمال سالم ، وانتهى الاجتماع بالتصويت لصالح تحديد الملكية .. بحد اقصى ٢٠٠ فدان .

وبالمناسبة .. صوت رشاد مهنا مع تحديد الملكية ، بعد ان كان مع الضرائب التصاعدية ، فقد تنازل مهنا عن رأيه وقال :

ـ انا انزل على رأى الاغلبية واوافق على المشروع .

وأعد سليمان حافظ المشروع فى صيغته النهائية ، لكنه ما أن دخل الى مجلس الوزراء ، حتى بقى هناك وكأنه جثة هامدة .. ورغم اننى عارضت المشروع عندما قدم فى مجلس القيادة ، الا اننى ايدته ، انا الآخر نزولا على رأى الأغلبية ، وكان على أن أقف معه .. وكان على أن أتشكك فى موقف على ماهر من المشروع .. لكن رغم ذلك ، أعطيناه مهلة أخرى وأخيرة لاخراج القانون .. لكنه لم يستجب .

وأحسسنا أن على ماهر قد وقع تحت ضغط قوى من رجال الأحزاب ، وكبار

السياسيين ، والملاك ، لتعطيل القانون ، فقررنا اقالتة ، واقيل فعلا ، وتوليت رئاسة الوزراء بدلا منه .

كان ذلك فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ .

وبعد أن أقسمت اليمين القانونية أمام هيئة الوصاية المؤقتة بقصر عابدين ، قلت للصحافيين :

ـ إن سياسة وزارتى هى تحديد الملكية وتطهير البلاد والعمل على خفض تكاليف المعيشة ، وكل ما من شأنه أن يعود على أبناء البلاد بالخير . ولقد كثر التحدث عن مشروعات الاصلاح ولم يبق إلا العمل وغدا تظهر أعمالنا .

وبعد ٤٨ ساعة صدر القانون .

وقد صدر ، كما قلت ، رغم معارضتى ، ونزولا على رأى الاغلبية . . فقد كنت مع الضرائب التصاعدية ، ومع إعادة توزيع الأرض ، بصورة تدريجية ، وليست فجائية . . وكنت أرى أن الضرائب التصاعدية ستجبر الكثير من الملاك على التخلص من ارضهم التى تخضع لشرائح الضريبة العليا . . وكنت أرى أننا سنعلم الفلاح الذى حصل على الارض بلا مجهود او تعب ، الكسل والنوم فى العسل . . وكنت أرى أن تطبيق القانون سيعرض علينا إنشاء وزارة جديدة لمباشرة تنفيذه (هى وزارة الاصلاح الزراعى) وهذا سيكلفنا اعباء مالية وادارية لامبرر لتحملها .

وكان من رأيى ان وجود الملاك الجدد بجانب الملاك الاصليين سيثير الكثير من المتاعب والصراعات الطبقية ، وهو ماكنت احاول قدر استطاعتى ان اجنبه البلاد .

كما ان توزيع الاراضى على عدد اكبر من الملاك سيفرض علينا عيوب تفتيت الملكية ، وسنخفض من الانتاج الزراعى ، وسيؤثر بالتالى على اقتصادنا القومى .

وقلت هذا الكلام لاعضاء مجلس القيادة ونحن نناقش المشروع . .

لكنهم ، قالوا :

ـ أنت تنظر الى المشروع من الزاوية الاقتصادية ، ونحن ننظر اليه من الزاوية السياسية . . اننا نرى ان سرعة الاستيلاء على الاراضى سيدعم مركزنا . . فنحن سنجرد ملاك الاراضى من ثروتهم ونفوذهم . . وسنحولهم من خانة المعارضة لنا الى خانة الاهمال والظلام .

وكسبت السياسة وخسر الاقتصاد وإقر مشروع الاصلاح الزراعى .

وكان هذا القانون هو اول قانون يصدر بعد ان اصبحت رئيسا للوزراء .

وقد اعتبرت هذا القانون جزء من سياستى الداخلية ، حتى انى قلت ساعتها لمستر كولينز مدير وكالة اليونايتد برس فى الشرق الاوسط ، عندما سألنى عن الخطوط العامة لسياسة حكومتى :

ـ ان الخطوط الرئيسية للسياسة الداخلية تقوم على اساس تحديد الملكية الزراعية ، وتقريب الفوارق بين الطبقات باعداد التشريعات والمشروعات المحققة لذلك والتى تتركز فى تخفيف اعباء الحياة عن كاهل المواطنين للحد من الغلاء ومكافحة التصخم ورفع مستوى العمال وتشجيع الصناعة والتجارة واصلاح نظام الضرائب .

وسألنى مستر كولنز عن الفوائد التى ستجنيها مصر من وراء قانون الاصلاح الزراعى . .

فقلت :

ـ يعود هذا القانون على البلد بفوائد اقتصادية واجتماعية وسياسية ، اما الفوائد الاقتصادية فهى عدم تجميد الثروة القومية فى الزراعة دون الصناعة ، لأن تحديد الملكية سيجبر أصحاب رؤوس الاموال على الالتجاء إلى إستغلال اموالهم فى الصناعة والتجارة . . والفوائد الاجتماعية تبدو واضحة فى القضاء على الفروق الشاسعة بين اصحاب الملكيات الكبيرة والمعدمين . . اما الفوائد السياسية فسنجنيها من ارتباط الملاك الجدد ، بارضهم وتحريرهم سياسيا من اصحاب الاقطاعيات الكبيرة اثناء ممارستهم حق الانتخاب .

وفى الحقيقة . . لم يكن هذا الكلام سوى محصلة للحوار الذى دار فى منزلى ، قبل ساعات من الادلاء به ، بينى وبين الاقتصادى الالمانى الكبير ، د . شاخت ، صاحب الشهرة العالمية ، الذى ساعد الاقتصاد الالمانى على النهوض بعد الحرب العالمية الثانية .

كان د . شاخت يزور مصر ، تلبية لدعوة من د . عبد الجليل العمرى ، وزير المالية ، فالتقيت به . . وكان اللقاء فى وقته المناسب ، حيث كنا على وشك تطبيق القانون . . فشرحت له كل مخاوفى من القانون ، ووجهة نظرى حول الضرائب التصاعدية . . قلت له :

ـ إن ما أخشاه ان يثير القانون الصراع الطبقى بين القدامى والملاك الجدد !

وقلت له :

ـ ان من تؤخذ منه الارض قسرا وتعطى للآخرين سيكون عدوا للثورة وعدوا للملاك الجدد !

فإذا به يقول لى :
ـ ان هؤلاء الافراد الغاضبين سوف يجيئون بعد ثلاث سنوات ليشكروك . . إذ أن مشروع تحديد الملكية سوف يفيدهم كما يفيد اى انسان آخر . . واذا كانوا غاضبين اليوم ، فسيعرفون غدا مقدار فائدة هذا المشروع لهم . . فإن الطريقة التى كانوا يسيرون عليها ، كانت ستفقدهم كل شىء . . والآن سيوجهون اموالهم الى مشروعات اقتصادية اكثر فائدة لهم . . وسيتفادون ثورة شيوعية تقضى عليهم .

واقتنعت بالقانون . .

واقتنعت بقرار اقالة على ماهر . . .

واقتنعت بقرار تولى رئاسة الوزراء بدلا منه . .

على أن هذا القرار ، لم يكن سببه ، فى الواقع ، أزمة قانون الاصلاح الزراعى فقط ، وإنما كانت بالإضافة له ، أزمات ومتاعب أخرى بيننا وبين على ماهر . فقبل قانون الاصلاح الزراعى بأسابيع طويلة ، كنت فى زيارة لعلى ماهر ، فى مكتبه ، واذا بالسفير البريطانى يحضر اليه ، وينضم الينا . . وفوجئت به يشير الى قضية الحرص على الأوضاع الدستورية فى البلاد ، وأعتبرت هذه الاشارة بمثابة الاهانة لنا . . واعتبرتها تدخلا فى شئون البلاد . . فقمت من مقعدى ، وانصرفت دون أن أقول كلمة واحدة . . الا أن انسحابى المفاجىء على هذا النحو كان يقول كل شىء . . حتى أن السفير البريطانى أحس بذلك فطلب مقابلتى فى اليوم التالى بالقيادة . . وحرص على أن يكون لطيفا ومجاملا وحساسا فى كلامه . . وحرص على أن يؤكد أنه لا يتدخل فى أمورنا .

وتعجبت . .

كيف قبل على ماهر هذا الكلام دون ان يرد عليه ؟

لم أشأ أن أناقشه فيما حدث ، فقد كنت أريد ، فى هذه الفترة ، أن تستقر الأوضاع الداخلية فى البلاد ، على اسس واضحة ، وسليمة . . وكان ما يهمنى أكثر إجراء إنتخابات مجلس النواب الجديد فى شهر فبراير ١٩٥٣ ، تنفيذا لرأى مجلس الدولة ، الذى شكلنا بموجبه مجلس الوصاية .

واتفقت مع على ماهر على ذلك .

لكننى فوجئت به يذيع بيانا يتحدث فيه عن الانتخابات دون تحديد موعدها . . واكتفى بان يقول :

- انها ستكون فى أقرب فرصة .

ساعة اذاعة البيان ، كنا مجتمعين فى القيادة ، فغضبنا من سماعه ، جميعا ، فقررنا اذاعة بيانا يتعارض مع بيان على ماهر ، ونحدد فيه شهر فبراير موعدا لإجراء الانتخابات .

كانت هذه الواقعة بداية الأزمة مع على ماهر . .

وعندما عرف على ماهر بها فضل الصمت ، ولم يعلق عليها .

ثم جاءت ازمة قانون الاصلاح الزراعى .

ثم وقع بيننا خلاف ثالث . .

كان على ماهر قد شكل حكومته بسرعة ، جعلته يتولى فيها الى جانب الرئاسة ، مناصب وزراء الداخلية ، والحربية والخارجية . . وكان مفروضا أن يملأ هذه الوزارات بشخصيات أخرى لها ثقلها ، بعد أن استقرت الأمور ، وخرج الملك .

وناقشت على ماهر فى ذلك . .

واتفقنا على أن يعدل فى حكومته ، وعلى أن يصدر مراسيم التعديل فورًا . . لكنه لم ينفذ ماأتفقنا عليه ، وسافر إلى برج العرب ومرسى مطروح ، واجتمع بعدد من ضباط الجيش هناك وناقش معهم قانون الاصلاح الزراعى .

وبعد أن عاد الى القاهرة ، فوجئنا بصدور مراسيم التعديل ، على نحو يختلف عما اتفقت معه عليه . . واكتفى على ماهر بعرض التعديل على رشاد مهنا ، الذى بادر هو الآخر ، بالتوقيع عليه ، دون الرجوع الىّ .

وطلبت اجتماعا عاجلا لضباط القيادة . . .

وفى الاجتماع الذى لم يتخلف عنه احد ، أحسسنا جميعا بأننا أصبحنا أضعف مما كنا عليه ، يوم قمنا بالحركة ، ويوم طردنا الملك . . وأحسسنا أن الكثير من القوى تحاصرنا وتهجم علينا بمناسبة وبدون مناسبة . . ولأن خبرتنا السياسية كعسكريين محدودة . . ولاننا لم نثق فى معظم من حولنا ، فقد وقعنا فى اخطاء كثيرة ، كان منها القرار الذى اتخذناه فى ذلك الاجتماع ، والخاص باعتقال ٦٤ من السياسيين دون الرجوع لرئيس الوزراء . . وكنا بخبرتنا المحدودة نتوقع ان يستقيل على ماهر بمجرد معرفته بهذا القرار - الصدمة .

وتصرفنا فى هذا الاجتماع كما لوكان على ماهر قد قدم استقالته فعلا . . وتساءلنا :

ـ من هو رئيس الوزراء القادم ؟

واستبعدنا كل الاسماء الحزبية وكل الاسماء التقليدية . . ورشح سليمان حافظ ، د . السنهورى ، ووافقت على ترشيحه ، لانه رجل قانون ، وقطعا سيحترم الديمقراطية . . وكاد الآخرون ان يوافقوا على السنهورى ، لكن فجاة همس على صبرى فى اذن جمال سالم بشىء لم نسمعه . فقال جمال سالم :

ـ اننا نحترم د . السنهورى ونجله ونعرف قدره ونعترف بجدارته ، ونثق فى اخلاصه للحركة ، لكنى اتشفع الصراحة والاخلاص فى عرض السبب الذى اقوله مرغما لعدم ترشيحه . .

وصمتنا فى انتظار السبب . .

وكان السبب كما قال جمال سالم ، اوكما قال له على صبرى ، هو ان الامريكان سيعترضون على ترشيح د . السنهوري ، لأن بعض الصحف الغربية وصفته ، فى أواخر عهد الملك ، بأن ميوله شيوعية . .

واستطرد جمال سالم قائلا :

ـ ورغم يقينى ببطلان هذه التهم ، الا ان من مصلحة الحركة ، الآن ، وبعد إتهامها بالشيوعية ، ان تتفادى كل مايمكن إستغلاله ضدها .

وانفجر جمال سالم كالقنبلة .

ولم يجد أحد فينا ما يقوله .

إلا أن الدكتور السنهورى أخرجنا من الحرج الذى كنا فيه ، وقال :

ـ ان ما يقوله الأخ جمال سالم يستحق ان نأخذ به . . ففعلا اتهمتنى صحافة الغرب بالشيوعية . . واستندت فى اتهامها لى ولزملائى من مستشارى محكمة القضاء الادارى ، إلى بيان ورد الينا بالبريد من مجلس السلم العالمى ، فوقعناه ، كما وقعه غيرنا فى جهات اخرى . . لانه كان يدعو لإقرار السلام العالمى بمحاصرة الحروب ومقاومة أسباب اندلاعها .

وقال د . السنهورى :

ـ علينا الآن أن نبحث عن مرشح آخر

ورشح سليمان حافظ . .

لكنه اعترض وقال :

ـ لا . . لأننى أفضل ان اكون مستشارا قانونيا لرئيس الحكومة . . وقد سبق ان رفضت منصب الوزير فى التعديل الأخير الذى قام به على ماهر .

وفى شجاعة قال سليمان حافظ:
ـ ثم اننى لا أستطيع أن أملأ الفراغ الذى سيتركه وراءه على ماهر !
ومرت علينا دقائق من الصمت . .
وفجأة قال د . السنهورى :
ولماذا لا نعين القائد العام رئيسا للوزراء !
واعترضت بشدة . .
وقلت :
ـ هذا يتنافى مع المبدأ الذى اتفقنا عليه ، وهو أن يبتعد الجيش عن الحكم والسياسة . .
قال د . السنهورى :
ـ ان توليك الوزارة مع القيادة سيضمن التنسيق المفقود بينهما
فقلت :
ـ لا . . أن تولى الوزارة من قبل ضابط ، يعد سابقة فى تاريخنا الحديث ، لا أحد يعرف الى اين ستجر البلاد .
وانفض الاجتماع . .
وقرر زملائى أن ينعقد مجلس القيادة وحده . . لكنى اعتذرت عن عدم حضور الاجتماع . . وذهبت الى مكتبى معلنا إعتراضى مرة ثالثة . . وبعد قليل دخلوا على مكتبى واعلنوا اصرارهم على تنفيذ القرار الذى اتخذوه وهو أن أتولى رئاسة الوزارة بجانب قيادة الثورة . .
وقبلت تنفيذ القرار . .
لكن . . بشرط أن تنتهى مدتى فى فبراير مع موعد الأنتخابات الجديدة .
واستقال على ماهر .
لكننى طلبت منه ان يستمر رئيسا لوفد مصر فى اجتماعات الجامعة العربية ، وان يظل فى مكانه فى مفاوضات السودان ، مع باقى الوفد المصرى الذى شكل منى ، ومنه ، ومن السنهورى ، وصلاح سالم ، وحسين ذو الفقار صبرى .
ويوم اصبحت رئيسا للوزارة ، قصدت دار الأذاعة ، ووجهت البيان التالى الى شعب وادى النيل :
« الى شعب وادى النيل الكريم
« لقد تفضلت هيئة الوصاية الموقرة فأسندت إلى مهمة رئاسة الوزارة . وقد

شكلت الوزارة من اخوانى الذين عرفتموهم . .ن الوطنية وحسن البلاء فى خدمة البلاد وأنى أعد اضطلاعى بالحكم مع ' ب هؤلاء مرحلة من مراحل ثورتنا نحو الحرية وإعلاء كلمة الدستور وتهيئة الشعب لحياة سعيدة كريمة .

وهذه المرحلة كسابقاتها فى حاجة إلى جهد متصل ومثابرة متجددة واخلاص ملتهب منى ومن زملائى ومنكم جميعا لافرق بين صغير وكبير - ولافقير او غنى - او عامل او موظف ولذلك فإنى أهيب بكم كما أهيب بالموظفين من جميع الوزارات أن تضعوا حدا للتقليد القديم الا وهو تقديم التهانى والتبريكات للوزراء الجدد فنحن نحس احساس الشعب ولذلك نرجو المواطنين الا يكلفوا انفسهم مشقة تقديم التهانى لى ولاخوانى ، كما أرجو الا يوفدوا احدا عنهم للرئاسة او للقيادة او للوزارات ولا أن يتظاهروا أو يتجمعوا أو يوقفوا ألسير العادى للاعمال لهذه المناسبة فاننا نود أن يحكم على أعمالنا بعد أن نقوم بها . .

وفقنا الله وهدانا الى مافيه خير الوطن العزيز »

كانت وزارتى هى اول وزارة عسكرية فى تاريخ مصر ، بعد وزارة محمود سامى البارودى ، واحمد عرابى ، فى عهد الخديو توفيق . . وكان هذا ما يفزعنى ويثير قلقى فى الواقع . .

فقد كنت أخشى أن يكون حكم العسكريين هو نقطة تحول فى تاريخ حكم مصر ، لا تستطيع بعده أن تعود للحكم المدنى ، الطبيعى .

وكنت أخشى أن ينتقل النفوذ العسكرى من الوزارة الى كل شبر فى الحياة المدنية .

لكن . .

كل الظروف من حولنا كانت تدفعنا الى الحكم . .

وإن كنت قد أحسست أننى بوجودى على رأس الحكم ، سأتمكن من ضبط الامور ، وسأتمكن من تحقيق التوازن الطبيعى بين الجيش والحكومة . . بين العسكريين والمدنيين .

وشكلت الوزارة فى يوم واحد . .

وتولى سليمان حافظ ، الذى أصبح نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية ، تحديد اسماء المرشحين ، والاتصال بهم ، والتفاهم معهم ، حتى أعلنت الحكومة الجديدة .

ولأن سليمان حافظ كان متحمسا للحزب الوطنى ، فقد كان عددا من الوزراء

الجدد ، من المنتمين لمبادىء هذا الحزب ، وإن كانوا لا يمثلونه فعلا ..
وضمت الوزارة عددا من المستقلين ، واثنين من الاخوان المسلمين .

كان المجلس قد قرر اشتراك ، الاخوان في الوزارة الجديدة ، فاتصل عبد الناصر تليفونيا بحسن العشماوى ، يدعوه لمقابلته فى إدارة الجيش .. وفى هذا اللقاء عرض جمال عبد الناصر عليه أن يشترك الاخوان فى الوزارة وان يكون هو (حسن العشماوى) وزيرا منهم .. ورغم أن حسن العشماوى ترك مسألة اشتراك الإخوان فى الوزارة إلى مكتب الارشاد ، الا انه كان موافقا على هذه الخطوة كما عرفت بعد ذلك ، حتى يكون الإخوان على بينة من سير الأمور ، وحتى لايتركوا الثورة فريسة لمن يأخذها منهم .

وفى هذا اللقاء ، الذى حضره معهما يوسف صديق ، اتصل جمال عبد الناصر تليفونيا بحسن الهضيبى ، المرشد العام للاخوان ، وطلب منه ترشيح ثلاثة للوزارة .

ورشح الهضيبى ، بصفته الشخصية منير الدالة ، وحسن العشماوى ، ومحمود ابو السعود .

وقبل أن ينهى عبدالناصر المكالمة ، اشتبك يوسف صديق بالكلام مع حسن العشماوى ، وشكك فى كفاءة الإخوان اذا ما دخل بعضهم الوزارة فاستدل حسن العشماوى بالشيخ حسن الباقورى على وجود كفاءات فى الاخوان تستحق دخول الوزارة فالتقط عبدالناصر اسم الباقورى وتحمس له ، واعتبره مرشحا اساسيا ، وعرضه على الهضيبى ، إلا أن الهضيبى رفض البت فى هذه المسألة بمفرده وأحالها الى مكتب الارشاد .

رفض مكتب الارشاد الاشتراك فى الوزارة ، وأكد أن إشتراك الإخوان فى الوزارة ، يضعف الإخوان ويقوى الثورة ، لأنه يعطيها لونا اسلاميا ، يبرز مكانتها وسط الجماهير المصرية المسلمة ، ويمنحها ولاء الإخوان فى كل مكان ..
وعبر عن ذلك خميس حميدة بعد ذلك ، أمام محكمة الشعب فقال :
ـ ان ما قاله مكتب الارشاد وقتذاك هو أن وجود الإخوان فى الوزارة قد يثير أشياء مافيش داعى ليها ، فقد يقول البعض ان الإخوان مشتركون فى الحكم ، أو أن الثورة طلعت ليس لها لون خالص ، وربما وجود الإخوان فيها يعطيها لونا خاصا .

واتصل عبدالناصر مرة اخرى بالمرشد العام ليسأله عن قرار مكتب الارشاد ، فقال له الهضيبى :
ـ ان مكتب الاشاد قرر عدم الاشتراك فى الوزارة .
قال له عبدالناصر :
ـ لكننا اخطرنا الباقورى بموافقتك وطلبنا منه أن يتقابل مع الوزراء فى الساعة السابعة لحلف اليمين !
فرد الهضيبى :
ـ أنا أرشح لك بعض اصدقاء الاخوان للإشتراك فى الوزارة ، لكن لا ارشح لك أحدا من الاخوان .
ورشح له أحمد حسنى الذى أصبح وزيرا للعدل فيما بعد ، ومحمد كمال الديب محافظ الأسكندرية .
وفى اليوم التالى صدر قرار من مكتب الارشاد بفصل الشيخ الباقورى من هيئة الاخوان بعد أن أصبح وزيرا بساعات .

فاستدعى عبدالناصر ، حسن العشماوى ، وعاتبه على هذا التصرف . .
لكن . .
وقت العتاب كان قد فات . .
والصدام وقع فعلا بين الاخوان والثورة . .
وقد حزنت لذلك . . جدا . . خاصة وأننى أعرف أن الاخوان كانوا أول من ساعدوا عبدالناصر فى تنظيم الضباط الأحرار . . فى فترة لم أكن فيها قد عرفت عبدالناصر ولا التنظيم . .

وكان بين عبدالناصر وبينهم تاريخ طويل ، قبل الثورة ، وكان اسمه الحركى عندهم زغلول عبدالقادر .

وقد اكتشف الاخوان ، كما قال حسن عشماوى فى مذكراته : « الاخوان والثورة » ان عبدالناصر كان قبل أن يعرفهم ، عضوا فى خلية شيوعية ، وكان اسمه الحركى فيها : « موريس » .
وعندما أيد الاخوان قيام الثورة ، كانوا يتصورون أنها قامت لحسابهم ، وأنهم سيحققون من خلالها التغيير المنشود . . وربما لهذا السبب هاجموا فى بيانهم الذى أصدروه فى أول أغسطس ١٩٥٢ ، عن الاصلاح المنشود فى العهد الجديد ،

الحياة النيابية السابقة هجوما شديدا وأعلنوا أنها لم تقدم حياة نيابية صالحة ولا تمثيلا صحيحا وانها انتهت الى ان اصبحت اداة تعطى شهوات الحكام ومظالم السلطان صيغة قانونية

لكنهم سرعان ما اكتشفوا ان من الصعب ان يضعوا الثورة فى جيوبهم ، فبدأوا فى الوقوف ضدها .

فقد طالب الاخوان بتحديد الملكية ، لكنهم اعتبروا الحد الأقصى ٥٠٠ فدان ، وعندما قلنا ٢٠٠ فدان ، قال المرشد العام لجمال عبدالناصر فى صراحة ووضوح :

ـ لكى يؤيد الاخوان الثورة ، فأنا أرى عرض الأمور التى تتخذها الثورة علينا قبل اقرارها .

فرد عليه عبدالناصر قائلا :

ـ هذا يعنى وضع الثورة تحت وصاية الجماعة . . ونحن نقبل فقط التشاور فى السياسة العامة مع كل المخلصين من اهل الرأى دون التقيد بهيئة من الهيئات .

ورغم الصدام الذى وقع بين الاخوان والثورة بسبب تشكيل وزارتى ، الا أننا لم نقطع كل الجسور معها كجماعة سياسية ، هى فى حقيقتها حزب ، عندما أصدرنا قانون الأحزاب . . أو قانون تنظيم الأحزاب السياسية .

اقترح سليمان حافظ مشروع القانون . . لكن . . الدكتور السنهورى عارضة بشدة ، مستندا الى ان الدستور يمنع تنظيم الاحزاب وانه يترك هذا الامر لرجاله فقال سليمان حافظ :

ـ لقد فسدت الاحزاب ، مما يفسد معها المعنى الحقيقى للديمقراطية البرلمانية .

واعتقد ان كلامه كان معقولا ، فلم يكن هناك اى حزب سياسى يمثل مصالح الشعب ، وكانت كلها تمثل مصالح شخصية ، واضطر السنهورى على إقرار مبدأ المشروع على شرط الا تتدخل السلطات الادارية الا عند الضرورة لتحقيق اغراض القانون ، وأن يكون تدخلها تحت رقابة مباشرة من القضاء الادارى بمجلس الدولة .

ووافقت على ذلك . .

لأننى كنت مؤمنا أن رقابة القضاء خير كفيل لحماية الأحزاب من تسلط الحكومة ولحماية الحكومة نفسها من اساءة استخدام سلطاتها .

وفى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر المرسوم بقانون رقم ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ بشأن تنظيم الاحزاب السياسة . .

ونص القانون على أن من يرغب فى تكوين حزب سياسى عليه أن يخطر بذلك وزير الداخلية . . ونص على ضرورة أن تتقدم الأحزاب خلال شهر ببيان مكتوب لوزير الداخلية ، توضح فيه أهدافها وأعضائها ومصادر تمويلها ، وممتلكاتها . . ونص على أنه لا يجوز لرئيس الحزب أن يكون مديرا فى شركة من الشركات التى تكفل لها الحكومة مزايا خاصة . . ونص على حق وزير الداخلية ولكل ذى شأن أن يعترض على إخلال الحزب بحكم من الاحكام السابقة ، الأمر الذى يؤدى الى وقف نشاطه أو اسقاط عضوية أحد أعضائه .

وفى ظرف شهر تقدم ٢٢ حزب بإخطاراتها إلى سليمان حافظ . . كان من بينها ٣ أحزاب نسائية . . وحزبان وطنيان . . وحزبان اشتراكيان بالاضافة الى الوفد والسعديين والاحرار الدستوريين والكتلة ، والإخوان .

واعترض سليمان حافظ على عدد من السياسيين ، كان من بينهم مصطفى النحاس الذى أصبح رئيسا شرفيا للوفد .

ودخلت الحكومة مع الأحزاب فى سلسلة من المنازعات القضائية ، بسبب هذا القانون ، وانشغل الرأى العام بهذه القضايا ، حتى صدور قانون الغاء الأحزاب .

وأذكر ، يوم طلبنا من الأحزاب أن تنظم نفسها ، ان طلب عبدالناصر عدم اعتبار الاخوان حزبا حتى لا يطبق عليهم القانون ، وقال لى :

ـ إن جماعة الاخوان كانت من أكبر أعوان الحركة قبل قيامها ، ولا يصح أن نطبق عليها قانون الأحزاب .

ورفضت طلبه . .

وقلت :

ـ لا . . لأن القوى السياسية يجب أن تكون سواء أمام القانون .

فاتصل بسليمان حافظ الذى وجد له مخرجا قانونيا مناسبا كعادته . . وتم ذلك فعلا بعد ان قام عبد الناصر والهضيبى بزيارته فى مكتبه بوزارة الداخلية .

وظهر جليا بعد ذلك أن هذا القانون لم يكن يستهدف سوى حزب الوفد ، حزب الاغلبية . .

وكان ضروريا أن يتحمس له سليمان حافظ ، فقد كان ، كما علمت بعد ذلك ، عدوا لدودا لحزب الوفد ولرئيسه مصطفى النحاس بالذات . . بل وللاحزاب السياسية بوجه خاص

وكان طبيعيا أن يشن الوفد فى صحفه حملة ضارية ضد القانون وضدنا .. وضد سليمان حافظ .

فارتفعت درجة الغيظ داخل صدر سليمان حافظ ، فاستخدم حقه القانونى فى الاعتراض على الرئاسة الشرفية لمصطفى النحاس ، فأحال الوفد القضية الى القضاء الادارى لمجلس الدولة .

قالت مذكرة الحكومة :

ـ إن من حق وزير الداخلية الاعتراض ، حسب نصوص القانون ، على رئاسة مصطفى النحاس الشرفية ، التى كان فى اللجوء إليها تحايل على القانون .

وقالت مذكرة الوفد :

ـ ان من بواعث الأسف الشديد والدهشة البالغة ان يتخذ وزير الداخلية من هذه الرئاسة الشرفية التى لم تكن الا تحية كريمة لرئيس الوفد السابق مصطفى النحاس على ما قدمه من خدمات للبلاد خلال نيف وثلاثين عاما زريعة للاعتراض على اعادة تكوين الحزب بمقولة ان المرسوم بقانون لايعترف بالرئاسة الشرفية وبدعوى انها قد تنطوى على تعطيل احكامه .

وتابعنا مثل هذا الجدل فى مجلس قيادة الثورة بحضور سليمان حافظ ، الذى كان مستميتا فى الدفاع عن قانونه ، وكان يسانده فى ذلك صلاح سالم وجمال سالم ، وكان جمال عبدالناصر ، وعبدالحكيم عامر ، ويوسف صديق ، وخالد محيى الدين ، وأنا ، نعارضه .

وذات صباح قرأت فى جريدة المصرى بيانا أصدره مصطفى النحاس ، قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« إننى أعد نفسى دائما ملكا للشعب ، وقد كانت ثقتى فى الشعب ، وثقته فى شخصى طوال حياتى السياسية عونى على الشدائد وظهيرى فى العيش ، وسأظل ما بقى من عمرى ملكا لهذا الشعب الوفى ، ولن تستطيع قوة أن تنحنى عن هذه المكانة بعد الله جلت قدرته إلا الشعب دون سواه ..

والله ولى التوفيق »

واثر فى البيان تأثيرا شديدا ..

وأدركت أن مصطفى النحاس سيظل زعيما شعبيا مهما فعلنا به وبحزب الوفد .. وادركت خطورة أن نواجهه بهذه الصورة التى كانت فى الواقع تزيد من

شعبيته ، وترفع من درجة حب الناس له .
وأحسست أننا نمشى فى الطريق العكسى للديمقراطية . .
ونبهت سليمان حافظ لذلك . .
لكنه ظل يرد على أخطار الاحزاب ، ويروى كل المهازل التى احاطت بقادتها .
وعندما يئست منه ، عرضت الأمر على مجلس القيادة . .
لكنى فوجئت فى المجلس بنقص عدد المعارضين ، وارتفاع عدد المؤيدين . .
فانضم عبدالناصر وعبدالحكيم الى المؤيدين لسليمان حافظ ، وبقى معى خالد محيى الدين ويوسف صديق .
ولم أجد مفرا للخروج من هذا المأزق الا بالتأكيد على موعد الانتخابات الذى حددناه فى فبراير ١٩٥٣ ، وقلت لمندوبى الصحف فى ذلك الوقت :
ـ اذا تم تطهير قواعد الاحزاب التى مهما احاط بقادتها من شبهات ، فإنها ولاشك سليمة ، لانها فى مجموعها تشكل شعبنا العظيم .
لكن . .
قبل أن يأتى فبراير ١٩٥٣ ، كانت هناك كارثة اكبر من تنظيم وتطهير الاحزاب . . كان هناك قانون جديد لالغائها . .
وقبل أن استطرد فى سرد هذه القصة الجديدة ، أريد أن أتوقف عند حادث هام ، قبل أن يفوت الوقت ، أو يمضى من ذاكرتى ، أو لا أجد مكانا مناسبا له بعد ذلك .
هذا الحادث هو حادث كفر الدوار .
فى أغسطس ١٩٥٢ ، وقع تمرد عنيف فى مصنع غزل القطن بكفر الدوار ، ووردت الأنباء التى تؤكد أن المظاهرات التى خرجت من المصنع ، وقام بها العمال ، تحولت إلى مصادمات مع رجال البوليس ، أدت إلى قتل ٩ أشخاص ، من بينهم اثنان من رجال البوليس ، وجرح ٢٣ شخصا آخرين ، بالاضافة الى سبعة من رجال البوليس .
واشتعلت النيران فى العربات والأشجار والمبانى .
وقيل لنا :
ـ ان المسئولين عن هذا التمرد من الشيوعيين ، الذين كانوا فى الحزب الشيوعى المنحل ، المعروف باسم حدتو .
وقيل لنا :

ـ انها محاولة من الشيوعيين للتخلص من الثورة ومن رجالها .

وفى الحقيقة ، لم اعرف حتى الأن ما هو السبب الحقيقى وراء ما حدث فى كفر الدوار ، خاصة وأن كل تصريحاتى فى ذلك الوقت كانت عن العدالة الاجتماعية ومقاومة الفساد ، وزفع مستوى الطبقات الكادحة ، من عمال وفلاحين . . لماذا تظاهروا ضدنا فى كفر الدوار اذن ! . . الله أعلم .

وكان على ان اعيد النظام بعد هذه الفوضى . . فأمرت بتشكيل مجلس عسكرى ، ينعقد فى المصنع نفسه ، برئاسة عبدالمنعم امين ، لتظهر الحقيقة أو على الأقل نتلمس الطريق اليها .

وحوكم ٢٩ شخصا أمام المجلس العسكرى ، حكم على اثنين منهم بالاعدام وحكم على ١٢ آخرون باحكام مختلفة ، تتراوح مابين ٥ الى ١٥ سنة ، وافرج عن الباقى .

كان اللذان حكم عليها بالاعدام هما : مصطفى خميس ومحمد البقرى وهما أصلا من العمال .

وارسل لى عبدالمنعم أمين الحكم للتصديق عليه . .

وتوقفت . .

كيف اصدق على حكم بالاعدام وحركتنا لم يمض عليها سوى أسابيع قليلة !

وطلبت أن اقابل خميس والبقرى . .

ووجدت على مكتبى اكوام من التقارير المخيفة ، التى تفرض علينا الخوف من الاضطرابات العمالية ، وتطالبنا بالضرب على يد كل من يتصور امكانية قلب العمال علينا . .

وأحسست أنها تقارير كاذبة . . وأنها كتبت بنفس الأسلوب الذى كان يكتب به البوليس السياسى تقاريره إلى الملك . .

لقد تغير العهد وتغير الرجال ، لكن أسلوب هذه التقارير لم يتغير .

وحضر مصطفى خميس الى مكتبى بالقيادة . .

دخل ثابتا . . مرفوع الرأس . . وكأنه فى حفل زفاف . .

طلبت منه أن يتعاون مع المدعى العام ، ويشرح له الدوافع التى جعلته يفعل ذلك ، أو ليقل لنا من وراءة . . لكنه قال فى اصرار :

ـ لا أحد ورائى . .

وقال :

ـ انا لم ارتكب ما يستحق الاعدام .

فلم أجد مفرا من التصديق على الحكم .
بعد يومين من حادث كفر الدوار ، وقع حادث من نوع آخر فى مدينة مغاغة ، بالقرب من المنيا ، فى الصعيد . .
امتطى أحد ملاك الأرض ، هو عدلى لملوم ، جواده ، ومعه ٣٥ رجلا ، وحوطوا الفلاحين ، وأخذوا يطلقون النار فى الهواء على طريقة رعاة البقر ، معارضين الفكرة التى قيلت عن تحديد الملكية ، وذلك قبل أن يصدر القانون . . وقبض على عدلى لملوم وآخرين ، وقدموا هم ايضا لمجلس عسكرى عقد فى المنيا . . ولان الحادث لم يسفر عن ضحايا ، فقد اكتفت المحكمة بحبس لملوم مدى الحياة .

وعندما نفذنا الحكم فى خميس والبقرى هاجمتنا أجهزة الأعلام الاشتراكية ، واتهمونا بمعاداة التقدم ، بينما أتهمتنا بعض أجهزة الاعلام الغربية بالفاشية . . وكانوا من قبل يتهموننا بالشيوعية .
وسألنى مندوب الفيجارو الفرنسية عن ذلك ، فقلت له :
ـ ليس لحركة الجيش المصرى أية اتجاهات شيوعية أو فاشية !
لقد كان لنا فى كل خطوة وكل يوم اعداء . .
ولكن . . كان نصيبنا من الاعداء اكبر بعد الغاء الدستور والاحزاب .

الفصل الثامن

التحول إلى الديكتاتورية

- السياسيون ينقلبون علينا . . والجيش أيضا .
- تحمس الوفد والشيوعيون للتخلص منا والاخوان وقفوا يتفرجون .
- عبد الناصر يفرج عن متآمرى المدفعية لينقذوه من متآمرى الفرسان .
- الرجل الذى قال لى ليلا : يا ظالم . . يا ظالم .
- سليمان حافظ نجح فى اقناع ضباط الثورة بالغاء الدستور وحل الأحزاب وضرب الديمقراطية .
- رفضت الانتقال إلى قصر عابدين وفضلت البقاء وأنا رئيس جمهورية فى بيتى القديم المتواضع .

كان موعد الانتخابات البرلمانية الجديدة ، كما وعدت ، فى فبراير ١٩٥٣ .
كنت أعتبر هذا الموعد هو تاريخ إعادة الحياة الديمقراطية كاملة إلى مصر .
كنت أعتبره التاريخ الذى يعود فيه الضباط إلى الثكنات والسياسيين إلى البرلمان ، والحياة إلى طبيعتها .

لكن . . .

فى منتصف ليل ١٦ - ١٧ يناير وقعت مفاجأة أطاحت بكل هذه الأحلام .
أذيع باسمى الاعلان الدستورى التالى ، بصفتى القائد العام للقوات المسلحة ورئيس حركة الجيش ، إلى الشعب المصرى :

« لقد استمدت ثورة الجيش قوتها من إيمانها الكامل بحق جميع المواطنين فى حياة قوية شريفة وعدل تام مطلق وحرية كاملة شاملة فى ظل دستور سليم يعبر عن رغبات الشعب وينظم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ، ولما كان أول أهداف الثورة هو إجلاء الأجنبى عن الوطن ، ولما كنا آخذين الآن فى تحقيق هذا الهدف الأكبر والسير به إلى غايته مهما تكن الظروف والعقبات ، فإننا كنا ننتظر من الأحزاب أن تقدر مصلحة الوطن العليا فتقلع عن الأساليب السياسية المخزية التى أودت بكيان البلاد ومزقت وحدتها وفرقت شملها لمصلحة نفر قليل من محترفى السياسة وأدعياء الوطنية . ولكن على العكس من ذلك اتضح لنا أن الشهوات الشخصية والمصالح الحزبية التى أفسدت أهداف ثورة ١٩١٩ ، تريد أن تسعى سعيها ثانية بالتفرقة فى هذا الوقت الخطير من تاريخ الوطن . فلم تتورع بعض العناصر عن الاتصال بدولة أجنبية وتدبر ما من شأنه الرجوع بالبلاد إلى حالة الفساد السابقة ، بل الفوضى المؤسفة مستعينين بالمال والدسائس فى ظل الحرية . . ونسى أولئك وهؤلاء أننا نقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه بالخروج على إجماع الشعب أو العبث بمستقبله ، ولذلك فقد أمرت باتخاذ أشد وأعنف التدابير ضد كل مارق أو خائن يسعى بالفتن بين صفوف الأمة المتحدة ، ولما كانت الأحزاب على طريقها القديم وبعقليتها الرجعية لا تمثل إلا الخطر الشديد على كيان البلاد ومستقبلها فإننى أعلن حل جميع الأحزاب السياسية ومصادرة جميع أموالها لصالح الشعب بدلا من أن تنفق لبذر بذور الفتن والشقاق ولكى تنعم البلاد بالاستقرار والانتاج أعلن قيام فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات حتى نتمكن من إقامة حكم ديمقراطى دستورى سليم . ومنذ اليوم لن أسمح بأى عبث أو ضرر

بمصالح الوطن ، وسأضرب بمنتهى الشدة على يد كل من يقف فى طريق أهدافنا التى صنعتها الآمكم الطويلة وتتمثل فيها رغباتكم وأمنياتكم نحو مستقبل كريم على نفوسنا وعلى العالمين .
والله ولى التوفيق »
ونشر صباح اليوم التالى فى الصحف .
ونشر معه بيان موجز من القيادة ، جاء فيه :

« صدرت الأوامر مساء أمس الأول بالتحفظ على ٣٥ ضابطا من الجيش حامت الشبهات حول بعض تصرفاتهم ،وتقوم الجهات المختصة بالتحقيق السريع لإظهار الحقائق وسيعود البرىء إلى عمله وسيلقى من تثبت إدانته جزاءه » .

مساء ذلك اليوم ، عقدت مؤتمرا صحفيا ، بالقيادة ، شرحت فيه أسباب حل الأحزاب ووزعت البيان التالى :

« ثبت لنا أن أشخاصا لاتهمهم إلا مصلحتهم الشخصية الرخيصة قد اتصلوا بعدد من الطلبة والعمال مستعملين كل وسائل الإغراء من وعد وغش ومال محاولين إحداث فتنة واضطرابات يوم ١٢ يناير الحالى وهو يوم احتفال الجامعة بذكرى شهدائها . وقد كان الطلبة عند حسن ظننا بهم فلم يلق دعاة الفتن منهم أى استجابة وشهدتم وشهدت مصر أن طلبة الجامعة كانوا مثالا يحتذى به فى النظام والاتحاد والرجولة . فمثلوا شعار الحركة أصدق تمثيل ، وأثبتوا أنهم يحترمون جلال الذكرى وأنهم يقدرون مصلحة الوطن وأنهم يجلون ثورة الشعب ، ولايصرفهم عن أداء حق الوطن أى إغراء . فما بالكم بإغراء رخيص من أشخاص كان كل همهم ومازال ، أن يسخروا كل ما فى الدولة لخدمة شهواتهم ومصالحهم الخاصة . وقد مر يوم ١٢ يناير بسلام وبدا واضحا بعد الذى ثبت لنا أننا نخل إخلالا خطيرا بواجبنا إذا تهاونا مع أولئك الذين يفسدون الأخلاق ويعبثون بمصالح الوطن ويثيرون طوائفه المتحدة المتحابة فى هذه الفترة الخطيرة من تاريخ مصر . كذلك تأكد لنا أن بعض الضباط حاولوا أن يبثوا فى صفوف إخوانهم روح التشكيك فى النظام محاولين بذلك إرضاء غرور وحسد . وظاهر أن محاولاتهم لم يكن لها من أثر إلا كشفهم وأن الجيش بقى كما كان صفا واحدا وقلبا واحدا يمثل المواقع التى اختارها بنفسه فى معركة الإصلاح . ورغم أن

تلك المحاولات ذهبت عبثا إلا آن واجبنا نحو الوطن ونحو الجيش يقتضى بداهة أن نضع هؤلاء تحت التحفظ لكى يبقوا بعيدا ولكى يبقى الجو دائما صافيا لا يكدره طامع أو حاسد أو حقود . ويجرى الآن تحقيق نزيه سوف يبين منه البرىء ويخلى سبيله ، والمذنب فيلقى جزاءه ، وأخيرا فقد أفسح الجيش للأحزاب صدره وكان ينتظر منها أن تحسن تقدير الموقف وأن تؤدى بعض حق الوطن عليها ولكنها ـ كما رأيتم ـ إستغلت سعة صدرنا أسوأ إستغلال وأرادت أن تحول نعمة الحرية إلى فوضى الحزبية فلم تتورع عن إنفاق أموالها فى الإغراء على الأضرابات ولم تستنكف الدس ، بل ومن تحقيق أغراض بعض الجهات الأجنبية ، ولما كنا فى فترة تستلزم أن يسود البلد فيها هدوء شامل لكى تتوافر الطمأنينة والأمن لساكنى مصر من وطنيين وضيوف . . ولكى تحصر مصر جميع جهودها لتحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية كان واجبا علينا أن نحل تلك الأحزاب التى جربت ففشلت والتى صنعت من مصالح الوطن ما صنعت ، وأن توجه أموالها لصالح الوطن الذى أكرمهم وأساءوا إليه ومازالوا يسيئون .

وكان لزاما علينا كذلك أن ننير الطريق أمام الشعب وأن نمكن للهدوء والاستقرار . ولذلك أعلنت بدء فترة إنتقال مدتها ثلاث سنوات نعد فيها كل أسس الحكم الدستورى السليم . وقد أعلنت أنى سأضرب بغاية الشدة كل من تحدثه نفسه فى الوقوف أمام إرادة الشعب الذى عزم عزما أكيدا على أن يتفرغ للإصلاح والبناء » .

ما الذى حدث واستدعى كل هذه القرارت الصارمة ؟

أكثر من سبب ، وأكثر من حادث دفعنا لإتخاذ هذا القرار . .

هاجمتنا ، بلا هوادة ، وبلا رحمة ، الصحف الحزبية ، بمختلف إتجاهاتها . . الوفد . . الإخوان . . الشيوعيون . . وغيرهم . . وراحوا يقللون من أهمية الثورة . . ويشككون فى خطواتها . . ويدعون الناس لإسقاط من هم على رأسها .

وتحول كلام الصحف إلى مؤامرات صغيرة لتحريك طلبة الجامعة . . وتحريض العمال . . وتهييج المصلين فى المساجد . . وكان ذنبنا هو أننا طردنا الملك ، ونحاول القضاء على آثاره التى خلفها وراءه .

كان الوفد ، فى ذلك الوقت هو أقوى الأحزاب . . وكان زعيمه مصطفى النحاس محبوبا من الجماهير . . لكن كان حوله مجموعة من الأشخاص غير المحبوبين . . والذين أحسوا أن فرصتهم مع الثورة كانت أقل من فرصتهم مع الملك ، فتحمسوا لكل من يسعى للتخلص منها . . وتضامن مع الوفد الشيوعيون . .

ومن جهة أخرى ساهم الإخوان فى الحملة . . ورغم ذلك إعتبرنا الإخوان جماعة ، فلم يشملها قرار الحل ، على أمل أن تدعم الثورة من خلال هيئة التحرير التى شكلت لملء الفراغ بعد حل الأحزاب السياسية .

وبرغم كل ذلك ، لم أكن متحمسا لهذا القرار . .

وكالعادة كان يقود الحملة من أجل إصداره سليمان حافظ . .

وكالعادة ايضا وافقت عليه الاغلبية فى مجلس القيادة . .

فلم أجد مفراً ، لإعلانه . .

وفى الوقت الذى كان يحدث فيه كل هذا خارج الجيش ، كان بعض الضباط فى داخله يتحركون للقضاء علينا .

وهؤلاء الضباط هم الذين اتهموا فيما سمى بانقلاب المدفعية .

كان عددهم حوالى ٣٥ ضابطا . . وكانوا جميعا من الضباط الأحرار الذين كان لهم دور بارز فى تحركات ليلة ٢٣ يوليو . . وبعد تحديد إقامة رشاد مهنا فى أكتوبر ١٩٥٢ ، بدأ هؤلاء الضباط يوجهون الانتقادات العلنية لضباط القيادة ، ويتهمون العديد من رجالها مثال عبد المنعم أمين وصلاح سالم ، وأنور السادات ، باستغلال نفوذهم لتحقيق مصالحهم الخاصة . . وقاموا بتجميع ضباط من أسلحة أخرى وضمهم إليهم ، ومدوا جسورا مع المدنيين ورجال الأحزاب ، ومرشد الإخوان ، وقرروا أن يقبضوا علينا بالقوة ، وأن يجبرونى على إعلان بيان يتضمن ما يريدون اعلانه .

وخلال الشهور الثلاثة التى سبقت القبض عليهم ، فى منتصف يناير ١٩٥٣ ، فشلت كل جهودنا فى إعادتهم إلى حظيرة الثورة والانضباط . . فلم نجد مفرا من القبض عليهم . . وقدموا إلى محاكمة عسكرية كانت مشكلة من مجلس قيادة الثورة نفسه . . وحكم عليهم أحكاما تتراوح ما بين المؤبد والبراءة . . وظلوا فى

السجن ، حتى وقع تمرد الفرسان فى مارس ١٩٥٤ ، فطلب عبد الناصر الإفراج عنهم ، حتى يساعدوا الجيش فى القضاء على تمرد الفرسان .
وخرج ضباط المدفعية من السجن . .
ودخل ضباط الفرسان . .

على أن كل هذه الأسباب التى لم نعلن تفاصيلها فى حينها ، عندما أعلنا حل الأحزاب ، لم تكن لتقنع أحدا بضرورة ذلك القرار .

فتعرضنا إلى هجوم من كل صحافة العالم ، خاصة صحافة الغرب . وأطلقت على تلك الصحافة لقب « الديكتاتور العادل » . . أو الديكتاتور المهذب .

ان صحافة العالم التى لصقت بى هذا اللقب ، لم تكن لتدرك أن الثورة التى حظيت بموافقة الأغلبية الساحقة ، كان لها أعداء ، كانوا رغم قلتهم أقوياء . . وكان بإمكانهم تدمير الثورة .

ولكونى ديكتاتورا عادلا ، تعرضت للنقد الشديد من أولئك الذين يريدون ديكتاتورا حقيقيا . . كان أولئك يحلمون بأتاتورك مصرى . . وجاء عليهم وقت اعتقدوا فيه أن فاروق كان يمكن أن يلعب هذا الدور . . وأعتقدت أنا كذلك . . لكنه خيب ظننا . . وبعد الثورة توقعوا أن العب أنا هذا الدور . . لكننى خيبت ظنهم أيضا . . فاتجه تفكيرهم إلى جمال عبد الناصر ليقوم بهذا الدور ولا أعتقد أنه خيب آمالهم .

كنت أعرف جيدا أن مصر ليست فى حاجة إلى أتاتورك . . لأن مصر ليست مثل تركيا . . ولأن المصريين ليسوا مثل الأتراك . . فالأتراك لم يفقدوا استقلالهم ، بينما نحن فى ذلك الوقت لم نكن قد استعدنا استقلالنا كاملا ، منذ هزيمتنا أمام الفرس عام ٥٢٥ قبل الميلاد . . وبعد أن حكمنا الفرس ، جاء الإغريق ، والرومان ، والبيزنطيون ، والعرب ، والعثمانيون ، والفرنسيون والأنجليز . .

والآن نحن فى وضع معقول من السيادة القومية ، وأن كان يجب أن نرقى من خلاله إلى مستوى السلوك الدولى ، وإلا فإننا سوف نجد أنفسنا فى صراع مع القوى الدولية التى تتمثل مصالحها فى قناة السويس .

صحيح أن نفس الشيء يمكن أن يقال عن البسفور والدردنيل فى تركيا ، حيث إنها مناطق لها أهمية سواء للغرب أو لروسيا ، لكنها مع ذلك أقل أهمية من قناة السويس . . شريان التجارة والاتصال .

وهناك سبب آخر جعل الثورة المصرية لم تفرخ ، فى البداية ، أتاتورك جديد ، هو أنها كانت ثورة جماعية وليست فردية . . ففى الفترة الأولى منها كنا نمارس عملنا ممارسة ديمقراطية ، داخل مجلس القيادة ، لايستبد أحد برأيه ولا يستطيع أن ينفرد بإرادته . . وكانت الأغلبية هى الحكم الوحيد . .

ثم . . إن طبيعة الشعب المصرى الذى يكره النظام التسلطى جعلت من الصعب إفراز أتاتورك آخر له .

وبالرغم من « الديكتاتورية المهذبة » فقد حاولت أن تقوم قراراتنا على الإقناع . .
وكذلك بأن أكون مثلا يحتذى به . .

وكثيرا ما خرقت شروط واحتياطيات الأمن ، وسافرت إلى أرجاء متفرقة فى مصر ، سمعت خلالها شكاوى الناس ، وشجعتهم على الإفشاء عما فى صدورهم . . وكنت أتحدث للناس بلغتهم . . ولم تتعرض حياتى لأى خطر . . وكان حدسى سليما دائما . . اللهم مرة واحدة فقط .
كنت عائدا إلى منزلى فى يوليو ١٩٥٣ ، فلاحظت رجلا يرتدى ثيابا رثة ويصرخ :
- ياظالم . . ياظالم .
كان عجوزا ، إلى درجة أنه لايمكن أن يحدث بى أى أذى ، فأوقفت سيارتى وأمرت حارسى الخاص بأن يحضره إلى منزلى فى اليوم التالى . .

عرفت منه أن أسمه أحمد محمد منصور وأنه كان لص خزائن ، وقبض عليه ٣٣ مرة ، وقضى قرابة ٢٨ سنة فى مختلف السجون ، وبالرغم من أنه كان يريد أن يحيا حياة شريفة إلا أن البوليس منعه من ذلك . .

كان يرغب فى استخراج رخصة لبيع المشروبات الغازية ولكن طلبه كان يرفض دائما بسبب سوابقه . .

أعطيته ٥ جنيهات ليشترى بها ثلاجة صغيرة لبيع المرطبات ، وعلمت فيما بعد أنه أصبح يبيع المشروبات فى كشك أقامه أمام أحد أقسام البوليس .

كان أحمد محمد منصور واحدا من الآلاف الذين ساعدتهم . . وأنا أذكر هذه الواقعة لأوضح مدى اقتناعى بأن الشعب المصرى يمكن أن تكسبه بالود وليس بالعنف .

لكن هذه النصيحة فشلت فى أن أقنع بها زملائى الضباط فى مجلس القيادة .
كانوا شبابا . .
وكانت خبرتهم فى الحياة بسيطة . .
وكانت خبرتهم فى الحكم أبسط . .

أحسوا أنهم يحكمون ، فاندفعوا يتعاملون بعنف ، وبغطرسة ، مع الآخرين ، حتى زملائهم فى التنظيم وفى الحركة ، تعاملوا معهم بنفس الأسلوب . .
وقد كنت أتصور أن الأمر داخل الجيش سيعود إلى طبيعته بعد القبض على ضباط المدفعية ، لكن هذا لم يحدث . .
وكان الدور على يوسف صديق . .
بعد القبض على ضباط المدفعية ، جاء يوسف صديق وسألنى :
- لماذا قبضتم عليهم ؟
فقلت له :
- والله يا يوسف ، المعلومات التى وضعت أمامى تؤكد أنهم دبروا عملا عنيفا للتخلص منا ، وهناك أكثر من دليل ضدهم . . وقد أردت أن أضعهم داخل ميس أحدى الوحدات ، كما ينص قانون الجيش ، إلا أنك تعرف جيدا أن باقى ضباط القيادة رفضوا ذلك ، وأكدوا أننا لو لم نذخلهم السجن ، فإنهم سيقلبون الدنيا حولنا . . فما كان على إلا أن أمرت باخلاء سجن الأجانب من نزلائه ليكون أشبه بمعتقل خاص لهؤلاء الضباط فقط .
قال :
- أنا لا أعتقد أنهم كانوا يدبرون إنقلابا ضدنا ، وإلا لما جاءوا بحسن نية إلى مجلس القيادة وتناقشوا مع بعضنا بصراحة ووضوح وطالبوا بتمثيل الجيش فى مجلس القيادة عن طريق الانتخابات .
- ربما كان عندك حق يا يوسف ، ولكن أنت تعرف جيدا أن زكريا محيى الدين هو الذى تولى محاكمتهم وقدم للمجلس الأوراق للتصديق عليها .

وكان عند يوسف صديق حق فعلا . .
فقد عقد ضباط المدفعية ، الذين أذكر منهم الآن محسن عبد الخالق وفتح الله رفعت ، جلسة عاجلة وقدموا اقتراحاتهم لعبد الناصر ولكمال الدين حسين . . وبعد أن انصرفوا عقد ضباط القيادة جلسة عاجلة لمناقشة اقتراحاتهم . . وفى هذه الجلسة وضح لنا أن يوسف صديق كان من المؤيدين للانتخابات . . وأذكر أن أحد أعضاء المجلس سأله :
ـ هل تضمن أنت النجاح فى الانتخابات ؟
فقال :
ـ هذا لايهم . . المهم هو المبدأ !
ولم يؤخذ باقتراحات ضباط المدفعية . . فى هذا الاجتماع . . بل تقرر فيه القبض عليهم . .
وبمجرد أن قبض على ضباط المدفعية قدم يوسف صديق استقالته .
وقال :
ـ « إن ضميره لا يمكن أن يستقيم وهو عضو فى مجلس يصدر قرارات تخالف أفكاره وعقيدته . . ولا يستقيم الأمر بأن قرارات المجلس تصدر بالأغلبية ، فإن المجلس فى ذاته لا يمثل الشعب ولا يمثل الجيش أيضا » .

ورفض المجلس اعلان استقالة يوسف صديق . .

وأجبر على الرحيل إلى سويسرا فى مارس ١٩٥٣ . . بعد حوالى شهرين تقريبا .

وتألمت لاستقالة يوسف ، وتصورت ساعتها أنها بسبب الاعتقالات الأخيرة التى قمنا بها لبعض الشيوعيين . . لكنى تأكدت فيما بعد أنه كان يرفض كل الإجراءات الأخيرة التى صدرت . . من الغاء الأحزاب إلى الأعتقال . . ومن فرض الرقابة على الصحافة إلى معاملة الضباط الأحرار المعتقلين بقسوة . . كان يوسف صديق يدعو للتمسك بالدستور ويطالب بدعوة البرلمان المنحل للانعقاد لتعيين مجلس الوصاية . .
كان مع كل ما هو دستورى ، رغم أنه كان شيوعيا .

وبمناسبة شيوعية يوسف صديق ، أذكر أن جمال عبد الناصر عندما كان مديرا لمكتبى ، كان يحذرنى منه ويقول لى :

ـ خذ حذرك . . فيوسف صديق شيوعى كبير .
وأكثر من واحد فى مجلس القيادة قال لى :
ـ يوسف شيوعى يريد أن ينحرف بالثورة للاتجاه الأحمر .
ولم يكن هذا الكلام ليؤثر على ، خاصة وأننى أحترم حق كل أنسان فى أفكاره وعقيدته ، وكنت أداعبه ، وأقول له مازحا ، كلما رأيته :
أهلا بالرفيق يوسف ستالين !
وبعد يوسف صديق كان الضحية التالية البكباشى حسنى الدمنهورى . . الضابط باللواء الرابع .

اعترض حسنى الدمنهورى هو الآخر على اعتقال ضباط المدفعية ، وطلب من رئيس الأركان اللواء محمد إبراهيم أن يفسر له ما حدث . . فقبض عليه فى منزله . . وحققت معه لجنة من عبد اللطيف البغداوى وعبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين وصلاح سالم . . واتهموه بأنه كان يعد مؤامرة للانقضاض على مجلس القيادة ، والإفراج عن الضباط المعتقلين .

وعرفت من جمال عبد الناصر أن حسنى الدمنهورى سيحاكم أمام مجلس القيادة . .
فاعترضت . .
وقلت له :
ـ كيف تكون الخصم والحكم ؟
لكنه قال :
ـ فات الوقت . . إننا سنجتمع بعد ساعة واحدة ، أى فى السادسة صباحا ، ويحسن أن يحاكم الدمنهورى بهذه الصورة حتى لا تكون محاكمته خارجنا موضوعا للإثارة فى صفوف الجيش فى هذا الوقت الحرج .

ورأس جمال عبد الناصر المحكمة ، التى حضرها كل أعضاء مجلس القيادة ما عدا يوسف صديق وعبد المنعم أمين ، وخالد محيى الدين وأنور السادات . . وأصدرت الحكم بالإعدام .
وأبلغنى عبد الناصر بالحكم . . وطلب منى التصديق عليه . . لكننى رفضت . . وحاول إقناعى . . إلا أننى صرخت فيه قائلا :
ـ إننى لا أريد أن أمضى فى طريق مفروش بدماء الزملاء من الضباط

واقتنعت بصحة موقفى أكثر عندما أخبرنى اليوزباشى محمد أحمد رياض أنه شاهد البكباشى حسنى الدمنهورى وهو يتعرض لتعذيب شرس وإهانة قاسية من صلاح سالم . . حتى يدفعوه للاعتراف بمؤامرة لم يرتكبها . . ولم يفكر فيها . . وتحمل الدمنهورى كل هذا العذاب النفسى و البدنى ، ورفض الاعتراف . لقد أصبحنا مثل السمك نأكل بعضنا . .

وأصبح أعضاء القيادة فى حالة خوف وفزع وتوتر لاينتهى . . كانوا يخشون من أى إنقلاب يطيح بسلطانهم وبنفوذهم . . وكانوا على أتم الاستعداد ليفعلوا أى شىء لا يوصل غيرهم إلى السلطة .
وانتقلت أحاسيسهم المريضة وتصرفاتهم العصبية من داخل الجيش إلى خارجه . .

فبعد يومين من إعتقال ضباط المدفعية صدر قرار حل الأحزاب السياسية . . وتشكل مجلس القيادة صراحة باسم مجلس قيادة الثورة . . وعادت الرقابة على الصحف . . وأعد مشروع قانون العمل والعمال الجديد الذى ينص على إباحة الفصل وتحريم الأضراب . .

وصرح جمال عبد الناصر لأحمد أبو الفتح :
- إن الانتخابات تأجلت حتى ننتهى من قضية الجلاء .
وضرب عبد الناصر بهذا التصريح اتفاقنا القديم على إجراء الانتخابات فى فبراير ١٩٥٣ .

وكان تصريحه مفزعا للديمقراطيين ، لأن المفاوضات مع الأنجليز لم تكن قد بدأت بعد .

واستغل سليمان حافظ الازدواجية التى كانت موجودة بين مجلس القيادة والوزارة ، فراح من جانبه ، هو الآخر يعبث بما تبقى فى هذه البلد من ديمقراطية . . فأصدر عدة تشريعات منافية للديمقراطية منها فصل الموظف دون اللجوء للطريق التأديبى . . وحرمان رجال القضاء المعزولين من معاشاتهم . . وإحالة جرائم الإصلاح الزراعى للمحاكم العسكرية . . وكان لابد أن يحاول مجلس قيادة الثورة أن يغطى كل هذه الإجراءات ، بعد أن رفض الإعلان عن معظمها ، وذلك بالاحتفال بما سمى بمهرجان التحرير .

كان المهرجان من ٢٣ ـ ٢٦ يناير ١٩٥٣ ، بمناسبة مرور ستة أشهر على نجاح الثورة وبقائنا فى السلطة . . وقد أقيم الاحتفال فى ميدان الاسماعيلية التى أصبح اسمه « ميدان التحرير » . . وفى هذا الاحتفال أعلنا قيام هيئة التحرير ، لتحل محل الأحزاب ، كجبهة واحدة ، قومية ، مهمتها تحضير الناس ، خلال فترة الانتقال ، لعودة الأحزاب على أسس سليمة .

وجاء فى بيان إعلان قيام الهيئة :

« إنها طريق للعمل المفتوح أمام المصريين جميعا » .

وجاء فى البيان أيضا :

« إنه للمرة الأولى فى تاريخ البلد تتحول السياسة إلى عمل . فلقد كانت فكرة العهد الماضى عن السياسة أنها مناورات وحيل ومغامرات ومكاسب ومغانم ، أما فكرة العهد الجديد عن السياسة أنها عمل وإنتاج ، فكل مصرى يعمل وينتج هو سياسى فى نفس الوقت . لأن الإنتاج يزيد الثروة الفردية والثروة القومية فإذا زادت الثروة الفردية انحلت الكثير من مشاكل الفرد ، وإذا زادت الثروة القومية ازداد مركز مصر فى العالم تفوقا » .

وعندما أقرأ مثل هذا الكلام الآن أشعر إلى أى مدى كانت سذاجتنا فى تلك الايام .

وهذا ليس مجالنا الآن . .

نحن الآن نرصد التاريخ بمنتهى الأمانة ، ومن خلال هذا الرصد الأمين سيتضح ما لنا وما علينا . .

فى ذلك الوقت قدمنا هيئة التحرير بهذا البيان . . وحددنا أهدافها فيما يلى :

١ ـ إتمام الإنسحاب غير المشروط للقوات الأجنبية فى وادى النيل .

٢ ـ تقرير مصير السودان .

٣ ـ إقامة دستور جديد يعبر عن أمانى الشعب المصرى .

٤ ـ ضمان اجتماعى يحمى كل المواطنين من البطالة والمرض والشيخوخة .

٥ ـ نظام اقتصادى يضمن عدالة توزيع الثروة واستغلال الموارد الطبيعية والإنسانية اقصى استغلال .

٦ ـ نظام سياسى يتساوى فيه الأفراد أمام القانون وحرية التعبير والاجتماع والعقيدة تكون مكفولة .

٧ ـ نظام تعليمى يحث المواطن على المشاركة الاجتماعية وزيادة الانتاج لرفع مستوى المعيشة .
٨ ـ علاقات صداقة مع كل البلاد العربية .
٩ ـ سلام إقليمى يهدف زيادة فاعلية الجامعة العربية .
١٠ ـ علاقات صداقة مع كل القوى العظمى .
١١ ـ الالتصاق بمبادىء الأمم المتحدة .
باختصار سمك . لبن . تمر هندى .
باختصار كل برامج الحكومة والثورة وكل أحلام المستقبل وكل أمانى الماضى

وفكرة هيئة التحرير هى فكرة جمال عبد الناصر . .

فقد استدعى فى أكتوبر ١٩٥٢ الصاغ إبراهيم الطحاوى وقال له :
ـ لقد يئست من أن تصلح الأحزاب نفسها وتسير فى ركاب الأحرار ولذا فلابد من أيجاد الهيئة الجديدة التى تضم العناصر الصالحة . . فما رايك ؟ . . هل تستطيع أن تنفذ هذه الفكرة !
فرد عليه :
ـ سأدرس الموضوع !
وظل الموضوع يدرس حتى أعلنت هيئة التحرير فى مهرجان التحرير .
وفى هذا الاحتفال ، أخذت أتلو القسم التالى ، والجماهير تردده من ورائى
« اللهم إنك تحب الأقوياء . . وتكره المستضعفين وتنشر رحمتك على الذين يؤثرون الموت العزيز فى سبيل الحرية . . على الحياة الذليلة . . فى مجال الاستعباد . .
« اللهم وانك لقريب . . ترى وتسمع وإنا لنقسم بذاتك العليا . . على أن نعمل ما وسعنا العمل . . لإرساء قواعد الحياة المقبلة . . لوطننا المفدى . . على أصول محررة من العبودية . . منزهة عن الهوى . . موصولة بالحق والعدل . . وأن نبذل فى سبيل ذلك . . كل ما تقتضيه مصلحة أمتنا . . ويبتغيه شرف بلادنا . . وأن يكون شعارنا دائما الاتحاد . . والنظام . . والعمل . . اللهم فاشهد . . وانت خير الشاهدين . . »

كانت المرة الأولى فى تاريخ مصر التى يحدث فيها مثل هذا المشهد بين الحاكم والجماهير .

وكانت المرة الأولى التى اطلق فيها شعار : الاتحاد والنظام والعمل .

وكانت المرة الأولى التى يرفرف فيها علم التحرير الذى يتكون من الأحمر والأبيض والأسود على التوازى ، وهى الوان تمثل دماء الكفاح وطهارة المبادىء وفساد المـــاضى .

وكانت المرة الأولى التى نغير فيها السلام الملكى ونستبدله بسلام وطنى جديد .

وبعد أيام . . وفى ١٠ فبراير ١٩٥٣ ، أعلنت على الشعب الدستور المؤقت . . بعد أن الغينا دستور ١٩٢٣ .

أعود للوراء قليلا لأحكى قصة إلغاء دستور ١٩٢٣ . .

وهى قصة تعود إلى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ . . يوم أعلنت فى منزلى فى الحلمية ، عبر محطة الإذاعة ، بحضور أنور السادات ، وإسقاط الدستور . . وبالرغم من أن قرار إسقاط الدستور جاء قبل قرار حل الأحزاب السياسية ، إلا أننى أعتبر القرار الأخير أهم ، وأخطر ، من القرار الأول ، لذلك تكلمت عنه أولا . خاصة وأن قرار إسقاط الدستور سبقه تمهيد من الصحف ، وكبار القانونيين الذين طالبوا من خلال مقالاتهم ، بذلك . . وكانت حجتهم أن الدستور قد سقط فعلا بعد الثورة . . وأن ما تبقى منه ، بعض نصوص لم تعد تتمشى مع أهداف هذه الثورة . . وعلى ذلك طالب البعض بوجوب إصدار دستور جديد ، يحل محل الدستور المنهار . . وطالب البعض الآخر بتعديل الدستور على الأقل .

واقترن هذا الخلاف بخلاف آخر حول ، من الذى يعدل ، أو يغير الدستور ؟ . . الحكومة ؟ . . جمعية تأسيسية منتخبة ؟ . . ولم نتدخل فى مثل هذه المناقشات . . لكننا أحسسنا أن دستور ١٩٢٣ لم يعد يرضى أحدا . . ومع ذلك لم أكن متحمسا للتعجيل بهذه الخطوة . . وجاء سليمان حافظ ، بعد ذلك ، ليقنعنا عمليا بضرورة إلغاء دستور ١٩٢٣ .

كنا قد شكلنا لجانا للتطهير . . وكان بعض هذه اللجان لفحص حالات موظفى الدولة . . وكان البعض الآخر للتحقيق فى الأعمال الحكومية واحالة المسئولين عنها إلى المحاكم الجنائية أو الإدارية ، حسب الأحوال . . اللجان الأولى كان يرأسها قاضى . .

واللجان الأخرى كان يرأسها متشار . .

فقال لنا سليمان حافظ :

إن اللجان الأولى تعمل بسهولة . . أما اللجان الثانية فكانت تصطدم بإن عددا كبيرا من الوزراء السابقين ، الذين أدينوا ، من الصعب محاكمتهم ، لأن الدستور يحميهم ، من القضاء العادى ، ولا يقدمهم إلا أمام محكمة خاصة ، لا ترفع الدعوى أمامها إلا بقرار من مجلس النواب . . وبما أنه لا يوجد حاليا هذا المجلس . . فالحل الوحيد أمامنا هو إلغاء الدستور ، إذا كنا نريد فعلا أن نطهر المجتمع من الفساد ونتخلص من كل أذنابه .

ورفضت . .

ورفض مجلس القيادة . .

لكن سليمان حافظ لم ييأس . . فذكرته بمظاهرات الطلبة ضد اسماعيل صدقى التى كانت تطالب بإلغاء دستور ١٩٣٠ ، وعودة دستور ١٩٢٣ . . وقلت له :

ـ إن الغاء دستور ١٩٢٣ الآن يتعارض مع الاتجاه الشعبى العام .

وراح سليمان حافظ يلف حول باقى اعضاء مجلس القيادة ، ليقنعهم برأيه .١.

وسرعان ما استجابوا له . . ولم أجد مفرا من الاستسلام لرأى الاغلبية .

وفى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة من صباح الاربعاء ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ ، اذعت البيان التالى :

« بنى وطنى . .

عندما قام الجيش بثورته فى ٢٣ يوليو الماضى كانت البلاد قد وصلت إلى حالة من الفساد والانحلال أدى إليها تحكم ملك مستهتر وقيام حياة سياسية معيبة وحكم نيابى غير سليم ، فبدلا من أن تكون السلطة التنفيذية مسئولة أمام البرلمان ، كان البرلمان فى مختلف العهود هو الخاضع لتلك السلطة التى كانت بدورها تخضع لملك غير مسئول ، ولقد كان ذلك يتخذ من الدستور مطية لاهوائه ويجد فيه من الثغرات ما يمكنه من ذلك بمعاونة أولئك الذين كانوا يقومون بحكم البلاد ويصرفون أمورها . من أجل ذلك قامت الثورة ولم يكن هدفها التخلص من ذلك الملك وإنما كانت تستهدف الوصول بالبلاد إلى ما هو أسمى مقصدا وأبعد مدى وأبقى على مر الزمن ، من توفير أسباب الحياة القوية الكريمة التى ترتكز على دعائم من الحرية والعدالة والنظام ، حتى ينصرف أبناء الشعب إلى العمل المنتج لخير الوطن وبنيه .

والآن بعد أن بدأت حركة البناء وشملت كل مرافق الحياة فى البلاد سياسية واقتصادية واجتماعية ، أصبح لزاما علينا أن نغير الأوضاع التى كادت تؤدى

بالبلاد والتى كان يسندها ذلك الدستور الملىء بالثغرات . . ولكى نؤدى الأمانة التى وضعها الله فى أعناقنا لامناص من أن نستبدل بذلك الدستور دستورا آخر جديدا يمكن للامة ان تصل أهدافها حتى تكون بحق مصدر السلطات .

وهأنذا أعلن باسم الشعب سقوط ذلك الدستور ، سنة ١٩٢٣ ، وإنه ليسعدنى أن أعلن فى نفس الوقت إلى بنى وطنى أن الحكومة آخذة فى تأليف لجنة تضع مشروع دستور جديد يقره الشعب ويكون منزها عن عيوب الدستور الزائل ومحققا لآمال الامة فى حكم نيابى نظيف سليم . »

وبرا بالوعد الذى قطعته على نفسى ، صدر فى ١٣ يناير ١٩٥٣ ، من الوصى على العرش « باسم ملك مصر والسودان » و« بناء على عرض رئيس مجلس الوزراء اللواء محمد نجيب وموافقة رأى المجلس المذكور » مرسوم ملكى بتأليف لجنة لوضع مشروع دستور جديد « يتفق مع أهداف الثورة » .

وشكلت اللجنة من ٥٠ عضوا ، من بينهم ثلاثة من اعضاء لجنة دستور ١٩٢٣ وهم : على ماهر (باشا) ومحمد على علوبة (باشا) وعلى المنزلاوى (بك) واربعة من الوفديين هم : عبد السلام فهمى جمعة (باشا) وعلى زكى العرابى (باشا) ومحمد صلاح الدين (باشا) وعمر عمر (بك) . . واثنان من الأحرار الدستوريين هما : أحمد محمد خشبة (باشا) ومحمود محمد محمود (بك) . . واثنان من السعديين هما : محمود غالب (باشا) وعبد الحميد الساوى (بك) . . وثلاثة من الإخوان المسلمين هم : عبد القادر عوده وصالح عشماوى وحسن محمد العشماوى . . وثلاثة من الحزب الوطنى هم : عبد الرحمن الرافعى (بك) وفكرى أباظة (باشا) ومحمود جلال (بك) . .

يضاف إليهم . . ثلاثة من رجال القضاء . . وثلاثة من رجال الجيش والبوليس المتقاعدين . . وعدد من اساتذة الجامعات . . وبعض أعضاء مجلس الشيوخ السابقين . . وعدد آخر من الشخصيات العامة .

وبعد أقل من شهر صدر باسمى الدستور المؤقت . .

وكان نص الإعلان عن ذلك الدستور المؤقت هو

« إنه رغبة فى تثبيت قواعد الحكم أثناء فترة الانتقال وتنظيم الحقوق والواجبات لجميع المواطنين ولكى تنعم البلاد باستقرار شامل يتيح لنا الانتاج المثمر والنهوض

إلى المستوى الذى نرجوه لها جميعا فإنى اعلن باسم الشعب أن حكم البلاد فى فترة الانتقال سيكون وفقا للاحكام الاتية :

اولا : مبادىء عامة :

المادة ١ ـ جميع السلطات مصدرها الأمة .

المادة ٢ ـ المصريون لدى القانون سواء فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

المادة ٣ ـ الحرية الشخصية وحرية الرأى مكفولتان فى حدود القانون وللملكية وللمنازل حرمة وفق أحكام القانون .

المادة ٤ ـ حرية العقيدة مطلقة وتحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقا للعادات المرعية على ألا يخل ذلك بالنظام العالم ولاينافى الآداب .

المادة ٥ ـ تسليم اللاجئين السياسيين محظور .

المادة ٦ ـ لايجوز انشاء ضريبة إلا بقانون ولا يكلف أحد بأداء رسم إلا بناء على قانون ولا يجوز إعفاء أحد من ضريبة إلا فى الأحوال المبينة فى القانون .

المادة ٧ ـ القضاء مستقل لا سلطان عليه لغير القانون وتصدر أحكامة وتنفذ وفق القانون باسم الامة .

ثانيا : السيادة العليا :

المادة ٨ ـ يتولى قائد الثورة أعمال السيادة العليا وبصفة خاصة التدابير التى يراها ضرورية لحماية هذه الثورة والنظام القائم عليها لتحقيق أهدافها وحق تعيين الوزراء وعزلهم .

المادة ٩ ـ يتولى مجلس الوزراء سلطتة التشريعية .

المادة ١٠ ـ يتولى مجلس الوزراء والوزراء كل فيما يخصه أعمال السلطة التنفيذية .

المادة ١١ ـ يؤلف مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء مؤتمرا ينظر فى السياسة العامة للدولة وما يتصل بها من موضوعات ويناقش مايرى مناقشته من تصرفات كل وزير فى وزارته .

« أيها المواطنون . .

إننى إذ أعلن لكم هذة المبادىء والأحكام لايسعنى إلا أن أعلن أيضا عن إيمانى المطلق بضرورة قيام نظام دستورى نيابى ديمقراطى كامل الأركان أثر فترة الانتقال

وبضرورة توفير حياة حرة كريمة ومستقبل مشرف باسم لنا وعلينا جميعا أن نساهم في بنائه .

والله ولى التوفيق

وكان هذا الاعلان بمثابة شمعة تضىء ظلام إلغاء الدستور لحين التخلص من الظلام نهائيا باعلان الدستور الجديد .

وبعد طول من الوقت انتهت لجنة الخمسين الى ما سمى بمشروع الدستور الجديد .

ومن بين ما جاء فى هذا المشروع مايرى ان نأخذ بنظام الجمهورية البرلمانية على غرار نظام الجمهورية الثالثة فى فرنسا . . لكن كانت الاتجاهات فى مجلس القيادة ان نأخذ بالجمهورية الرئاسية .

وكان عبد الناصر هو صاحب هذا الرأى .

وقد نفذه بعد ذلك بنفسه . . وهذا واضح فى كل الدساتير المؤقتة والدائمة التى صدرت فى عهده .

وفى ٢٤ مارس ١٩٥٣ ، كان على لجنة « الخطوط الرئيسية » المنبثقة عن لجنة الخمسين ، ان تناقش هذه النقطة بالذات . . النقطة الخاصة بنظام الحكم . . هل يكون ملكيا . . ام جمهوريا ؟ . . هل تكون جمهورية برلمانية ؟ . . ام رئاسية ؟

وكانت اللجنة مكونة من عبد الرازق السنهورى ومكرم عبيد ، والسيد صبرى ، وعبدالرحمن الرافعى ، وعثمان خليل . . وكلهم خبراء فى القانون والدستور . .

وانتهت اللجنة إلى أن يكون نظام الحكم جمهوريا . . وان تكون الجمهورية برلمانية . . ونقلت اللجنة الفرعية قرارها إلى على ماهر المسئول عن اللجنة ـ الام ، فأمر بابلاغ الخبر الى الصحف فورا ، وقال :

ـ أبلغوا الصحف بهذا الخبر حتى يكون الرأى العام وثيق الصلة بأعمال لجنة مشروع الدستور العامة ولجانها الفرعية .

وأغلب الظن أن على ماهر طلب ذلك ، لكى يرد على كل الذين اتهموا لجنة الدستور التى يرأسها بالخمول . . واذكر فى هذا الصدد ما قاله أحمد أبوالفتح

رئيس تحرير جريدة المصرى ، تحت عنوان : « الدستور . . يارئيس اللجنة » . .
قال احمد ابو الفتح :
ـ لقد اقمنا اسابيع للأمان والنظافة والدواجن ومشوهى الحرب ونطالب بأسبوع للدستور .
واذكر انى طلبت على ماهر فى التليفون وسألته عن رأيه فى المقال . .
فقال :
ـ انتم لستم على عجل ، والأفضل طالما أن هناك فترة إنتقال لمدة ثلاث سنوات أن يخرج الدستور متكاملا .
فقلت :
ـ لا . . ياباشا . . يجب أن تنتهى اللجنة من وضع الدستور فى أسرع وقت .

وعرفت منه أن بعض أعضاء مجلس القيادة هم الذين يطلبون التأجيل . . بل ويتمنون أن لاينتهى عمل اللجنة أبدا . . فقد بدأت كلمة الدستور تؤرقهم . . وبدأوا يشعرون أن ميلاد الدستور يعنى نهاية حكمهم . . يعنى موتهم هم . .
وعندما احس على ماهر بأن موقفى من الدستور يختلف عن موقفهم ، سارع باعلان اخبار لجنته ، لتنشرها الصحف ، ويبرىء ذمته .
وفى الخامس من مايو ١٩٥٣ وافق اعضاء لجنة الدستور الخمسون على اتخاذ النظام الجمهورى أساسا لوضع مشروع الدستور الجديد . .
وقال تقرير اللجنة فى نهايته ، بعد ان استعرض مفاسد النظام الملكى :

« من أجل ذلك رأت اللجنة باجماع الاراء ترك النظام الملكى والأخذ بالنظام الجمهورى ، ويسرها أن تتلاقى هذه النتيجة مع ما تحس أنه هو الاتجاه الشعبى الواضح ، على انها ترى مع ذلك استفتاء الشعب للتعرف على رأيه فى هذه المسألة الجوهرية التى هى أقرب إلى أن تكون مسألة شعبية تتعلق بالشعوب من أن تكون مسألة فنية تتعلق بالدستور » .
وبعد أيام أقرت اللجنة المبادىء التالية :
١ ـ يقوم الى جانب رئيس الجمهورية وهو رئيس الدولة مجلس للوزراء برئاسة رئيس مجلس الوزراء .

٢ ـ ينتخب رئيس الجمهورية من الشعب مباشرة بواسطة هيئة الناخبين التى لها حق انتخاب مجلس النواب .

٣ ـ مدة رئاسة الجمهورية خمس سنوات ميلادية قابلة للتجديد مرة واحدة .

٤ ـ اذا توفى رئيس الجمهورية أو أصبح منصبه شاغرا قبل نهاية مدته لاى سبب حل محله مجلس الشيوخ الى حين انتخاب خلف له .

ورغم كل ما قيل عن مشروع الدستور وأعمال لجانه ، فإن على ماهر ، وباقى أعضاء اللجنة ـ الام ، لم ينتهوا من مناقشته واقراره الا فى اغسطس ١٩٥٤ .

وكان طبيعيا ألا يتغير النظام من ملكى إلى جمهورى قبل الدستور الجديد ، إلا أننى فوجئت بأعضاء مجلس الثورة يطالبون الإسراع بإعلان الجمهورية .

وقد رفضت هذا القرار لأكثر من سبب . .

رفضته لأننى أردت أن يتحول نظام مصر السياسى بنص من الدستور لا بقرار من مجلس القيادة .

ورفضته لأن مجلس القيادة ، لصق القرار بقرار آخر هو تعيين عبدالحكيم عامر قائدا عاما للجيش ، بعد ترقيته من صاغ الى لواء . .

ومن جديد مارس أعضاء المجلس الضغط المكثف على . . وطالبونى بتنفيذ ما اتفق عليه ، من قبل ، وهو ان تكون الأغلبية هى الفيصل فى اتخاذ القرارات وتنفيذها . . وأقنعونى بأهمية أن نبدوا متماسكين أمام الجماهير .

وفى ١٨ يونيو ١٩٥٣ أصبحت أقدم دولة فى العالم ، أحدث جمهورية فى العالم . .

وصدر البيان التالى من مجلس قيادة الثورة :

« لما كانت الثورة عند قيامها تستهدف القضاء على الاستعمار واعوانه وقد بادرت فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى مطالبة الملك فاروق بالتنازل عن العرش لأنه كان يمثل حجر الزاوية الذى يستند اليه الاستعمار . ولكن من هذا التاريخ ومنذ إلغاء الأحزاب وجدت بعض العناصر الرجعية فرصة حياتها ووجودها مستمدة من النظام الملكى الذى أجمعت الأمة على المطالبة بالقضاء عليه قضاء لا رجعة فيه ، وان تاريخ اسرة محمد على فى مصر كان سلسلة من الخيانات التى ارتكبت فى هذا

الشعب وكان من أولى هذه الخيانات إغراق اسماعيل فى ملذاته واغراق البلاد بالتالى فى ديون عرضت سمعتها وماليتها للخراب حتى كان ذلك سببا تعللت به الدول الاستعمارية للنفوذ إلى أرض هذا الوادى الآمن ، الامين ، ثم جاء توفيق فأتم هذه الصورة من الخيانة السافرة فى سبيل محافظته على عرشه فدخلت جيوش الأحتلال أرض مصر لتحمى الغريب على العرش الذى استنجد بأعداء البلاد على أهلها ، وبذا أصبح المستعمر والعرش فى شركة تتبادل المنافع فهذا يعطى القوة لذاك فى نظير المنفعة المتبادلة . . وقد فاق فاروق كل من سبقوه من هذه الشجرة فأثرى وفجر ، وطغى وتجبر ، وكفر فخط لنفسه نهايته ومصيره ، فآن للبلاد أن تتحرر من كل أثر من آثار العبودية التى فرضت عليها نتيجة لهذه الأوضاع . .

أولا ـ فنعلن اليوم باسم الشعب إلغاء النظام الملكى وحكم أسرة محمد على مع الغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة .

ثانيا ـ اعلان الجمهورية وتولى الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب قائد الثورة رئاسة الجمهورية مع احتفاظه بسلطاته الحالية فى ظل الدستور المؤقت الصادر فى ١٠ فبراير ١٩٥٣ .

ثالثا ـ يستمر هذا النظام طوال فترة الانتقال ويكون للشعب الكلمة الأخيرة فى تحديد نوع الجمهورية واختيار شخص الرئيس عند اقرار الدستور الجديد .

« فيجب علينا أن نثق فى الله وفى أنفسنا وأن نحس بالعزة التى اختص بها الله عباده المؤمنين ، والله المستعان ، والله ولى التوفيق » .

وفى نفس اليوم اصدرت القرار الجمهورى رقم واحد :

« اللواء محمد نجيب . . رئيس الجمهورية . .

« بعد الاطلاع على الاعلان الدستورى الصادر فى سبعة من شوال سنة ١٣٧٢ الموافق ١٨ من يونيو ١٩٥٣ آمر بالآتى :

« يعين حضرة الصاغ أركان حرب محمد عبدالحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة ويمنح رتبة اللواء .

وكان القرار الثانى ، تعيين سليمان حافظ مستشارا قانونيا لرئيس الجمهورية بمرتب ٣ آلاف جنيه فى السنة .

وقد عين سليمان حافظ مستشارا لى ، بعد استقالة الوزارة ، وعدل

تشكيلها ، من جديد . . وفى التعديل الجديد عين البكباشى جمال عبدالناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية . . وعين البغدادى وزيرا للحربية . . وعين صلاح سالم وزيرا للإرشاد القومى ووزير الدولة لشئون السودان فى نفس الوقت .

وفور اعلان الجمهورية ذهبت الى الأمير عبدالمنعم الوصى على العرش ، فى منزله ، لإبلاغه الخبر . . لكنه اهتز عاطفيا أمام الخبر . . وبكى وهو يسمع الكلمة الأخيرة فى حكم اسرته .

وبعد أيام من اعلانى رئيسا للجمهورية أثيرث مشكلة خاصة . . هل انتقل إلى قصر عابدين أم أظل فى منزلى المتواضع فى حلمية الزيتون ؟

ورغم أن بيتى كان بسيطا ، ولا يليق بأن يكون بيتا لرئيس جمهورية ، ورغم بعده عن قلب العاصمة ، فقد فضلت البقاء فيه لكى أقنع الآخرين بالتقشف واعطاء المثل لهم .

وعندما قالوا لى :

ـ ان مرتب رئيس الجمهورية سيكون ستة آلاف جنيه سنويا .

أى ٥٠٠ جنيه فى الشهر . .

عرضت ان أتنازل عن نصف هذا المرتب طوال مدة الرئاسة « نظرا لما تتطلبه الدولة من أموال تستدعيها المشروعات الجديدة ، وأنواع الاصلاح المختلفة وما يتبع ذلك من اعباء مالية طائلة على عاتق الدولة » .

واضفت فى رسالة بعثت بها الى وزير المالية والاقتصاد :

« واقر انى لو كنت املك من الموارد الخاصة مايكفى لنفقاتى الفردية لتنازلت عن آخر مليم فى مرتبى ».

وفى ٢٠ يونيو صرح البكباشى جمال عبدالناصر الى رئيس تحرير وكالة الأنباء المصرية :

« ان الشعب كان يتوقع اعلان الجمهورية بمناسبة انقضاء عام على قيام الثورة ، لكننا أردنا أن نسرع بالاستجابة الى الإرادة الشعبية قبل ذلك حتى نضع حدا نهائيا لأى وساوس قد تدور بخلد البعض واكثر من هذا فلا ريب ان تصحيح الأوضاع بان يكون على رأس الدولة مصرى صميم من أبنائها مما يقوى مركزها فى نظر العالم الخارجى بأسره . »

وفى ٢٣ يونيو اقسمت اليمين أمام الوزراء ومجلس قيادة الثورة كرئيس للجمهورية ، وخرجت الى شرفة فى قصر عابدين ، لاشهد الاحتفال الذى اقيم بهذه المناسبة . . وفى هذا الاحتفال أمسك عبدالناصر بالميكرفون ، وطلب من الجماهير التى احتشدت امام القصر ان تردد وراءه يمين الولاء والمبايعة لى . . ثم ردد القسم والجماهير وراءه :

« اللهم إنا نشهدك . . وأنت السميع العليم . . أننا قد بايعنا . . اللواء أركان حرب . . محمد نجيب . . قائدا للثورة . . ورئيسا لجمهورية مصر . . كما أننا نقسم أن نحمى الجمهورية . . بكل ما نملك . . من قوة وعزم . . وأن نحرر الوطن بأرواحنا . . وأموالنا . . وأن يكون شعارنا دائما . . الاتحاد . . والنظام والعمل . . والله على ما نقول شهيد . . والله أكبر . . وتحيا الجمهورية . . والله أكبر والعزة لمصر . »

وفى هذا الاحتفال ألقى الشيخ محمد حسن شيخ الجامع الأزهر كلمة . . ثم تلاه البطريرك يوساب الثانى . . فنائب عن حاخام اليهود حاييم ناحوم . . وفى هذا الاحتفال ، قلت :

أيها المواطنون

فى مثل موقفى هذا خاطب أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، المؤمنين يقول : « أيها الناس ، قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى فى استقامة فأعينونى ، وإذا أسأت فقومونى » ، ولست أجد أفضل من هذه الكلمة التى انطلقت من قلب الصديق الطاهر الى لسانه الشريف أختم بها قولى وأرفعها دعاء الى رب السماوات وربى .

« نعم . . انى لأطلب اليكم ان تسهروا على استقامتى وان تجعلوها اساس حياتى وركن الزاوية فى حكمى وان تعينونى مادمت حريصا عليها وان تقومونى اذا تخليت عنها .

وفى الحقيقة . .

انا لم أفرط فى استقامتى . .

ولم أفرط فى استقامة الثورة . .

لكن . .

غيرى هو الذى فرط .

الفصل التاسع

الضباط يحكمون

- انصار الثورة كانوا أشد ضررا عليها من اعدائها .
- طردنا ملكا وجئنا بثلاثة عشر ملكا آخر .
- عبد الناصر طلب تأمين مستقبل كل منا بعشرة آلاف جنيه بنكنوت جديد .
- حكم الأغلبية فى مركز القيادة كان وراء عجزى عن مواجهة الديكتاتورية النامية .
- عبد الناصر عن النحاس : راجل طيب واللى يتعرض له ما يشفش الخير .
- اتهم عبد الناصر الاخوان بالتعاون مع الانجليز فقرر مجلس الثورة التخلص منهم .

كان للثورة أعداء
وكنا نحن أشدهم خطورة . .
كان كل ضابط من ضباط الثورة يريد أن يملك . . يملك مثل الملك . . ويحكم مثل رئيس الحكومة .
لذلك فهم كانوا يسمون الوزراء بالسعاة ... أو بالطراطير .. أو بالمحضرين . .
وكان زملائهم الضباط يقولون عنهم :
ـ طردنا ملكا وجئنا بثلاثة عشر ملكا آخر :
هذا حدث بعد أيام قليلة من الثورة . . هذا حدث منذ أكثر من ٣٠ سنة . .
وأنا اليوم أشعر أن الثورة ، تحولت بتصرفاتهم ، إلى عورة . . وأشعر أن ما كنت أنظر اليهم على أنهم أولادى ، أصبحوا بعد ذلك ، مثل زبانية جهنم . . ومن كنت أتصورهم ثوارا ، أصبحوا أشرارا . .
فيارب ، لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . .
ويارب لا تحاسبنا على ما نقوله ، وانما حاسبنا ان كنا لا نقول الحق .
لقد خرج الجيش من الثكنات . . وانتشر فى كل المصالح والوزارات المدنية . . فوقعت الكارثة التى لا نزال نعانى منها الى الآن فى مصر .
كان كل ضابط من ضباط القيادة يريد أن يكون قويا . . فأصبح لكل منهم « شلة » وكانت هذه الشلة غالبا من المنافقين الذين لم يلعبو دورا لا فى التحضير للثورة . . ولا فى القيام بها . . والمنافق دائما مثل العسل على قلب صاحب النفوذ . . . لذلك فهو يحبه . . ويقربه . . ويتخلص بسببه من المخلصين الحقيقين ، الذين راحوا وراء الشمس ، لأن اخلاصهم كان هما وحجرا ثقيلا على قلوب الضباط من أصحاب الجلالة .
تعددت الشلل والتنظيمات داخل الجيش ، وحول ضباط القيادة .
وبدأ الصراع بين هذه الشلل ، بعد أيام من نجاح الثورة ، وتحول من يومها الى قتال يومي شرس .
وظهرت مراكز القوى ، بعد شهور قليلة ، من قيام الثورة . . داخل مجلس القيادة وخارجه .
ومما لاشك فيه أن جمال عبدالناصر كان أكبر مركز قوة داخل المجلس ، وعندما

ساعده الآخرون فى التخلص منى ، استدار اليهم ، وتخلص منهم واحدا بعد الآخر .

وقوة عبدالناصر فى شخصيته . . وشخصيته من النوع الذى يتكيف ويتغير حسب الظروف . . فهو مرة مع الشيوعيين ومرة مع الإخوان ، وعشرات المرات ضد الجميع ومع نفسه .

لقد خلصتهم من فاروق . . وخلصهم سليمان حافظ من كبار السياسيين والأحزاب . . وخلصهم يوسف صديق من نفسه . . وخلصهم ضباط المدفعية من عبدالمنعم أمين . . وخلصهم ضباط الفرسان من خالد محيى الدين وتخلصوا منى ثم تخلص عبدالناصر من أغلبهم . . وبقى هو وعبدالحكيم عامر وأنور السادات وحسين الشافعى . . أما هو وعامر فقد تخلص منهما اليهود فى حرب يونيو ١٩٦٧ . . وتخلص حسين الشافعى من متاعبهم وبقى فى بيته . . ولم يبق من ضباط الثورة سوى أنور السادات الذى كان يعرف بدهاء الفلاح المصرى ، كيف يتجنب الأهواء والعواصف . . وكان يقول على كل شيء « صح » . . وكانت هذه الكلمة لا تعنى أنه موافق أو غير موافق ، دائما كانت تعنى أنه يفكر وينتظر الفرصة .

هذا هو أسرع ملخص لسيناريو الثورة . .

لكن . . لقطات هذا السيناريو التفصيلية أهم وأمتع بكثير من هذا التلخيص المبتور . .

ولأننى لا أريد التشهير بأحد . . ولأننى لا أحمل فى صدرى أى حقد أو كراهية أو بغض أو ضغينة لأحد منهم . . ولأننى أقول هذا الكلام وأنا على بعد سنتيمترات قليلة من لقاء ربى . . فاننى سأتعرض لبعض الوقائع والانحرافات التى نتجت عن استيلاء الضباط على السلطة ، دون أسماء ولا تواريخ محددة . . وقد لا يحب التاريخ عدم فضح الأشخاص ، لكن الانسانية بالتأكيد معى فى ذلك .

ان أول شيء فعله ضباط القيادة بعد أن استقرت الأمور هو أنهم غيروا سياراتهم الجيب ، وركبوا سيارات الصالون الفاخرة . . للتمييز بينهم وبين باقى الضباط الأحرار . .

وإمعانا فى التمييز بين ضباط القيادة وباقى الضباط الأحرار ، أوحى جمال عبدالناصر لمصطفى أمين بكتابة مقالة بعنوان : « سر الضباط التسعة » . . نشرت هذه المقالة فى جريدة الأخبار ، فى سبتمبر ١٩٥٢ فى الصفحة الأولى بجانب

صورة كبيرة لجمال عبدالناصر ومع بقية المقال فى الصفحة الثالثة نشرت صور باقى ضباط القيادة من أعضاء المجلس . . وفى هذه المقالة طلب جمال عبدالناصر من مصطفى أمين ان يوحى للقارىء بأنه بطل الثورة ورئيسها الذى يختفى فى الظل . . وأنا لم اهتم بهذا الكلام ، لكن الذى اهتم به باقى الضباط الأحرار الذين غضبوا من نشره ، خاصة وان هناك اتفاق قديم فيما بينهم بعدم نشر صورهم فى الجرائد . . ورفض الدعاية . . وانكار الذات .

وأثارت مقالة مصطفى أمين الفتنة بين صفوف الضباط الأحرار ، وحرضت بعض منهم على التمرد والانقلاب ، كما حدث مع ضباط المدفعية . .

وكان ضباط المدفعية قد بدأوا فى رصد انحرافات ضباط القيادة . .

وكانت فضائحهم فى الحقيقة كثيرة . .

فقد ترك أحدهم شقته المتواضعة واستولى على قصر من قصور الأمراء فى جاردن سيتى ، حتى يكون قريبا من احدى الأميرات التى كان قصرها قريبا من ذلك القصر الذى استولى عليه . . وكان لا يتورع أن يهجم على قصرها بعد منتصف الليل ، وهو فى حالة اغماء بسبب الخمر . .

وكثيرا ما طلبتنى الأميرة فى الفجر لانقاذها من ذلك الضابط ، الذى تصور ، على حد تعبيرها ، أنه ملك جديد .

وعندما حاولت أن أثنيه عما يفعل ، قال :

ـ اننا نسترد جزء مما دفعناه لسنوات طويلة .

وللأسف . . كان بعض زملائه ، يضحكون .

وترك ضابط آخر من ضباط القيادة الحبل على الغارب لزوجته ، التى كانت تعرف كل ما يدور فى مجلس القيادة ، وكانت تستغله لصالحها ولصالحه . . وكانت تتباهى بنفوذها ، وكانت تقول علنا : « الجيش فى يمينى والبوليس فى يسارى » وكان ايجار شقتها ٥٠ جنيها فى وقت كان هذا المبلغ يساوى ايجار بيتى فى عامين .

وفاحت رائحة ثالث ، كان يجرى وراء ناهد رشاد زوجة الطبيب بحرى يوسف رشاد ، طبيب الملك فاروق الخاص ، الذى كون الحرس الحديدى .

وانتشرت هذه الفضائح وغيرها لضباط القيادة . .

وصدمت هذه الفضائح باقى الضباط الأحرار الذين كانوا يتصفون بالمثالية . ولا يرون فى الحياة سوى اللونين الأبيض والأسود . . فحمل بعضهم هذه الفضائح وواجهوا بها ضباط القيادة . . لكنهم لم يسمعوهم . . أو سمعوهم وقرروا التخلص منهم . . وهو ما حدث فعلا مع ضباط المدفعية . . ومع غيرهم . .

وكان لابد حتى يتخلص ضباط القيادة من أصوات المعارضين التى تواجههم ، أن يلفقوا لهم التهم المناسبة للقضاء عليهم . . وتطور أسلوب التلفيق من تحضير شهود الزور ، كما فى قضية المدفعية ، الى العنف والقسوة فى معاملة المعارضين لهم ، داخل السجون ، حتى يعترفوا بجريمة لم يرتكبوها ، كما حدث مع حسنى الدمنهورى .

وفى كل الحالات كان ضباط القيادة هم الخصم والحكم ، كما قلت من قبل . .

وكلما كان أحد المعارضين يسقط أو يضيع ، أو يختفى وراء الشمس ، كلما كان ضباط القيادة يزدادون قوة وعنفا وديكتاتورية . . وإذا زادت قوتهم ، زادت مخالبهم . . واذا زاد عنفهم زادت أنيابهم . . إذا زادت ديكتاتوريتهم زاد انحرافهم . . وهكذا الى أن أصبحوا أباطرة وجلادين .

وذات صباح لا أنساه وقعت مفاجأة مذهلة لا أنساها حتى اليوم . .

كنا أنا وجمال عبدالناصر نركب سيارة ، ونتجه الى نادى الضباط فى الزمالك ، لنهنىء الضباط بعيد الأضحى . . فهمس لى عبدالناصر ، وقال :

ـ أنى أود أن أعرض عليك أمراً ناقشته مع بعض الزملاء .

وانتبهت له . .

وأعطيته كل حواسى . .

فقال :

ـ أعتقد أن ظروفنا الان تفرض علينا أن ننظر الى مستقبلنا ومستقبل الثورة ونحن محاطون بالعواصف والأعداء ولا نعرف مصيرنا معها .

قلت له :

ـ ماذا تقصد بالضبط ؟

قال :

ـ لقد اتخذنا قرارا أرجو أن توافقنا عليه ، وهو أن يأخذ كل عضو من أعضاء

مجلس القيادة مبلغ عشرة آلاف جنيه ، وتأخذ أنت أربعة عشر آلفا فيكون المجموع ١٣٤ ألف جنيه . . وقد طلبت من زكريا محيى الدين أن يحجزهم لنا من النقود الجديدة .

أحسست ساعتها بالغيظ . . وغلى الدم فى عروقى . . وارتفع ضغطه فى رأسى . .

ولم أحتمل هذا الحديث ، فصرخت فيه :

ـ أسكت . . أسكت :

وأخذت أعنفه بشدة . . واهاجمه على استباحة أموال الشعب لنا . . ورفضت أن يخلط بين أموال الناس وجيوبنا الخاصة وكدت أن اطلب منه أن ينزل من السيارة . .

فاذا به يضحك ، ضحكة عصبية ، ويرد على وهو مرتبك :

ـ أنا كنت متأكد أنك حترد بالشكل ده .

وبعد أن تماسك وملك نفسه ، قال :

ـ صدقنى أنا كنت بامتحنك :

ولم أصدق بالطبع . .

ولكنى بدأت أعيد النظر فى تصرفاته ، وفى تصرفات زملائه . .

وما حدث من عبدالناصر حدث بصورة أو أخرى من باقى الزملاء فى المجلس .

ففى مرة ذهبت لزيارة أحد أعضاء مجلس القيادة فى منزله ، فوجدت عنده فنانا يصنع له تمثالا ، يكلفه ٢٠٠ جنيه ، وكنت أعرف أن حالته المالية لا تسمح بذلك . . فلفت نظره لما يفعله . . وخرجت غاضباً من بيته الذى أقسمت أن لا أدخله مرة أخرى .

وفى مرة أخرى عرفت أن ضابطا خسر على مائدة القمار مئات الجنيهات فى ليلة واحدة ، وكان هذا الحادث وراء قرارى بتحريم الميسر فى المحلات العامة والخاصة . . ووراء قرارى بتجريم مضاربات البورصة على الموظفين العموميين .

ولاحظت ، مرة ثالثة ، ونحن نتناول طعام العشاء فى مجلس القيادة ، أن بعض أدوات المائدة كانت من الفضة ، ومنقوش عليها عبارة « القصور الملكية » فرفضت أن آكل ، وأمرت باعادة هذه الأدوات الى مكانها الأصلى ، وقررت ابعاد ضابط الشئون الادارية الذى ارتكب هذه الجريمة فى حقنا .

وعلى الفور ، سارعت برفض قبول الهدايا الشخصية ، وأمرت بتحويلها الى المتحف الحربى ، او الى رئاسه الجمهورية .
أردت أن أعطى درسا للآخرين . .
لكن . .
لا أحد منهم كان فى وضع يسمح له أن يرى أويسمع أو يفهم . .
كانوا لايرون أمامهم إلا الحكم . . والنفوذ . . والسيطرة . . واللعب بأقدار البلد ومصائر أهلها . . ومع ذلك لم تكن لهم أى خبرة فى ذلك . . ولم يحاولوا أن يتعلموا . . أو جربوا فى الشعب . . أو تصوروا أن أساليبهم فى القيادة هى نظريات جديدة فى تسيير البلد .

وفى يوم عرفت أن مجلس القيادة اجتمع ، اجتماعا عاجلا ، وسريعا ، حتى أنهم من شدة الأهمية ، ومن ضرورة السرعة ، لم يستدعونى وكان الموضوع الذى سيناقشونه هو : تحديد سعر الطماطم فى السوق . .
وكان بطل هذا الاجتماع صلاح سالم ، الذى اعتبر أن تسعيرة الطماطم فى ذلك الوقت أهم من خروج الانجليز . . أو على الأقل هى الخطوة الأولى لتحرير مصر . .
وانتهى الاجتماع بتحديد سعر الطماطم . . فأرسل صلاح سالم التسعيرة ومعها توجيهات حاسمة الى بعض الضباط لمراقبة تنفيذها فى الأسواق . . بدعوى حماية الجمهور من جشع التجار . . تجار الخضار الذين يفرشون الأرض ، ويجرون عرباتهم الخشبية بأيديهم . . ودون أن يخبروا أجهزة التموين . . وغضب وزير التموين فريد أنطون من هذا التدخل الذى لا معنى له ، ولم يجد مفرا من أن يقدم استقالته ويترك الضباط يرصدون حركة الطماطم والبطاطس والكوسة بأسلحتهم .
وبعد أن استقال وزير التموين ، استقال وزير الخارجية أيضا . .
كان وزير الخارجية فى ذلك الوقت هو فراج طايع . .
وكان السبب تدخل جمال عبدالناصر ، هذه المرة ، فى عمله . .
أراد جمال عبدالناصر أن يعين عزيز المصرى سفيرا لمصر ، وكان عزيز المصرى فوق السبعين من عمره ، أى فى عمر أكبر من الحد الأقصى لسن تعيين السفراء ،

فطلب من وزير الخارجية رفع سن المعاش للسفراء الى ٧٥ سنة ، حتى يجد فرصة لعزيز المصرى . لكن الوزير رفض . . واستقال .
وكاد أن يستقيل أيضا وزير المالية ، د . عبدالجليل العمرى .
وكان السبب هذه المرة جمال سالم .

كان د . العمرى مريضا . . وأراد جمال سالم أن يتدخل فى شئون بورصة القطن بحجة غياب الوزير . . فرفضت . . لكنه أصر وتحت ضغط زملائه ، اتصلت بالدكتور العمرى لابلاغة الخبر فى ثنايا مكالمة تليفونية ، كانت أصلا للاستفسار عن صحته . .
سألته :
ـ ما رأيك فى اتخاذ قرار بشأن أسعار البورصة . . وما رأيك فى . .
وقبل أن أكمل كلامى ، رد الرجل فى حزم :
ـ انى اقدم استقالتى فورا .
فوضعت السماعة على أذن جمال سالم ليسمع بنفسه . . وبعدها تقرر ارجاء الموضوع حتى يشفى الوزير من وعكته الصحية .
ولم يتوقف الانحراف عند ضباط القيادة ، وانما امتد لباقى الضباط من مساعديهم . .
ولم يتوقف تدخل الضباط فى الحياة المدنية عند مستوى القمة وإنما امتد الى المستويات الاخرى . .
فقد سرق بعض الضباط فلوس معونة الشتاء . .
وسرقوا هدايا وبضائع قطارات الرحمة وباعوها علنا . .
وسرقوا فلوس التبرعات الخاصة بالشئون الاجتماعية . .
وسرقوا تحف ومجوهرت وبعض أثاث القصور الملكية . .
وحاولت المستحيل لاعادة الضباط الى ثكناتهم . . وأصدرت قرارات مشددة بذلك . . وتكلمت مع الضباط اثناء زياراتى لهم فى الوحدات ، والتى بلغت فى العام الأول للحركة ٨٦٩ زيارة ، وأفهمتهم خطورة تسربهم للحياة المدنية . .
لكن . .
كل ذلك لم يأت بنتيجة . .

وانتهى الأمل فى ذلك تماما بعد اعلان هيئة التحرير ، التى تولاها ابراهيم الطحاوى واحمد طعيمة ، والتى كانت تجربة تنظيمية للحركة فى صفوف الجماهير ، الأمر الذى فرض عليها الاستعانة بالضباط لاقناع الناس من الأسكندرية الى أسوان .

وبعد اعتقال ضباط المدفعية كان أعضاء مجلس القيادة أشد اصرارا على الظهور بأنفسهم على خشبة المسرح بعد أن كانوا يؤدون أدوارهم خلف الكواليس .

وبدأ أعضاء المجلس يتحولون الى مدنيين يباشرون مسئولياتهم السياسية بعيدا عن صفوف الجيش . .

وبدأنا نعانى من ازدواج السلطات . .

وبدأت أشعر بالضعف أمام الأغلبية فى المجلس . .

وبدأت أشعر أننى لا أمارس سلطاتى كما يجب . .

لقد كنا قد اتفقنا قبل الثورة على أن تصدر القرارات بالأغلبية . . وهو ما نفذ بعد الثورة . . لكن . . كان معنى ذلك أن المجلس هو الذى يحكم فعلا ، بينما أنا مسئول عن هذه القرارات حسب نصوص الدستور المؤقتة . . ورفضت هذا الوضع . . وطالبت إما بممارسة سلطات كاملة وإما أستقيل . . وكانت هذه المطالبة بداية الخلافات الحادة بينى وبين باقى أعضاء المجلس . .

ويبدو أنهم أحسوا بأن ذلك سيسحب البساط من تحت أقدامهم ، خاصة وأن شعبيتى فى مصر والسودان كانت قد وصلت للذروة . . فبدأ الشك يقف بينى وبينهم . . ثم . . وقعت مفاجأة أخرى . .

لاحظت أنهم يعقدون جلسات المجلس بدونى . .

ولاحظت أننى اذا حضرت بالصدفة وهم يجتمعون ، توقفوا عن الكلام ، وغيروا الحديث ، واتجهوا الى متسائلين عن ما يجب مناقشاته . .

ولاحظت أنهم اصبحوا يجتمعون فى أماكن أخرى ، بعيدة عنى ، خارج مقر المجلس . .

ويبدو أننى كنت بريئا أكثر من اللازم . . فلم اتصور أنهم يحاولون ابعادى أو عزلى ، وإنما تصورت أن ما يفعلونه سببه فارق السن الذى بينى وبينهم والذى تصورت أنه بدأ يلعب دوره . .

لم أتصور أن هناك بينى وبينهم تناقضات أو خلافات ، أو أشياء من هذا القبيل . . وكما قلت قبل ذلك :

« دفعنى هذا الاعتقاد الى الحذر . . بل الحذر الشديد . . مما دفعنى الى ارتكاب خطأ ... بل خطأ جسيم .

بلغنى يوما من مصدر خارج الجيش أن خالد محيى الدين وثروت عكاشة غير راضيين عن تصرفات جمال عبدالناصر الذى بدأ ينفرد بنفوذه ويشكل قوة خاصة داخل المجلس . . وأنهما يعانيان من تأثيره على بعض الأعضاء وإطلاقه جمال سالم مثلا للهجوم على كل من يعترضه بينما هو صامت لا يظهر انفعالا .

وقال المصدر :

ـ ان خالد وثروت مستعدان لتأييدى فى مواقفى داخل المجلس وخارجه .

وأحسست وقتها أن فخا ينصب لى وأنى على وشك الوقوع فيه . . إنى منذ اللحظة الأولى لم اطلب تأييد واحد منهم ولم أحاول تشكيل شلة من بينهم ولم أجابهم الا بالصراحة وبكل ما فى قلبى . . وخشيت أن أتورط فى المواقف فأزيد من الاثارة والتمزق .

وحاولت أن أكشف الحقيقة عن طريق تفجير الموقف . . فرويت القصة كاملة فى احدى اجتماعات المجلس . . وكانت صدمتى شديدة عندما تبينت ان ذلك لم يكن اتفاقا مدبرا بينهم ، وأن صراحتى قد وضعت خالد وثروت فى موقف حرج . .

ولكن عذرى فى ذلك كان شعورى . . بل يقينى من أن جمال عبدالناصر كان مواصلا عمله التنظيمى داخل الجيش بعناصر مرتبطة به ، بعضها من الضباط الأحرار والبعض من العناصر الجديدة ، وكذلك ما أعلمه علم اليقين عن العلاقة الوثيقة التى تربط جمال عبدالناصر بخالد محيى الدين . .

كان عبدالناصر بالفعل قد طلب تحديد خلايا الضباط الأحرار فى الجيش ، بعد الثورة ، وأن تقوم هذه الخلايا بكتابة التقارير عن الحالة داخل الوحدات ، كما أن من المهام التى كلفها بها ، الدعوة لأى قرار يتخذ فى المجلس ، كما حدث مثلا بعد إقالة رشاد مهنا . . لكن . . هذه الخلايا لم يكتب لعملها النجاح بعد أن فقد أعضائها الايمان برجال القيادة ، بسبب الفضائح التى اشيعت عنهم . . والانحرافات التى نسبت لهم .

وكنت أرفض هذا الأسلوب ، وحذرت جمال عبدالناصر منه بصراحة ،

وطلبت منه حل كل التنظيمات السرية التى كونها داخل الجيش ،. والأكتفاء بالتنظيمات العلنية خارجه .

كنت أرى أن وجود التنظيمات السرية داخل الجيش سيؤدى الى التصادم والاشتباك فيما بينها وربما الى الانقلابات أيضاً . . وقد حدث ما توقعته . . ووقعت حركة المدفعية . . وبعدها جاء تمرد الفرسان .

وعندما رفض عبدالناصر وجهة نظرى ، مستندا فى ذلك . الى أن ما يفعله يمثل قرار الأغلبية فى المجلس ، أجلت بحث هذا الموضوع ، حتى ننتهى من علاج مشكلة أخرى ، هى مشكلة الازدواجية بين الحكومة والمجلس .

ناقشت هذه المشكلة مع د . السنهورى وسليمان حافظ ، واتفقنا على تشكيل لجنة اتصال دائمة بين الحكومة والمجلس ، تقوم بالتحكيم بينها اذا ما وقع الخلاف . وشكلت اللجنة برئاستى ، وعضوية سليمان حافظ ، ود . عبد الجليل العمرى ، وأحمد حسنى ، وفؤاد جلال ، والشيخ أحمد حسن الباقورى ، عن الوزارة وجمال عبدالناصر ، وجمال سالم وعبدالحكيم عامر ، وعبداللطيف البغدادى ، عن المجلس . . وكانت هذه اللجنة تجتمع فى ثكنات قصر النيل .

وكانت اجتماعاتها سرية .

وظلت لجنة التحكيم قائمة حتى أعلن إسقاط دستور ١٩٢٣ ، فاستعيض عنها بمؤتمر مشترك من كل الوزارة وكل المجلس ، يجتمع كل أسبوعين ، علنا . فى اللجنة كان الوزراء والضباط يجلسون بالتبادل . . وزير ثم ضابط . . وهكذا . . وفى المؤتمر كان الوزراء يجلسون فى جانب . . وكان الضباط يجلسون أمامهم على الجانب الآخر .

على ان كل هذه المحاولات لم تنجح فى سد ثغرة الازدواجية بين المدنيين والعسكريين ، ولا بين الوزارة ومجلس القيادة . . حتى أن سليمان حافظ فى أحد أجتماعات المؤتمر المشترك ، فى مايو ١٩٥٣ ، أعلن ذلك بصراحة ، وطلب من الوزراء المدنيين أن يستقيلوا فوراً ، ليعطى الفرصة لمجلس القيادة فى اختيار الحكومة المناسبة له .

كان سليمان حافظ عسكريا أكثر من العسكريين . .

وكان هذا التصرف منه تأكيدا على أن الأولى بالسلطة هم الضباط ، وأن عليهم أن يتصرفوا كما يحلو لهم .

وعارضت الأمر . .
ولم أقبل استقالة الوزراء المدنيين . .
وتركت الموقف على حاله . .

وكما عرفت بعد ذلك ، كانت « حركة » سليمان حافظ ، المباغتة ، تمهيدا لاعلاني رئيسا للجمهورية ولابعادي عن الجيش ، ووضع سلطة التصرف فيه الى عبدالحكيم عامر ، الذى رقى ، رغم معارضتى ، من صاغ الى لواء ، وأصبح القائد العام للقوات المسلحة .

ولاحظت ، بعد ذلك ، أيضا ، أن الرقة والمجاملة والمعاملة الحسنة أصبحت ، طابع العلاقة بينى وبين أعضاء المجلس . . ووصل الأمر الى حد أن جمال عبدالناصر ، وقف يخطب فى ابناء قريته بنى مر ، وكنا فى زيارة لها ، فقال : « باسم ابناء هذا الأقليم أرحب بك من كل قلبى وأعلن باسم الفلاحين أننا آمنا بك ، فقد حررتنا من الفزع والخوف وآمنا بك مصلحا لمصر ونذيرا لأعدائها . . سيدى القائد . . باسم الفلاحين أقول سر ونحن معك جنودك فقد حفظنا أول درس لقنتنا اياه وهو أن تحرير مصر وخروج قوات الاحتلال عن بلادنا أمر واجب وأصبحت أملا فى أن تحقق لمصر حريتها على يديك . إن مصر كلها تناصرك للقضاء على قوات الاحتلال .

لكن هذه النغمة الرومانسية سرعان ما تلاشت ، بعد أن أصبحت رئيسا للجمهورية ، وعادت الخلافات تسعى من جديد بينى وبين باقى أعضاء المجلس . .

وكان أول خلاف بيننا فى تلك الفترة حول محكمة الثورة . . لأننا سنكون ، كما قلت ، خصما وحكما فى نفس الوقت . .

وتشكلت المحكمة فى أوائل سبتمبر ١٩٥٣ ، من عبداللطيف البغدادى رئيسا ، وحسن ابراهيم وأنور السادات أعضاء . . وخولت هذه المحكمة سلطات محاكمة قضايا الخيانة العظمى وبعض قضايا أمن الدولة . . وكان من حقها ان تكون جلساتها علنية أو سرية . . أما احكامها فلا تكون نهائية الا اذا صدق عليها مجلس الثورة بأغلبية الأصوات .

ولم تكن هذه المحكمة سوى أسوأ دعاية للثورة . . فقد أشاعت الكراهية لنا

بعد إعادة اعتقال بعض الزعماء والسياسيين الذين سبق الافراج عنهم . . حتى انني نجحت فى الغائها بعد ذلك . .

لكن بين ٢٦ سبتمبر ١٩٥٣ و ٣٠ يونيو ١٩٥٤ ، نظرت المحكمة ٣١ قضية ، وحكمت على ٤ أشخاص بالخيانة العظمى والاعدام ، ونفذ فيهم الحكم فعلا . . وكان خامسهم ابراهيم عبدالهادى رئيس وزراء مصر الأسبق ، الذى حكم عليه بالاعدام أيضا ، لكننى خففت الحكم ، عندما طلبوا التصديق عليه ، الى الأشغال الشاقة . . وساعتها قلت لأعضاء المجلس :

ـ إنى أفضل أن يلتف حبل المشنقة حول عنقى دون أن أصدق على هذا الحكم .

وسافرت الى الاسكندرية وأنا أنوى عدم العودة الى الحكم ، احتجاجا على هذا الأنزلاق الخطير . . وبقيت فى ثكنات مصطفى كامل هناك . . وحتى لاتثار بلبلة بين الناس ، أعلنت أن اعتكافى فى الاسكندرية هو اعتكاف صحى . . كان ذلك يوم الأحد ٤ اكتوبر ١٩٥٣ ، وبعد يومين صدرت نشرة طبية من ديوان كبير الأطباء ، جاء فيها :

« شعر السيد رئيس الجمهورية بعد ظهر الأحد ٤ أكتوبر بانحراف فى صحته مما استدعى توقيع الكشف الطبى عليه ، ووجد أن سيادته يشكو من اجهاد عام يستلزم الراحة التامة بالفراش لبضعة أيام ، وصحة سيادته الآن فى تحسن مطرد والحمد لله » .

وأحس أعضاء المجلس بالذعر والارتباك من تصرفى . .

لكنهم انبسطوا من حكاية الاعتكاف الصحى هذه . .

ففى نفس اليوم خرج صلاح سالم ، الذى كان وزيرا للارشاد ، بعد انتهاء المؤتمر المشترك ، ليعلن :

ـ أن الرئيس لواء أ . ح محمد نجيب مازال مريضا فى الأسكندرية وملازما الفراش باستراحة ثكنات مصطفى باشا وأنه يشكو من مرض بسيط ، وقد نصحه الأطباء بعدم مغادرة الفراش حتى يوم الجمعة القادم .

وانزعج جمال عبدالناصر من موقفى ، فسافر لى الى الاسكندرية وكان معه عبدالحكيم عامر ، وزكريا محيى الدين ، وأحمد أنور قائد البوليس الحربى ، وأبلغونى ان المجلس وافق على رأيى ، وخفف حكم الاعدام على ابراهيم عبدالهادى الى الأشغال الشاقة المؤبدة . .

وفى ٨ أكتوبر ، بعد انتهاء الأزمة ، صدرت نشرة طبية اخرى ، جاء فيها : أن

صحتى قد تحسنت تحسنا ملموسا ، تمكننى من مقابلة الزوار والسفراء فى مكتبى بالقاهرة .

لكن . . ما كادت هذه الازمة تنتهى حتى ظهرت أزمة اخرى . .

قدم جمال عبدالناصر لمجلس الثورة ، بصفته وزيرا للداخلية ، كشفا بأسماء بعض الزعماء السياسيين ، الذين رأى أنهم خطر على النظام ، ورأى ان من الضرورى اعتقالهم . . وكان من بينهم مصطفى النحاس ، الذى طلب تحديد إقامته . . ورفضت . . ووافقنى المجلس على رفضى . . وشطب اسمه من الكشف . . ووقعت الكشف . . لكنى فوجئت بأنهم أعادوه للكشف بعد توقيعى . . واعتبرت ذلك تزويرا لا يمكن السكوت عليه . . وطلبت شطب النحاس من جديد . . فقال جمال عبدالناصر :

ـ ان شطب أسم النحاس بعد نشر الكشف فى الصحف يزيد الموقف بلبلة

وتعجبت من تصرف عبدالناصر . .

وتعجبت من موقفه من النحاس ، الذى سبق ان قال لى عنه :

ـ أنه رجل طيب واللى يتعرض له ما يشوفش خير .

ومرة اخرى اعتكفت فى بيتى . .

كان ذلك فى ٢١ أكتوبر ، وصدرت نشرة طبية آخرى تقول :

أننى أعتكفت فى بيتى « بسبب انحراف مفاجىء » الم بصحتى فى الصباح ، لم يمكننى من « الذهاب الى القصر الجمهورى بعابدين » وتأجلت جميع مقابلاتى الرسمية وكان منها مقابلة سفير العراق ، ووزير استراليا المفوض .

إلى هذا الحد كنت ارفض قرارات المجلس ، سواء منه مباشرة ، أو التى يصدرها من خلال محكمة الثورة .

فقد شملت هذه القرارات الكثير من فئات الشعب . . وزادت من حجم أعدائنا . . وضاعفت من كراهية الناس لنا خاصة قرارات محكمة الثورة . . التى حكمت بمصادرة ٣٢٢ فدانا من أملاك زينب الوكيل ، حرم النحاس باشا . . وحكمت على الدكتور أحمد النقيب ، وعلى سائق الملك فاروق ، وعلى كامل القاديش محافظ القاهرة الأسبق ، بالسجن لمدة ١٥ عاما . . وحكمت على أربعة من الصحافيين ، منهم أبوالخير نجيب صاحب جريدة « الجمهور المصرى » ، ومحمود أبوالفتح صاحب جريدة « المصرى » بالمؤبد ، وبمصادرة صحفهم ، بتهمة افساد الحياة السياسية .

ويضاف الى هذه القرارات ، قرارات اخرى صدرت ، رغم أننى رفضت التوقيع عليها . . منها القرار الجمهورى ، الذى لم أوقعه بسحب الجنسية المصرية من ستة مصريين من الاخوان المسلمين منهم عبدالحكيم عابدين ، والذى صدر من ورائي ، ونشر باسمى فى الوقائع المصرية .

وزاد الصدام بينى وبين أعضاء المجلس ، عندما اكتشفت أنهم ينقلون الضباط دون مشورتى . . وعندما قرروا تعيين جمال سالم وزيرا للمواصلات ، وزكريا محيى الدين وزيرا للداخلية على أن يتفرغ جمال عبدالناصر لنيابة رئاسة الوزراء . . وكمال الدين حسين وزيرا للتربية والتعليم . . أو وزيرا للشئون الاجتماعية ، بعد أن اعترضت .

ووصل العبث والاستخفاف الى حد أن زكريا محيى الدين رفض اداء اليمين الدستورية أمامى ، وكذلك جمال سالم . . والى حد ان تنازل المجلس عن صلاحياته وسلطاته الى جمال عبدالناصر ، فى حالة عدم انعقاده . . وهذا ما دفع عبدالناصر للتنازل عن منصب وزير الداخلية لزكريا محيى الدين ، ولينفرد ، أيضا، بعمله نائبا لرئيس الوزاراء .

وانتقل الاحساس بالسخط على عبدالناصر ومجموعته من خارج الجيش الى داخله أيضا . . فقد بدأوا حركة كبيرة من التنقلات والوقف والترقيات الاستثنائية ، جعلت أغلبية الشرفاء فى الجيش يحتجون على تصرفاتهم . .

ووصل الأمر بهم الى حد أن ضرب صلاح سالم بحذائه ضابط مخابرات شاب اسمه محمد وصفى ، ابن الأمير الاى وصفى مدير سلاح الحدود الاسبق ، أثناء التحقيق معه ، حتى نزف الدم منه ، ومات بعد ذلك .

ثم . . قرر عبدالناصر ابعاد من يتصور أنهم أنصارى ، أو من الممكن أن يقفوا معى فى أى صدام يقع بينى وبينهم ، فأمر بنقل عدد كبير منهم الى الصعيد ، وحدث نفس الشيء مع ضباط البوليس ، وتولى هذه المهمة نيابة عنه ضابط مصلحة السجون السابق صلاح دسوقى ، الذى كان مقربا من عبدالناصر فى ذلك الوقت ، وعينه أركان حرب الوزارة وأعطاه صلاحيات الوزير لكى لايترك زكريا محيى الدين ينفرد بها .

والمعروف ان صلاح الدسوقى ظل تابعا لعبدالناصر ١٥ سنة ، أصبح خلالها محافظا للقاهرة ثم سفيرا ، حتى تخلص منه ، فترك مصر ورفض العودة اليها .

وذات يوم طلب عبدالحكيم عامر ، بصفته قائد عام القوات المسلحة ، من قائد حرسى اليوزباشى محمد أحمد رياض ان يسافر للعلاج . فى أمريكا لأنه مريض . .

ورفض رياض السفر وتعجب من القرار ، لأنه ليس مريضا ولم يشك حتى من الأنفلونزا . .

كانوا يريدون أبعاده عنى لأنه كان من أشد المخلصين لى . .

ورفضت أنا أيضا أن يسافر . .

لكن . . . عندما علمت أنهم يدبرون لاغتياله فى مصر طلبت منه السفر فورا الى أمريكا .

كان عبدالناصر وشلته يسعون علنا للانفراد بالسلطة . . كانوا يفعلون كل شىء لفرش الأرض وتمهيدها لذلك . .

بعد أن تخلصوا من الضباط الأحرار الذين لم يتبعوهم ، سعوا للتخلص من الضباط الآخرين الذين يتبعونى . . وبعد أن كمموا أفواه المدنيين ، سعوا الى تشريد العسكريين . . وبعد أن كانوا يقربون الشرفاء اصبحوا يقربون المنافقين وماسحى الجوخ . .

ورغم كل ذلك ، لم أحاول أن أفعل مثلهم . . ولم أحاول أن أواجههم بنفس اساليبهم القذرة . . فلم تكن أخلاقى لتسمح بذلك كما أننى كنت أسعى جاهدا أن أغطى صورتهم المشوهة أمام الناس ، حتى لايفقدوا ما تبقى من ايمانهم بالثورة . . فهل كان هذا خطأى الكبير؟

الله أعلم !

هل أنا المسئول ، عن ما حدث لمصر على أيديهم بعد ذلك ؟

أظن أنى مسئولا ؟

لقد تصورت ببراءة أن ما يفعلونه لابد وأن يكشفهم ويفضحهم ويعزلهم داخل الجيش وأمام الشعب . .

وكان هذا هو نفسه تصور خالد محيى الدين . .

وأنا لم أعرف عنه ذلك إلا بعد أن اقتربت منه فى رحلة الى النوبة ، حيث كان الوحيد الذى قبل أن يسافر معى هذه الرحلة :

فعندما أفرغت له ما فى صدرى ، وعبرت له عن معاناتى من باقى أعضاء مجلس الثورة ، وعن الأحاسيس المظلمة التى أشعر بها والتى أرى من خلالها أن تصرفاتهم المشينة ستؤدى بالبلد الى كارثة على كافة المستويات ، السياسية والاقتصادية وأيضاً الأخلاقية ، فوجئت به يشاركنى فى الرأى ، ويؤيدنى فيما أقوله ، ويضيف لى من عنده ما كنت لا اعرفه .

وكما قلت من قبل :

« فتح خالد محيى الدين صدره لى وتبادلنا الآراء ، واتفقنا على أنه لا مفر من عودة الجيش الى الثكنات لتستقيم الأمور فى البلاد بعد أن وصلت الى حافة الهاوية .

« وروى لى خالد محيى الدين قصة عزل البكباشى ثروت عكاشة من رئاسه تحرير مجلة « التحرير » وكان قد تولاها بعد اليوزباشى أحمد حمروش الذى عزل أيضاً بدعوى أنه يسارى ، ثم أعتقل بعد ذلك مع رشاد مهنا ومجموعة المدفعية وأمضى فى المعتقل ما يقرب من شهرين ثم خرج دون اتهام . . ولكنها كانت صورة من صور ضرب اليسار واليمين لارهاب الضباط مما زاد من عزلة ضباط القيادة .

وكما قلت من قبل كان ثروت عكاشة قد كتب مقالا فى مجلة التحرير عن الخطة التى نفذت فى ٢٣ يوليو بمناسبة مرور العام الأول على الثورة ذكر فيه ما يعرفه عن الخطة وتنفيذها ولم يذكر شيئا عن صلاح سالم الذى كان وزيرا للارشاد فى ذلك الوقت ، وأعتبر صلاح سالم ذلك تعريضا به وأصر على أخراج ثروت عكاشة من المجلة ، وهو الذى قام بدور بارز مع زملائه ضباط الفرسان فى الحركة .

البعض منهم كان فى العريش . . صلاح سالم وجمال سالم . . وضابطا الطيران عبداللطيف البغدادى وحسن إبراهيم لم يذهبا الى القاعدة الجوية الا فى الصباح حيث يمكن استخدام الطائرات . . وجمال عبدالناصر وزكريا محيى الدين وكمال الدين حسين كانوا مدرسين فى كلية أركان الحرب . . والذين شاركوا من أعضاء المجلس فى تحريك وقيادة القوات فعلا هم يوسف صديق وحسين الشافعى وخالد محيى الدين وعبدالمنعم أمين .

« ومع ذلك انضم زكريا محيى الدين الذى كلف بخطة العملية الى قوات الفرسان والكتيبة ١٣ مشاة وانضم كمال الدين حسين الى قوات المدفعية . . أما جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر فكانا ليلة الانقلاب مرتدين الملابس المدنية ، وقد اعتقلتهما قوات يوسف صديق فى شارع السلطان حسين بمصر الجديدة عندما

كانا يحومان حول القوة للتعرف على هويتها وهل كانت موالية أو معادية ، الى أن أفرج عنهما يوسف صديق .
وكما قلت من قبل :

كان خالد محيى الدين متعاطفاً مع ثروت عكاشة الذى خرج معه ليلة ٢٣ يوليو وكان فى غضب شديد من أن كتابة حقيقية تاريخية لا تسيء الى أحد تكون نتيجتها إبعاد الكاتب عن موقعه . . ولكنه كان شديد الثقة بالمستقبل وبضباط سلاح الفرسان .

فى هذه المرحلة اقترب خالد محي الدين من قلبى كثيرا واتفقنا على شيء واحد هو ضرورة استقرار حياة ديمقراطية فى مصر ، مع عودة الجيش الى الثكنات . . ولم نتفق على اقامة تنظيم خاص ، كما كان يفعل جمال عبدالناصر ، وتركنا الأمور تمضى فى طبيعتها يملأنا التفاؤل من تأييد الجماهير الواضح للديمقراطية . . ومن نقمة الضباط المتزايدة على تصرفات أعضاء مجلس القيادة والقلة المقربة منهم .
وعدت الى القاهرة أكثر تفاؤلا مما سافرت . .

وسحبت من رأسي الأفكار الخاصة بتقديم استقالتى ، والتى كثيرا ما راودتنى خلال الشهور الأخيرة قبل رحلة النوبة ، واعتبرت الاستقالة هى اعطاء الفرصة كاملة لديكتاتورية عبدالناصر لكى تسود وتسيطر وتطيح بما تبقى من أمل ديمقراطى .

واعتبرت الانسحاب من موقعى اجهاز على التيار الرافض لتصرفات القيادة ، والذى كان يتزايد يوما بعد آخر ، فى الشارع ، وفى الجامعات ، وفى التنظيمات النقابية والعمالية ، ومن خلال جماعة الإخوان المسلمين . . القوة المنظمة الوحيدة التى بقيت على الساحة بعد حل الأحزاب .
ويبدو أن المجلس أحس بخطورة الإخوان فى ذلك الوقت فقرر التخلص منهم وحل جماعتهم .

واعترضت . .
اعترضت لأن عبدالناصر سبق أن أستثنى الاخوان عند حل الاحزاب واعتبرهم جماعة لا حزبا ، وذهب مع حسن الهضيبى يومها الى سليمان حافظ ليقدما مذكرة له تعفيهم من تطبيق قانون الاحزاب .

قلت لعبدالناصر :

ـ لنحافظ على كلمتنا . . لنحافظ على مبادئنا !

لكنه قال :

ـ انهم يتآمرون علينا !

وفى ١٥ يناير ١٩٥٤ ، بعد عام من حل الأحزاب ، تقريبا ، صدر قرار حل الاخوان المسلمين بأغلبية الأصوات ، وفى نفس اليوم اعتقل ٤٥٠ عضوا من الإخوان .

وصدر بيان طويل من المجلس يبرر ذلك القرار .

جاء فيه :

وفى شهر مايو سنه ١٩٥٣ ثبت لرجال الثورة أن هناك اتصالا بين بعض الإخوان المحيطين بالمرشد وبين الإنجليز عن طريق الدكتور محمد سالم الموظف فى شركة النقل والهندسة وقد عرف البكباشى جمال عبدالناصر من حديثه مع الاستاذ حسن العشماوى فى هذا الخصوص أنه حدث اتصال فعلا بين الاستاذ منير الدالة والاستاذ صالح أبو رقيق ممثلين عن الاخوان وبين المستر إيفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية وأن هذا الحديث سيعرض حينما يتقابل البكباشى جمال والمرشد . وعندما التقى البكباشى جمال مع المرشد أظهر له استياء من اتصال الإخوان مع الانجليز والتحدث معهم فى القضية الوطنية الأمر الذى يدعو الى التضارب فى القول وإظهار البلاد بمظهر الانقسام .

وجاء فى البيان :

« وفى أوائل يونيو سنة ١٩٥٣ ثبت لإدارة المخابرات أن خطة الإخوان قد تحولت لبث نشاطها داخل قوات الجيش والبوليس وكانت خطتهم فى الجيش تنقسم الى قسمين : القسم الأول ينحصر فى عمل تنظيم سرى تابع للاخوان بين ضباط الجيش ودعوا فيه عددا من الضباط الأحرار وهم لا يعلمون أنهم من الضباط الأحرار ، فسايروهم وساروا معهم فى خططهم وكانوا يجتمعون بهم اجتماعات اسبوعية وكانوا يتحدثون فى هذه الاجتماعات عن الإعداد لحكم الإخوان المسلمين والدعوة الى ضم أكبر عدد من الضباط ليعملوا تحت امرة الاخوان وكانوا يأخذون عليهم عهدا وقسما أن يطيعوا ما يصدر اليهم من أوامر المرشد .

« أما القسم الثانى فكان ينحصر نشاطه فى عمل تشكيلات بين ضباط البوليس

وكان الغرض منها هو اخضاع نسبة كبيرة من ضباط البوليس لأوامر المرشد أيضاً . وكانوا يجتمعون فى اجتماعات دورية اسبوعية وينحصر حديثهم فى الحقد والكراهية لرجال الثورة ولرجال الجيش وبث الدعوة بين ضباط البوليس بأنهم أحق من رجال الجيش بالحكم نظرا لاتصالهم بالشعب . وكانوا يمنونهم بالترقيات والمناصب بعد أن يتم لهم هدفهم وكان يتزعمهم الصاغ صلاح شادى الذى طالما ردد فى اجتماعاته أنه وزير الداخلية المقبل .

وجاء فى البيان :

« وفى يوم الأحد ١٠ يناير سنة ١٩٥٤ ذهب الاستاذ حسن العشماوى العضو العامل بجماعة الاخوان المسلمين وأخو حرم منير الدالة الى منزل المستر كروزيل الوزير المفوض بالسفارة البريطانية ببولاق الدكرور الساعة السابعة صباحا ثم عاد لزيارته أيضاً فى نفس اليوم فى مقابلة دامت من الساعة الرابعة بعد الظهر الى الساعة الحادية عشرة من مساء نفس اليوم وهذه الحلقة من الاتصالات بالانجليز تكمل الحلقة الأولى التى روى تفاصيلها الدكتور محمد سالم .

وجاء فى البيان :

« وكان اخر مظهر من مظاهر النشاط المعادى الذى قامت به جماعة الاخوان هو الاتفاق على إقامة احتفال بذكرى المينسى وشاهين يوم ١٢ الجارى فى جامعتى القاهرة والاسكندرية فى وقت واحد وأن يعملوا جاهدين لكى يظهروا بكل قوتهم فى هذا اليوم وأن يستغلوا هذه المناسبة استغلالا سياسيا فى صالحهم ويثبتوا للمسئولين أنهم قوة وأن زمام الجامعة فى أيديهم وحدهم وفعلا تم اجتماع لهذا الغرض برئاسة عبدالحكيم عابدين حضره الاستاذ حسن دوح المحامى ومحمود أبو شلوع ومصطفى البساطى من الطلبة واتفقوا على أن يطلبوا من الطلبة الاخوان الاستعداد لمواجهة أى احتمال يطرأ على الموقف خلال المؤتمر حتى يظهروا بمظهر القوة وحتى لا يظهر فى الجامعة أى صوت غير صوتهم وفى سبيل تحقيق هذا الغرض اتصلوا بالطلبة الشيوعيين رغم قلتهم وتباين وجهات النظر وعقدوا معهم اتفاقا وديا يعمل به خلال المؤتمر .

وأضاف البيان :

« وفى صباح ١٤ الجارى عقد المؤتمر وتكتل الاخوان فى حرم الجامعة وسيطروا

على الميكرفون ووصل الى الجامعة أفراد منظمات الشباب من طلبة المدارس الثانوية ومعهم ميكرفون مثبت على عربة للأحتفال بذكرى الشهداء فتحرش بعض الطلبة الاخوان وطلبوا إخراج الميكرفون الخاص بمنظمات الشباب وانتظم الحفل والقيت كلمات من مدير الجامعة والطلبة وفجأة إذا ببعض الطلبة من الإخوان يحضرون إلى الإجتماع ومعهم نواب صفدى زعيم فدائيين اسلاميين فى ايران حاملينه على الأكتاف وصعد إلى المنصة وألقى كلمة وإذا بطلبة الإخوان يقابلونه بهتافهم التقليدى الله أكبر ولله الحمد .. وهنا هتف طلبة منظمات الشباب « الله أكبر والعزة لمصر » فساء طلبة الإخوان أن يظهر صوت فى الجامعة مع صوتهم فهاجموا الهاتفين بالكرابيج والعصى وقلبوا عربة الميكرفون وأحرقوها وأصيب البعض باصابات مختلفة ثم تفرق الجميع الى منازلهم .

حدث كل هذا فى الظلام وظن المرشد العام وأعوانه أن المسئولين غافلون عن أمرهم لذلك نحن نعلن باسم هذه الثورة التى تحمل أمانة أهداف هذا الشعب أن المرشد العام ومن حوله قد وجهوا نشاط هذه الهيئة توجيها يضر بكيان الوطن ويعتدى على حرية الدين . ولن تسمح الثورة أن تتكرر فى مصر مأساة باسم الدين ولن تسمح لأحد أن يتلاعب بمصائر هذا البلد لشهوات خاصة مهما كانت دعواه ولا أن يستغل الدين فى خدمة الاغراض والشهوات وستكون إجراءات الثورة حاسمة وفى ضوء النهار وأمام المصريين جميعا والله ولى التوفيق .

لم أكن موافقا على حل الأخوان ..

ولم أكن موافقا على البيان ..

وأحسست أن موقفى أصبح فى غاية الحرج .. هل أنا موافق على كل هذا ؟

هل أنا رافضه وغير مقتنع به ؟ .. أين أنا من كل هذا بالضبط ؟

ولم أجد مفرا من أن أقدم استقالتى !

الفصل العاشر

الاستقالة أو الإقالة

- استقلت أول مرة لأنني رفضت أن أكون مجرد واجهة .
- كان على أن أمارس سلطتي كاملة و إما أن استقيل لصالح عبد الناصر .
- حصروني في بيتي وقطعوا اتصالاتي ومنعوا الصحف وأنا لا أزال رئيسا للجمهورية .
- أرادوا تحطيم صورتي عند الناس فهب الناس للتخلص منهم .
- هتف الجنود ضد عبد المحسن أبو النور : يسقط خنفس الخائن .
- التهامي يتهمني بالشيوعية والعمل مع خالد محيي الدين .
- عدت إلى الحكم على أكتاف الجماهير ودماء الاخوان المسلمين .
- عبد الناصر تسامح مع الانجليز والأمريكان مقابل أن يتخلصوا مني .

« بسم الله الرحمن الرحيم . .
« السادة أعضاء مجلس قيادة الثورة . .

« بعد تقديم وافر الاحترام ، يحزننى أن أعلن لأسباب لا يمكننى أن أذكرها الآن اننى لايمكن أن أتحمل من الآن مسئوليتى فى الحكم بالصورة المناسبة التى ترتضيها المصالح القومية . .
« ولذلك فإنى أطلب قبول استقالتى من المهام التى أشغلها ، وإنى إذ أشكركم على تعاونكم معى أسأل الله القدير أن يوفقنا إلى خدمة بلدنا بروح التعاون والأخوة »
بهذه العبارات المختصرة والحاسمة قدمت استقالتى فى ٢٢ فبراير ١٩٥٤ .

لكن قبل كتابة هذه الاستقالة جلست أستعرض كل ماحدث لنا فى خلال الفترة من قيام الثورة إلى الآن . . السلبيات والايجابيات . . ماكسبناه وماخسرناه . . وماكسبته البلد وماخسرته . . ولم أستطع أن أحدد بدقة نتيجة كشف الحساب . . فقد طردنا الملك ، لكن جئنا بالضباط إلى الحكم . . حققنا العدالة الاجتماعية لكن ظهرت المحسوبية . . واصلنا مشوار النضال لتحرير مصر ، لكن قضينا على الديمقراطية . . كنت مخلصا ولكن كان زملائى يدفعون كل شىء نحو الاستجابة لشهواتهم الخاصة والعامة ونحو الديكتاتورية العسكرية أيضا . . كنت أول رئيس لمصر ، لكنى رفضت أن أوصم بأكثر مما وقع . . وانتهيت إلى الإستقالة .
وقبل كتابة هذه الإستقالة وأجهت أعضاء المجلس بمنتهى الصراحة والشجاعة . .
واجهتهم بالأموال العامة التى سحبوها بلامبرر وبعثروها بلا حساب ، وطلبوا المزيد منها .
وواجهتهم باستغلالهم لنفوذهم . .
وواجهتهم بكل فضائحهم وعيوبهم . .
حتى أن جمال سالم سألنى :
ـ لماذا أنت غاضب علينا الى هذا الحد ؟
فقلت له :
ـ سأذكر لك انت وأسرتك واقعة واحدة تجعلنى غاضبا . . واقعة شقيقك الذى

طبع اسمه على بطاقة وكتب تحتها : « شقيق جمال سالم وصلاح سالم » ليسهل بها أموره ويكسب من ورائها الكثير .

وسألنى آخر :

ـ هل هذا فقط ما يغضبك ؟

فقلت له :

ـ إذا كان هذا لايكفى ، فأنا غاضب من الأموال السرية التى تنفقونها على أغراضكم الشخصية وأنا غاضب على دولة المخابرات التى تكونونها الآن بإشراف بعض ضباط المخابرات المركزية ، وبعض الضباط الالمان الذين كانوا فى الجستابو النازى .

وبعد أن كتبت الاستقالة شعرت بالراحة والهدوء .

وعدت لبيتى لأنام مستريح الخاطر والضمير .

فهذه الاستقالة ستكون نهاية خلافاتى الجذرية مع الرتب الصغيرة من زملائى ضباط القيادة .

فقد كنت مقتنعا بأن أى جهاز حكم سواء أكان حربيا أم كان مدنيا ، لابد وأن يعتمد على علاقات واختصاصات ومهام واضحة ومحددة ، على كافة مستويات القيادة . . وكنت مقتنعا أن عبد الناصر ورفاقه لايريدون ذلك . . وكانوا فى أسلوبهم فى الحكم كمن يخلط الزيت على الماء .

إذا كان للقيادة الجماعية بعض المميزات فإن عيوبها أكثر . . وأخطر هذه العيوب أن يظهر شخص مثل جمال عبد الناصر ينجح فى تحريك المجموعة من تحت المنضدة ، لتصوت حسب أهدافه وأغراضه ، كما حدث .

ونتج عن ذلك أيضا تعدد السلطات وتضاربها وعدم التنسيق فيما بينها . . ففى ذلك الوقت ، كما قلت ، كانت مصر تحكم بواسطة ثلاث قوى ، أو ثلاث جماعات . . وزارة رسمية . . مجلس قيادة الثورة . . والمؤتمر المشترك والمكون من الوزارة والمجلس . . وكانت كل جماعة تتصور أن لها الحق فى اتخاذ القرار قبل غيرها .

وكرئيس للجمهورية . . وكرئيس للوزراء . . وكزعيم للثورة (كما هو منصوص عليه فى الدستور المؤقت) كان من المفروض أن أقود كل هذه

السلطات ، لكن فى واقع الأمر كنت لا أقود شيئا على الإطلاق . . وكانت القيادة مشتركة بين أغلبية أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين سبقونى فى ممارسة سلطاتى .
ولم يكن أمامى إلا أمرا من أثنين :
إما أن أمارس سلطاتى كاملة .
وإما أن أستقيل لصالح عبد الناصر .
وأحسست أن من الأفضل أن أستقيل ، فقد كنت مسئولا وغير مسئول ، فى نفس الوقت ، عن كل صغيرة وكبيرة تحدث فى البلد .
وأنا لم أرفض أن أتحمل المسئولية ولكن بشرط أن أكون موافقا تماما على كل ما يصدر من قرارات . . لكننى لا أتحمل مسئولية أى قرار لم أستشر فيه ، ولم أوافق عليه .

إن عبد الناصر الذى كنت أحترمه ، كان شابا صغيرا ، ذو قدرات متميزة . . وقد اقترحت عليه أن أدير وأقود البلاد لعدة سنوات إلى أن يكتسب الخبرة اللازمة التى تمكنه من أن يخلفنى فى الرئاسة . . وأكدت له فى ذلك الوقت أننى سأكون سعيدا أن أستقيل من أجله ولصالحه . . وخيرته فى ذلك ، أو أن أستقيل حالا ، حتى لو أدى الأمر إلى خلق أزمة داخلية لأننى لم أعد أتحمل ، أو أتسامح عن الأخطاء التى يرتكبها أعضاء المجلس . .
ولم يختر عبد الناصر !
فقلت له :
ـ من الأفضل أن تقود المسيرة من الآن بدونى !
لم يكن لى سلطة تعيين أو فصل الوزراء بدون موافقة المجلس ، ومع ذلك كنت مضطرا لمساندة الوزراء سواء كنت موافقا عليهم أم لا !
وكنت مضطرا للتصديق على قرارات أركان حرب الجيش ، حتى التى صدرت دون استشارتى ، أو أخذ رأيى فيها .
وأنا لم أطلب سلطات مطلقة لى ولكنى ببساطة ، كنت أطلب الحد الادنى الضرورى لممارسة مهامى . . وكنت مستعدا لمناقشة المجلس فى أى قرار اتخذه . .

لقد كان عبد الناصر بحماس الشباب يعتقد أنه من الممكن أن يحول كل

معتقدات الشعب المصرى إلى الطريق الذى اخترناه نحن الضباط لتحقيق أهدافنا . . ولم يكن ليستطيع أن يحول أهدافنا إلى طريق الشعب المصرى . . لكننى بخبرة وحكمة الكبار كنت أعتقد أن أفكاره خاطئة وأننا فى حاجة إلى مساندة شعبية حقيقية . . وإن من الممكن تأجيل بعض الأهداف أو التضحية بها حتى لانفقد ثقة الشعب فينا .

كنت باختصار أعتقد أن نصف رغيف أفضل من لا شىء .

لكن عبد الناصر كان يعتقد أنه يجب أن يأخذ الرغيف كله .

وقد طال بى العمر حتى رأيت أن اعتقاده كان خاطئا ، وأن الانجازات الضخمة التى أقامها لم يكن لها أى أساس ، وكان من السهل هدمها والتضحية بها فى أيام .

فى اليوم التالى لتقديم استقالتى ، جاء لزيارتى فى بيتى جمال سالم وحسين الشافعى ، وطلبا منى أن أسحب الاستقالة . .

وعندما رفضت ، أصرا على اصطحابى لاجتماع فى مجلس قيادة الثورة الذى كان منعقدا فعلا فى مبنى مجلس النواب . . وبعد مناقشات طويلة بينى وبينهم وافقت على أن يبقى أمر الاستقالة سرا إلى أن أعود من السودان . . فقد كان مقررا أن أذهب للسودان مع صلاح سالم فى ٢٨ فبراير لحضور احتفال افتتاح البرلمان المؤقت هناك ، على أن يقرر المجلس خلال أسبوعين ، إما أن يقبل الاستقالة ، وإما أن يعترف بكامل سلطاتى .

وفى اليوم التالى عرفت أن المجلس غير رأيه . .

ففى ذلك اليوم لم يحضر اجتماع مجلس قيادة الثورة سوى أربعة من الست وزراء العسكريين . . ولم يحضر كل من عبد الناصر وصلاح سالم . . واستأذن جمال سالم والبغدادى بعد دقائق بحجة أنهما متعبان . . وتبعهما كمال الدين حسين وزكريا محيى الدين .

وعند مغادرتى قاعة المجلس للذهاب إلى مكتبى ، أحاط بى الصحافيون واستفسروا عن اجتماع بقية الأعضاء بدونى فى المقر الجديد لمجلس القيادة فى الجزيرة . . وحاولت أن أرد عليهم بلباقة . . لكننى أحسست أنهم لم ينخدعوا . . وأنهم يعرفون أن ثمة بوادر أزمة على وشك أن تحدث .

وعدت ألى بيتى . .

وقبل أن أذهب إلى فراشى ، طلبت من زوجتى أن تذكرنى فى الصباح لكى أطلب

سكرتيرى العسكرى إسماعيل فريد ، وكذلك صلاح الشاهد ، تليفونيا لأمر هام .

وفى الصباح استيقظت فى الساعة السادسة والنصف . . وأديت صلواتى . . وبعد نصف ساعة حاولت أن أتصل بإسماعيل فريد ، لكن التليفونين كانا معطلين . . وحاولت مع التليفون الثالث والأخير ، لكنه هو الآخر كان معطلا . . وهذا التليفون بالذات كان على اتصال مباشر بمجلس قيادة الثورة . . وفى هذه اللحظة أيقنت أننى وضعت تحت « التحفظ »

أرسلت خادمى « محسن » لكى يرى ما إذا كان الحرس الجمهورى فى مكانه أمام منزلى ، أم لا ؟ ، فجاءنى محسن مذعورا وقال :
- إن الحرس استبدل بخليط من المشاة والبوليس الحربى ، وأن الجنود أمروه وهم يشهرون بنادقهم أن يعود للمنزل ويبقى فيه !

وعندئذ أرسلت خادمى الثانى « بدر » لكى يشترى لنا بعض الكيروسين ، لأن مواقدنا خالية منه ، وكنا نريد إعداد طعام الإفطار للأولاد . . لكن لم يسمح له بالخروج . . كذلك لم يسمح للطاهى ، الذى كان يبيت فى منزله بالدخول .

وأرسلت إلى قائد البوليس الحربى مذكرة ، طلبت منه فيها أن يسأل مجلس قيادة الثورة عن ما إذا كان مسموحا للخدم بالدخول والخروج أم لا . . وما إذا كان من الممكن أن يذهب أولادى إلى المدرسة أم لا . . وبعد ساعة جاءنى الرد بالرفض . . لكن سمح لخادم واحد بالخروج والدخول بين الحين والآخر لشراء الحاجيات الضرورية لنا .

وفى ذلك اليوم منعوا عنى الجرائد . . وتمكنت بصعوبة من تهريبها . .

وفى ذلك المساء فتحت دفتر مذكراتى اليومية . . وأخذت أدون أحداث اليومين الأخيرين . . وبعد أن انتهيت من الكتابة ، صليت صلاة العشاء ، استعدادا للنوم . . وقبل أن أنام ، أقسمت بينى وبين نفسى أن أتحمل كل ما سيجرى مهما كان مؤلما وأن أقبل أى اتهام دون أن أدافع عن نفسى بكلمة واحدة . . لم أرد أن اعمق الخلافات لأننى كنت أرى أنه بمجرد أن تخمد ثورة زملائى يمكن أن أتفاهم معهم . . ثم أن الثورة أهم ، وليس مقبولا أن نعرضها لمتاعب أكثر بسبب خلافاتى مع عبد الناصر .

وفى ٢٥ فبراير أصدر مجلس قيادة الثورة بيان إقالتى :
وجاء فيه :
أننى طلبت سلطات أكبر من سلطات أعضاء المجلس ، وأن المجلس رفض ذلك لأنه خروج على نظامه المتبع منذ سنوات وهو أن أعضاء المجلس متساوون بما فيهم الرئيس .
وقال البيان :

« وبالرغم من أن اللواء نجيب عين رئيسا للجمهورية ورئيسا للوزراء ، ورئيسا لمجلس القيادة ، فقد أصر اللواء نجيب على طلب سلطات أوسع وأكبر من المجلس نفسه ، ولكننا رفضنا ذلك لكى نوزع السلطات توزيعا عادلا بين أعضاء المجلس .
وأضاف البيان :
« وقد طلب اللواء نجيب عدة طلبات محددة منها أن يكون له حق الاعتراض على قرارات المجلس حتى ولو كانت هذه القرارات قد أخذت بالاجماع . .
وكذلك أن يكون له حق فصل الوزراء والتصديق على ترقية أو فصل ضباط القوات المسلحة »
وانتهى البيان إلى إعلان القرارات التى اتخذها المجلس بالإجماع وهى :
« أولا : قبول الأستقالة المقدمة من اللواء أ . ح . محمد نجيب من جميع الوظائف التى يشغلها .
« ثانيا : يستمر مجلس القيادة بقيادة البكباشى أ .ح . جمال عبد الناصر فى تولى كافة سلطاته الحالية إلى أن تحقق الثورة أهم أهدافها وهو إجلاء المستعمر عن أرض الوطن .
« ثالثا : يعين البكباشى أ . ح . جمال عبد الناصر رئيسا لمجلس الوزراء . .
وقال :
« إن الثورة مستمرة وستستمر حريصة على مثلها العليا مهما أحاطت بها عقبات وصعاب والله الكفيل برعايتها فإنه نعم المولى ونعم النصير » .

وحاول البيان الاساءة إلى شخصى ، والتقليل من دورى فى الثورة ، والتأكيد على أننى اخترت قائدا للثورة على الرغم من أننى كنت بعيدا عن صفوفهم ، وأننى اخترت لهذه المهمة قبل قيام الثورة بشهرين ، وكان سر اختيارهم لى « سمعتى

الحسنة الطيبة » ، وأنني علمت بقيام الثورة فى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عن طريق مكالمة تليفونية من وزير الداخلية ، فتحركت إلى مبنى قيادة الأركان ، وأن جمال عبد الناصر وافق على ضمى إليهم وتنازل لى عن رئاسته للمجلس .

كانوا باختصار يريدون تحطيم صورتى فى عيون وقلوب الجماهير . . ويحولوننى من ثائر إلى فتربنة . . ولست فى حاجة الآن للرد على هذا الكلام . . فقد جاء الزمن الذى تولى عنى فيه كتاب آخرون هذه المهمة . . كما أننى سبق وشرحت بدقة متناهية ، علاقتى بالثورة من حرب فلسطين إلى حريق القاهرة . . ومن منشورات الضباط الأحرار إلى انتخابات النادى . . ومن تحديد الحركة إلى طرد الملك . .

وليس صحيحا أننى طلبت سلطات أكثر من السلطات العادية الممنوحة لرؤساء الجمهوريات والحكومات . . فمن الطبيعى على الأقل أن يكون الرئيس هو الذين يعين رئيس الأركان فى الجيش وأن يكون له الحق فى التصديق على تعيين وفصل الضباط . . كذلك فإنه من الطبيعى أن يسمح لرئيس الوزراء بالتصديق على تعيين وفصل كبار موظفى الدولة ، كما أن له الحق فى فصل الوزراء الذين يرفضون التعاون معه باخلاص .

وفى غياب مثل هذه السلطات فإنه من الصعب أن يحكم المسئول .

وأذيع بيان المجلس ونشر على الملأ . . فخرجت الجماهير تحتج عليه . . وانهالت البرقيات على المجلس ودور الصحف ترفض الاستقالة . .

واندلعت المظاهرات التلقائية الصاخبة فى القاهرة والأقاليم تؤيدنى ضد خصومى ، واستمرت ثلاثة أيام .

وتصور مجلس الثورة أنه يمكن تهدئة الجماهير الغاضبة بمزيد من التشهير . . فقال صلاح سالم وزير الإرشاد القومى بتكليف من زملائه ، فى بيان أذيع فى الراديو يوم ٢٦ فبراير :

« ردا على الآلاف الاستفسارات التى وردت من جميع أنحاء القطر ـ فى مصر والسودان ـ ومن كثير من أبناء الدول العربية الشقيقة يصرون فيها على طلب إيضاحات جديدة عن الخلافات التى نشبت بين مجلس قيادة الثورة وبين محمد نجيب ، ويتساءلون فيها لماذا صبر مجلس قيادة الثورة على هذه الخلافات طوال

عام أو أكثر ، ولم يحسم الوضع من البداية ، ولماذا خلق من محمد نجيب رمزا شعبيا آمن الشعب به رغم عيوبه التى كان يصححها المجلس ، ولماذا لم يصبر المجلس شهرا ، أو شهورا حتى تجتاز البلاد الظروف الدقيقة الحرجة التى تمر بها ، وكيف يستبعد رجل عزل فاروق وألغى الرتب وحدد الملكية وأقام مشاريع حيوية للبلاد ، وكيف يسد مجلس الثورة الفراغ الذى ملأه محمد نجيب الخ . . »

« ردا على هذه الاستفسارات أقول أن السبب الحقيقى لهذه الازمات ، وهى ترجع إلى يوم قيام الثورة وإلى الظروف التى أحاطت بها ، والأزمة النفسية التى ظل نجيب يعانيها ، ترجع إلى رغبته فى الانفراد بالسلطة والهيمنة على المجلس ، وبسبب هذا النزوع الملح نحو الانفراد بالسلطة وتحت هذا البند حدثت الآف المآسى يوما بعد يوم ، علم بها الكثير من الوف هذا الوطن ممن قابلوه وتكلم اليهم وأفاض ، كما علم بها الكثير من سفراء الدول الاجنبية ممن تكلم معهم عن أعضاء المجلس ، هؤلاء الذين حملوه من كرسيه فى رئاسة المشاة على اعناقهم وأرواحهم لينصبوه قائدا عاما للقوات المسلحة فرئيسا للثورة ورئيسا للوزراء فرئيسا للجمهورية . هؤلاء الأعضاء الذين جعلوا من أنفسهم حرسا خاصا له شهورا طويلة منذ قيام الثورة فكانوا إذا ماذهب إلى زيارة مدينة أو قرية يجلسون حول رفارف سيارته وكان رائدهم فى ذلك أن يحموا جسده بأجسادهم وليمت منهم من يمت ليعيش محمد نجيب . هؤلاء الأعضاء وعلى رأسهم جمال عبد الناصر الذين ظلوا حتى توقيع اتفاقية السودان يستخدمون الرقابة على الصحف لحذف اسم كل منهم ليكتب إسم نجيب فقط ، هؤلاء الأعضاء الذين كانوا يشقون له طريقه وسط جموع الشعب بأكتافهم وأيديهم كجنود من جنود حرسه . . » .

واستمر صلاح سالم فى بياناته المضحكة ، الكاذبة ، التى أنشرها لتكون دليلا منهم عليهم . . فقال :

« لقد ذكرت لكم من قبل أننا كنا مجبرين لقبول استقالة محمد نجيب لاخيرين ، وبلغ من حرج الموقف ، أن نجيب يطلب ردا قاطعا قبل سفره إلى السودان ـ استجابة لدعوة الحكومة السودانية لحضور حفل افتتاح البرلمان السودانى ـ فوصلنا إلى قرارنا الأول بانسحابنا إلى مراكزنا فى الجيش وتعلمون ماذا حدث من جراء ذلك فقد بلغ الى حد ان ضباط الجيش انذرونا ان لم نبق فى مراكزنا ونستمر

في تحقيق غايات الامة ومطالبها فانهم سيتوجهون من دورهم لقتل محمد نجيب واحضارنا من منازلنا بالقوة لتسلم زمام الامور ولو رغم ارادتنا . لقد كنا بين نارين حتى بلغ الامر بنا نتيجة لهذا الموقف الحرج وهذا الارهاق المستمر والضغط المرير على اعصابنا ان اظلمت الدنيا كلها فى وجوهنا ونحن حائرون بين امرين بغيضين لا مناص من اختيار احدهما » .

هل هناك بيان رسمى يمكن أن يضحك مثل هذا البيان ؟ !

إننى لا أسخر من البيان ولكن أقرر حقيقة ، قطعا سيصل إليها كل من يقرأه

واكبر دليل على ذلك ، وعلى كذب كل ما جاء فيه وفى غيره ، المظاهرات التى انفجرت فى الشوارع ، والجيش الذى انقسم على نفسه ، والمجلس أيضا .

فقد جمع خالد محيى الدين أنصاره من الضباط والجنود الموالين لى وتجمهروا فى ثكنات سلاح الفرسان ، واجتمع الفريق الآخر الموالى للمجلس فى مبنى القيادة وحاول بعضهم محاصرة سلاح الفرسان بمدافع الميدان ، لكن جمال عبد الناصر قرر الاستسلام لإيقاف الصدام الوشيك بين الجيش . . بعضه البعض .

وفى الحقيقة أنا لم أعرف كل هذه الأخبار فى حينها . . فقد كنت ساعتها معزولا عن العالم . .

وكان أول خبر عرفته عن كل هذه الأحداث ، قاله لى الملازم حسن صبرى من الحرس الجمهورى ، الذى كان يبيت تلك الليلة حول منزلى .

وجاء له عبد المحسن أبو النور ، الذى تولى قيادة قوة الحرس الجمهورى الخاصة بمنزلى ، بعد إجبار محمد رياض على السفر إلى أمريكا بدعوى أنه مريض ، وقال له :

- إن هناك اضطرابات تحدث الآن وسط القاهرة ، وأن قصر عابدين يتعرض للهجوم وعليك أن تذهب إلى معسكر الحرس الجمهورى فى الحلمية وتجهز القوة التى هناك للتحرك فورا وانتظر أوامرى .

وما أن غادر حسن صبرى مكانه حول منزلى ، حتى أمر عبد المحسن أبو النور جنود الحراسة بالتجمع ونزع سلاحهم ، ثم اعتقلهم ، واستبدلهم بقوة أخرى من المشاة والبوليس الحربى .

ثم استدعى عبد المحسن أبو النور ، حسن صبرى وطلب منه الانضمام اليه ، لكن الضابط الصغير رفض ، وحاول المقاومة ، فتعرض للضرب الشديد ، وتم

إيداعه السجن الحربى .
وبسبب هذه العملية حدث رد فعل عنيف بين ضباط وجنود الحرس الجمهورى ، فثاروا على عبد المحسن ابو النور وهتفوا بسقوطه قائلين :
ـ يسقط خنفس الخائن !
وكانوا يقصدون بذلك الضابط خنفس الذى خان عرابى أثناء قتاله مع الانجليز .
وكادوا أن يفتكوا به ، حتى أمرت بإبعاده عن الحرس .

وكان ثمن هذه الخيانة أن فتحت الأبواب أمام عبد المحسن أبو النور حتى أصبح نائبا لرئيس الوزراء . . ولكن مصيره فى النهاية كان السجن على يد أنور السادات فى القضية التى عرفت بأسم قضية مراكز القوى .
وبعد ذلك . . كانت كل الأحداث تشير إلى عودتى . .

ففى فجر السبت ٢٧ فبراير ، قمت من نومى على صوت نقر على شباك غرفة نومى ، فطلبت من الطارق أن يحضر من الباب الأمامى . .

كانوا ثمانية ضباط شبان من سلاح الفرسان على رأسهم الصاغ خالد محيى الدين . .
وانتحى بى خالد جانبا وقال لى :
ـ إن المجلس قرر تعيينى رئيسا للوزراء .
وطلب منى أن أعود لمنصبى كرئيس للجمهورية !
وقال لى :
ـ لو قبلت فإن أعضاء المجلس الآخرين سوف يصوتون لصالحنا
وعلمت منه :

أنهم عقدوا فى سلاح الفرسان اجتماعا عاصفا حضره جمال عبد الناصر ، اعترضوا فيه على استقالتى ، وأصروا على عودة الديمقراطية فاقترح عليهم جمال سالم أن يعقد اجتماع عاجل لمجلس قيادة الثورة ، يعرض عليه اقتراحا بعودتى لرئاسة الجمهورية وتعيين خالد رئيسا للوزراء . . وهذا حدث فعلا .
فقلت له :
ـ سوف أدرس الموضوع بشرط أن يتعاون معى كل الزملاء كما كانوا من قبل .
وتركنى خالد ورفاقه ليعودوا إلى المجلس .

ولو سارت الأمور كما قال خالد لى ، فإنه سيذاع بيان بعودتى وبشروطى فى السابعة مساء . . وعندئذ سوف يحضر وفد لمرافقتى إلى القصر الجمهورى .

لكن ما كاد خالد يخرج ، وما كدت أعود لنومى ، حتى فوجئت بضيف آخر . .
كان هذا الضيف هو اليوزباشي كمال رفعت ومعه اليوزباشي داود عويس ، وقد طلبا منى أن أرتدى ملابس لأخرج معهما . .

وسألتهما :

- لماذا ؟

قال كمال رفعت :

- قرار مجلس الثورة ألغى !

فقلت :

- لكن خالد قال لى . . . .

فلم يسمعانى وأصرا على موقفهما ورفضا السماح لى بالاتصال التليفونى ، وكنت ساعتها تحت تهديد السلاح .

وخرجت معهما . . وأمام الحرس تعمدت أن أقف قليلا حتى يعرف أفراده أننى وضعت تحت التحفظ ، لكنهما دفعانى إلى العربة التى أسرعت بى إلى مبنى قيادة سلاح المدفعية بألماظة ، وفى داخل المبنى وضعت فى حجرة رطبة ، لاتدخلها الشمس ، وكان اليوم شديد البرودة ، وعندما طلبت منهما أن أجلس فى حديقة المبنى ، فى الشمس ، رفضا .

وعرفت رغم كل ذلك أن عددا كبيراً من الضباط قد تجمعوا فى سلاح الفرسان ، يطلبون إطلاق سراحى ، وأن هذا أزعج مجلس القيادة ، وأجبرهم على عودتى . وتأكدت مما قاله لى خالد محيى الدين .

عند الظهر ، فوجئت باليوزباشى حسن التهامى ومعه خمسة من الضابط لاأعرفهم أمامى . .

قال لى ضابط المخابرات الشاب أيامها حسن التهامى :

- لقد اكتشفنا أن خالد محيى الدين ورفاقه الشيوعيين يدبرون انقلابا شيوعيا ، انت مشترك فيه .

وضحكت . .

وقلت :

- اقترح عليك أن توجه لى أيضا تهمة الخيانة العظمى وأن تطلق على الرصاص .

وأحس حسن التهامى بسخرية كلامى . .

فقلت له فى عنف :

- إن تصرفكم نحوى الآن يعد خروجا عن حدود الالتزام بمبادىء الثورة وأهداف الشعب .

فإذا به يتراجع ويقول :

- إنك لست محل شك على الاطلاق .

وأحسست ان من العبث الاستمرار فى الكلام معه .. فهو لايعرف ما يقوله .. وهو ضيق الأفق .. وهو يردد ألفاظا لامعنى لها .

لكنه قال فجأة :

- سنعود بك الى منزلك !

واقتادونى من باب خلفى ، إلى الصحراء ، البعيدة عن العمار ، والبعيدة عن المعسكرات ، خوفا من التجمهر أو اعتراضهم .. وفى البداية اعتقدت أنهم سوف يقتلوننى .. فقلت لهم :

- إذا كنتم تريدون أن تغتالونى فأنا لا أخاف الموت .. وقد عشت حياتى شجاعا وسأموت شجاعا .

لكننى عرفت أنهم يحاولون الابتعاد عن دخول معركة متكافئة بين المؤيدين لى وبينهم .

وقالوا لى :

- ستكون حرا بعد قليل .

وفعلا عدت إلى منزلى .

وبعد قليل حضر شمس بدران وأبلغنى أن مجلس القيادة قرر رفض استقالتى وقرر عودتى رئيسا للجمهورية .

ولم يزل هذا القرار المرارة التى ملأت قلبى بعد الاعتداء المتكرر على ، خلال تلك الساعات الماضية ، وممن ؟ .. من ضباط صغار فى عمر أولادى !

ولم اشأ أن يمر ما حدث لى بسهولة .. فطلبت من عبد الحكيم عامر أن يحاكم أولئك الضباط .

وقد سبق أن شرحت الأسباب التى أجبرت المجلس ، على عودتى ، فقلت :

« كان فى مبنى القيادة عندما اتخذ قرار عودتى ، تحت ضغط ضباط الفرسان ، عدد من الضباط الذين قربهم جمال عبد الناصر إليه وجعل منهم عصبة فى يده .. وجد هؤلاء أن قرار مجلس الثورة سيطيح بمراكزهم وبهم وبالأموال التى تغدق عليهم .

« وتجمهر هؤلاء الضباط أعوان جمال عبد الناصر واعلنوا أنهم سيحاصرون سلاح الفرسان ولتكن حربا أهلية .. وفعلا أصدر علي صبري ووجيه أباظة أوامرهما لسلاح الطيران بتحليق بعض الطائرات وتحركت بعض وحدات المدفعية المضادة للدبابات لمحاصرة سلاح الفرسان واعتقل بعض ضباطه فى الشوارع وهم يتوافدون عليه فى الصباح .

« كانت خديعة وقع فيها ضباط الفرسان الذين تعاملوا بشرف مع ضباط القيادة الذين مثلهم جمال عبد الناصر وأعلن عليهم اقتراحه الخاص بعودتى وتعيين خالد محيى الدين رئيسا للوزراء .

« ورغم محاصرة سلاح الفرسان واعتقال بعض ضباطه إلا أن الأمر لم يتحول أوتوماتيكيا إلى يد مجلس الثورة أو يد جمال عبد الناصر . كان هناك رأى ضباط الأسكندرية وعدد كبير من الضباط فى مختلف الأسلحة .

وبعد قرار عودتى ، أذاع مجلس قيادة الثورة البيان التالى :

« حفاظا على وحدة الأمة يعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيسا للجمهورية وقد وافق سيادته على ذلك » .

ثم جاء تفسير هذا البيان المختصر فى بيان لاحق ، جاء فيه :

« لقد أظهر الشعب مشاعره فى أنه مهما كانت الظروف والملابسات التى أحاطت بالتطورات الأخيرة ، فإن الغفران يجب أن يملأ كل قلب وأن ننسى كل شيء إلا أن للبلاد أهدافا وطنية غالية وحياة ديمقراطية سليمة ينبغى الوصول إليها بأسرع طريق . ومجلس الثورة الذى قام بها فى ٢٣ يوليو باسم الشعب ليقف اليوم أمام حمى الوطن المقدس فى خشوع فى هذه اللحظات التاريخية ليعلن أن القافلة ماضية فى طريقها صفا واحدا يتقدمه الرئيس اللواء أ . ح محمد نجيب رئيسا للجمهورية البرلمانية المصرية وأن مجلس قيادة الثورة يرأسه البكباشى أ . ح جمال عبد الناصر رئيس مجلس الوزراء ليتقدم ، للشعب المصرى ولشعب السودان الحبيب وللشعوب العربية والشرقية الصديقة برجاء حار هو أن تساعد بكل ما تملك من إيمان وقوة على أن يسود الهدوء وينزل ستار النسيان على هذه الأزمة التى اجتاحت الوطن واجتازها وتغلبت فيها روح إيثار المصلحة العليا للبلاد وتقديمها على كل ماعداها مهما بذل فى هذا السبيل من تضحيات والله ولى التوفيق » .

وصدر هذان البيانان بعد أن سلمت مجلس قيادة الثورة ، رسالة منى ، قلت فيها :

« حرصا منى على حفظ كيان الأمة فى الظروف الحاضرة وبناء على دعوة مجلس قيادة الثورة قبلت رئاسة الجمهورية البرلمانية المصرية » .

وقد كتبت هذه الرسالة بالاتفاق مع المجلس . .

وكتبت معها بيانا قلت فيه :

« وإنى أهيب بكل وطنى مخلص الايزج باسمى فى أية مناسبة ، وألا يتخذ أحد من استقالتى مادة تباع وتشترى فى سبيل المصالح الشخصية وأطماع أعدائنا » .

وفى اليوم التالى ، فوجىء الناس بعناوين الصحف تحمل نبأ عودتى ، فخرجت المظاهرات ، وانهالت البرقيات على مجلس القيادة ودور الصحف ، ورئاسة الجمهورية .

وكما فرحت مصر ، فرح السودان أيضا . . فنحر الناس الذبائح . . ووزعوا الفاكهة والشربات . . وأرسلوا فى أول يوم من الخرطوم إلى القاهرة ٢٠ الف برقية تهنئة .

وكان السودان معى منذ اللحظة الأولى للأزمة . . فقد طار منه وفد رسمي للخرطوم برئاسة محمد نور الدين ، للاستفسار عن حقيقة الموقف ، وبتعليمات من حكومته ، طلب من مجلس قيادة الثورة إما أن أحضر معهم إلى الخرطوم ، وإما أن يعد مجلس الثورة بإطلاق سراحى ، وأن يقبل أن أعتزل فى السودان . وكان هذا الموقف أحد أسباب عودتى لرئاسة الجمهورية .

وقبل أن يعلن نبأ عودتى ، وصلت بعثة من الحزب الوطنى الاتحادى ، الذى كان يطالب بالوحدة مع مصر ، إلى القاهرة . . واتصل إسماعيل الأزهرى رئيس الوزراء بصلاح سالم ليخبره بأمر هذه البعثة ، فقال له صلاح سالم :

ـ إن الحالة عادت كما كانت بما يحفظ وحدة الوادى .

واصدر الازهرى على الفور بيانا ، قال فيه :

« إن الاستقالة كانت صدمة عنيفة لشعب السودان الذى كان يتأهب لاستقبال الرئيس محمد نجيب لافتتاح البرلمان فى الخرطوم ، لكن الصدمة لم تدم طويلا وزالت سريعا كسحابة صيف » .

وفى الساعة التاسعة والنصف من صباح ٢٨ فبراير ، خاطبت الجماهير الغفيرة من قصر عابدين ، وحاولت التخفيف من حدة الأزمة فوصفتها ، كما وصفها الأزهرى ، بأنها « سحابة صيف سرعان ماتنقشع » وطلبت منهم أن يحافظوا عن

الوحدة وأن يساعدوا إخوانهم أعضاء مجلس قيادة الثورة .

وفى ذلك اليوم أحيطت الشوارع القريبة من منزلى بالجنود لمنع أى مظاهرات تهتف بحياتى . . لكن الناس اندفعت عبر هذا الحصار واخترقت الأسلاك الشائكة المضروبة حول منزلى ، . . وحاولت زوجتى والخدم معها أن يفعلوا ما فى وسعهم لتهدئة الجماهير لكن بدون فائدة .

وفى ذلك اليوم خرجت مظاهرة ضخمة من جامعة القاهرة ، قاصدة ميدان الجمهورية ، وكان المتظاهرون يهتفون بحياتى ، وحياة الديمقراطية ، وردد بعضهم هتافات معادية ضد مجلس قيادة الثورة ، فوقعت اشتباكات بينهم وبين رجال الأمن والبوليس الحربى بقيادة البكباشى أحمد أنور ، الذى كان شديد القسوة والعنف فى التعامل مع المتظاهرين . . وأطلق رجال الأمن النيران . . فأصابت البعض . . وقبضت على البعض الآخر . . وكان من بينهم عدد من الإخوان الذين ازداد نشاطهم بعد حل جماعتهم . .

لقد حول أعضاء المجلس مظاهرات الفرح بعودتى إلى مآتم . .

حتى أن البعض رفع قمصان الضحايا الملوثة بالدماء فى وجهى وأنا أخطب فى قصر عابدين بمناسبة عودتى . .

ورفع الإخوان عبد القادر عودة على أكتافهم أمامى . .

ورغم أننى قلت ساعتها :

- إننى لم اقبل العدول عن الاستقالة إلا من أجل الحرية والديمقراطية وإجراء انتخابات برلمانية وتأليف جمعية تأسيسية تمثل مختلف هيئات الشعب ، ستجرى الانتخابات التى تعيد الحياة النيابية للبلاد . . .

إلا أن هتافات الاحتجاج على مجلس قيادة الثورة لم تتوقف . .

كانوا يصفونهم بالأعداء . .

فطلبت من عبد القادر عودة أن يصعد إلى الشرفة بجوارى . . وأكدت لهم أن النيابة ستحقق فى الحوادث التى وقعت . . وساعتها فقط هدأت الجماهير الغاضبة وانصرفت .

وفى اليوم التالى سافرت الخرطوم ، أنا وصلاح سالم والشيخ أحمد حسن الباقورى ، لافتتاح البرلمان .

كان التوقيت غير مناسب للسفر ، لكنى كنت حريصا على أن لاتفوتنى هذه المناسبة .

وفى اثناء غيابى زاد الموقف سوء فى مصر .

فقد قام جمال عبد الناصر باعتقال ١١٨ آخرين منهم عبد القادر عودة وأحمد حسين بتهمة إستغلال الخلاف بينى وبينه فى اشعال فتيل الثورة المضادة .

ثم قام بإعتقالات جديدة لعدد آخر من الإخوان والاشتراكيين والوفديين والشيوعيين .

وطالبت بإطلاق سراح المعتقلين فورا أو أن تحقق معهم النيابة وتحدد مواقفهم .

ورغم أننى أحسست فى تلك اللحظة أن كل شيء انتهى بينى وبين عبد الناصر ورفاقه فى مجلس الثورة ، إلا أننى وجدتها فرصة لعودة الحياة الديمقراطية ، والتخلص من الحكم الديكتاتورى .

أردت أن أطرق الحديد وهو ساخن .

وعلى ذلك بدأت على الفور مشاوراتى مع المجلس للتعجيل بعودة الحياة البرلمانية .

والتقيت بعبد الناصر فى بيت على ماهر بحضور السهنورى . .

سألتهم :

ـ من أين نبدأ الخطوة الاولى ؟

قال عبد الناصر :

ـ اقترح عودة دستور ١٩٢٣ !

وكان اقتراحا مريبا . . فرفضت الموافقة عليه .

وقال السنهورى :

ـ إن لجنة الدستور على وشك الانتهاء من عملها ، ومن الممكن تغير مواعيد الاجراءات حتى نسارع بإجراء الانتخابات الخاصة بالجمعية التأسيسية ، كما أن هذه الجمعية يمكن أن تباشر سلطات البرلمان حتى يجتمع .

واتفقنا على ذلك .

والتقينا بعد ذلك فى بيتى وفى بيت جمال عبد الناصر ، وشارك فى هذه الاجتماعات المكثفة ، عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم .

وفى منزل عبد الناصر جرى اجتماع موسع لمجلس قيادة الثورة ، فى منتصف ليلة ٥ مارس ، اتخذت فيه القرارات التاريخية الخاصة بعقد جمعية تأسيسية منتخبة

بطريق الاقتراع العام المباشر ، على أن تجتمع خلال شهر يوليو ١٩٥٤ ، ويكون لها مهمتان بارزتان :

١ - مناقشة مشروع الدستور وإقراره .

٢ - القيام بمهمة البرلمان إلى الوقت الذى يتم فيه عقد البرلمان الجديد وفقا لأحكام الدستور الذى ستقرره الجمعية التأسيسية .

وحتى تتم الانتخابات فى جو من الحرية تقرر إلغاء الأحكام العرفية قبل إجراء الانتخابات بشهر ، كما تقرر إلغاء الرقابة على الصحف والنشر إبتداء من ٦ مارس ١٩٥٤ ، وأن يستمر مجلس قيادة الثورة فى ممارسة سلطات السيادة لحين اجتماع الهئية النيابية الجديدة .

أحسست أننا نمش فعلا فى الطريق الصحيح للديمقراطية .

وكان على أن أسرع الخطى فى هذا الطريق ، فأمرت بإخراج بعض من حكمت عليهم محكمة الثورة مثل فؤاد سراج الدين وإبراهيم عبد الهادى .

وأصدرت قرارا بالإفراج تباعا عن ضباط المدفعية .

وأمام مؤتمر صحفى عالمى ، قلت :

« لاشك أنكم قد اطلعتم على القرارات أمس فى سبيل إقامة حياة دستورية ديمقراطية سليمة فى مصر ويسعدنى بهذه المناسبة أن أعبر لكم عن اغتباطى لهذه الخطوات التى أمكن اتخاذها حتى الآن والتى فتحت الطريق أمام الأمة للوصول إلى حياتها الدستورية الكاملة . ولاشك أنكم تعلمون أن كفاح الأمة فى سبيل الدستور والحياة الديمقراطية السليمة قديم لم ينقطع .

ولقد كان الوصول إلى الحياة الدستورية الكاملة - ومازال - سياستى التى ظللت أعمل لها فى الفترات الماضية ولم أغفل عنها يوما واحدا إيمانا منى بأن اشتراك الشعب فى أمور بلاده هو الضمان الوحيد ضد كل طغيان » .

وقلت أمام مؤتمر صحفى عالمى آخر :

- إن الحياة النيابية ستعود قريبا وإن الجمعية التأسيسية ستنعقد فى ٢٣ يوليو ١٩٥٤ وإن الأحكام العرفية ستلغى تماما فى ١٨ يوليو سنة ١٩٥٤ وربما قبل هذا التاريخ ، وإنه سيتم الافراج عن جميع المعتقلين الا من تثبت إدانتهم .

وفى هذا المؤتمر وجهت نقدا إلى الصحف التى دأبت على نشر اخبار الريبة والشكوك فى نوايا رجال الثورة .

فقد هاجمت بعض الصحف والمجلات ، مثل مجلة « الجمهور المصرى » سلوك ضباط البوليس الحربى ، وفضحتهم ، الأمر الذى أثار الخوف فى نفوس بعض الضباط ، وأحسوا أن عودة الديمقراطية تعني نهايتهم ، أو محاسبتهم على ما ارتكبوه من جرائم ومخالفات ، إلى جانب فقدانهم النفوذ والسلطان . .

وكنت لا أريد أن تقع أى أزمة من جانب الضباط للقضاء على الاتجاه الديمقراطى الوليد .

وأصدرت بيانا أكدت فيه أننى ومجلس قيادة الثورة كيانا واحدا .

وحدث أن ذهبت لزيارة د . السنهورى فى بيته ، وكان عنده سليمان حافظ ود . عبد الجليل العمرى . . ففوجئت بالسنهورى يقول لى :

ـ إن كل الناس تشعر بالتوتر القائم بينك وبين مجلس قيادة الثورة !

فسألته :

ـ وماذا أفعل يادكتور ؟

قال :

ـ من مصلحة البلاد تصفية الأمر فى السر قبل الجهر .

فقلت له :

ـ أنت لا تعرف ما حدث عند اعتقالى !

ورويت له كل ماحدث ... واكتشفت أنه لم يكن سمع هذه التفاصيل من قبل .

فسألنى :

ـ والحل ؟

قلت :

ـ إننى لازلت لا أتمتع بسلطاتى . . فقادة الوحدات فى الجيش من أنصار عبد الناصر . . وهم عينوا بقرار من عبد الحكيم عامر . . والمفروض أن يعينوا بقرار منى . . أليس كذلك ؟

ووافقنى السنهورى . .

وقال :

ـ المسألة بسيطة . . وأعتقد أن من الممكن حلها !
فقلت ، وأنا أستعد للانصراف :
ـ كل شيء جائز !
قال :
ـ سنحل كل شيء في اجتماع المؤتمر المشترك في ٧ مارس الجاري .
قلت :
ـ لن أحضر هذا الاجتماع ما لم تعد الأمور كما كانت عليه قبل الاستقالة . . إن جمال عبد الناصر لا يزال يحتفظ برئاسة مجلس الوزراء رغم عدولي عن الاستقالة . . ولذلك لن أحضر .

ويبدو أن السنهوري أرسل سليمان حافظ لجمال عبد الناصر لحل الموضوع ، لأن سليمان حافظ كان موجودا في المؤتمر المشترك الذي عقد في البرلمان ، ورفضت أن أحضره إلا بعد إلحاح شديد ، ولأن حافظ قال لي ساعة أن دخلت الاجتماع :
ـ ماهي مطالبك ياسيادة الرئيس ؟!
قلت :
ـ أن تعود الأمور على ما كانت عليه قبل استقالتي !
ووافقوا . .

ولم أشأ أن أفجر أي حساسيات شخصية ، ولا أن أطلب اعتذارا عن أي إهانة لحقت بي ، وكان همي أن نستمر بقضية الديمقراطية إلى مزيد من النمو .
وفي نهاية الاجتماع وزع صلاح سالم على الصحف بيانا بهذه الموافقة جاء فيه :

« رأى المؤتمر المشترك أن التعديلات التي طرأت على منصب كل من رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء في الأيام القليلة الماضية إنما كانت ثمرة للأحداث التي اجتازتها البلاد وخرجت منها سليمة الوحدة ، قوية العزم على المضي قدما في سبيل تحقيق الثورة ، وبما أن صفحة هذه الأحداث قد طويت فقد صح العزم على أن يزال كل أثر لها وأن تعود الأوضاع إلى صورتها السابقة حتى يستقر في يقين كل فرد من أفراد هذه الأمة الكريمة أن تلك السحابة العابرة انقشعت دون أن تخلف وراءها ظلا ينال من جلال الوحدة وقدسيتها . ولهذه الأسباب تقدم رئيس مجلس الوزراء البكباشي أ . ح جمال عبد الناصر إلى مجلس قيادة الثورة برغبة في أن تعود الأوضاع إلى سابق عهدها ، وعلى ذلك تقرر اسناد

قيادة الثورة ورئاسة مجلس الوزراء بجانب منصب رئيس الجمهورية إلى اللواء أ . ح محمد نجيب وبهذه المناسبة أيضا يؤكد مجلس قيادة الثورة أن القرارات التى أعلنها هذا المجلس يوم الخامس من شهر مارس الحالى الخاصة بإعادة الحياة النيابية وبانعقاد الجمعية التأسيسية فى المواعيد التى سبق تحديدها فى هذا القرار . . والمؤتمر المشترك يناشد أبناء وادى النيل فى هذه المناسبة السعيدة أن يسدل ستار النسيان على أحداث الأيام الأخيرة وأن يعتصم بالوحدة وأن يضاعف من جهوده لمواجهه أعدائه أكثر قوة وأشد مراسا وليجنى فى أقرب وقت ثمار ثورته المباركة التى ستحقق له بإذن الله مايبغى من الحرية والمجد » .

وقبل أن ينفض الاجتماع المشترك ، طلب عبد الحكيم عامر ، احتفالا بما حدث ، أن يدعونا للطعام فى نادى الضباط ، فى اليوم التالى ، وحضر هذه المأدبة ١٣٥٠ ضابطا .

وعادت البهجة إلى الشارع . .

وعادت الصحافة تزغرد بالحرية . .

وعاد بعض الكتاب إلى أقلامهم التى تركوها فى ظل الرقابة

وكان منهم د . وحيد رأفت الذى سعدت عندما قرأت له فى جريدة « المصرى » فى ٨ مارس ، مقالة ، قال فيها :

« اليوم أعود إلى القلم لانفض عنه التراب ، وإلى الفكر لأجلو عنه الصدأ ، فالرقابة على الصحف لاتحطم الاقلام فحسب بل تقضى على ملكة التفكير . فلماذا يجهد الكاتب نفسه ويكدح المفكر ذهنه إذا كان ما تجود به قريحته لاينقل إلى الجمهور أبدا ولا يصلهم إلا مبتورا مشوها بفعل الرقيب . وياويل أمة لا يمارس كتابها إلا المدح والثناء ولا يسمح حكامها الا بتلك النغمة المرذولة فالنقد السياسى كالنقد عامة ضرورة من ضرورات الحياة والتقدم ورمز على الحيوية ، فبغيره تفتر الهمم وتتقاعس النفوس ويخبو الذهن والاصلاح » .

لكن . . هذا المناخ الذى تمنينا أن يدوم ، والذى لم نعرفه سوى أيام ، سرعان ما تلبد بالغيوم . . وبدأت الأمور تتردى مرة اخرى .

أضربت بعض السيدات واعتصمن فى مبنى نقابة الصحافيين ، ورفضن الطعام حتى الموت . . هاجمت « الاخبار » فكرة الانتخابات وحذرت من عودة الاحزاب . . احتج مجلس نقابة الصحافيين على عودة الرقابة على جريدة القاهرة بقرار من صلاح سالم . .

وتلقيت خطابا من حسن الهضيبى من داخل السجن ، قال فيه :
« أما بعد . .

« فإن مجلس قيادة الثورة قد أصدر قرارا فى ١٢ يناير سنة ١٩٥٤ بأنه يجرى على جماعة الإخوان المسلمين قانون حل الأحزاب السياسية ومع ما فى هذا القرار من مخالفة لمنطوق القانون ومفهومه . فقد صدر بيان نسبت إلينا فيه أفحش الوقائع وأكثرها اجتراء على الحق واعتقلنا ولم نخبر بأمر الاعتقال ولا بأسبابه وقيل يومئذ أن التحقيق فى الوقائع التى ذكرت به سيجرى علنا فاستبشرنا بهذا القول لأننا انتظرنا أن تتاح لنا فرصة الرد عليه لنبين أن ماشتمل عليه كله وعلى الصورة التى جاءت به لا حقيقة له . فيعرف كل إنسان قدره ويقف عند حده . . ولكن ذلك لم يحصل .

« وإلى أن تتاح لنا الفرصة فإننا ندعوكم وندعو كل من اتهمنا وندعو أنفسنا إلى ما أمر الله به ورسوله عليه الصلاة والسلام حين قال : فقل تعالوا ندع أبنائنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

« وقد استمرت حركة الاعتقالات طوال شهرين كاملين حتى امتلأت المعتقلات والسجون بطائفة من أطهر رجالات البلد وشبابها يلغوا عدة الاف لكثير منهم مواقف فى الدفاع عن البلاد وعن حريتها شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ولم يكتفوا بالكلام كما يفعل كثير من الناس . إما كيفية الاعتقال ومعاملة المعتقلين فلن نعرض لها هنا .

« وقد بدت فى مصر بوادر حركة ـ إن صحت ـ فقد تغير من شأنها وأنظمتها . وقرار حل الإخوان وأن أنزل اللافتات عن دورهم فإنه لم يغير الحقيقة الواقعة وهى أن الإخوان المسلمين لايمكن حلهم لأن الرابطة التى تربط بينهم هى الاعتصام بحبل الله المتين وهى أقوى من كل قوة ولا زالت هذه الرابطة قائمة ولن تزال كذلك بإذن الله . ومصر ليست ملكا لفئة معينة ولا حق لأحد ان يفرض وصايته عليها ولا أن يتصرف فى شئونها دون الرجوع إليها أو النزول على إرادتها لذلك كان من واجب الواجبات على الإخوان المسلمين أن يذكروكم بأنه لايمكن أن يبت فى شئون البلاد فى غيبتهم وكل ما يحصل من هذا القبيل لن يكون له أثر فى استقرار الأحوال ولايفيد البلاد بشىء .

« وإن مادعوتم إليه من الاتحاد وجمع الصفوف لايتفق وهذه الاحوال فإن البلاد لايمكن أن تتحد وتجمع صفوفها وهذه المظالم وامثالها قائمة .

« نسأل الله تعالى أن يقى البلاد كل سوء وأن يسلك بنا سبيل الصدق والعمل وأن يهدينا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسن الهضيبي
المرشد العام للإخوان المسلمين

وتلقيت خطاب آخر من عمر نقيب المحامين ، طالب فيه برفع الاعتداء الجسيم الذى وقع على المحامين : أحمد حسين وعبد القادر عودة وعمر التلمسانى بعد اعتقالهم .

وفى العاشرة والنصف من صباح الجمعة ٢٦ مارس ١٩٥٤ ، اجتمعت الجمعية العمومية لنقابة المحامين للنظر فى ما وقع على المحامين المعتقلين ، وعودة الحياة النيابية وإلغاء الأحكام العرفية فورا والافراج عن المعتقلين السياسيين ، والدعوة إلى وضع ميثاق وطنى يرتبط به قادة البلاد وزعماؤها يستهدف جمع الكلمة وإجلاء الغاصب والرجوع بالبلاد إلى الاوضاع الطبيعية .

وعودة العسكريين إلى ثكناتهم .

وأحسست بالخطر من أن تندفع هذه القوى غير المنظمة لتفتح علينا باب الاضطرابات والجحيم .

وكان الحل فى رأيى ان تعود الاحزاب ، قبل انعقاد الجمعية التأسيسية ، حتى تأخذ المعركة الانتخابية أبعادها الحقيقية . . وكما كتبت من قبل :

« كانت الأحزاب منذ قيام الحركة قد غيرت الكثير من أفكارها وتنظيماتها مما ظهر واضحا فى برامجها المعلنة عقب صدور قانون تنظيم الأحزاب . .

« برنامج الوفد المعلن ينادى (بسياسة ديمقراطية اشتراكية لتحقيق الاستقلال والوحدة ورفض جميع صور الدفاع المشترك) كما أنه طالب بوضع حد أدنى للأجور وصدور قانون بمعاقبة الوزراء ، واستصدار قانون تأمين صحى واجتماعى للعمال وأفراد أسرهم والانتهاء من تعميم المياه الصالحة للشرب خلال خمس سنوات . . كما أعلن البرنامج موافقته على مشروع الإصلاح الزراعى باعتباره يهدف للعدالة الاجتماعية ويقرب بين الطبقات . .

« ونص برنامج السعديين على تحديد حد أدنى لأجور الفلاحين مع توجيه البلاد بالعمل على تحويل رؤوس الأموال المصرية الراكدة إلى ميدان الاستغلال الصناعى والتجارى والاستعانة برؤوس الاموال الاجنبية فى حدود تتفق مع مصلحة البلاد .

كنت اعتبر وجود الأحزاب هى الركيزة القوية للديمقراطية ، وأن برامجها المتطورة هى ضمان التزامها بأهداف الجماهير . .
وكان قانون الاصلاح الزراعى قد هز كثيرا من نفوذ الاقطاعيين من رجال الأحزاب فى الأقاليم وفتح بابا للأفكار الحرة المتجددة .

لم تكن الأحزاب تعنى رجعة الى الوراء . .

لم تكن بمثابة النكسة للثورة . .

فأحزاب الأقلية التى استندت إلى قوة السراية فقط ضاع تأثيرها نهائيا وتبدد نشاطها وآثر قادتها السلامة بعيدا عن نزاعات السلطة . . وما أظن أن وجودها كان يمكن أن يمثل خطرا لضياع مصدر تأييدها وهو السراى .

والوفد استند إلى برنامج شعبى يجعله قادرا على مواصلة دوره فى كسب تأييد الجماهير ، كما أن تصفية الاقطاع أضعفت من نوازع بعض الافراد فى قيادته ، وقوت أمل الشباب المثقف المتطلع من جماهيره .

والإخوان المسلمون جرفتهم الأحداث ليعلنوا عن انفسهم كحزب سياسى .

والاحزاب والتنظيمات الآخرى يسارية كانت أو يمنية أمامها فرصة الاختيار فى مواجهة الجماهير .

طبيعة الأحزاب كانت قد تغيرت . . والانتخابات الديمقراطية التى نطلبها لم تكن خطوة إلى الخلف وإنما كانت خطوة إلى الأمام لأنها تحمل تعبيرا عن إرادة الجماهير فى الرقابة الشعبية والمشاركة الفعلية فى شئون الحكم .
هذا ما كنت أؤمن به . .
وهذا ما كنت سأطالب به الحكومة والمجلس فى أول اجتماع مشترك . .

وكان موعد هذا الاجتماع فى ٢٠ مارس . .
لكن قبل يوم واحد من هذا الموعد وقعت مفاجأة مذهلة غيرت خطتى . .

وقعت ستة انفجارات فى ذلك اليوم ، لكن فى أماكن متفرقة ، منها السكة الحديد ، والجامعة ، وجروبى ، ولم يقبض على الفاعل . .

وقد عرفت بعد سنوات أن هذه الانفجارات كانت بتدبير من جمال عبد الناصر ، كما اعترف البغدادى فى مذكراته ، وذلك لإثبات أن الأمن غير مستقر ولابد من العودة بالبلاد إلى الحالة غير العادية .

وأنا فى الحقيقة شممت هذه الرائحة القذرة فى اجتماع اليوم التالى . . فقد تعالت الصيحات التى تطالب بالضرب على أيدى المخربين . . وقلت لهم فى صراحة أقرب للاتهام :

ـ لايوجد صاحب مصلحة فى التخريب إلا هؤلاء الذين يبتغون تعطيل مسار الشعب إلى الديمقراطية .

وعندما أحس البعض بالبطحة التى فوق رؤوسهم ، طالبوا بتخلى أعضاء المجلس عن السلطة وإنسحابهم من الميدان .

وتكهرب الجو . .

كنت أريد أن تمر هذه الأيام فى سلام حتى موعد الانتخابات الذى فتحنا له القيد فى جداول الناخبين فى ١٥ مارس . . وكانوا هم يضعون الأمور على طرف نقيض . . وعلى كف عفريت .

وأدركت أنهم يسعون لتفجير الموقف . .

وإلى . . هدم المعبد . .

وفى مساء نفس اليوم كنت أنا وعبد الناصر فى قصر عابدين ، فى انتظار حضور الملك سعود لدخول مأدبة العشاء الرسمية المقامة على شرفه ، عندما لمح جمال عبد الناصر ، سليمان حافظ قادما ، فناداه ، وسأله :

ـ هل من الضرورى دستوريا أن تعود الأحزاب المنحلة قبل انتخابات الجمعية التأسيسية ؟!

فقال سليمان حافظ :

ـ لا . . بل والأولى لخير البلاد ومصلحتها ألا تكون كذلك .

وكدت أن أضحك من هذه المسرحية الساذجة . .

فأى دستور يتحدثان عنه . . الدستور الذى سقط ؟ . . أم الدستور الذى يعد ؟ . .

ثم إننى أنظر من وجهة النظر السياسية . . أليس من الأفضل أن تكون الأحزاب موجودة قبل الانتخابات ؟ . . من يختلف على ذلك . إلا من يريد الديكتاتورية ويخشى على نفسه من الديمقراطية ؟

ولأننى أعرف أن الحوار بين عبد الناصر وسليمان حافظ كان مسرحية أمامى ، ولأننى أردت أن أحرق عليهما مايرميان إليه . .

حولت الحوار إلى اتجاه آخر . . مفاجىء . .

قلت لسليمان حافظ :

ـ لابدّ الآن من إجراء استفتاء شعبى على رئاستى للجمهورية .

كنت أريد أن أحصل على تفويض من الشعب بكل الاجراءات الديمقراطية والشرعية التى كنت أسعى إلى المضى فيها .

فقال سليمان حافظ :

ـ لامبرر لذلك . . ويمكننا الاستفتاء مع انتخابات الجمعية التأسيسية فى نفس الوقت .

وجاء الملك سعود ليفض هذا الحوار العابر .

وفى ٢٢ مارس ، حاول سليمان حافظ ومعه د . عبد الجليل العمرى ، أن يحلا الخلافات العميقة بينى وبين عبد الناصر ، وأن يتدخلا لحل هذه الأزمة التى صعدوها إلى حد إلغاء المجلس . . فأعدا مشروعا للحكم ، لسد الفراغ ، حتى انتخابات الجمعية التأسيسية . . وتضمن هذا المشروع :

ـ إلغاء الأحكام العرفية قبل ١٨ يونيو ١٩٥٤ .

ـ الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين .

ـ تشكيل وزارة مدنية تتولى كافة السلطات .

ـ أن يقتصر اختصاص مجلس قيادة الثورة على تعيين أو عزل رئيس الحكومة والوزراء بعد تصديق رئيس الجمهورية .

ـ إذا وقع خلاف بين المجلس ورئيس الجمهورية ، يفض الخلاف بواسطة هيئة تحكيم تتكون من ستة أشخاص ، يختار رئيس الجمهورية اثنين منهم ، ويختار مجلس الثورة اثنين منهم ، وتختار الجمعية العمومية لمجلس الدولة الاثنين الآخرين مع الجمعية العمومية لمحكمة النقض .

ـ انتخابات الجمعية التأسيسية لا تجرى على أساس حزبى .

- يتم إجراء استفتاء شعبى على القرارات التى سبق أن أصدرها مجلس قيادة الثورة مثل إعلان الجمهورية ، وقانون الإصلاح الزراعى ، وتعيين رئيس الجمهورية .

وقبلت المشروع ، رغم أننى كنت أتمنى اجراء انتخابات الجمعية التأسيسية على أساس حزبى . . وقبلت المشروع لعله يجنبنا تفجيرات أخرى بينى وبين باقى أعضاء المجلس . . وقبلت المشروع بعد أن هدد د . العمرى وباقى الوزراء المدنيين بالاستقالة لو لم يتحسن الموقف . . وقبلت المشروع بعد أن عرفت أن عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وغيرهما ، وافقوا عليه .

وكان قبولنا لهذا المشروع ، يمثل أحد الجسور التى مدت لعبور الزمن الباقى ، لتنفيذ قرارات ٥ مارس . . لكنه لم يكن الجسر الوحيد الذى مد أمامنا ، لعبور تلك الفترة الحرجة . .

فبعد يومين ، اقترح يوسف صديق ، فى مقال نشره فى جريدة المصرى ، تشكيل حكومة مدنية ائتلافية ، برئاسة الدكتور وحيد رأفت على أن تشترك فيها كل الاحزاب والتيارات السياسية ، من الإخوان إلى الشيوعيين ، ومن الوفد إلى الاشتراكيين . . وأن تكون هذه الحكومة بهذا التشكيل هى المسئولة عن انتخابات البرلمان الجديد .

وأعجبنى هذا الرأى . .

لأنه يجمع بين رغبتى فى إجراء الانتخابات على أساس حزبى ، وفى نفس الوقت لايمنع من تنفيذ مشروع سليمان حافظ ود . العمرى الذى وافقنا عليه .

وشجعنى على ذلك تأكيد حزب الوفد على ما سبق أن أعلنه وقاله ، من أنه يوافق على الإصلاح الزراعى ، وعلى النظام الجمهورى ، وعلى عودة الحياة النيابية للجميع ، وأنه لا يعترض على معظم قرارات مجلس الثورة .

وأعلن فؤاد سراج الدين :

- إنه ليس صحيحا ما أشيع من أن النحاس يفكر فى ترشيح نفسه رئيسا للجمهورية .

وخرجت من باقى الأحزاب تصريحات أخرى مشجعة .

على أننى رغم كل ذلك ، كنت لا أزال أشعر أن هناك قنبلة ستنفجر داخل

مجلس قيادة الثورة ، لأنني كنت أعرف جيدا أن أغلبهم كان يشعر أن العد التنازلى له قد بدأ . . وأن الأيام الباقية على انتخابات اللجنة التأسيسية هى الأيام الباقية لحياته .

وسرعان ماتحول إحساسى إلى يقين . .

ولم يطل الانتظار بإحساسى لأراه أمامى واقعا . .

فبعد أيام . . وبالضبط فى ٢٥ مارس . . إنعقد مجلس الثورة . . ومنذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها وجوههم حتى أيقنت أن القنبلة على وشك الانفجار . . لا مجاملات . . ولا سلامات . . ولا ابتسامات . . وإنما . . حدة . . وتجهم . . وصراحة . . بدأ عبد اللطيف بغدادى الجلسة قائلا :

- أنا أقترح إلغاء قرارات ٥ مارس فورا .

هكذا بلا لف أودوران . . .

وكان عنده حق فى هذه الصراحة ، فقد فشلت كل الأساليب الملتوية ، وسقطت كل الأقنعة ، ولم يعد أمامهم إلا الكلام بصراحة أو الموت بصراحة .

وقد عرفت بعد ذلك أنه اتصل بزملائه من ضباط الطيران ووجدهم غاضبين على قرارات ٥ مارس ، وأيدهم فى غضبهم ، وطلب منهم الاستعداد لثورة أخرى إذا ما نفذت هذه القرارات .

وفى هذة الجلسة قال خالد محيى الدين :

- أنا أعلن تمسكى بهذه القرارات .

لكنه أضاف :

- لكننى أريد أن تنفذ هذه القرارات بصورة ديمقراطية جديدة ، تحرم رؤساء الأحزاب ، ومن طبق عليهم قانون الإصلاح الزراعى ، وكل من صوت ضد قوانين الحريات ، والذين رفضوا رفع ضريبة الأطيان من حق الترشيح للجمعية التأسيسية .

يعنى وضع قيودا على تنفيذ القرارات وقيدها .

وقال جمال عبد الناصر :

- إن مجلس قيادة الثورة سينتهى عمله فى ٢٣ يوليو القادم والأحزاب تعود إلى وضعها القديم .

وكالعادة أيده صلاح سالم ، ورفض كلام خالد محيى الدين ، وقال :
ـ لا . . كل شيء يجب أن يعود إلى صورته القديمة .
ولم أتدخل فى الحوار . .
فقد كنت أشعر أنه حوار يبعدوننا به عن أمور محددة . . ومعروفة . . وسبق مناقشتها . . واقرارها .
وفى صمت ، ودون تعليق تابعت الحوار . .
قال جمال سالم :
ـ لو أعدنا الأحزاب سيعود الحزب الشيوعى .
فقال خالد :
ـ إننى أطالب بعودة الحياة النيابية والدستور الجديد هو الذى سيحدد الموقف من الحزب الشيوعى .
وقال البغدادى :
ـ وسنفرج عن كل المعتقلين
فقلت :
ـ مرحبا بهذا القرار .
وقال أحدهم :
ـ وسنفرج عن النحاس !
فقلت :
ـ هذا حقه لأنه اعتقل ظلما ، فقد أضيف اسمه إلى كشف المعتقلين بعد توقيعى عليه .
فقال آخر :
ـ وسنفرج عن الهضيبى وباقى زعماء الاخوان .
ووافقت على ذلك .

ولم أدر ساعتها أننى أقع فى كمين أو فخ نصبوه ببراعة . . وإن كنت أحسست ساعتها أن انتقالهم من معاداة الأحزاب إلى الترحيب بعودتها ، ومن اعتقال الزعماء السياسيين إلى الإفراج عنهم ، مسألة تثير الريبة ، وتؤكد أن هناك مؤامرة ما يحيكون نسيجها . . لكن ماذا كنت أفعل ، وأنا أراهم ، رغم عدم ثقتى فيهم ، يسعون إلى تنفيذ ما كنت أريده .

وانتهى الاجتماع بعد ٥ ساعات .
واعلن صلاح سالم قرارات ٢٥ مارس !
وكانت :
١ ـ يسمح بقيام الأحزاب .
٢ ـ المجلس لا يؤلف حزبا .
٣ ـ لا حرمان من الحقوق السياسية حتى لا يكون هناك تأثير على الانتخابات .
٤ ـ تنتخب الجمعية التأسيسية انتخابا حرا مباشرا بدون تعيين أى فرد ويكون لها السيادة والسلطة الكاملة ، وتكون لها سلطة البرلمان كاملة ، والانتخابات حرة .
٥ ـ حل مجلس الثورة فى ٢٤ يوليو المقبل باعتبار الثورة قد انتهت وتسلم البلاد لممثلى الأمة .
٦ ـ تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها .
كانت هذه القرارات فى ظاهرها ديمقراطية وفى باطنها فتنة وتوتر .

فقد أثارت الناس الذين لم يرق لهم أن تعود الأحزاب القديمة ، بكل ما توحى من فساد وتاريخ أسود ، وبكل ما توحى لهم بنهاية للثورة التى عقدوا عليها كل آمالهم فى التطهر والخلاص .

وأثارت هذه القرارات ، فى نفس الوقت ، ضباط الجيش الذين أحسوا أن نصيبهم من النفوذ والسلطة والمميزات الخاصة قد انتهى .

يعنى لا الذين كانوا مع الديمقراطية رحبوا بها ولا من كانوا مع الديكتاتورية .
ولا أنصار الثورة وافقوا عليها ولا أعداؤها .
ولا المدنيون شجعوها ولا العسكريون .
كانت هذه القرارات الستة أشد انفجار من القنابل الست التى انفجرت منذ أيام .
وكنت ساعتها بين نارين . . نار أن ارفضها فأتهم بالديكتاتورية . . ونار أن اقبلهافأتهم بأننى انهيت الثورة وقضيت عليها . . لم يكن أمامى اى مفر . .

وضاعف من قلة حيلتى ، أن الملك سعود كان يزور مصر ، وكنت مشغولا به ، وببرنامج زيارته ، وكان عبد الناصر وشلته يدبرون للحظوة التالية من مؤامرتهم التى اعترف بحبكتها وبراعتها .

وكانت الخطوة التالية اتهامى بأننى أدبر خطة للثورة المضادة بينى وبين الوفد . ونشرت الصحف أن هناك اتصالات سرية تجرى بينى وبين الوفد وهذا لم يحدث بالطبع . .

كل الذى حدث هو أننى صباح اليوم التالى لصدور هذه القرارات ، طلبت النحاس باشا تليفونيا ، وسألته :

- هل أنت راض الآن ؟

فقال الرجل :

- راض على إيه ؟ . . أنتم أفرجتم عن كل الناس ، وضاعفتم الحراسة على !

فقلت :

- إن شاء الله سيزول كل هذا العناء !

وفهمت ما حدث . .

ضاعف رجال الثورة القيود على رجال الأحزاب حتى يشككوا فى صدق القرارات ، فلا يؤيدونها ، فأفقد حتى القوة الوحيدة الباقية التى لها مصلحة فى مساندتى .

وسجلت أجهزة المخابرات بأمر من زكريا محيى الدين المكالمة . . وتحولت على الفور من مكالمة شخصية إلى مكالمة سرية . . ومن سؤال عن النحاس إلى مؤامرة مع الوفد .

ودفعت المخابرات بنص المكالمة إلى جريدة « الأخبار » التى تساند عبد الناصر بكل قوتها .

ورغم ذلك لم يفرج عن النحاس . .

ولم يفرج عن أحمد حسين . . ولا عن رشاد مهنا . .

بينما أفرج عن حسن الهضيبى ، الذى اتصلت به فقالوا لى :

- فى الحمام !

وبعد الافراج عن الهضيبى ذهب جمال عبد الناصر ، لزيارته فى منزله ، فى منتصف الليل ، وفى صباح اليوم التالى ، نشرت الصحف :

انه تقرر الافراج عن جميع الاخوان .

وان الاخوان استأنفوا نشاطهم وعقدوا اجتماعا مع المرشد العام لجماعتهم .

وأعلن الهضيبى :

ـ إننا الآن أقوى مما كنا !
ووقع الإخوان فى الفخ الذى نصبه لهم جمال عبد الناصر .

فقد كان الإخوان هم القوة المرجحة لفوز إحدى القوتين المتنازعتين فى هذه المرحلة . . قوتى . . وقوة عبد الناصر . . وكان على عبد الناصر أن يستميلهم إلى جانبه ، فإذا ما كسب معركته معى ، وسيطر على الحكم استدار عليهم ، وتخلص منهم . . وهذا حدث فعلا .
لقد اشتراهم عبد الناصر ليبيعنى . . ثم . . باعهم واشترى السلطة المطلقة .

إن خطأ الإخوان فى هذا الموقف كان خطأ استراتيجيا . . لأنهم تصوروا أن القضاء على الأحزاب كان لصالحهم ، بحيث يصبحون الحزب الوحيد ، والقوة الوحيدة ، ولم يدركوا ببساطة حكاية العصا الوحيدة التى يمكن كسرها ، ومجموعة العصى التى لا يمكن كسرها معا والتى كنا نسمعها ونحن أطفال ، ولانزال نرويها لصغارنا الى الان .

والدليل على ذلك ، أنهم انتهوا إلى السجن والتعذيب والتشريد عندما وصل عبدالناصر إلى الحكم ، بينما كان موقفهم فى تلك الفترة ، ضد الأحزاب ، وضد تعدد الآراء ، حتى أن أحد قادتهم قال للصحف يوم ٢٧ مارس :

« فيما يختص بعودة الأحزاب السياسية أملنا ألا يعود الفساد أدراجه مرة أخرى ، لأننا لن نسكت على هذا الفساد بل ونؤيد الشعب كاملة ولن نطلب تأليف أحزاب سياسية لسبب بسيط هو أننا ندعو المصريين جميعا لأن يسيروا وراءنا ويقتفوا أثرنا فى قضية الإسلام » .
أى أن الإخوان ظلوا على مواقفهم القديمة ، ولم يتعلموا من درس حلهم ، ولا من درس وضع قادتهم فى السجن ، وقرروا أنهم ضد الحياة النيابية ، ومع الحياة العسكرية .
وقد سبق أن حاول الإخوان اقناعى بمثل هذا الكلام ، لكنى رفضت .
كان ذلك فى ديسمبر ١٩٥٣ .
وقد سبق أن رويت تفاصيل ما حدث ، وقلت :

« لقد حاول الإخوان المسلمون الاتصال بى فى ديسمبر ١٩٥٣ ، عن طريق محمد رياض ، الذى اتصل به حسن العشماوى ومنير الدالة وطلبوا أن تتم المقابلة

سرية بينى وبينهم واقترحوا مكانا للمقابلة منزل الدكتور اللواء أحمد الناقة الضابط بالقسم الطبى بالجيش . وكانت هذه مفاجأة لى لأنها أول مرة أعرف أن للدكتور أحمد الناقة ارتباطا بالإخوان المسلمين . ورفضت فكرة الاجتماع السرى بهم وأبلغتهم بواسطة محمد رياض أننى مستعد لمقابلتهم فى منزلى أو مكتبى . لكنهم اعتذروا عن ذلك وطلبوا أن أفوض مندوبا عنى للتباحث معهم . فوافقت وعينت محمد رياض ممثلا عنى للاجتماع بهم بعد أن زودته بتعليماتى . واجتمع محمد رياض بممثلى الإخوان المسلمين حسن العشماوى ومنير الدالة عدة مرات .

« وأوضح لهم رياض رأيى فى إنهاء الحكم العسكرى الحالى وعودة الجيش إلى ثكناته وإقامة الحياة الديمقراطية البرلمانية وعودة الأحزاب وإلغاء الرقابة على الصحف ، ولكنهم لم يوافقوا على ذلك وطالبوا ببقاء الحكم العسكرى الحالى ، وعارضوا عودة الأحزاب وإقامة الحياة النيابية كما عارضوا إلغاء الأحكام العرفية وطالبوا بإستمرار الأوضاع كما هى على أن ينفرد نجيب بالحكم وأن يتم إقصاء جمال عبد الناصر وباقى أعضاء مجلس الثورة وأن تشكل وزارة مدنية « يشترك فيها الإخوان المسلمون ولكن يتم تأليفها بموافقتهم . وأن يعين رشاد مهنا قائدا عاما للقوات المسلحة وأن تشكل لجنة سرية استشارية يشترك فيها بعض العسكريين الموالين لى وعدد مساو من الإخوان المسلمين وتعرض على هذه اللجنة القوانين قبل إقرارها ، كما يعرض عليها السياسة الرئيسية للدولة وكذلك يعرض عليها أسماء المرشحين للمناصب الكبرى . . كأن الإخوان المسلمين بذلك يريدون السيطرة على الحكم دون أن يتحملوا المسئولية .

« وقد رفضت هذه الاقتراحات جميعها ، وانتهت هذه المفاوضات السرية التى كانت بين محمد رياض والإخوان المسلمين . . وقد تعرض محمد رياض للمتاعب بعد ذلك عندما قال الصاغ حسين حمودة وكان من الإخوان المسلمين أمام محكمة الشعب أثناء محاكمته فى شهر نوفمبر ١٩٥٤ : أن اتصالا سريا تم بينى وبين الإخوان بواسطة محمد رياض ، وذكر أمام المحكمة آرائى التى نقلها محمد رياض لحسن عشماوى ومنير الدلة والتى ذكرتها سابقا ، وصدر أمر بالقبض على محمد رياض بتهمة تدبير انقلاب عسكرى مع الإخوان المسلمين ولكنه استطاع الهرب إلى المملكة السعودية بالطائرة وطلب اعتباره لاجئا سياسيا .

وتمت مقابلة بينه وبين جمال عبد الناصر فى جدة سنة ١٩٥٦ عاد بعدها محمد رياض فى سنة ١٩٥٨ .
وفى عام ١٩٦٨ اعتقل محمد رياض مرة ثانية بتهمة تدبير مؤامرة ضد جمال عبد الناصر وأفرج عنه بعد أن توسطت إحدى البلاد العربية .
إلا أن الإخوان فى لقائهم مع جمال عبد الناصر لا بد أنهم يفكرون بعقلية المعتقل الذى تحرر من سجنه ، ويريد أن يوازن بين أموره دون تورط ، وكان ذلك إيذانا بانتهاء دورهم .
وكما قلت قبل ذلك :
اقترح محمد رياض معاودة الاتصال بالإخوان المسلمين الذين وقفوا بجانبى عند استقالتى فحذرته من ذلك لفقدان الثقة فى اتجاه بعض زعمائهم ومعارضتهم قيام الأحزاب والحياة الديمقراطية .

وعاد محمد رياض فى اليوم التالى ليبلغنى أنه أرسل رسولا إلى حسن الهضيبى ، هو الآن سفير مصر فى إحدى الدول الافريقية وهو السفير رياض سامى يستفسر منه عن حقيقة موقف الإخوان واستعدادهم للخروج فى تظاهرات شعبية عند الضرورة .
وقال حسن الهضيبى أنهم لم يتدبروا أمرهم بعد ، وإنهم يفضلون الانتظار والهدوء حتى يتم الإفراج عن كافة المعتقلين .

وقد كان هذا موقف مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين أما جماهير الإخوان التى خرجت لتأييدى فى فبراير بعد استقالتى فى مظاهرات ضخمة لم تشهد مصر مثلها من قبل ، هذه الجماهير التى واجهت نيران الشرطة والبوليس الحربى وخرجت تهتف بعودتى وقت أن كانت قيادة الإخوان فى المعتقلات ، هذه الجماهير لم توافق مكتب الإرشاد على هذه السياسة بل احتل بعض شباب الإخوان المسلمين مركز الإخوان احتجاجا على ذلك . وكان هذا بداية الانقسام فى الإخوان المسلمين الأمر الذى ساعد فى القضاء عليهم .

إننى بمنتهى الصراحة لم أتصور أن يغير الإخوان موقفهم ويؤيدوا جمال عبد الناصر .

ومع ذلك ، كان مافعله عبد الناصر ، هو أهم ضربة سياسية فى حياته ، ولولاها ما وصل إلى الحكم .

وفى ليلة ٢٧ مارس . . بالضبط فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، أيقظونى من النوم . . لأجد أمامى فى حجرة النوم ، محمد رياض ، يعتذر عن هذا الاقتحام . .

قلت له فى توتر :

ـ إيه ؟ فى إيه يا محمد ؟

قال :

ـ أنا آسف يا فندم . . لكن فيه معلومات مهمة لازم ابلغها لسيادتك

قلت وقد تيقظت تماما :

ـ اتكلم . . فى إيه ؟

قال :

ـ أنا علمت يا فندم من مصادر قوية الثقة أن هناك مظاهرات ستقوم فى الصباح ، وستهتف بسقوط الأحزاب والديمقراطية .

فسألته :

ـ من سيقوم بها ؟

قال :

ـ سيقوم بها عمال النقل ، الذين اتفق معهم الصاغ احمد طعيمة (احد المشرفين على هيئة التحرير) وسيدعمهم على الفور قوات الحرس الوطنى ، الذين سيرتدون ملابسا مدنية ، ستوزع عليهم ، وهناك احتمال أن يأتى عمال من مديرية التحرير ، إلى القاهرة أيضا ، بعد أن اتفق الصاغ مجدى حسنين على ذلك .

وقبل أن ينتهى رياض من كلامه ، كنت قد أدركت أن مجلس الثورة أراد إحراق البلد ، وإحراق الديمقراطية ، وإحراق قرارات ٥ و ٢٥ مارس أيضا . . وطلبت ساعتها زكريا محيى الدين فى التليفون . .

وقلت له :

ـ أنتم تلعبون بالنار يا زكريا . . والنار ستحرقكم قبل أن تحرق أى شىء آخر . . وعليكم أن تتحملوا نتيجة ما تفعلون !

فقال :

ـ من أين جئت بهذا الكلام ، إننى لا أعرف عنها أى شىء

ولم اقتنع بنفى زكريا محيى الدين . .

واستدعيت وكيل وزارة الداخلية فى الفجر ، وأمرته أن يفض المظاهرات بالقوة وأن يمنعها قبل قيامها فطلب منى إذنا بإطلاق النار على المتظاهرين إذا لم تستطع قوات البوليس فضها . . وطلب أن يكون هذا الإذن كتابة . . فرفضت تماما . . وقلت له :

ـ تقطع يدى ولا أوقع أمرا بإطلاق الرصاص على أبناء الشعب .

وخرج وكيل وزارة الداخلية ، ودخل محمد رياض . . فطلبت منه أن يجلس لنفكر معا بصوت مرتفع . .

قال رياض :

ـ ما رأيك يا فندم أن تصدر قرارا بإقالة الوزارة ، وتعهد ألى الدكتور وحيد رأفت بتشكيل وزارة جديدة .

ثم قال :

ـ وعلى الفور أتجه أنا ومجموعة من الحرس الجمهورى والضباط الموالين لنا باقتحام البرلمان (حيث تعقد جلسات المؤتمر المشترك بين المجلس والوزارة) أثناء اجتماع الأعضاء المشتركين ونعتقلهم . . ولو استدعى الأمر نطلق الرصاص عليهم أو على من يدافع عنهم .

باختصار أراد رياض أن نعتقل الوزراء وأعضاء مجلس الثورة .

واصغيت له بأنتباه ، لأننى ، وأنا أعترف بذلك ، قد فكرت ، لأول مرة فى هذا الإجراء .

وقبل أن أتخذ هذا القرار ، فكرت أن أناقش خالد محيى الدين ، واسمع منه ، قبل أن أقول كلمتى الأخيرة.

كانت الساعة السادسة صباحا ، عندما أرسلت محمد رياض ليستدعى خالد محيى الدين .

وجاء خالد فعلا :

وقال :

ـ أنا أشك فى وجود مؤامرة ضد قرارات مارس . . ولا داعى ياسيدى الرئيس لإجراء مثل هذا التصرف العنيف .

ثم قال :

- إن جمال عبد الناصر وأعضاء المجلس فى حالة انهيار تام .

ونجح خالد فى اقناعى باستبعاد هذا القرار .

وانتهيت معه إلى أن أعتقال أعضاء المجلس ، سيؤدى إلى امرين كلاهما مر أما أن .. يعتقلوا برجال البوليس فيرفض زكريا محيى الدين ..

وأما برجال الجيش ، فتقوم اشتباكات مسلحة ، ربما تطورت لحرب أهلية ، أو دفعت الجيش إلى سلسلة من الانقلابات العسكرية .

وقبل أن أواصل سرد الأحداث الخطيرة التى وقعت ، أحب أن أتوقف قليلا ، هنا ، وأرصد وأسجل حركة القوى السياسية ، وحجمها فى ذلك الوقت ..

فى ذلك الوقت كان الوفد ضعيفا .. وكانت قيادتة مضروبة .. فقد أفرج عن فواد سراج الدين ، لكنه بقى معتقلا فى مستشفى مجدى ، كما أفرج عن إبراهيم فرج ، لكنه بقى معتقلا فى قصر العينى .. وضوعفت الحراسة على بيت النحاس .. وبقيت جماهير الوفد الكبيرة دون قيادة تحركها .. ولو تحركت جماهير الوفد لكانت معى ، لأن قيادته كانت ضد مجلس الثورة ، وضد تعطيل الانتخابات النيابية والحياة البرلمانية .

وكانت قيادات الشيوعيين فى السجن أيضا ... أما الجماهير الشيوعية فكان كل همها فى ذلك الوقت محاكمة قادتها الذين أصدروا ماسمى ببيان السجن الحربى ، والذى أيدوا فيه الثورة ، فى وقت كان الشعار المطروح عودة الجيش الى الثكنات .

وكان هذا بالتحديد موقف « حدتو » ..

أما باقى الأحزاب الشيوعية فكانت ضدى وضد المجلس ، وضد الضباط عموما .

أى أن الشيوعيين كانوا هم أيضا خارج الساحة فى ذلك الوقت ، فيما عدا « طليعة العمال » الذى كان التنظيم الوحيد الذى كان يمكن أن يلعب دورا ، لكنه لم يفعل .

وبالنسبة للإخوان سبق أن أفرطت فى شرح موقفهم ودورهم .

وبالنسبة لمن يمكن أن نسميهم بالمثقفين (نقابة المحامين . نقابة الصحافيين .

والجامعة) فقد كانوا مع الديمقراطية ، ومع الحياة النيابية ، وضد أعضاء المجلس بعد أن اكتشفوا أنهم أنصار انقلاب عسكرى ، أهدر الديمقراطية إلى الابد . . وبالتالى كان عداؤهم حاسما لمجلس الثورة ، وقد دفعوا ثمن هذا الموقف ولايزالون .

وبالنسبة لجماهير « البروليتاريا » سواء كانت تنتمى إلى الوفد إو إلى الأحزاب الشيوعية ، فإنها كانت مع إطلاق الحريات وعودة الضباط إلى ثكناتهم ، باستثناء نقابات النقل المشترك ، التى كان لها مطالب قديمة ، مثل اعادة المفصولين ، وإلغاء لائحة الجزاءات ، وصرف المتأخرات ، وكانت ترى أن الثورة هى التى ستأتى لها بهذه المطالب .

أما الضباط الأحرار « فقد كان البعض منهم يرتبط بمبادىء يقتنع بها . . جانب منهم وقف معى . . مع الديمقراطية وتعرض من ذلك لأخطار حرمتهم فيما بعد من حريتهم وامنهم فى المستقبل . . وجانب آخر وقف مع جمال عبد الناصر معتقدا أن موقفى يعتبر تراجعا عن أهداف الثورة . . وبعض هؤلاء لحقته نقمة الديكتاتورية بعد أن أزيلت الغشاوة عن عينيه واكتشف الحقيقة المؤلمة وبعد أن أصبح عاجزا عن مقاومة طوفان الارهاب . .

والبعض منهم لم يكن مرتبطا بأية مبادىء . . كان حريصا على المحافظة على مصالح نعم بها واستفاد بها . . وجانب منهم كان قد تورط فى أعمال قذرة جعلتهم يواجهون خطر المحاكمة إذا ذهبت اليد المساندة لهم .
هذه هى خريطة القوى السياسية فى مصر ، قبل ساعات من اشتعال ازمة مارس . .
فماذا حدث بالضبط ؟ !

كان من المقرر أن يزور الملك سعود الأسكندرية ، وحسب البرنامج المعد كان على أن اصطحبه ومع أعضاء مجلس الثورة ، إلى هناك . .
وفى محطة مصر ، فوجئت بهم ، عدا خالد محيى الدين ، وحسن إبراهيم ، يعتذرون .
تخلفوا فى القاهرة لينفذوا خطتهم . .
واختاروا اليوم الذى أسافر فيه مع الملك ، ليكون ساعة الصفر المناسبة لخطتهم . .

وبينما أنا أرافق الملك سعود فى الأسكندرية ، انفجرت المظاهرات فى القاهرة . . كانت مظاهرات مفتعلة ، تغمر شوارع القاهرة وتسد طرقاتها وتهتف بحياة الثورة والضباط وتطالب بسقوط الأحزاب والرجعية والديمقراطية . . ودارت المظاهرات حول البرلمان والقصر الجمهورى ، ومجلس الدولة . . وكررت هتافاتها . . واذكر منها الآن : « لا أحزاب . . ولا برلمان » !

ووصلت (الخطة السوداء) ذروتها فى هذا اليوم ، عندما اشتروا كما سبق وقلت بعض القيادات العمالية الصفراء مثل صاوى أحمد صاوى (صو صو) رئيس اتحاد عمال النقل ، ودفعوهم إلى عمل إضراب يشل الحياة والحركة واشترك فى المظاهرات جنود من البوليس الحربى يرتدون الملابس المدنية وعمال مديرية التحرير المسلحون بالعصى ، وجنود الحرس الوطنى مرتدين الملابس المدنية ، وكنت قد أمرت بتشكيل هذا الحرس الوطنى قبل أن أبدأ المفاوضات مع الانجليز وعهدت بقيادته إلى كمال الدين حسين للقيام بالأعمال الفدائية ضد قوات الاحتلال البريطانى فى منطقة القناة .

قطعت زيارتى للإسكندرية وعدت بالطائرة فى المساء الى القاهرة لأجد مجموعة من الضباط فى انتظارى وهم ينتظرون منى أمر الحركة .

امتلأ منزلى بعدد كبير من الضباط وفدوا من مختلف الوحدات يعلنون استعدادهم الكامل لتحريك قواتهم ضد مجلس الثورة ، أو اعتقالهم فى مقرهم . . وكان فى مقدمة هؤلاء القائمقام أحمد شوقى قائد حامية القاهرة والذى كان ليلة الثورة قائد الكتيبة ـ ١٣ مشاة والذى قام بدور بارز ليلة ٢٣ يوليو . وكان قد أرسل خطابا مفتوحا نشرته الصحف يطالب فيه بتشكيل وزارة مدنية والإصرار على تنفيذ قرارات ٢٥ مارس .

كان الموقف يقترب من نقطة الصدام . . من المذابح ونزف الدماء . . من الحرب الأهلية . . كانت أية تعليمات ألقيها فى هذه اللحظة تتحول إلى قذائف مدفعية وطلقات رصاص » .

وكان إعطائى الأمر لهؤلاء الضباط المحتشدين يعنى تناطح الجيش وسقوط الضحايا ونزيف الدماء واحتمالات الحرب الأهلية والخراب والتدخل الأجنبى » .

هذا إلى احتمال آخر . .
ماذا لو انتصر هؤلاء الضباط ؟ . .
هل يقبلون العودة فورا الى الثكنات ؟ . .
ألا يطالبون بالانتظار فترة إلى أن تستقر الأمور ثم تطول المدة إلى أن يستقروا فى السلطة ؟ . .
المشكلة كلها تتركز فى الانقلاب العسكرى . . فى تحريك قوات الجيش لتغيير الأمور تحت تهديد السلاح .
هذا العمل فى ذاته حتى لو تم تحت أعظم الشعارات التى يتبناها الشعب لابد أن ينتهى إلى فرض إرادة الجيش على السلطة وإنتهاء الديمقراطية وبدء عهد من الديكتاتورية العسكرية » .
وعرفت فى ذلك الوقت تفاصيل الإضراب الذى وقع فى ذلك الصباح . .
عرفت أن دار اتحاد نقابات النقل المشترك اختيرت مكاناً للاعتصام . . وأن السبب فى هذا الاختيار هو أن الاتحاد المشترك يسيطر على شريان القاهرة الحيوى وهو المواصلات . .

وعرفت أن الاعتصام بدأ من السابعة والنصف من مساء اليوم السابق ، واستدعيت مجالس إدارات النقابات الآخرى لتتخذ قراراتها بالاضراب والاعتصام . . وأخذت الاذاعة المصرية فى اذاعة قرارات النقابات الآخرى حتى قبل اتخاذها فعلا . . وقد تضمنت هذه القرارات صيغة شبه موحدة وهى :
١ ـ عدم السماح بقيام الأحزاب .
٢ ـ استمرار مجلس قيادة الثورة فى مباشرة سلطاته حتى يتم الجلاء .
٣ ـ قيام هيئة تمثل جميع النقابات والاتحادات والروابط والجمعيات والمنظمات الى جانب مجلس قيادة الثورة لتكون بمثابة الجمعية الوطنية ، تعرض عليها القرارات التى يرغب المجلس فى إصدارها .
٤ ـ عدم الدخول فى معارك انتخابية .

وفى ذلك اليوم جاءتنى معلومات « مؤكدة ان اتفاقا قد تم بين الأمريكان وبعض أعضاء مجلس الثورة على هذه المؤامرة وأن قوات الاحتلال البريطانى وضعت فى حالة استعداد وأنها أحتلت مواقع متقدمة على طريق السويس القاهرة للتقدم فى حالة حدوث اشتباك مسلح لاحتلال القاهرة » .

وقال خالد محيى الدين :

ـ ان صحفيا فرنسيا إسمه روجيه استيفانو من مجلة لو نوفيل اوبزرفاتور قال لى انه عرف بحكم صلته الوثيقة بالسفارات الأمريكية والبريطانية والفرنسية ان جمال عبد الناصر وبعض رفاقه أعطوا للأمريكان : إشارة بالتساهل فى توقيع اتفاقية الجلاء وإدخال تركيا فى حالة العودة إلى القاعدة ، وذلك ثمن لتأييدهم فى المعركة ضد نجيب .

وبعد أن استعرضت كل ماحصلت عليه من معلومات ، حسمت أمرى وقررت : عدم اللجوء الى القوة . . رفض اعتقال مجلس الثورة . . عدم تحريك القوات . . ترك الامور كلها للشعب .

وكان الشعب معى فعلا . .

ففى نقابة المحامين طالبت الجمعية العمومية بالديمقراطية وعودة الضباط إلى ثكناتهم .

وفى الجامعة اجتمعت هيئة التدريس بجامعة الأسكندرية فى يوم ٢٧ مارس وأصدروا بيانا طالبوا فيه بإلغاء الأحكام العرفية وتركيز السلطة لحين اجتماع الجمعية التأسيسية ، فى يد وزارة مدنية تتحمل المسئولية أمام الشعب بالاشتراك مع رئيس الجمهورية .

وفى نفس اليوم عقد طلبة جامعة القاهرة مؤتمرا وطنيا أعلنوا فيه تأليف « جبهة الاتحاد الوطنى » التى تضم الوفديين والاشتراكيين والإخوان المسلمين والشيوعيين ، واتخذوا قرارات بإلغاء الأحكام الاستثنائية والإفراج عن المعتقلين وتأليف وزارة ائتلافية لإجراء الأنتخابات وإلغاء مجلس الثورة فورا .

ولكن . .

كان صوت الغوغاء اعلى من صوت الشعب .

واثناء مناقشاتى مع الضباط حضر إلى منزلى سليمان حافظ ود . السنهورى وعبد الرحمن عزام ، وتوسعت المناقشة .

وعندما انتهت المناقشة مع الجميع أيقنت أننى أمام أحد أمرين :

إما استخدام القوة العسكرية .

وإما الاستقالة .

واحمد الله أننى أخترت الاستقالة . . فقد جنبت البلاد الانقسام . . لكن . . فى

نفس الوقت ، وبعد مرور ٣٠ سنة ، أعترف أنني أخطأت . . فلو كنت قد واصلت الصراع ، ولم أنسحب منه تحت أى شعار براق أو عاطفى أو أخلاقى ، لما وقعت مصر فى المصيدة العسكرية . . ولكانت قد تجنبت دفع الثمن الباهظ الذى دفعته من حريتها ومن دماء أبنائها فى داخل السجون والمعتقلات .

ولم يستثنى من دفع الثمن الذين خدموا عبدالناصر ولعبوا أدورا لصالحه مثل الصاوى أحمد الصاوى ، الذى اعتدى عليه أحمد أنور ، بالضرب فى مطار القاهرة ، أمام المودعين أثناء سفر جمال عبد الناصر إلى باندونج . . وألقى عظاما بعد أن أكلوا لحمه .

وقد جرت تلك الأحداث المؤسفة على مسمع ومشهد من الملك سعود الذى كان يقيم فى قصر الطاهرة المخصص لكبار الزوار . .
وحاول الملك سعود التدخل لحل الأزمة . .
فاتصل بى تليفوينا ورجانى أن أحضر لمقابلته . . فرحت إليه .
واستدعينا من عنده جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر و د . السنهورى فحضروا بعد منتصف الليل تقريبا .
وكما كتبت من قبل :
كان الاجتماع هادئا ومرهقا معا .
لم أستطع النظر فى وجه جمال عبد الناصر وعبد الحكيم . . كنت أرى على وجهيهما قناع إبليس . . ومن أيديهما تقطر الدماء . .

كنت منهكا كملاكم فى الجولة الثانية عشرة . . لم أهزم بالضربة القاضية ، ولكنى هزمت بالنقط بعد كفاح طويل . . فقد كانت نقابة المحامين مازالت تعلن عن الأضراب وطلبة الجامعة يعقدون مؤتمرا يؤيدون فيه الاتجاه الديمقراطى وهيئات التدريس فى الجامعات أصدرت بيانات تؤيد الديمقراطية والحياة النيابية . . ولكنى واثق أن قوات الجيش الموالية لمجلس الثورة يمكن ان تتحرك لإطلاق الرصاص على أية هيئة إذا تعرضت خطتهم السوداء للفشل .

قلت للملك سعود :
ـ لقد وصلت الأمور إلى نقطة الافتراق . . ولم يعد هناك سبيل للتفاهم مع

أعضاء المجلس بعد أن تآمروا على وعرضوا سلامة مصر إلى الخطر ..
ثم بعد لحظات من الصمت ، اعلنت :
ـ وقرارى هو .. الاستقالة !
وفوجئت بجمال عبد الناصر يعارض هذا القرار ، ويصر على عدم الاستقالة .

« ولم أشهد إصرارا من جمال عبد الناصر على معارضة هذا القرار مثلما شاهدت هذه الليلة .. وكان يؤكد إصراره هو وزملائه على بقائى معهم رئيسا للجمهورية ورئيسا لمجلس الثورة .. وكنت أصر على الرفض رفضا مطلقا .

واستمرت المناقشات ساعات حتى وصل إلينا صوت المؤذن للصلاة .. صلاة الفجر ، من المسجد القريب .. الأعصاب أنهكت والأفكار جمدت والجسم أصابه الإرهاق .. ولم يعد هناك من جديد .
وتحت إلحاح الجميع قبلت البقاء فى موقعى إنقاذا لمصر ومنعا للحرب الاهلية .

وكان واضحا أن معارضة جمال لهذا القرار لاتنبعث من حبه لى ، ولكن من خشية انفجار مثلما حدث منذ اربعه اسابيع فقط ، فى شهر فبراير ، كانت الخطة السوداء قد اكتملت .. ضباط البوليس أعلنوا أن العودة للحياة النيابية مع وجود الاحتلال خدمة استعمارية .. وقوات الحرس الوطنى ومنظمات الشباب التى يقودها الصاغ وحيد جودة رمضان نقلت قواتها إلى القاهرة ، وعمال مديرية التحرير التى يديرها مجدى حسنين استقرت فى القاهرة أيضا .

وفى يوم ٢٩ مارس وقع الاعتداء على الدكتور السنهورى .
صباح ذلك اليوم نشرت جريدة « الاخبار » ان الجمعية العمومية لمجلس الدولة سوف تجتمع اليوم بدعوة عاجلة من رئيس المجلس .. وأوحت الأخبار أن المجلس سيتخذ قرارا ضد الثورة .

وكان هذا الايحاء غريبا .. فالدكتور السنهورى كان دائما مع الثورة ، وكان يسارع دائما هو وسليمان حافظ ، إلى إرضائها بصياغة ما تشاء من تشريعات ، وكان كما عرفت من سليمان حافظ فيما بعد : أكثر لوما لى من عبد الناصر .

وتوجهت مظاهرة مدبرة من عمال مديرية التحرير ، ومن ضباط وجنود البوليس الحربى ، إلى مجلس الدولة ، بعد سحب الحراسة من عليه .

وكان أحمد أنور قد طلب من حسين عرفه (الأول كان مديرا للبوليس الحربى يومها والثانى كان ضابطا عنده) منع اجتماع الجمعية العمومية لمجلس الدولة بالذوق أو بالقوة .

فذهب حسين عرفه إلى السنهورى ، ليطلب منه ذلك ، فرفض السنهورى مقابلته . . فأرسل مندوبا من البوليس الحربى للطحاوى وطعيمة (هيئة التحرير) فوصلت المظاهرات ، إلى المجلس تهتف : « الموت للخونة » .

واقتحم المتظاهرون مبنى المجلس ، ودخلوا قاعة الاجتماع ، واعتدوا بالضرب على د . السنهورى ، وعلى بعض الأعضاء ، وبعد ذلك حبسوهم فى القاعة ، وأجبروهم على توقيع بيان بتأييد مجلس الثورة .

واستغاث بعض موظفى المجلس بالمسئولين هاتفيا أكثر من مرة ، حتى جاء صلاح سالم ، الذى تظاهر بتهدئة الغوغاء ، واصطحب السنهورى إلى بيته فى مصر الجديدة . . ولم يعد السنهورى من يومها إلى مجلس الدولة . .

كان الاعتداء على السنهورى اعتداء على القانون فى صورة رجاله . . وكان هذا الحادث هو الأول من نوعه ولكنه لم يكن الأخير . .

وكان هذا الحادث السطر الأول فى ملحمة عصر غياب القانون .

ورحت أودع الملك سعود ، فى نفس اليوم ، فى المطار . . وراح معى جمال عبد الناصر وباقى أعضاء مجلس الثورة . . وصعدت سلم الطائرة مبالغة فى تكريم الملك سعود ، فظن بعض أعضاء المجلس أننى أنوى الهروب إلى السعودية ، ففوجئت بمن يشدنى من ثيابى ، فأحسست ، بجانب الإرهاق العصبى والنفسى والجسدى ، الذى كنت أعانيه ، بطعنة فى صدرى . . وتكاتفت كل هذه العناصر على ، حتى سقطت من طولى ، وأسرع أطباء القوات الجوية ، ومنهم د . رجب عبد السلام ، لإسعافى .

ونقلت من المطار إلى البيت ، وكان معى جمال عبد الناصر .
وكان يبدو وكأنه مضطرب ، يعانى من خوف على صحتى ، ودخل حجرة نومى ، وتمنى لى الشفاء العاجل . . كل ذلك ليقنع الناس أنه برىء مما حدث ، أو مما قد يحدث لى . .

وعرفت يومها معنى المثل البلدى القائل :
- يقتل القتيل ويمشى فى جنازته !
فقد كانت هذه اللحظات هى لحظات نهايتى الفعلية . . وكانت لحظات نهاية الديمقراطية أيضا . .
أنا والديمقراطية انتهينا فى لحظة واحدة .

وفى الساعة السادسة والنصف من مساء اليوم أذاع صلاح سالم القرارات الخطيرة التالية التى توصل إليها الاجتماع المشترك بين المجلس والوزارة ، وحضره كل الأعضاء من الجانبين ، ما عدا الوزراء المدنيين الذين سبق أن قدموا استقالاتهم بعد قرارات ٢٥ مارس وهم : حلمى بهجت بدوى وعبد الجليل العمرى ووليم سليم حنا وعباس عمار وحسن بغدادى ، وكانت هذه القرارات :
أولا : إرجاء تنفيذ قرارات ٥ و ٢٥ مارس حتى نهاية فترة الانتقال فى العاشر من يناير ١٩٥٦ .
ثانيا : يشكل فورا مجلس وطنى استشارى يراعى فيه تمثيل الطوائف والهيئات والمناطق المختلفة ويحدد تكوينه واختصاصه القانون .
لكن . .
لا هذه القرارات نفذت بعد نهاية الانتقال ولا بعدها .
ولا المجلس الوطنى كان له دور ولا اجتمع أبدا .
وبدأت رحلة مصر السوداء مع الظلم والإرهاب والمعتقلات .
وفى اليوم التالى ، بدأ عبد الناصر فى تصفية حساباته مع الجميع ، على ضوء هذه الأزمة .

لقد بدأ مجلس الثورة فى تتبع القوى السياسية ، وأخذ يصفيها بالقوة وبالاعتقال وبالمحاكمات الصورية .
وبقيت فى الفراش ثلاثة أسابيع أتابع ما يحدث من الجرائد . .
وفى ١٥ أبريل قرر مجلس الثورة :
١ - تطهير الصحافة .
٢ - منح سلطات للمسئولين فى الجامعات لضمان انتظام الدراسة فيها .
٣ - البحث فى اصدار قانون لحماية الثورة والأسس التى يقوم عليها المجلس القومى . . أو الوطنى .

وكانت ترجمة هذه القرارات ، حل مجلس نقابة الصحافيين ، واتهام الكثير من رجال الصحافة بتقاضى مصروفات سرية ، ومنهم حسين أبو الفتح وفاطمة اليوسف وإبراهيم عبده واحسان عبد القدوس وكامل الشناوى . . وفى نفس اليوم صدر قانون حرمان من تولى منصبا وزاريا من ٦ فبراير ١٩٤٣ إلى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، من كافة الحقوق السياسية . . وعلى ذلك حرم الوزراء الوفديون ، والدستوريون والسعديون من حقوقهم ، وكان منهم النحاس ، وفؤاد سراج الدين ، ومحمد حسين هيكل ، وإبراهيم عبد الهادى ، وأحمد نجيب الهلالى ، ومحمد صلاح الدين ، والسنهورى ، وغيرهم . (كانوا ٢٢ وزيرا وفديا و٨ سعديين ، و٨ دستوريين) وانتهى الضباط الذين وقفوا إلى جانبى إلى السجن .

أما الذين وقفوا بجانب عبد الناصر فكان مصيرهم السجن أيضا ، أو الإبعاد ، ومنهم : أحمد أنور ، وأحمد طعيمة ، وعبد الفتاح فؤاد ، ومجدى حسنين ، ووحيد جودة رمضان وحسين عرفة ، وجمال القاضى ، وعبد الرحمن نصير ، وأبو الفضل الجيزاوى ، وغيرهم .

ولم يلبث أن سيطر عبد الناصر على كل شيء . .

فبعد يومين من هذه القرارات ، وفى ١٧ أبريل ، تولى رئاسة الوزراء وامتنعت عن حضور جلسات المجلس ، وأدخل حسين الشافعى إلى وزارته ، وزيرا للحربية ، وحسن إبراهيم وزيرا لشئون رئاسة الجمهورية .

وأصبحت السلطة الشرعية والفعلية فى يده تماما .

وقام عدد من ضباط سلاح الفرسان بإعداد خطة للهجوم على مجلس قيادة الثورة تحت شعار إعادة الديمقراطية وهى القضية التى اعتقل فيها أكثر من ٢٥ ضابطا وحكم فيها على اليوزباشى أحمد المصرى بالسجن ١٥ عاما .

وكان خالد محيى الدين ، عندما عاد من الاسكندرية ، بعد أن ذهب معى إليها ، أثناء زيارة الملك سعود ، قد قدم استقالته فقبلها جمال عبد الناصر ، فورا ، وسأله :

ـ ماذا ستفعل ؟

قال خالد :

ـ مش عارف !

فقال عبد الناصر :

ـ لا . . قعاد هنا مفيش !

وتفى خالد إلى سويسرا . . وفتح الباب أمام تشريد باقى الضباط ، إما إلى السجن ، وإما إلى المنفى .

وهذا ما دفع ضباط الفرسان ، لإعداد خطة للتحرك ، والسيطرة على الحكم فى ٢٤ أبريل ، لكنهم اعتقلوا قبل ساعة الصفر بعد أن وشى بهم أحد ضباط البوليس الحربى الذى كان معهم . . وحوكموا أمام لجنة أشرف عليها زكريا محيى الدين ، وكان أحد أعضائها الدجوى .

وفى آخر مايو اعتقل ٢٥٢ شيوعيا .

واعتقل عدد كبير من الضباط الإخوان فى الجيش .

ولم يلبث أن دفع الإخوان ثمن تأييدهم لعبد الناصر ، فى أزمة مارس عندما دبر ما سمى بحادث الاعتداء عليه فى المنشية يوم ٢٦ أكتوبر ، واتهم فيها محمود عبد اللطيف .

ففى ١٩ اكتوبر وقع النص النهائى لاتفاقية الجلاء ، وظهر فى هذه الاتفاقية ما سبق أن قيل حول العلاقة بين التخلص منى ، وبين توقيع الاتفاقية ، فقد نصت على السماح للقوات البريطانية بالعودة للقناة فى حالة الهجوم على تركيا ، عضو حلف الاطلنطى ، وهو الأمر الذى يجعل مصر ترتبط عمليا بالأحلاف .

وكان ثمنا فادحا دفعه الموافقون وعلى رأسهم جمال عبد الناصر للاستعمار . . وقارنت بين رفضى لمجاراة الأمريكان فى آرائهم أو عروضهم بينما ظلت الأبواب مفتوحة بينهم وبين عبد الناصر يدخل منها المسئولون وعملاء المخابرات الامريكية . . وتعقد خلال ذلك الصفقات السياسية المريبة .

« وأرسلت مذكرة بآرائى فى اتفاقية الجلاء ، ووصلت المذكرة إلى الإخوان المسلمين ، الهيئة الوحيدة المنظمة والمصرح بوجودها عن طريق لا اعرفه فقاموا بطبعها وتوزيعها منشورا .

وبينما يلقى جمال عبد الناصر خطابا فى المنشية ، فى ٢٦ أكتوبر ، احتفالا بتوقيع الاتفاقية ، أطلقت عليه عدة رصاصات ، وسط ١٠ الآف شخص فى السرادق ، واتهم محمود عبد اللطيف .

كان محمود عبد اللطيف يجلس على بعد ١٥ مترا من المنصة والضيوف ، وقيل إنه اطلق عليه ٩ رصاصات ، لكن عبد الناصر لم يصب ، وأصيب ميرغنى حمزة (وزير سودانى) وأحمد بدر المحامى . .

وكانت هذه المسرحية المدبرة ، محاولة لتحويل عبد الناصر إلى بطل شعبى ومحاولة لينسى الناس عوار اتفاقية الجلاء ، ثم هى فرصة ليتخلص عبد الناصر من القوة الوحيدة الباقية وهى الإخوان .

أقول مسرحية لأن محمود عبد اللطيف المتهم باغتيال عبد الناصر كان معروفا عنه مهارته فى إصابة الهدف بالمسدس ، كما أنه من الفدائيين المحترفين الذين أرقوا الانجليز فى منطقة القناة عام ١٩٥١ ، ثم أن المسافة كانت قريبة تسمح له بإصابة الهدف وهو جسد جمال عبد الناصر العملاق ، ثم إن الرصاصات كانت تسع ، وكان من الطبيعى أن يصاب بواحدة منها على الأقل ، ولو إصابة سطحية .
أكثر من ذلك ذهب الاتهام إلى حد القول بشريك آخر يسنده بمسدس أو قنبلة . .
ولو أراد الإخوان أن يقتلوا عبد الناصر ويضمنوا نجاح العملية فلماذا لم يرسلوا خمسة أو عشرة لتنفيذها . .

واتضح فيما بعد أن الحائط المواجه لإطلاق النار لم يكن به أى أثر للرصاص مما يثبت أن المسدس كان محشوا برصاص « فشنك » .
ورغم ذلك أبرقت له مستفسرا عن صحته .
وأرسلت مندوبا عنى له .
لكنى فوجئت بأن الجرائد لم تنشر هذه الأخبار .
وعندما سألته عن السبب بعد أن قابلته ، قال :
ـ هى كثرة المشاغل لا أكثر ولا أقل :
ولأننى عرفت أسلوبه جيدا ، فقد قلت له :
ـ هل تريدون ان توهموا الناس بأنى راض عن هذا العمل ؟
ثم أضفت :
ـ عبثا تحاول تلويث سمعتى بهذه الأعمال الإرهابية . . فإن يدى كانت وستظل نظيفة وليست مثل (الأيادى القذرة) التى تعمل فى الظلام .

ونجح عبد الناصر بهذا الحادث ان يضرب اكثر من عصفور بحجر واحد .

ضرب الإخوان .
وضربني .

فقد اعتقل الإخوان ، وشكل في اول نوفمبر محكمة الشعب (برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات وحسين الشافعي) لمحاكمتهم وبلغ عدد الذين حوكموا أمامها ٨٦٧ وعدد الذين حكمت عليهم ٢٥٤ ، وحكم بالإعدام على سبعة من كبار المتهمين ، في ٤ ديسمبر وهم محمود عبد اللطيف ، ويوسف طلعت ، وإبراهيم الطيب ، وهنداوى دوير ، والشيخ محمد فرغلي ، وعبد القادر عودة وحسن الهضيبي ، الذي خفض الحكم عليه الى المؤبد .

أما أنا فقد تلقيت وعدى في ١٤ نوفمبر .

في ذلك اليوم توجهت إلى مكتبي في القصر الجمهوري ، فوجدت بعض ضباط البوليس الحربي على باب القصر . . وتبعني إثنان منهم إلى المكتب فنهرتهما . .

فقالا لي :

« إن عندهما تصريحا من كبير الياوران بالنيابة بالدخول ، وهو الاميرالاى حسن كامل الذي عين سفيرا فيما بعد . . وبحثت عنه فلم اجده » .

نهرتهما بشدة . . فخرجا .

واتصلت بعبد الناصر ، فقال :

- سوف أرسل لك عبد الحكيم وحسن إبراهيم .

وعندما جاء عامر وحسن إبراهيم قالا لي في خجل وبصوت خافت :

- إن مجلس الثورة قرر إعفاءكم من منصب رئيس الجمهورية .

وهنا قلت :

- أنا لن أستقيل الآن لأني بذلك سأصبح مسئولا أمام التاريخ عن ضياع صلة السودان بمصر . . أما إذا كان الأمر إقالة فمرحبا لأنكم تعفونني من مسئولية لم يعد ضميرى يحتملها .

وخرجت معهما حاملا المصحف وحده من المكتب .

وركبت مع حسن إبراهيم عربة اتجهت بي إلى المرج . . إلى منزل كان استراحة ريفية لزينب الوكيل ثم وضع تحت الحراسة . .

وقال لي عامر :

- إن اقامتك المرج لن تزيد عن بضعة أيام .

ولكن إقامتي في المرج استمرت من نوفمبر ١٩٥٤ إلى أكتوبر ١٩٨٣

الفصل الحادى عشر

كيف ضاع السودان؟

- مايشكو منه السودانيون هو نفسه ما كانوا يشكون منه منذ أربعين سنة .
- عبد الناصر كان يعتبر السودان عبئا على مصر يجب التخلص منه .
- تخلص مجلس الثورة من وحدة وادى النيل مقابل استقلال مصر عندما قال صلاح سالم : السودان ضايع . . ضايع .
- مظاهرة ضدى فى الخرطوم تهتف : لا مصرى ولا بريطانى . . السودان للسودانى .

قبل أن أسرد ماحدث لى فى معتقل المرج ، أريد أن اتوقف قليلا عند بعض القضايا الداخلية والخارجية ، التى كنت طرفا فيها ، مثل قضية الجلاء وقضية السودان ، وقضايا التحول الاجتماعى والاقتصادى داخل مصر بعد الثورة . لقد أنهكتنى رواية الصدام والنزاع بينى وبين عبد الناصر ، وجعلت أحاسيسى كلها تهتز وأنا استعيد تفاصيلها ، وحاولت فيها أن أكون موضوعيا ، قدر استطاعتى ، فأنتهى بى ألحال إلى مزيد من الألم النفسى الحاد ، الذى لم أعد احتمله بعد كل هذه السنين . . ولم يكن من الممكن أن أواصل رواية الغم والألم ، فى معتقل المرج ، دون أن اقطعها بفصول تبعدنى عنها ، ولو قليلا . . وقد أخترت أن أبدأ هذه الفصول بفصل عن السودان ، وقضيته مع الانجليز والاستقلال وثورة يوليو . . وأنا لست فى حاجة إلى أن أذكر إلى أى مدى أحب السودان والسودانيين . . فهذا معروف عنى تماما . . وما رويته عن جدى وأبى وطفولتى وصباى هناك يضيف إلى ما هو معروف عنى ، ماهو غير معروف عنى . . ورغم ذلك فهناك فى ذاكرتى ، وأوراقى ، ومذكراتى الخاصة والعامة عن السودان ما لم اذكره إلى الآن على هذه الصفحات .

إن السودان لم يكن بالنسبة لى مجرد ارتباط عائلى ولا عاطفى . . وانما كان ايضا ايمانا بأهميته وضرورته لمصر . . ولم يكن مجرد فصل من حياتى وانما هو ايضا فصل من حياة مصر .

وهذا الفهم الذى يعتبره معظم ابناء الجيل الجديد مفاجأة ، كان منذ عشرات السنين حقيقة ، لم نكن نتصور انها ستصبح وهما وسرابا . . والدليل على ذلك اننى قلت وسجلت فى كتابى عن السودان ، منذ ٤٠ سنة ، مانقوله ونطرحه ونناقشه الآن ، ونحن نتكلم عن علاقة مصر بالسودان . .

ففى هذا الكتاب الذى سميته « رسالة عن السودان »، قلت فى التمهيد لموضوعاته وفصوله :

اننا فى أشد الحاجة الى تلقين أحوال السودان وشئونه ، كجغرافيته واقتصاديته واجتماعياته ، لأبناء مصر من طلبة العلم وعامة الشعب ، مع أن اهل السودان يكاد الواحد منهم لا تخفى عليه خافية من أمور مصر بحكم تطلعهم إليها وظمأهم إلى الاغتراف من مناهلها، ولايمان الأغلبية الساحقة منهم بضرورة وحدة

وادى النيل ، وبينما لا ينقطع سيل الزوار السودانيين لمصر طوال العام يندر أن يفكر مصرى فى زيارة السودان أو حتى فى قراءة الصحف السودانية لمعرفة أحواله ، مع ما لذلك من اثر عظيم فى تقوية الروابط وفى هذا الكتاب عرضت ما يأخذه علينا اخواننا السودانيين ، وللأسف لم يتغير اى شيء من هذه المآخذ الى الآن . .

فهم يأخذون علينا جهلنا بأمور السودان « من لغة ودين ومدنية وجغرافية » مستشهدين بأمثلة يخجل الانسان منها فى كثير من الأحيان ، بينما يعرف السودانيون اننا ملمون بالكثير من شئون البلاد العربية الأخرى بل ونعرف عن اوروبا وامريكا اكثر مما نعرف عن السودان » .

ويأخذون علينا إهمال الكثير من ابنائهم ممن ضحوا فى سبيل وحدة وادى النيل ، وكانت نتيجة ذلك اننا اصبحنا نوصف بنكران الجميل .

ويلوموننا على اهمال ربط مصر والسودان بالمواصلات السريعة كالسكة الحديد من الشلال الى حلفا مع تخفيض الأجور ، ويعجبون من عدم تحسين الاذاعة اللاسلكية الى السودان ، ومن عدم القاء المحاضرات واصدار الكتب والنشرات لتنوير الاذهان فى مصر عنه .

وفى هذا الكتاب ، سردت تاريخ الاحتلال البريطانى له ، وتكلمت عن الأدب والفن فيه ، وتوقفت طويلا عند علاقة مصر به . . وخلصت فيه الى ان قضية السودان كانت دائما حجر عثرة فى جميع المفاوضات بين مصر وبريطانيا للجلاء عن وادى النيل . . فقد كنا دائما نرفض أن تكون مهمة الدفاع عن السودان واقعة عن بريطانيا وحدها فى حين ان لمصر حقا متساويا على الأقل مع حق بريطانيا وحدها .

لقد بدأت علاقة مصر وبريطانيا بالسودان من يوم ان وقعتا اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ ، والتى وقعها عن مصر بطرس باشا غالى ، ووقعها عن بريطانيا اللورد كرومر ، وقد كانت هذه الاتفاقية تقرن دائما بكلمة « المشؤومة » لأنها ابتكرت صيغة « الاحتلال المشترك » ، التى لم يعرفها العالم من قبل . . وقد كانت هذه الاتفاقية من وجهة نظر مصر بعد ذلك اتفاقية باطلة ، لأن مصر ساعة ان وقعتها لم تكن تملك وقتها اى حق فى عقد معاهدات تتنازل فيها عن أى جزء من اجزائها أو ادارتها ، فضلا على أنها كانت محتلة من الانجليز وهم الذين يسيطرون على مقدراتها .

وبعد توقيع هذه المعاهدة ، حاولت بريطانيا اخراج مصر من السودان ، والانفراد بحكمه ، وكانت حجتها فى ذلك ، كما قال « اللورد كرومر » ان رمال السودان تبتلع أموال مصر وتهدد خزائنها بالافلاس لكن محاولتها فى ذلك الوقت ، فشلت .

وعندما اغتيل سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام السيرلى استاك فى القاهرة فى نوفمبر ١٩٢٤ ، حاولت انجلترا ان تجد من هذا الحادث زريعة لطرد المصريين من السودان . . ولكن .·. سعد زغلول رفض هذا الاجراء ، وانذرها ، بعودة وحدات الجيش المصرى الى هناك خلال ٢٤ ساعة فقط . .

وكان سعد زغلول قبل هذا الحادث بشهور قد سافر الى لندن لمفاوضة رمزى ماكدونلد رئيس حكومة العمال ، وكانت قضية السودان احدى نقاط التفاوض التى حملها معه . وساعده على طرحها ، ما كان يتعرض له ابطال الحركة الوطنية السودانية من وحشية وقسوة على يد الانجليز وفى هذه المفاوضات أعلن سعد باشا تشبث مصر بالبقاء فى السودان ، وطالب ان يكون جزء من التاج المصرى ، وان يحمل ملك مصر ، لقب ملك مصر والسودان .

ورد عليه اللورد ماكدونالد قائلا :

ـ ان الحكومة البريطانية لا تترك السودان بحال وهى تقدر التعهدات الواجب تحملها والتى لا يمكن تركها من غير أن تصاب بريطانيا العظمى بخسارة عظمى .

وقال :

ـ وأستطيع أن أقول من غير تردد أن نظام السودان لن يسمح بتغييره ولا ان ينفذ ذلك التغيير من غير موافقة البرلمان .

كانت هذه الكلمات صدمة شديدة لسعد زغلول الذى ذهب حاملاً المطالب المصرية ، والتى تتلخص فى سحب جميع القوات البريطانية من الأراضى المصرية واقرار حقوق مصر فى السودان كاملة . . وكان الجواب الوحيد عند البريطانيين هو الرفض المطلق لهذه المطالب . . وفشلت المفاوضات بعد ثلاث جلسات فقط .

وعندما وقعت حكومة الوفد معاهدة ١٩٣٦ ، أصر مصطفى النحاس على أن تنص على عودة القوات المصرية الى السودان ، وعودة رجال الادارة المصريين الى

هناك ، مع الاحتفاظ بمسألة السيادة على السودان ، التى لم تسلم بها مصر لبريطانيا فى يوم من الأيام .

وعندما جاء اسماعيل صدقى وبدأ مفاوضاته مع بيغن ، كانت السودان إحدى نقاط هذه المفاوضات . . وقال اسماعيل صدقى :

ـ ان مستر بيغن دهش لاهتمامنا البالغ بالسودان ، فكان ردى عليه ، ان عدم الاهتمام هو الذى يدعو الى الدهشة .

وقال :

ـ وعندما احسست انهم يريدون استغلال هذا الاهتمام فى اظهارنا بمظهر المستعمر . أكدت له أننا لا نريد سوى استبقاء الوضع الذى سمح لنا بتقديم كافة صنوف المعاونة للسودان .

وفى هذه المفاوضات انتزعت مصر من الانجليز الاعتراف بوحدة وادى النيل ، شماله وجنوبه تحت التاج المصرى .

ولكن بعد أن وقع الطرفان مشروع المعاهدة بالأحرف الأولى فى اكتوبر ١٩٤٦ ، حتى استكثرت بريطانيا على مصر الاحتفاظ حتى بالسيادة الرمزية على السودان ، وبعد أيام ، طلبت أن يصدر بروتكول ينص على منح السودانيين الحق فى المطالبة بالاستقلال التام وحق الانفصال عن مصر .

ورفضت مصر . . وسقطت معاهدة صدقى ـ بيغن ، قبل أن توقع .

وفى ٨ يوليو ١٩٤٧ طالبت حكومة النقراشى ، فى عريضة قدمتها لمجلس الأمن ، بجلاء بريطانيا عن مصر والسودان جلاء تاما وانهاء النظام الادارى الحالى للسودان وقال النقراشى أمام مجلس الأمن :

ان البريطانيين قد توصلوا بالدعاية والبطش لاسكات جموع السودانيين الذين يطالبون بالوحدة مع مصر بل هم مضوا فى هذا السبيل الى حد اصدار البيانات الرسمية التى تحط من قدر مصر والمصريين وتشيع فى السودان رغبة الانفصال ، وحاولوا خلق جنسية سودانية مستقلة .

وفى مارس ١٩٥٠ ، وحتى نوفمبر ١٩٥١ ، تولى وزير الخارجية ، فى اخر حكومة وفدية ، محمد صلاح الدين ، تجديد المفاوضات مع بيغن ، وفى هذه المفاوضات أكد الجانب المصرى من جديد على ان مصر والسودان بلد واحد له تاج واحد هو التاج المصرى ، وقال د . صلاح الدين عن الأقلية الضئيلة التى تطالب بالانفصال :

« انه ليس بمستغرب ان توجد مثل هذه الأقلية فى السودان مع قيام ادارة ثنائية اسما ، انجليزية فعلا ، وجهت دائما وبخاصة فى السنوات الاخيرة كل همها الى تنفير السودانيين من مواطنيهم المصريين » .

وتوقفت مثل هذه المفاوضات ، عندما أعلن النحاس باشا الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وملحقاتها ، وإلغاء اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ . . وإصدار قانون بشأن نظام الحكم فى السودان . . ودعوة جمعية تأسيسية تمثل السودانيين لوضع دستور جديد لهم . . مع الاحتفاظ بالشئون الخارجية وشئون الدفاع والجيش والعملة لكى يتولاها ملك مصر والسودان باعتباره من الشئون المشتركة التى تهم شمال الوادى وجنوبه .
كان ذلك فى اكتوبر ١٩٥١ .

وفى الربع الأول من عام ١٩٥٢ ، رد الحاكم العام البريطانى على ذلك بتقديم مشروع دستور للحكم الذاتى للسودان ، وأعطى مهلة ستة شهور لتبدى الحكومتان المصرية والبريطانية ملاحظاتهما عليه . . وكانت المهلة تنتهى فى ٨ نوفمبر ١٩٥٢ . . وبعدها يتحول المشروع الى امر واقع . . وبعدها يتم تقرير مصير السودان فى ظل سيطرة الحكم البريطانى فقط وتصبح بريطانيا صاحبة النفوذ الاوحد هناك .
وكانت هذه المهلة فى وقت حرج وحساس جدا بالنسبة لمصر . .

فالأحكام العرفية مفروضة على مصر منذ ٢٦ يناير ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة ، والمصريون جميعا مهتمون بمتاعبهم ومشاكلهم الداخلية ، وغير قادرين على النظر خارج حدودهم . . أو خارج أنفسهم .
وكنا فى تنظيم الضباط الاحرار نتحين الفرصة ، ونخطط للثورة .

ولم تكن لى علاقة بمسئول واحد فى حكومات تلك الأيام ، حتى يمكن أن أنبهه الى خطورة الوضع فى السودان ، كما سبق ان نبهت محمود فهمى النقراشى ، الذى كان يستشيرنى دائما فى كل مايتعلق بالسودان .
وكان علينا بعد ايام من الثورة ان نرد على الحاكم العام فيما اعلنه . . كان علينا ان نقول له ان الاتفاقيتين اللتين تدعم الحكم الثنائى فى السودان الغيتا . . وان دستور مصر يتعارض مع المشروع الذى يطالب به ، لان السودان فعليا تحت التاج المصرى .

على ان موضوع تقرير المصير لم يكن ليزعجنى ولايثير القلق فى نفسى ، فقد كنت أدرى الناس بالعلاقة الخاصة بين شعبى وادى النيل . . كما اننى كنت احترم ارادة شعب السودان تماما كما احترم إرادة شعب مصر .

وكانت نقطة الانطلاق فى تفكيرى هى « أن أحول بين السودان وبين الارتباط ببريطانيا عند تقرير مصيره . . فإذا تحقق هذا فإنه لايكون امامه الا احد حلين ، اما الارتباط بمصر فى صورة وحدة او اتحاد . . وأما الاستقلال . . والوصول الى هذه النتيجة فى أية صورة من صورها ينزع اقدام المستعمر من وادى النيل . . وهى خطوة سياسية عظمى ».

ورغم ذلك ، فاننا فى الحقيقة لم نفعل الكثير ليظل السودان ، كما كنت اتمنى ، متحدا مع مصر . . وكان اعضاء مجلس القيادة يضعون السودان فى ذيل قائمة اهتماماتهم ومتاعبهم . . وقد قالها عبدالناصر بصراحة : « اننى لا أخشى السودان الحر وإنما أخشى السودان المحتل ». . كما ان استراتيجيتى كانت فصل استقلال مصر عن استقلال السودان اثناء أية مفاوضات مع الانجليز .

وأذكر أننا طلبنا من حسين ذو الفقار صبرى ، قبل فوات المهلة التى حددها الانجليز ، ان يعد لنا مذكرة بشأن السودان ، وعندما إنتهى منها ، طلب منه صلاح سالم أن يطبعها على الرونيو ، لتوزيعها على أعضاء المجلس . . فذهب حسين صبرى الى امين شاكر وطلب منه طبع المذكرة ، فانزعج امين شاكر من حجمها ، وقال :

ـ كل الورق دا ؟

فرد عليه حسين صبرى :

ـ الله . . وهى مشكلة السودان تتحط فى سطرين !

فقال امين شاكر :

ـ اختصرها شوية !

وعندما رفض حسين ، قال شاكر :

ـ أمرنا لله . . ولكن باقول لك إية . . والله ماحد حيلاقى وقت يقرأها .

وكان عند أمين شاكر حق . .

فلا أعضاء المجلس قرأوا المذكرة ، ولا استمعوا اليه عندما قرأها عليهم الوحيد الذى فعل ذلك ، كنت أنا ، وحسين صبرى يعترف بذلك فى كتابه الذى صدر عن « ثورة يوليو واتفاقية السودان » ، وقال فيه :

« القلقلة من حولى تنذر بأن أعضاء المجلس قد ضافوا ذرعا ، يتعجلون نهايه الجلسة فيفضوا وقد ازيحت عن كواهلهم أثقال تحملوها على مضض . . ثم يأتينى صوت محمد نجيب من بعيد كأنه عبر فواصل من الزمن ، انزاحت بى بعيدا عن حدود المكان . . اسمعه يشكرنى على « الصورة الكاملة الواضحة » ـ على حد قوله ـ التى قدمت ، وعلى « الجهد الصادق » الذى بذلته . . هى الكلمة التقليدية التى تلقى فى مثل هذه المناسبات إيذانا بانتهاء الجلسة . . إلا أنه أثلجنى ما لمست فيها من صدق وحرارة ، شأنها شأن الكلمات الرقيقة الأخرى » .

وانصرف الى جمع اوراقى المتناثرة ، وقد حطت على بلادة ، ولكنى افاجأ بصلاح سالم يجذبنى من ذراعى فينتزعنى من مكانى الى احد اركان القاعة حيث محمد نجيب وجمال عبدالناصر وقد انهمكا فى الحديث ـ ان صح ان يوصف ذلك ـ فقد لاحظت ان نجيب كان منفعلا بحماس ، فتتدفق على لسانه الكلمات ، بينما جمال عبدالناصر لا يكاد ينطق حرفا وانما ينصت فى سكون ، فيطرق برأسه بين الحين والحين . . لست ادرى اعن اقتناع بمضمون ما يقال ام استيعابا وتقييما لما كان يلقى على مسامعه من آراء . .

وما يقول حسين صبرى كان صحيحا .

فقد كنت متحمسا لمسألة السودان وكان عبدالناصر على ما يبدو يفكر فى مسائل اخرى .

وعندما وجدت حسين صبرى أمامى ، قلت له :

ـ عفارم عليك يا حسين ، تقرير مليان ، خلاص احنا بنرسل دعوات للأحزاب ونقابلهم ونتناقش معهم . . . وإن شاء الله ربنا يوفقنا !

وكما قال حسين صبرى بعد ذلك وهو يتحدث عن شعوره :

« دب فى قلبى الأمل ، بعد ان كانت راودتنى الهواجس بأننى قد فشلت » !

كان علينا أن نجمع السودانيين بمختلف أحزابهم على موقف واحد يتعاونون فيه مع مصر . . ودعوناهم فعلا من اجل ذلك . . ورحبت الاحزاب السودانية بالمبادرة المصرية . . بما فى ذلك الاحزاب التى تدعو الى الاستقلال ، وتغالى فى هذه الدعوة .

جاء السيد عبدالرحمن المهدى . . واعتذر السيد على الميرغنى عن عدم حضوره ، لأسباب خاصة ، فى فصل الشتاء . . وأجل حضوره الى فصل الصيف .

وكان كل من جاء من السودان من سياسيين وضباط وموظفين ، من اصدقائى ومعارفى وزملاء دراستى . . وكانت علاقتى بهم قوية جدا ، وكانوا لايمكن ان يزوروا مصر الا والتقى بهم . . « وأذكر أنى دعوت السيد عبد الرحمن المهدى لتناول الشاى بمنزلى فى شارع قصر العينى عند زيارته لمصر عام ١٩٣٧ فقبل الدعوة وحضر ومعه الوفد المرافق له . . وكانت هذه هى الزيارة الخاصة الوحيدة التى قام بها فى مصر .

وتوليت مع فريق من المفوضين ، مناقشة وفود الاحزاب السودانية . . وكان هذا الفريق يتكون من على ماهر ، ود . عبد الرازق السنهورى ، وصلاح سالم ، وحسين ذو الفقار صبرى ، الشقيق الأكبر لعلى صبرى . . وانتهى الفريق من المفاوضات ، الى قرار بإعداد مذكرة مصرية بخصوص السودان ، كلف حسين صبرى بإعدادها . . لكن . . المذكرة لم تعجب د . السنهورى فجرت مشادة حادة بينهما فى مكتبى وبحضور صلاح سالم . . كان السنهورى يريد ان ينص فى المذكرة على ان لمصر حقوق سيادة فى السودان . . على اساس ان جميع العهود التى سبقت قيام الثورة كانت تقول بذلك . .

وكان حسين صبرى يرى ان هذا النص شكليا ، لاداعى له ، وان واقع اليوم فى السودان تخطاه منذ فترة طويلة . . وان هذا هو الحل الوحيد لجذب القوى السودانية ، للتحالف مع مصر ، ضد النفوذ البريطانى . .

لكن هذا الخلاف فى الرأى ، لم يناقش بالطريقة العادية ، فى الحوار وانما نوقش بطريقة اترك للآخرين وصفها . .

قال حسين صبرى :

ـ يادكتور سنهورى ، خروج الانجليز من السودان هو بيت القصيد . . وهذه المذكرة هى سبيلنا الى ذلك ولاسبيل سواها فى ظل ما تحيط بنا من ظروف . . متاكتفين مع السودانيين ، فنكسب ثقتهم والا تحولنا الى اعداء لهم .

فقال له السنهورى :

ـ اسمع ياحسين يا ابنى دول بيضحكوا عليك . . دى الاعيب سياسية بكرة تفهمها لما تكبر . . بيستغلوك وانت مش حاسس .

فغضب حسين من كلام السنهورى ، ورد عليه فى حدة . . وانت ايش عرفك بالسودان هو انت تعرف حاجة عن السودانيين ؟

وانتهت هدة الازمه بقرار من مجلس الثورة ، لابعاد السنهورى عن السودان ومشاكله ، والاكتفاء بما يراه صلاح سالم وحسين صبرى . . واذا كنت قد فشلت فى توحيد وجهات النظر المصرية بالنسبة للسودان ، فقد نجحت مع السودانيين ، واستطعت توحيد الاحزاب السودانية لتتفق على رأى واحد . .

والتقيت بعبد الرحمن المهدى ، فى سراى لطف الله عمر الخيام ـ ماريوت الان وتوصلت معه الى اتفاق يقبل به نتيجة الاستفتاء على تقرير المصير .

كما وافقت معظم الأحزاب السودانية ، على تفويض لجنة ثلاثية مكونة من الدرديرى احمد ، وخضر حمد ، وميرغنى حمزة ، لاعلان قيام حزب سودانى واحد ، يمثل كافة التيارات السودانية التى تميل للاتحاد مع مصر . .

وكان التفويض يقول :

« أقبل قيام الحزب الواحد بأى وضع ترتضيه اللجنة الثلاثية » . .

ووقع على هذه العبارة : محمد نور الدين . . حماد توفيق . . درديرى اسماعيل درديرى محمد عثمان . . الطيب محمد خير . . اسماعيل الازهرى . . خضر حمد . . مبارك زروق . . خضر عمر . . على الشيخ بشير . . ميرغنى حمزة . . يحيى الفضلى . . وانا وصلاح سالم وحسين ذو الفقار صبرى .

كان ذلك فى ٣٠ اكتوبر ١٩٥٢ . .

وفى ٣ نوفمبر وضع ميثاق اعلان الحزب الموحد ، ووقع كل هؤلاء فى بيتى على قيام الحزب الوطنى الاتحادى . . الذى ضم كافة الاحزاب الاتحادية قبل بدء المباحثات المصرية ـ الانجليزية .

وأذكر أننى قلت ساعتها للحاضرين :

ـ ان المرء عندما ينظر الى خريطة النيل ، فأنه سيدهش عندما يكتشف انها مثل شجرة النخيل . . فى القمة الخضرة والخصوبة حيث دلتا النيل تبدو كفروع اوراق النخيل الرفيعة . . ثم يأتى النهر الذى ينحنى كجزع النخلة قليلا الى الصحراء . . وفى الجنوب ، حيث الخرطوم ، وحيث فرعى النيل الازرق والأبيض وما يخرج منها من فريعات مائية ، تبدو مثل جذور النخلة ، الضاربة فى عمق الاراضى السودانية .

والنيل على هذا النحو يحمل الماء ، من الجذور ، عبر الجزع ، الى الفروع والاوراق ، لكى تثمر النخلة محصولا وفيرا وشهيا ، يطعمنا ، ويغنينا عن سؤال اللئيم . .

لذلك فالسودان يعتبر متكاملا تكاملا طبيعيا مع مصر . . ووحدة وادى النيل هى امر واقع . . ولو تضافرت الجهود والقوى فإن الأمانى القومية لشمال الوادى وجنوبه يمكن ان تتحقق .

وقلت لهم :

ـ اننى بالرغم من كونى مصريا ، ولست سودانيا ، الا اننى اشعر بحنين لهذه الارض التى ترعرعت فيها ونشأت عليها ورويتها بدماء أجدادى .

وصفق الحاضرون لكلماتى . .

واتفقوا على أننى شاعر ولست رجل سياسة !

واختار الحاضرون اسماعيل الازهرى رئيسا للحزب . ومحمد نور الدين نائبا له ، ونص دستور الحزب على جلاء الانجليز وقيام اتحاد مع مصر بعد تقرير المصير . .

وكما قلت من قبل :

كانت هذه اللحظات من امتع لحظات حياتى . . التقى فيها مع الاشقاء فى الجنوب ولهم فى قلبى اعز مكان . . وأشهدهم يحققون وحدة وطنية تقرر الابتعاد عن الاستعمار البريطانى ، والاتحاد مع مصر . وصدق إيمانى فى ان مصر والسودان لايمكن للاستعمار ان يفصل بينهما .

واتفقت كلمة جميع الاحزاب السودانية على ان يقتصر اختيارهم عند تقرير المصير على الخيار بين الاتحاد مع مصر او الاستقلال عنها دون اى ارتباط بدولة اخرى . . وأن يكفل للسودان حرية الاختيار فى تحديد سلطات الحاكم العام وسودنة الادارة وجلاء القوات البريطانية قبل إجراء الانتخابات الخاصة بالجمعية التأسيسية التى يناط بها تقرير المصير . .

وبارك المهدى والميرغنى كلاهما هذا الاتفاق .

وهكذا وجد الانجليز أن الأمر الذى استعدوا لتدبيره منذ سنوات قد انقلب عليهم خلال اسابيع . . واصبحت ورقة « تقرير المصير » فى يدنا بعد ان كان فى يد بريطانيا

فقد كانت بريطانيا ، كما شرحت ، تربط موضوع السودان دائما ، بشرطين : اولهما : فصل مشكلته عن مشكلة مصر ، وثانيهما : حق السودان بمفرده فى تقرير مصيره . . وكان الشرطان يهدمان اى مفاوضات معها دائما . .

وكان علينا ان نزيل هذه العقبات او نحطمها . .

وتم ذلك يوم ارسلت الى المسئولين البريطانيين المذكرة التى اعدت باسم مصر ، وتضمنت :

١ ـ تمكين السودان من ممارسة الحكم الذاتى .

٢ ـ تهيئة الجو المحايد تمهيدا لانتخابات تقرير المصير .

فأسقط فى يد بريطانيا . ولم تستطع المراوغة . . وكل مافعلته هو نقل الفتنة من شمال الوادى وجنوبه . . الى شمال السودان وجنوبه . . وبدل ان كانت المشكلة مع مصر اصبحت مع الجنوب السودانى .

وكان لابد من اعلان هذا الموقف داخل مصر ، لتهيئة الرأى العام لتقبل فكرة انفصال السودان ، وكانت فكرة من الصعب تقبلها ، أو حتى التفكير فيها فى ذلك الوقت . . فكلف صلاح سالم ، حسين ذو الفقار صبرى بالاتصال بمصطفى أمين ، لتنفيذها . .

وبدأت المفاوضات مع الانجليز بشأن السودان . .

كنت على رأس الوفد المصرى ، وكان معى صلاح سالم ، وحسين صبرى ، ود . محمود فوزى ، ود . حامد سلطان ، وعلى زين العابدين . . وكان يرأس الوفد البريطانى سير رالف ستيفنسون ، وكان معه مستر كروزيل الوزير المفوض ، ومستر باوزر السكرتير الاول بالسفارة . . وفى صباح ١٢ فبراير ١٩٥٣ وقعنا اتفاقية السودان . .

وجاء فى ديباجة الاتفاقية :

لما كانت الحكومة المصرية والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلندا المسماة فيها بعد بحكومة المملكة المتحدة تؤمنان ايمانا ثابتا بحق الشعب السودانى فى تقرير مصيرة وفى ممارسته له ممارسة فعلية فى الوقت المناسب ، وبالضمانات اللازمة ، فقد اتفقنا على ما يأتى :

١ ـ رغبة فى تمكين الشعب السودانى من ممارسة تقرير المصير فى جو حر محايد ، تبدأ فى اليوم المعين بالمادة التاسعة الواردة فيها بعد فترة انتقال يتوفر للسودانيين فيها الحكم الذاتى الكامل .

٢ ـ لما كانت فترة الانتقال تمهيدا لانهاء الادارة الثنائية انهاء فعليا فانها تعتبر تصفية لهذه الادارة وتحفظا ابان فترة الانتقال بسيادة السودان للسودانيين حتى يتم لهم تقرير المصير .

٣ ـ يكون الحاكم العام إبان فترة الانتقال ، السلطة الدستورية العليا داخل السودان ويمارس سلطاته وفقا لقانون الحكم الذاتى بمعاونة لجنة خماسية تسمى لجنة الحاكم العام .

٤ ـ تشكل هذه اللجنة من اثنين من السودانيين ، وعضو مصرى وعضو من المملكة المتحدة ، وعضو باكستانى . .

٥ ـ لا يمارس الحاكم العام سلطاته بما يتعارض مع وحدة السودان بوصفه إقليما واحدا .

٦ ـ يظل الحاكم للسودان مسئولا مباشرة أمام الحكومتين المتعاقدين فيما يتعلق بالشئون الخارجية ، وأى تغيير يطلبه البرلمان السودانى واى قرار تتخذه اللجنة يرى فيه الحاكم تعارضا مع مسئولياته .

٧ ـ تشكل لجنة مختلطة للانتخابات من سبعة أعضاء ثلاثة منهم من السودانيين وعضو مصرى وعضو من المملكة المتحدة ، وعضو أمريكى ، وعضو هندى . .

٨ ـ رغبة فى تهيئة الجو الحر المحايد اللازم لتقرير المصير تشكل لجنة للسودنة تتألف من عضو مصرى وعضو من المملكة المتحدة وثلاثة أعضاء سودانيين .

٩ ـ تبدأ فترة الانتقال من يوم توقيع الاتفاقية . . ومع مراعاة إتمام السودنة تتعهد الحكومتان المتعاقدتان بإنهاء فترة الانتقال بأسرع ما يمكن . . وينبغى على أية حال ألا تتعدى هذه الفترة ثلاثة أعوام وتنتهى بإصدار قرار من البرلمان السودانى يعرب فيه عن رغبته فى اتخاذ التدابير للشروع فى تقرير المصير .

١٠ ـ عند إعلان الحكومتين المتعاقدتين رسميا لهذا القرار تضع الحكومة السودانية القائمة آنذاك مشروعا بقانون لانتخاب جمعية تأسيسية ، وتخضع التدابير التفصيلية لعملية تقرير المصير إلى هذه الجمعية .

١١ ـ تنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان فور إصدار قرار البرلمان السودانى برغبته فى الشروع فى اتخاد التدابير لتقرير المصير وتتعهد الحكومتان المتعاقدتان بإتمام سحب القوات من السودان فى مدة لا تتعدى ثلاثة أشهر .

١٢ ـ تقوم الجمعية التأسيسية بتقرير مصير السودان وبإعداد دستور له ، ويتقرر مصير السودان إما بأن تختار الجمعية التأسيسية ارتباط السودان بمصر على أية صورة ، وإما بأن تختار الجمعية التأسيسية الاستقلال التام .

١٣ - تتعهد الحكومتان المتعاقدتان باحترام قرار الجمعية التأسيسية فيما يتعلق بمستقبل السودان وتقوم كل منها باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتنفيذ القرار .
وقد شكلت لجنة الحاكم العام الخماسية ، من الدريرى عثمان وابراهيم احمد (السودان) حسين ذو الفقار صبرى (مصر) وجرافتى سميث بريطانيا وسيان ضياء الدين (باكستان) .
وكان العضو المصرى فى لجنة الانتخابات هو عبد الفتاح حسن .

وبعد التوقيع على هذه الاتفاقية تبادلنا أنا والسفير رالف ستيفنسون بعض الخطابات بشأنها . . وكان أولها يوم توقيع الاتفاقية نفسها . . وكانت تقول :
« حضرة صاحب السعادة :
بالإشارة إلى المادة ٦ من الاتفاق المبرم بيننا فيما يتعلق بالشئون الخارجية أتشرف بأن أبدى بأنه طبقا للاتفاق الذى تم بيننا تعتبر الحكومة المصرية ، مما يدخل ضمن الشئون الخارجية أية عمليات تجارية تقوم بها حكومة السودان وترى إحدى الحكومتين أن لها مساسا مباشرا بسياستها الخارجية .

وانى أرجو سعادتكم أن تؤيدوا أن هذا هو التفسير الصحيح لاتفاقنا وان تنظر الحكومة البريطانية إلى هذه العمليات التجارية على هذا الاعتبار .
وإنى انتهز هذه الفرصة لأجدد لسعادتكم تأكيد أسمى احترامى .
توقيع (محمد نجيب)
لواء (أ . ح)

فأجاب السفير البريطانى بالرسالة التالية :
« حضرة رئيس مجلس الوزراء
« بالإشارة إلى كتابكم المؤرخ فى ١٢ فبراير أتشرف بأن أؤيدكم أن ما جاء بكتابكم هو التفسير الصحيح للاتفاق الذى تم بيننا وأن حكومة جلالة الملكة فى المملكة المتحدة ستعتبر مما يدخل ضمن الشئون الخارجية أية عمليات تجارية تقوم بها الحكومة السودانية وترى أحدى الحكومتين أن لها مساسا مباشرا بسياستها الخارجية .
ولى الشرف أن اقدم لكم أسمى الاحترام .
خادمكم المطيع
توقيع (رالف اسكرين ستيفنسون)

ثم بعثت له برسالة اخرى ، تقول :

« حضرة صاحب السعادة

بالإشارة إلى الاتفاق المبرم بين حكومتينا بشأن السودان أتشرف بأن ارجو سعادتكم تأييد ما تم التفاهم عليه بيننا من أن ضمن المسائل التى ستبحثها الهيئة الدولية التى ستشكل فيما بعد ، مسألة القيادة العليا للقوات المسلحة السودانية عند إتمام سحب القوات المسلحة المصرية والبريطانية من السودان وفى الفترة التى تعقب هذا الانسحاب .

وانى أنتهز هذه الفرصة لأجدد لسعادتكم توكيد أسمى احترامى » .

توقيع (محمد نجيب)

لواء (أ . ح)

فأجاب السفير البريطانى بالرسالة التالية :

« حضرة رئيس مجلس الوزراء

بالإشارة إلى كتابكم المؤرخ ١٢ فبراير ، أتشرف بأن أؤيد ما تم التفاهم عليه بيننا من أن ضمن المسائل التى ستبحثها الهيئة الدولية التى ستشكل فيما بعد مسألة القيادة العليا للقوات المسلحة السودانية عند إتمام سحب القوات المسلحة المصرية البريطانية من السودان وفى الفترة التى تعقب هذا الانسحاب .

ولى الشرف بأن اكون مع اسمى الاحترام

خادمكم المطيع

توقيع (رالف اسكرين ستيفنسون)

وفى مساء نفس يوم التوقيع عل الاتفاقية أذعت على العالم بياناً ، قلت فيه :

« تم اليوم بيمن الله وتوفيقه توقيع الاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية لتصفية الادارة الثنائية فى السودان وإقامة حكم ذاتى كامل توطئة لممارسة السودان حق تقرير المصير فى جو من الحرية التامة والحيدة الكاملة . ويسعدنى أن أذيع هذا النبأ السار الذى يدخل السرور على قلوب السودانيين وإخوانهم من المصريين .

إن هذا الاتفاق يفتح صفحة جديدة فى علاقات المصريين بإخوانهم السودانيين صفحة إخاء وثيق ومحبة دائمة ، كما يفتح صفحة جديدة فى علاقات مصر بالمملكة المتحدة تعيد الثقة بينهما ، سيكون لها اثرها الطيب فى حسم باقى المسائل المعلقة بين البلدين . ولنا الحق أن نتطلع من هذه الدقيقة إلى ما يستوجبه هذا الاتفاق

الذى وقعنا عليه اليوم من نية صادقة فى تنفيذه وتصميم اكيد على الاحتفاظ بالروح الودية الخالصة التى أملته والتى كان وحيها الأول صالح السودانيين وكرامتهم . فالقضية التى حسمها هذا الاتفاق هى قضية السودان أولا ولذلك فقد توخت مصر فى جميع الخطوات التى خطتها فى هذا الشأن الاتصال الوثيق الدائم بالسودانيين جميعا ومن ثم وقفت مصر موقف المطالب بما أجمع عليه السودانيين أنفسهم ، ذلك الإجماع الذى كان له أثر حاسم فى الوصول إلى الغرض المنشود وأن مصر ستظل وفية للسودان وعلى استعداد كامل فى كل وقت أن ترفع صوتها وتبذل جهودها من أجل السودانيين ومن أجل مستقبلهم وتقف صامدة إلى جانبهم وحماية حقوقهم » .

ووجهت بيانا آخر من الراديو . . وجهت التحية فيه للسودانيين ولزعمائهم . . وفرحت السودان بالاتفاقية واعتبر يوم التوقيع عليها يوم عيد ، ويوم عطلة رسمية . . ولم ينقطع سيل التهانى من العالم كله . . ووصفت أمريكا الاتفاقية بأنها ذات اهمية عظيمة « اذ أنهت مشكلة طالما ظلت مصدرا لتعقيد العلاقات بين بريطانيا ومصر خلال سنوات طويلة » .

وقال السفير رالف ستيفنسون فى رسالة نشرتها له الصحف المصرية :

« لقد ساعد على الوصول إلى هذا الاتفاق التفاهم المتزايد بين الطرفين وعلى الأخص ما أبداه اللواء محمد نجيب وحكومته من بعد النظر والسياسة فى مواجهة ومعالجة الموضوع أكثر من حكومات مصر السابقة ، فى مصر ، فقد دل بوجهة نظرة على أن تظل السيادة محتفظا بها للسودان ، وبقبوله أن يقرر السودانيون مستقبلهم بحرية ، على أنه والحكومة البريطانية يهتمان أبلغ الاهتمام بمصالح الشعب البريطانى » .

ورغم ذلك ، لم يخل الاحتفال من الغمز واللمز ، خاصة من رجال السياسة المصرية القدامى الذين لعبوا دورا فى التفاوض مع بريطانيا حول السودان ، وأصروا على وحدة التاج المشترك ، مثل إسماعيل صدقى ، ومحمد صلاح الدين وغيرهما .

وتحول الغمز واللمز من جانبهم إلى نقد واضح ، بعد أن بدأت الانباء ترد عن تعسف البريطانيين مع السودانيين ، بعد أيام من توقيع الاتفاقية . .

وقد طلب مني الصحافيون أن أدلي إليهم بكلام عن هذا التعسف ، فقلت لهم في ١٠ مارس ١٩٥٣ :

« إنه لمن دواعي الأسف الشديد أنه قبل أن يجف المداد الذي كتبت به الاتفاقية التي عقدت بين مصر وبريطانيا بشأن السودان ترد إلينا من مختلف أنحائه شكاوى صارخة عن المعاملة السيئة التي يعامل بها الإداريون البريطانيون في الاقاليم الجنوبية من السودان بعض الزعماء الذين وقعوا اتفاقات معنا وكثيرين غيرهم من الاهلين .

« وقد ورد في هذه الشكاوى أن زعماء عديدين ألقوا في غياهب السجون وأن الاداريين البريطانيين في السودان عادوا إلى سيرتهم الأولى من الالتجاء إلى التهديد والوعيد وجميع هذه الأعمال لا تتفق في شيء مع ما تنص عليه الاتفاقية التي قلنا عنها بعد توقيعها إن العبرة في تنفيذها تنفيذا دقيقا . غير أن الإداريين البريطايين لم يراعوا كل ذلك إذ خرجوا على الاتفاقية وبذلك أقاموا الدليل الملموس على عدم توفر حسن النية عندهم وهذا ما يحملنا من غير شك على عدم الثقة بهم والاطمئنان إليهم في إبرام أية معاهدة معهم » .

وقام الحاكم العام في السودان بمحاولات كثيرة لتعطيل تنفيذ الاتفاقية . . حتى أنه كان يعرض الخلافات التي تنجم عن تنفيذ بنودها على القضاء العالي الذي كان يتولاه البريطانيون . . وحتى يعطل لجنة السودنة منح اللجنة الخماسية المسماة بلجنة الحاكم اجازة لمدة ٤ شهور ، ليتجول أعضاؤها على حساب الحكومة السودانية في أرجاء السودان بحجة معرفته والاطلاع على أحواله .

ودعم الحاكم العام موقف حزب الأمة . . وكان حزب الأمة يقود تيار الاستقلال « لجنه السودنة » عن مصر ، في مواجهة الحزب الوطني الاتحادي الذي شكل مؤخرا ، وطالب بالاتحاد الفيدرالي مع مصر . .

وقد فاز الحزب الوطني الاتحادي بأغلبية ساحقة في اول برلمان سوداني ، افتتح في ٢ يناير ١٩٥٤ ، وألف إسماعيل الازهري أحد مؤسسيه ، أول وزارة سودانية في تاريخ السودان الحديث .

ويبدو أن نجاح الحزب الوطني الاتحادي أستفز حزب الأمة والانجليز ، فظهر اتجاه جديد في داخله ، لا يطالب باستقلال السودان عن مصر وبريطانيا ، وإنما يطالب باستقلال السودان عن مصر فقط ، وأن يكون هذا الاستقلال تحت رئاسة

حاكم عام بريطانى ، وليكن اللورد مومنتباتن الحاكم العام للهند بعد استقلالها . . لكننا كثفنا كل جهدنا مع الزعماء السودانيين لقتل هذه الفكرة قبل أن تتحول إلى واقع ، يدمر خطتنا التى حققت ، حتى الآن ، النجاح الذى كنا ننشده .

كانت خطتنا تدعيم الحزب الوطنى الاتحادى ، لعودة السودان الى مصر ، بعد أن يخرج منه الانجليز . .

وكان وصول إسماعيل الأزهرى إلى رئاسة الحكومة بشرة خير لنا . .

لكن . .

نجاحنا فى هذه الخطوة كان النجاح الأول والأخير فى السودان . .

فكما قلت : كان مجلس الثورة يضع السودان فى قائمة اهتماماته . . كما أن عبد الناصر كان يعتبر السودان عبئا على مصر يحسن ازالته عن كاهلها ثم إن المتاعب الداخلية إستنفدت كل طاقاتنا وأثرت بالطبع على الموقف فى السودان وعلى مشاعر السودانيين . . وكانت اخبار الانقسامات والخلافات داخل مجلس الثورة ، والتى أدت إلى استقالتى فى فبراير ١٩٥٤ ، تصل إلى جنوب الوادى ، وتصبح حديث الناس هناك ، ومثار قلق واضطراب لزعمائهم . . خاصة زعماء الحزب الوطنى الاتحادى ، أو الاتحاديون كما كان يطلق عليهم . . الأمر الذى أثر عليهم ، وفتت اتحادهم ، وضاعف من قوة التيار المضاد الذى تؤيده بريطانيا ، التى احست ان مصر ستكسب السودان لصالحها ، وظهرت النتيجة النهائية لكل هذا ، عندما جرت انتخابات الجمعية التأسيسية السودانية بعد فترة الإنتقال ، وأعلنت استقلال السودان عام ١٩٥٦ . . ولم يسع الحكومة المصرية فى أيامها إلا أن تعترف بهذا الاستقلال وتباركه .

وصدم الشعب المصرى بهذه النتيجة . . لكن . . جمال عبد الناصر وأعضاء المجلس ، لم يصدموا ، فعندما اجتمعوا ، بعد اعتقالى بشهور ، فى ٢٥ أغسطس ١٩٥٥ لبحث موضوع السودان ، قال صلاح سالم بصراحة :

ـ السودان . . ضايع . . ضايع

وقال :

ـ الكل هناك يجمع على الاستقلال ويرفض الاتحاد مع مصر بسبب الأخطاء التى وقعنا فيها .

واضاف بعد أن نظر إلى جمال عبد الناصر :
ـ إننى اقترح عليك يا جمال أن تسافر فورا لتعلن بنفسك استقلال السودان بمناسبة اجتماع البرلمان السودانى ، لتصبح بذلك بطل استقلال السودان .

لكن جمال عبد الناصر ، كما قال عبد اللطيف البغدادى الذى شهد الاجتماع ، رفض هذا الرأى ، وشاركه فى الرفض باقى أعضاء المجلس حتى لا يصدم الشعب المصرى الذى ظل يعتقد أن الاتحاد مع السودان سيتم فعلا ، كما يقولون له ليل ، نهار ، فى أجهزة الإعلام .

بل إن من جاء بعدى ، لم يكتف بفصل السودان عن مصر ، بل ووصل إلى حد التفريط في أرض مصر والتنازل عنها للسودان . . وأقصد بذلك ، مساحة الأرض التى تصل إلى ١٨٠٠ كيلو متر مربع ، عند بئر الشلاتين ومرسى حلايج ، وتقع بين البلدين . . فقد استولى الانجليز على هذه الأرض عام ١٩٠٢ ، بعد أن تصوروا أن بها ذهبا ، واستندوا فى تصورهم على آثار قدماء المصريين التى كانت موجودة هناك . . وعندما فشل الانجليز فى العثور على الذهب ، طالبوا بضم هذه المنطقة للسودان ، بحجة أن بها قبائل البشارية السودانية ، وفى المقابل أخذوا من السودان ١٨٠ كيلو مترا مربعا ، وهى منطقة تعيش فيها قبائل العبابدة ، بحجة أنها قبائل مصرية وضموها إلى مصر . . واعترفت مصر بذلك بعد ازمة ١٩٥٨ بين مصر والسودان ، والتى كاد عبد الناصر فيها ان يحارب السودانيين .

إن مشكلة جمال عبد الناصر وصلاح سالم ، وباقى مجلس الثورة ، مع السودان ، هى أنهم لم يعرفوا ، ولم يفهموا أهله ، ولم يتصوروا أهميته بالنسبة لمصر . . فتصرفوا وكأنهم سياح وليسوا أبناء واد واحد .

كما أنهم فعلو المستحيل لنقل خلافاتنا الداخلية إليه . . وتصويرى عند السودانيين فى صورة الديكتاتور الذى يريد أن يضع كل شىء فى يده .
فحدث مرة أن جاء صديق سودانى يسألنى :
ـ لماذا تعترض يا نجيب بك على تعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة ؟
وقبل أن أرد ، قال :

ـ اننا نخشى أن تجمع كافة السلطات فى يدك ، ونخش أن تكون المطالبة باتحاد السودان مع مصر تأكيدا لهذه الرغبة !
ولم أرد . .
فإلى هذا الحد كانوا يشوهون صورتى . .
والغريب أن قرار عبد الحكيم لم يكن صدر بعد . .

وعرفت أن صلاح سالم همس لصديقى السودانى ، أو لغيره ، بكلمات تصور أنها ستبقى سرا لا يصل إلى . . ولم يعرف صلاح سالم أن السودان بلد ، بحكم نقاء اهله ، لا يخفون فى صدورهم أى شىء . . وما فى قلبهم على ألسنتهم .
وصلاح سالم سافر الى السودان اكثر من مرة . .

وتصور أنه بالرقص والنقود يمكن أن يكسب السودانيين . . وكانت النتيجة أن بعثر النقود . . وبعثر احترامنا فى السودان . . تصور أنه يمكن أن يرشى السودانيين . . ولكنه كان مخطئا . .

كذلك تصور أنه يمكن استمالة زعمائه ، باستضافتهم فى مصر ، ومنحهم البيوت والفيلات . . وقد بنى هذا التصور الخاطىء بعد أن نجح فى أخذ اعتراف من على المرغنى بوحدة وادى النيل ، بعد أن ظل يرفض الاعتراف بذلك . . وكان سر هذا التحول فى موقف هذا الرجل الذى لم يكن من أصل سودانى ، السرايا التى أعطوها له فى الاسكندرية . . واتضح فى النهاية أنه أحد عملاء المخابرات البريطانية .

هذا فى الوقت الذى كان صلاح سالم يتعامل بسخافة مع أنصار الاتحاد الحقيقيين مع مصر . .
ومن سخريات القدر أن يسعى عبد الناصر ورفاقه إلى الوحدة مع سوريا ، ويفعل المستحيل لفك الوحدة مع السودان . . رغم أن الوحدة مع السودان أمر طبيعى ، والوحدة مع سوريا هى وحدة بين قطرين متباعدين جغرافيا ونفسيا .

وبعد صلاح سالم ، سافر عبد الحكيم عامر ، بعد أن أصبح قائدا عاما للقوات المسلحة ، الى السودان . .
وفى السودان ، تصور البعض أن عبد الحكيم عامر هو أنا فأخذوه بالأحضان

وقررت أن أسافر أنا إلى السودان ، لأول مرة ، بعد الثورة ، يوم أول مارس ١٩٥٤ للمشاركة فى احتفالات السودان بافتتاح أول برلمان هناك . .

وصلت الطائرة إلى الخرطوم ، وفوجئت بالآلاف من أبناء الجنوب ، بملابسهم البيضاء ، يحتشدون فى المطار ، قبل ساعات من هبوط الطائرة . . كنت فى هذه اللحظة ، قد مر على ٣٠ سنة لم أر فيها السودان ، وفى هذه اللحظة كان قلبى يخفق فرحا ، لأننى سأرى السودان وألتقى بذكرياتى فيه ، بعد كل هذه السنين . . ولكن ما أن نزلت من الطائرة الى ارض المطار ، حتى فوجئت بمظاهرة كبيرة تهتف فى وجهى :

« لامصرى ولابريطانى . . السودان للسودانى » .

وفى الزحام وقع الكاب . . ثم جاءوا إلى به . . واستعرضت حرس الشرف وخرجت من المطار ، بعد أن التقيت بكبار المستقبلين ، وكان منهم رجال الحزب الوطنى الاتحادى . . والسيد صادق المهدى الذى حمل لى تحيات والده السيد عبد الرحمن المهدى .

وفى الحقيقة انا لم أعتبر هذا الهتاف ، هتافا معاديا ، أو مثيرا ، فقد كان هذا مانريده فعلا . . السودان للسودانى . . لا لمصرى ولا لبريطانى .

وقابلت الحاكم العام البريطانى ، الذى ، حاول إقناعى بأنها مظاهرات خطيرة ، وهتافات تستحق أن نواجهها بشدة .

قال لى :

ـ شوف بيقولوا إيه . . إنهم يهتفون ضد بلدينا .

قلت له :

ـ عندهم حق ، فما يقولونه هو الحقيقة .

وعرفت وأنا عند الحاكم العام أن البوليس اشتبك مع المتظاهرين ، وأدى ذلك إلى تساقط عدد من القتلى والجرحى ، قدر بحوالى ٧١ قتيلا و ١٠٧ جرحى .

كنا نتناول الإفطار عندما وصلتنا هذه الأنباء ، وساعتها قلت للحاكم العام :

ـ أنت السبب !

لكنه أنكر صلته بما حدث ، وحاول إقناعى بأنه يرتعش من الخوف .

وقبل أن نكمل كلامنا ، كان المتظاهرون يحيطون بالقصر الذى نجلس فى

داخله ، فوجدها الحاكم البريطانى فرصة ليندمج فى الدور الذى يلعبه أمامى . .
فقال فى فزع كاذب :
ـ دول حيرمونا فى البحر !
فقلت له :
ـ اترك لى هذه المشكلة !
وبدأت أتصل تليفونيا بالسيد عبد الرحمن المهدى . وفشلت . . تسع مرات أحاول ، وفشلت . . فى كل مرة كنت أسمع فيها صوته تقطع المكالمة . . وعرفت أن الأمر مدبر لكى لا تنفض المظاهرات .

وتأكد لى ذلك ، عندما رفض الحاكم العام أن أخرج إلى شرفة القصر وأكلم المتظاهرين ، بحجة المحافظة على حياتى . . لكننى خرجت إلى الجماهير وخطبت فيها . .
قلت لهم :
ـ إن الله كفى المؤمنين شر القتال . . وما تفعلونه لن يجر سوى المصائب لكم . .
وما أن بدأت الجماهير تهدأ وتستجيب حتى هاجمتها قوات البوليس مرة أخرى دون أى مبرر ، فمات ١٢ شخصا وجرح آخرون . . فتجددت المظاهرات مرة أخرى ، وتضاعفت شراستها .

كانت مؤامرة رتبها سلوين لويد وكيل وزارة الخارجية البريطانية الذى وصل الخرطوم بدعوى المشاركة فى الاحتفالات . لكنه لم يبرح مكانه ولم يظهر أمام الناس ، حتى حملته الطائرة الى لندن .
وشارك فى تنفيذ المؤامرة الحاكم العام البريطانى . . وساعدهما الأنصار الذين لم ينجحوا فى الانتخابات .
وكان الهدف منها ضرب أى اتجاه فى السودان للاتحاد مع مصر .

وفشلت احتفالات افتتاح البرلمان . . وألغيت الجلسة الافتتاحية . . وقررت العودة إلى مصر فى اليوم التالى مباشرة .

حضر الحاكم العام لمقابلتى وهو عارى الرأس ، فطلبت منه أن يلبس قبعته ويحضر لتوديعى فى المطار . . فلم يتردد ، وحضر هو وإسماعيل الازهرى .

وفى المطار راح العمال السودانيون يهتفون لى ولمصر ولوحدة وادى النيل .
وعرفت فيما بعد ، أن المحكمة العليا التى كان يرأسها قاض بريطانى ، قد حكمت

بإعدام عوض صالح رئيس تحرير جريدة الأمة ومدير دائرة عبد الرحمن المهدى وبالسجن المؤبد على الصحفى على فرج المحرر بالجريدة وأربع سنوات على عبد الله عبد الرحمن سكرتير عام منظمات الانصار ، وكانوا قد قدموا إلى المحكمة بتهمة تدبير هذه المظاهرات والتحريض عليها .

وقد خفضت محكمة الاستئناف حكم الإعدام إلى المؤبد . . وحكم المؤبد إلى ١٠ سنوات .

واعتبرت أن هذه المظاهرات التى قام بها حزب الأمة ، هى مظاهرات ، ليست ضدى ، وإنما ضد الديمقراطية ، التى أظهرت نتائجها الانتخابات .

على أننى رغم كل ذلك ، أعتبر اتفاقية السودان صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات المصرية ـ السودانية ، والعلاقات المصرية ـ البريطانية والعلاقات المصرية ـ الأمريكية .

ففى أكتوبر ١٩٥٣ قامت الولايات المتحدة ، كما فعلت فرنسا من قبل ، بإقامة علاقات دبلوماسية مع السودان من خلال « مكتب تمثيل دبلوماسى لها » فى الخرطوم .

وأتاحت الاتفاقية لكل من الهند وباكستان إقامة علاقات دبلوماسية مع السودان .

وفى ٦ يناير ١٩٥٤ انتخب اسماعيل الأزهرى كأول رئيس للوزراء فى السودان ، وشجع هذا أمريكا على ممارسة الضغط على بريطانيا ، فى مؤتمر واشنطن الذى عقد فى نفس العام ، لكى تصل إلى اتفاق مع مصر ، وإلا عملت أمريكا بمفردها .

ولم يكن أمام ونستون تشرشل إلا أن يقبل الأمر الأمريكى ويسعى للتفاهم مع حول الجلاء .

وعندما دخل عبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم ليبلغانى يوم ١٤ نوفمبر ، بقرار إعفائى من رئاسة الجمهورية ، قلت لهما فى وضوح :

ـ بصراحة أنا لن أستقيل !

فسأل عبد الحكيم عامر :

ـ لماذا ؟

قلت :

ـ حتى لاينسب إلى يوما أننى كنت السبب فى انفصال مصر عن السودان .
وفى الحقيقة . . أنا تحملت كل ما جرى لى بعد تمكن عبد الناصر من السلطة ، بعد أزمة مارس ، حتى لاتؤثر استقالتى على نتيجة الاستفتاء حول الوحدة مع مصر ، فى السودان . . خاصة أن الحزب الوطنى الاتحادى الذى كان يؤيد الاتحاد ، والوحدة مع مصر ، قد فاز فى الانتخابات .

لكن . . عبد الناصر ورجاله فى مجلس الثورة لم يكن ليشغلهم فى ذلك الوقت موضوع السودان . . كان كل ما يهمهم هو كيف يمكن إزاحتى والتخلص منى .

ولست هنا أعطى لنفسى أهمية فى ارتباط السودان بى . . بحيث ينفصل عن مصر ، إذا أنا تركت الحكم . . لكننى اقرر حقيقة يعرفها الجميع فى البلدين . ومازالوا . . فأنا جزء من السودان والسودان جزء منى . . وبينى وبين شعبه وزعمائه علاقات دم وصداقة وارتباط قوى . . كما أن السودانيين بطبيعتهم لا يميلون إلى الديكتاتورية . . ويصرون على ممارسة حقوقهم السياسية مهما كلفهم الأمر . . وهذا ما جعلهم يشعرون بالخطر على أنفسهم وعلى بلادهم بعد أن نشبت واشتعلت أزمة مارس فى مصر ، وأحسوا أن هناك حاجزا من الديكتاتورية يقف حائلا بين الوحدة مع مصر .
ولأننى كنت أقف مع الديمقراطية كانوا يقفون معى . .
ولأن عبد الناصر كان يتجه بالبلاد إلى الديكتاتورية كانو يخشون الوحدة مع مصر .
ولذلك . . .
كان قرار تنحيتى عن رئاسة الجمهورية هو فى نفس الوقت قرار انفصال السودان عن مصر .
ومرة أخرى أؤكد أن . . هذا ليس حديثا شخصيا ، ولا كلاما نرجسيا ، وإنما أمر واقع لا يزال يوجد من يقره ويعترف به ، خاصة فى السودان .
فعندما سئل كثير من زعماء السودان ، بعد ذلك عن سر تدهور العلاقات بين البلدين ، قالوا ، كلمة واحدة
ـ نجيب !
ولما قال لهم جمال عبد الناصر
ـ إن نجيب فرد . . والفرد زائل . . والعلاقة المتينة بين البلدين خالدة . .

كرروا :
- نجيب !
وفقد عبد الناصر أعصابه وقال :
- ليس معقولا أن نضع فردا فى كفة وعلاقة بين شعبين فى كفة أخرى .
فقالوا له :
- إننا جعلنا من نجيب رمزا لوحدة الوادى . . شماله مع جنوبه . .
ثم أضافوا فى اتهام واضح :
- وأنتم حطمتم هذا الرمز .
وأنهى عبد الناصر الحوار الذى لم يعجبه . . لكنه سمع مرة أخرى ، من أحد الوزراء المصريين ، الذى كان يتكلم فى نفس الموضوع مع أحد الزعماء السودانيين . .
قال الوزير المصرى :
- إن إصراركم على نجيب اصرار بلا تفسير يقبله العقل ولا المنطق .
فرد الزعيم السودانى :
- بصراحة إننا فى السودان نخشى على بلادنا بعد إن انقلبتم على نجيب . . ماذا يضمن لنا عدم الانقلاب علينا لو اتحدنا معكم . . لقد تصرفتم مع رجل كريم بأسلوب مهين . .
قال الوزير المصرى :
- لكن . .
فسارع الزعيم السودانى قائلا :
- لامعنى فى السودان لكلمة لكن . . ولانحب هذه الكلمة المائعة . . نحن بلد وحكومة ديمقراطية حرة . . لانقبل الانطواء تحت علم وحكومة أو توقراطية .
وقبل موعد الاستفتاء واصل السودانيون نفس الكلام . . وقالوا :
- إننا سنقرر الانفصال عن مصر ، ولو أراد المصريون أن نتحد معهم فلا مفر أمامهم من إعادة نجيب وتغيير نظام الحكم وعرف عبد الناصر هذا الكلام ، الذى لم يصلنى إلا بعد رفع القيود عنى ، لكنه لم يستجب له ، ولم يفكر فيه ، بل ورد عليه بكلام جارح جدا .
ولم ينفصل السودان عن مصر فقط ، بل وتدهورت العلاقات بين البلدين أكثر

وفى ذلك الوقت كنت أطالع الصحف السودانية : « الناس » ، « والصراحة » ، « والسودان الجديد » ، و « النيل » ، و« الأيام » .. وكنت أسجل ما تنشره هذه الصحف .. ولازلت احتفظ بما سجلته إلى الآن . وللتاريخ أعيد الآن نشر بعض مما سجلته ..

ففى جريدة النيل نشر صالح عبد القادر قصيدة من ٨٣ بيتا ، جاء فيها :

فكم باسم مصر سالت دماؤنا ... وكم باسمها شعبنا قام مأتم
فمن عهدنا عهد اللواء ونحن ما ... نزال نعانى مانعانيه ونغرم
وكنا نرى فيها الصديق وعندما ... اطمأنت بدت أطماعها تتجسم

وجاء فيها :

اذا هان مثلك يانجيب فما هو ... الضمان بأنا لا نهون ونهضم
فهل ينتهى امر الرئيس الى هنا ... ومستقبل الأحزاب فى مصر مهم .
فليس فى مصر اليوم حر وليس فى ... دارها امروء بالحق والعقل يحكم

وجاء فيها :

وهاهى أقدار الرجال تدهورت ... فويل لمن يستاء أو يتبرم
وقد ألغيت فيها العقول فكل من ... يشير إلى جرم العساكر مجرم
فهل يطمئن لهم بربك عاقل ... وأطماعهم فى أرضنا تتضخم

وفى اليوم التالى لإقالتى ، قالت جريدة الأيام فى صفحتها الأولى :

« حكومة مصر تبعد نجيب » .

« الرأى العام فى السودان يستنكر القرار .

« مبارك زروق يقول : هذا العمل يؤثر على الفهم العاطفى للوحدة » .

وقالت الأيام :

« إن الديكتاتورية الفاشية التى تحكم مصر بقوة الحديد والنار لايرضيها أن يرتفع صوت واحد ينادى بالديمقراطية وكانت جريمة نجيب أنه لم يخضع لحكم البكباشية ولم يرض سيطرة الديكتاتورية ..

« إن الشعب المصرى سينتصر فى معركته القادمة ومعركة الاطاحة بالحكم الديكتاتورى ، والشعب السودانى الذى يؤازر شعب مصر فى محنته لن يرضى مطلقا أن يتحد مع ديكتاتورية أو يرتبط بفاشستيه .

وليعلم حكام مصر هذا وليعلموا أن أقوالهم وكلماتهم المعسولة لن تجدى فى كسب السودانيين

وتحت هذا الضغط بدأ إسماعيل الأزهرى الذى كان يناضل من أجل الاتحاد مع مصر ، يتراجع عن موقفه قليلا . . لكن هذا التراجع المحدود لم يرض السودانيين . .

ونشرت جريدة الأمة يوم الأحد ٢٣ يناير ١٩٥٥ على صفحتها الثالثة البيان التالى من اتحاد طلبة كلية الخرطوم الجامعية :

إن تصريح أزهرى الذى صدر تحت ضغط المد الاستقلالى الطاغى ليس سوى الاتحاد مع مصر فى صورة براقة . . إننا ننادى بالاستقلال التام لبلادنا مهما كان نوع الحكم فى مصر . . الاستقلال التام هو المطلب الطبيعى الذى لا يقبل جدلا أو نقاشا لأى شعب من الشعوب . .

إن ارتباط السياسة الخارجية والدفاعية والتجارية مع مصر يعرض سيادتنا للقضاء المحقق خصوصا إذا كان مع حكومات رجعية استبدادية كالحكومة الديكتاتورية التى تحكم مصر الآن والتى حددت موقفها نهائيا من المعسكر الاستعمارى بعد ان وقعت معه عدة اتفاقيات خائنة كاتفاقية النقطة الرابعة وهى فى طريقها الآن إلى إبرام اتفاق دفاعى جديد يكبل الشعب المصرى بمزيد من الأغلال . .

وفى ٣٠ يناير ١٩٥٥ ، كان العنوان الرئيسى لجريدة الأمة هو :

« هل يعاد نجيب إلى رئاسة الجمهورية لإنقاذ الموقف الاتحادى بالسودان ؟

وفى ٣ فبراير ١٩٥٥ قالت صحيفة « التلغراف » :

«نجيب باق فى المرج ويعامل معاملة سيئة » .

ولم تجد حكومة عبد الناصر ردا مناسبا على كل هذا الكلام ، سوى أسلوبها المبتكر ، وهو تلفيق التهم والتشهير بالسودانيين . . فقد قبض على الوزير السودانى السيد خضر حمد فى القاهرة بتهمة حمل قصيدة كتبها الاستاذ أحمد محمد صالح . . وكانت هذه القصيدة ـ الأزمة تقول :

ماكنت غدارا ولاخوانا كلا ولم تك يانجيب جبانا
ياصاحب القلب الكبير تحية من أمة اوليتها الاحسانا

وكانت تقول :

الثورة الحمقاء كنت صمامها — من كل شائبة وكنت ضمانا
أخذت من اسمك روحها وحياتها — ومضت فكانت رحمة وحنانا

وكانت تقول :

ياويح مصر مادهى أبناءها — فمضوا على أحفادهم عميانا
ركبوا رؤوسهم فكانت فتنة — هوجاء ما تركت لهم إخوانا

وكانت تقول :

باعوا رئيسهم ورمز كفاحهم — بيع السماح وحالفوا الشيطانا
ومضى كبيرهم يفاخر جهرة — بصنيعه متبجحا فتانا

وكانت تقول :

قالوا أردت سلطانا وتجبرا — ومشيت تبغى الحياة والسلطانا
كذبوا فعرشك فى القلوب مكانه — أتريد من بعد القلوب مكانا

وكانت تقول :

هل يحجبون الشمس فى إشراقها — أو يطمسون جمالها الفتانا
ماحطموك وانما حطموا — أمل البلاد وصوتها الرنانا
هذا جزاء المحسنين وقلما — تلقى على احسانك الإحسانا

وهكذا ضاع السودان كما ضاعت الديمقراطية . .

وكان لابد أن يقدم عبد الناصر كبش فداء . . ولم يجد بالطبع أفضل من صلاح سالم . . فأجبره على الاستقالة . . فقد استغل عبد الناصر الاخطاء التى وقع فيها صلاح سالم فى السودان ، وذبحه . . وخرج هو بريئا من هذه الجريمة . .

وتمنيت أن أرى صلاح سالم بعد ذلك . . لكن القدر أختطفه قبل أن يحقق أمنيتى وسحبت بريطانيا جيشها من السودان وخرج الجيش المصرى من هناك أيضا أنسحب من جزء من وطنه وتم الجلاء فعلا . . فى نوفمبر ١٩٥٥ . . ولم يكن الانفصال عن مصر فى حاجة إلى استفتاء لتقرير المصير . . فلم يجر استفتاء . . ولكن الجنوبيين اعتبروا التخلى عن هذا الاستفتاء تخليا عنهم واساءة لهم ، فقامت ثورة فى الجنوب على الشمال .

وأعلن قيام الجمهورية السودانية فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ .
وأعلن استقلال السودان فى أول يناير ١٩٥٦ .
وعندما ذهب عبد الناصر لزيارة الخرطوم بعد ذلك لم ينس السودانيون مواقفه القديمة وخرجوا لاستقباله وهم يصرخون فى وجهه ويلقون موكبه بالطماطم والبيض .

الفصل الثانى عشر

مَن فرّط فى الجلاء ؟

- قدمنا لامريكا تمثال آله الحكم عند الفراعنة وقدمت لنا مسدسا بلا طلقات .
- قبل عبد الناصر فى مفاوضات الانجليز ما رفضته أنا .
- حركات مكشوفة على مائدة المفاوضات حاول بها عبد الناصر أن يثبت للانجليز أنه الرجل الأهم .
- المخابرات المركزية ترسم الخطط الأمنية لعبد الناصر وتدعم حرسه بالسيارات والأسلحة الجديدة .
- قال لى السفير السوفيتى لو قدمنا لكم السلاح لاستخدمتوه ضدنا .

أثناء مفاوضات السودان ، كان قلبى مع السودانيين . . لكن . . عقلى كان مع المصريين . .

فقد كنت أعتبر التفاوض مع الانجليز بشأن السودان هو الخطوة الأولى للتفاوض معهم بشأن الجلاء عن مصر . . وحل مشكلة السودان هو البداية الطبيعية لحل مشكلة مصر . .

ولهذا . . كان لابد من تفويت الفرصة على الانجليز ، وفصل مسألة السودان عن مسألة الجلاء عن مصر . .

ولهذا . . قبلنا بمبدأ تقرير المصير للسودان . . اما الاستقلال عن انجلترا ومصر ، واما قبول الوحدة مع مصر . .

ولهذا . . كان علينا بعد توقيع اتفاقية السودان أن نمهد للتفاوض من أجل اتفاقية الجلاء البريطانى عن مصر . .

ولم نكن نملك فى هذا التمهيد سوى اثارة الخواطر ضد الانجليز من خلال تصريحاتنا الاعلامية والصحفية التى تحدد بوضوح أن الاحتلال هو وصمة العار الكبرى التى على كل المصريين ازالتها . .

فى أسوان ، وأثناء زيارتى لها فى ٢٢ مارس ١٩٥٣ ، قلت :

« لقد انتهينا من مسألة السودان بفضل اتحاد الأمة وبقى أمام السودانيين مرحلة خطيرة سوف يخرجون منها أحرارا ، أما مسألتنا فاعلموا أننا لا نرضى الا بجلاء الغاصب دون قيد أو شرط ، أو نموت دون ذلك ونحن على أتم استعداد للتضحية والأمة كلها وراءنا »

وفى ١٤ أبريل ١٩٥٣ ، قلت فى دمنهور :

« قلت لاخوانكم بالصعيد أنه لاثالث أمامنا ، فاما الجلاء واما الفداء ، ولكن لا أحب أن أعيدها حتى لاتفقدوا زينتها فى القلوب ، ولكن أريد أن أقول لكم ان ما أطمع الناس فينا هو أنهم سمعوا منا فى الماضى صراخا عنيفا وصياحا عاليا ثم رأوا منا تواكلا معيبا وتفرقا ، فلنمح هذه الصفحة ليروا منا تقاربا وتراحما ، وليروا منا عملا صامتا متحدا ، ولكى نثبت لهم أن المصريين غيروا أسلوبهم وطريقتهم وأنهم أصبحوا شعبا جادا صارما »

وفى بيت الله الحرام . . وأثناء رحلة الحج الثانية . فى أغسطس ١٩٥٣ ، وقفت على جبل عرفات ، أدعو الله سبحانه وتعالى « أن ينصرنا على طرد الانجليز

من مصر ، وينصر الاسلام والمسلمين » . . كان صوتى عاليا . . وكانت الجموع تردد الدعاء ورائى .

وفى تلك الأيام ، لم أكن أنا الوحيد ، حقيقة ، الذى يدعو فقط الى طرد الاحتلال البريطانى من مصر ، وانما كان جمال عبدالناصر أيضا ، وغيرنا من رجال الثورة . .

بل اننى أعتقد أن نجم عبد الناصر السياسى بدأ يسطع بفضل تصريحاته المتكررة حول الجلاء . .

فهو صاحب العبارة الشهيرة :

« على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل » .

وفى أول مارس ١٩٥٣ أدلى بحديث طويل لمدير وكالة الأنباء المصرية ، قال فيه :

« اذا لم يسارع الغرب الى الاعتراف بالحقوق المشروعة لمصر والبلاد العربية فى الأستقلال التام والوقوف على قدم المساواة مع الدول ذات السيادة ، كبيرها وصغيرها ، فلن تستطيع الدول الغربية أن تخدعنا بوعودها المعسولة اذا ما نشب صراع عالمى مسلح ثالث » . وبعد أسبوعين رد على مناقشات الصحف البريطانية التى دارت حول ما أسمته ، فى ذلك الوقت ، بشروط الجلاء ، فقال : « ان مصر لن تساوم على حقها الطبيعى فى الجلاء الناجز الكامل ولاتقبل أى نوع من أنواع الاحتلال ولن تسمح فى حالة نشوب حرب لبريطانيا فى استخدام القواعد الجوية المصرية فى القتال . والمصريون أقدر على تحمل مسئولية الدفاع عن القنال من أى قوات أجنبية وستحافظ مصر على استقلالها وحريتها حتى آخر رجل وامرأة » .

وبجانب هذه التصريحات العلنية الواضحة ، قام بعض رجال الثورة باعادة تنظيم المقاومة المسلحة ضد الانجليز فى منطقة القناة ، مع تجنب الأخطاء التى وقعت فيها حكومة الوفد ١٩٥١ لاخراج الانجليز من منطقة القناة . . وجاء هذا القرار ، بعد أن عرضت المشكلة كاملة على مؤتمر مشترك من أعضاء مجلس القيادة والوزراء . . واتفقنا على أن تستمر فترة الكفاح المسلح خمسة سنوات . . وربما أكثر . . وكان فى رأيى ، أن الأسلوب الأفضل لمقاومة الانجليز هو أسلوب حرب العصابات ، وأسلوب العمل الفدائى ، وليس أسلوب قتال الجيش المنظم . . وقررنا تشكيل لجنة عليا فى كل وزارة لتجنيد المتطوعين بها . . وقررنا أن يؤلف

كمال الدين حسين كتائب الفدائيين التى تحولت الى كتائب الحرس الوطنى بعد ذلك . . وكان اختيار كمال الدين حسين اختيارا مناسبا ، لخبرته القديمة فى مثل هذه الأعمال قبل حرب فلسطين الرسمية .

لقد أحسست أن علينا أن نغير أسلوبنا القديم ونحن نطالب الانجليز بالجلاء عن بلادنا . . وأحسست أن علينا أن لانكرر الأخطاء القديمة التى وقعت فيها الحكومات من قبلنا . . وأحسست أنه لايمكن التفاوض دون أن يشعروا أننا يمكن أن نموت فعلا فى سبيل قضيتنا . . وأحسست أن ظروفنا الآن أفضل للوصول إلى الحل الذى يرضينا . . فشماعة السودان التى كان يعلق عليها الانجليز مسألة الجلاء عن مصر قد تحطمت . . والملك فاروق ، رأس النظام الفاسد ، قد رحل . . والشعب المصرى الان على أهبة الاستعداد ليأكل جنود الاحتلال بأسنانه ويقاتلهم بصدره .

أحسست أن ستار الختام فى مسرحية الاحتلال الطويلة والبغيضة على وشك أن ينزل .

ولأ أريد هنا أن يتصور أحد ، خاصة من أبناء الجيل الجديد ، الذين لم يعاصروا الأنجليز ، أننا بدأنا من فراغ ، أو أن كل المحاولات النضالية التى سبقتنا كانت سرابا . . أبدا . . كان قبلنا رجال مهدوا لنا الطريق . . وزعماء حفروا دورهم فى سجل التاريخ . . كان قبلنا مصطفى كامل بدوره الضخم فى تعريف الغرب بالقضية . . ومحمد فريد برومانسيته التى حولت القضية الى تضحية حتى الموت فقرا . . وسعد زغلول الذى تحولت مطالبه الى ثورة ، وتحولت الثورة الى حزب شعبى كاسح ، هو الوفد . . وتحول الحزب الى قتال مسلح عام ١٩٥١ . . قتال شرس فى منطقة القناة ، لم يتوقف الا بعد حريق القاهرة ، وأعلان الأحكام العرفية .

ولأ أريد لأحد من أبناء الجيل الجديد أن يتصور أن إخراج الانجليز من مصر كان أسهل من خلع الضرس ، كما تردد بعد ذلك . . أبدا . . كانت عملية شاقة وخطرة فى نفس الوقت . .

فقد كان الانجليز يقفون على بعد ٩٠ كيلو مترا من القاهرة ، فى طريق السويس . . وكان لهم . . ٨٠ ألف جندى فى قاعدة قناة السويس . . وكانوا يعرفون كل شيء عنا ، وعن الجيش ، وكانوا يستطيعون الاستيلاء على السلطة والتخلص منا بسهولة . . لكنهم ، والحمد لله ، لم يتحركوا . . لأن حركتنا فى

ليلة ٢٣ يوليو كانت مفاجأة لهم . . ولأننا تصرفنا بذكاء ، فلم نقل أكثر من أننا حركة اصلاح داخلية فى الجيش . . وأعلنا منذ البيان الأول أن الرعايا الاجانب فى مأمن كامل . . وخشى الانجليز أن ينزلوا من السويس حتى لا تتحول شوارع القاهرة الى مجازر . . كما أنهم ، وأنا أيضا ، قبلنا الدخول فى مفاوضات الجلاء ، منعا للقتال ، وحقناً للدماء .

كنت لا أريد أن تصطدم الثورة ، التى كانت لاتزال فى طورها الأول الضعيف ، بالانجليز الأقوياء . . وكنت أرى فى نفس الوقت أن الظروف أصبحت ملائمة أكثر للتفاوض معهم . . فلا ملك يناور . . وأحزاب تعطل . . ثم ان الانجليز أنفسهم كانوا أميل للتفاوض وكان رفض اقتراحهم بالتفاوض يعطيهم الفرصة أمام العالم لمد سنوات الاحتلال .

وفى يوم الخميس ١٦ أبريل ١٩٥٣ ، أذاعت القاهرة ولندن البيان المشترك التالى :

« اتفقت الحكومتان المصرية والبريطانية على بدء المباحثات قريبا فى المسائل المعلقة بين البلدين ، وسيستقبل حضرة الرئيس اللواء أركان الحرب محمد نجيب وحضرة الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية حضرتى سيررالف ستيفنسون السفير البريطانى والجنرال سير بريانى روبرتسون يوم ٢٧ أبريل الحالى »

وكما جاء فى هذا البيان ، بدأت المفاوضات يوم الاثنين ٢٧ أبريل ١٩٥٣ . . فى الحادية عشرا والربع صباحا . .

كان معى محمود فوزى ، وجمال عبدالناصر ، وعبداللطيف البغدادى ، وعبدالحكيم عامر ، وصلاح سالم . . وعلى الجانب الآخر كان السير رالف ستيفنسون ، والجنرال سيربريان روبرتسون ، والمستر كروز ويل ، والجنرال سير آرثر ساندرز ، والبريجادير دوف والبريجادير هوب ، والجروب كابتن دافيز .

وفى الاجتماع تبادلنا مذكرات بوجهة نظرنا .

وعقب الاجتماع أذيع البيان التالى :

« عقد صباح اليوم الاجتماع الأول بين الوفدين المصرى والبريطانى وألقى حضرة رئيس مجلس الوزراء اللواء محمد نجيب والسفير بيانات عامة ، وسيعقد اجتماع آخر غدا فى الساعة الحادية عشرة صباحا بمجلس الوزراء »

وعقد الاجتماع الثانى . . وعقد اجتماع ثالث ، ورابع ، وخامس ، وسادس . . ثم أوقفت الاجتماعات ، وانهيت المفاوضات .
قطعت المباحثات فى يوم الأربعاء ٦مايو ١٩٥٣ .

وكان السبب وراء هذا القرار مالمسته من مراوغات من الجانب البريطانى . . فقد وافقنا على بقاء بعض الفنيين البريطانيين فى القاعدة ، لمدة معينة ، لكن البريطانيون أرادوا استغلال هذه الموافقة ، لتوسيع عدد أولئك الفنيين ، بحيث يصبحون فعلا ، احتلال جديد ، فى صورة مختلفة . .
وأعلنت للشعب أننى قطعت المباحثات . . وقلت فى بيان ١٩ مايو ، عبر الأثير :

« لقد قطعت المباحثات بيننا وبين الانجليز نتيجة لمحاولتهم العبث بالمبدأ الذى جعلناه أساسا للدخول فى هذه المباحثات وهو جلاء جنود الاحتلال عن أرضنا جلاء كاملا دون قيد ولاشرط ، ويعلم الله أننا لم ندخل هذه المباحثات تسليما منا بأن المفاوضات هى الطريق للوصول إلى حقنا وإنما لنحدد مع الانجليز مراحل الجلاء وطريقة تنفيذه ولنظهر للعالم إذا ما فشلت المحادثات نوايا أولئك المستعمرين العادين على حريتنا .

« ومنذ أن قطعت هذ المباحثات والناس يتساءلون عن الخطوة التالية التى سوف تخطوها الحكومة التى أتشرف برياستها .
« الا أنى مكاشفكم جميعا بأننا قد عقدنا العزم على أن نستخلص حقوقنا بأيدينا ، ذلك لأننا نؤمن ايمانا لن تزعزعه الحوادث والنوائب أن الحقوق تؤخذ ولاتوهب . ومن أجل ذلك لن تقبل مصر ـ وأنا هنا أتكلم بلسانها ـ أن ترد اليها حقوقها مشروطه أو منقوصة مهما كانت الاقنعة التى تختفى وراءها من الافتئات على هذه الحقوق . ولكن أستخلاصنا لحقوقنا من غاصبينا لن يكون سهلا ولا هينا وأنما هو أمر جلل يقتضينا كحكام مسئولين عن سلامة هذا الشعب ، وكحكام مسئولين عن أمنه . . وكحكام نقدر حقه علينا ، وواجبنا نحوه ـ أن نستعد له ، وأن نحكم الاستعداد فلا نترك أمرا مهما بدا تافها دون أن نتدبره ولا نترك منفذا يحتمل أن ينفذ منه عدونا الينا ، دون أن نسده . فلسنا نرتضى لأنفسنا أن نزج بابناء مصر فى امتحان كهذا الذى ينتظر مالم نعدهم له اعداد كاملا ومالم نوفرلهم كل الامكانيات التى تعينهم على الصمود لذلك الامتحان وتمكنهم من النجاح فيه وليس التنظيم والتدريب العسكرى الذى نأخذ به الآن الا بعض هذه الامكانيات

إلى هذا الحد كنت واقعيا . .
وقلت :

« لقد أفزع تجمعكم وراءنا والتفافكم حولنا السير ونستون تشرشل فجعله يتخبط ، ويهذى بأقوال ان دلت على شيء فإنما تدل على حنق المغيظ من عهد سد على المستعمرين المسالك ، والزم أذنابهم جحورهم وخلص البلاد ، أو كاد من دعاة الفرقة والانحلال والهزيمة ، وانى لواثق أن تشرشل لن يجد منكم الا كل ما يزيده غيظا على غيظ ، وحنقا على حنق ، لن يجد منكم الا اصرارا على حقوقكم وإلا استمساكا باتحادكم والا تفانيا فى مطاردة عملائه الذين يستهدفون السعى بينكم بأراجيفهم الدنيئة .

« ولم يقف غيظ تشرشل عند المصريين وحدهم بل تعداهم الى الخبراء الألمان الذين يعملون فى جيشنا فصب جام غضبه ، وقال فى وصفهم ، أنهم ينشرون النازية فى الجيش المصرى ، وأنى أفهم جيدا سر حقد تشرشل على هؤلاء الخبراء

. وانا لموفرون البعض الآخر فى يوم قريب . قال تعالى « وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »
الى هذا الحد كنت واقعيا . .
وقلت :

« اننا حريصون ـ أشد الحرص ـ على أن لانكرر أخطاء من سبوقنا ، لن نكرر مأساة فلسطين ، ولن نكرر مأساة القنال التى حدثت عقب الغاء المعاهدة فى سنة ١٩٥١ . نعم لن نندفع ولن ندفع الناس نحو الخطأ بشهوة لأنفسنا بذلك التصفيق الأجوف الذى مايلبث حتى يقع ، وتبقى الأعمال راسخة فى أذهان الناس وصفحات التاريخ »
الى هذا الحد كنت واقعيا . .
وقلت :
« نعم ـ نحن الذين سنحدد موعد المعركة ، ونحن الذين سنختار أسلحتها ، ونحن الذين سنعين الظروف التى ينبغى أن تدور فيها وسنحدد ذلك كله باملاء من وطنيتنا ومن حرصنا على سمعتنا ومن تقديرنا لكافة الاحتمالات والظروف التى تحيط بنا وتلابس الموقف الدقيق الذى يمر به هذا الوطن المجيد فى هذه الأيام »

فلقد كان يريد لجيشنا أن يظل معتمدا على الانجليز الذين اذلوه ، وحطموه ، وجعلوا منه جيشا لا يستطيع أن يضرهم ولايستطيع أن ينفعنا .

« فلما صارت الأمور الينا ، وعقدنا العزم أن نجعل من الجيش جيشا ، يستطيع أن يضر الانجليز ، ويستطيع أن ينفعنا ، واستعنا بهؤلاء الخبراء لمعاونتنا فى بلوغ الغاية ، أكل الحقد قلبه »

الى هذا الحد كنت صريحا وواضحا ومباشرا . . ودفع هذا الكلام العلنى الذى نقله العالم كله الى أصعب أزمة بيننا وبين الأنجليز . . ودفعت هذه الأزمة الولايات المتحدة للتدخل بين مصر وبريطانيا لحل الأزمة ، ولايجاد وسيلة عاجلة لانقاذ المباحثات . .

ففى ٢٤ مايو وصل وزير الخارجية الأمريكى جون فوستر دالاس إلى القاهرة ، ضمن جولة له فى دول المنطقة . . وقابلته أنا والدكتور محمود فوزى . . وبمجرد أن رأيته ، حتى أحسست ، من الوهلة الأولى ، أنه « كاوبوى » أمريكى . . يفتقد الكثير من الرقة ، والحضارة . . ويميل أكثر للعنف واستعراض القوة . . وأكد هذا الأحساس الهدية التى حملها لى ، من الرئيس الأمريكيى ايزنهاور . . كانت هذه الهدية عبارة عن مسدس ، غطت الفضة قبضته ، ونقش عليه بالانجليزية :

« إلى الجنرال نجيب من الجنرال ايزنهاور »

وكنت قد أرسلت الى الرئيس ايزنهاور ، مع سفيرنا فى واشنطن « أحمد حسين » هدية تعبر عن حضارتنا العريقة ، كانت تمثالا لالهة الحكمة عند الفراعنة ومع المسدس ، قدم لى دالاس خطاب شكر من ايزنهاور . . وقال :

ـ انه هدية عظيمة !

فقال السفير الأمريكى جيفرسون كافرى الذى كان حاضرا :

ـ أنها هدية نافعة ولكن لتأييد السلام .

فقلت لهما وأنا أضحك :

ـ إننا نستخدم السلاح فقط فى حالة الدفاع عن النفس .

وكان المسدس فى الحقيقة ، بلاقيمة عملية ، لانه كان بلا ذخيرة ، ولم يكن له عندنا ذخيرة مناسبة ، لأنه كان من عيار غير متوافر ، ولا مستخدم عندنا .

وقال دالاس :

ـ انى أريد منك أن تعدنى بأن يخيم الهدوء على منطقة قناة السويس إلى أن أعود

من رحلتى فى الشرق الأوسط إلى واشنطن وأجتمع بالرئيس أيزنهاور .
فقلت له :
ـ أنا أعدك « لكن . . هل يقدم لك الانجليز نفس الوعد ؟ . . ان الانجليز لم ولن يحترموا ذلك . . اذ أن اعتداءاتهم على المصريين تقع كل يوم فى منطقة القناة . . وهذا لايمكن وصفه الا أنها محاولات مقصودة لاستفراز المصريين الذين طالبتهم فى بيانى الذى أذيع منذ أيام بأن يلتزموا الهدوء والصبر .
فحول دالاس الموضوع ، وراح يشيد بحكمتنا ، وما حققناه للشعب ، فى مجالات العمل الداخلية ، وانتقل فجأة ، وبدون مقدمات طويلة للكلام عن الشيوعية ، وعن خطرها الزاحف على الشرق الأوسط ، وقال :
ـ ان روسيا تريد أن تسيطر على العالم عن طريق الشيوعية ، ونحن فى أمريكا نقوم بعمل حزام حولها للدفاع عن العالم الحر . . والشرق الأوسط يمثل جزءا من هذا النزاع ، وعلى ذلك يجب قيام حلف من الدول العربية بزعامة مصر لاستكمال هذا الحزام .
وسكت لثوان . . وعندما وجدنى لم أعلق ، قال :
ـ إن حكومة الرئيس أيزنهاور عنيت بدراسة الدفاع عن الشرق الأوسط بالاشتراك مع بريطانيا وان مسألة الدفاع عن هذا الجزء من العالم ورفاهيته من المسائل التى تعنى بها الحكومة الأمريكية .
ولم أكن فى حاجة لمزيد من الايضاح . . فقد كان كلام دالاس مباشرا وقاطعا . . يريد أن ندخل فى اطار الاحلاف الغربية . . يريد أن نستبدل الاستعمار القديم بالاستعمار الجديد . . يريد أن نخرج من نقرة لنقع فى بئر . .
قلت له :
ـ إن الخطر الشيوعى هو خطر محتمل ، ولكن الواقع الآن هو أن الأنجليز يحتلون بلادنا فعلا رغم إرادتنا ، فهم الآن أعداؤنا . . ومن البديهى أنه لايمكننا أن نتحالف مع أعدائنا .
وقلت له :
ـ إن جلاء الجيوش البريطانية هو أهم شيء أجمع عليه الشعب المصرى . . أما الحديث عن عمل حزام حول الأتحاد السوفيتى وأشتراك مصر فى حلف مع العالم الغربى فهذا أمر لا يمكننى البحث فيه الآن . . لكننى أعدك بدراسة هذا الموضوع بعد جلاء الانجليز وتحرير أرضنا .
فسألنى دالاس عن أسباب قطع المفاوضات مع البريطانيين . .

فشرحت له الأسباب . .
فقال :
ـ أعتقد أنه لابد من وجود عمل يتمشى مع السيادة الكاملة لمصر مع جلاء القوات البريطانية ، على أن ينظم هذا الجلاء ، حتى تظل القاعدة الحربية الهامة فى منطقة قناة السويس بمستودعاتها فى أمان تام ، وأن تكون ميسرة لاستعمال العالم الحر فى حالة قيام حرب فى المستقبل .
وأنهى دالاس حديثه بالطلب الذى طلبه فى البداية ، وهو الوعد بأن يشمل الهدوء منطقة القناة إلى أن يعود إلى واشنطن .
كان ما قاله دالاس عن سياسة الأحلاف ، كلاما ليس جديدا ، وسبق أن سمعته من جيفر سون كافرى ، ونحن على مائدة العشاء فى بيت عبد المنعم أمين ، قبل أن يخرج من مجلس القيادة ، ويعين سفيرا لمصر فى هولندا .
وقد كان لبيت عبد المنعم أمين الفخم هو مكان اللقاء المستمر بين رجال الثورة والأمريكان . . وأنا لم أحضر مثل هذه اللقاءات سوى مرتين فقط ، لأننى كنت أخشى من أن تقع الثورة فريسة سهلة فى يد الأمريكان ، وحذرت عبد المنعم أمين منها . . لكنه لم يسمع كلامى ، وفضل أن يستجيب لكلام جمال عبدالناصر الذى كان على صلة وثيقة بالأمريكان ، منذ الساعات الأولى بعد نجاح الحركة .
وكنت قد قرأت الكثير عن علاقة ، المخابرات المركزية بعبد الناصر وتنظيم الضباط الأحرار قبل الثورة ، لكننى لا أملك أى دليل على صحة ما قرأت ، ولا على نفيه . .

وكل ما أستطيع أن أجزم به ، هو أن الأمريكان ، منذ اللحظة الأولى لنجاح الحركة ، كانوا يحاولون التقرب منا ، وكسب ثقتنا ، وكنت كما قلت من قبل ، قد أبلغتهم فى صباح ٢٣ يوليو أن الحركة لاتستهدف التعرض للأجانب ، وذلك بواسطة على صبرى ضابط مخابرات الطيران فى ذلك الوقت ، والذى كان وثيق الصلة بالملحق الجوى البريطانى مستر إيفانز .
أما المرة الأولى التى قابلت فيها الأمريكان وجها لوجه ، فكانت يوم خروج الملك فاروق ، حيث التقيت ساعتها بالسفير الأمريكى جيفرسون كافرى ، وتبادلنا التحية العابرة ، دون حديث .
وأول مرة تبادلنا فيها الكلام كانت فى بيت عبد المنعم أمين ، المطل على النيل

، عند كوبرى عباس ، وكان معه أربعة من رجال السفارة الأمريكية ، عرفت فيما بعد أن أثنين منهم من رجال المخابرات المركزية . . وكان معى عبدالناصر ، وعبدالحكيم عامر ، وعبداللطيف البغدادى ، وزكريا محيى الدين ، ومحمد رياض (قائد الحرس) وتكررت الدعوة مرة أخرى فى نفس المنزل بعد أسبوع واحد .

وفى اللقاء الأول قال كافرى :

ـ إن حكومته تخشى تسلل الشيوعية إلى مصر ، وترى ضرورة وجود أجهزة أمن قوية لحماية شعبها وعرض معاونة أجهزة المخابرات المركزية لها فى هذا الأمر . .

وتحدث أيضاً عن ضرورة ارتباطنا بأحلاف « العالم الحر »

وبنفس الصراحة التى تكلم بها كافرى ، قلت له :

ـ لا . . أنا أعترض على ما تقوله ياسيدى السفير . . فالشعب المصرى بطبيعته لا يهتم بالشيوعية ، وأنا لا أخشى من أى تسلل شيوعى إلى مصر ، كما أننى ضد أى أستعمار ، وضد أى قيد على حريتنا من أى نوع .

وقلت له :

ـ ونحن نرفض تعاون أجهزة الأمن مع المخابرات المركزية لأننى لا أريد تقييد حرية المواطنين ،وتقوية هذه الأجهزة يجعلها فى آخر الأمر هى التى تحكم فعلا ، وكفى ما عانيناه وعاناه شعب مصر من القلم السياسى . . أما من حيث الأحلاف فلا حديث عنها قبل الجلاء الكامل غير المقيد بشروط .

لكن ما رفضته أنا بصراحة ، قبله جمال عبدالناصر بعد ذلك . .

تدخلت المخابرات المركزية فى رسم خطط حماية عبدالناصر الأمنية ، وجاءت له بسيارات وأسلحة خاصة لتنفيذ هذه الخطط ، كما أن أسس تكوين المخابرات المصرية التى أقامها زكريا محيى الدين ، كانت مستمدة من أفكار بعض الأمريكان ، وتحولت هذه المخابرات كما توقعت الى جهاز لتعذيب الشعب المصرى وفض كرامته ، كما حدث بعد ذلك .

كان احساسى بخطر احتواء الأمريكان للثورة ، هو دافعى لقطع حبال الاجتماعات الخاصة مع رجالهم . . وتأكيدا لهذا الموقف ، أعلنت بصراحة لوكالة اليونيتدبرس ونحن على وشك المفاوضات مع الانجليز بأننى : « اصر على أن يكون الجلاء غير مشروط بشرط ما فنحن غير مستعدين لمناقشة أية منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط سواء كانت حلفا . . أو ميثاقا أو تحت أى أسم تطلقه عليها » .

ولكنى عرفت أن الأجتماعات الخاصة مع الأمريكان استمرت سرا مع جمال عبد الناصر وعدد من أعضاء مجلس القيادة . . وعندما عرفت ذلك عارضت هذا الاتجاه بشدة ونصحتهم فى الابتعاد عن هذه الأتصالات ، وأخذت جمال عبد الناصر معى إلى مكتبى وقلت له :

ـ إن وجود المخابرات المركزية وسطنا أمر خطير جدا .

قال :

ـ لكن . .

لكننى لم أتركه يعترض وقلت له :

ـ ان الأمريكان يريدون تخريب الثورة واحتوائها لتسير فى ركابهم ، ويجب أن تقطع صلتك بهم فورا .

ووعدنى عبدالناصر بذلك . .

لكنه لم ينفذ وعده . .

واكتشفت ذلك بنفسى . .

ففى يوم كنت أغادر مكتبى فى القيادة ليلا ، فمررت على مكتب جمال عبدالناصر ، فوجدت عنده كيرميت روز فلت ، رجل المخابرات الأمريكية الذى حضر العشاء معنا فى بيت عبدالمنعم أمين ، والذى تحدث عن دوره فى مصر بعد الثورة ، مايلز كوبلاند ، فى كتابه « لعبة الأمم » . .

فسألت عبد الناصر :

ـ ماذا يفعل كرميت روزفلت عندك يا جمال ؟

فقال لى :

ـ إنه كان يرغب فى مقابلة سيادتكم !

فغضبت لهذا العذر الذى كان أقبح من ذنب ، وقلت له فى جفاء :

ـ أنت تعرف أننى أكره رجال المخابرات ، ولا أريد مقابلة هذا الرجل ، وإذا كان الأمريكان يريدون الاتصال بى فعلا ، فالأفضل أن يتصل بى السفير الأمريكى فقط .

ووعدنى عبدالناصر مرة أخرى أن لا يتصل بهم . .

ولكنه مرة أخرى لم ينفذ وعده . .

فلم تنقطع اتصالاتهم مع الأمريكان ... بل وزادت .

وكما قلت من قبل :

« لست أريد بذلك إطلاق الأحكام أو إثارة الشبهات . . ولكنى استنكرت اتصالا يتم بين قيادة سياسية وعملاء فى مخابرات دولة أجنبية » .

وكان الأمريكان فى هذه الفترة يظهرون فى صورة الدولة التى تريد مساعدتنا فى التخلص من الاحتلال البريطانى ، وكنت لا أجد مناسبة فى أى مقابلة رسمية دون أن أثير معهم الحديث فى ضرورة اقناع البريطانيين بقبول مبدأ الجلاء » .

حتى أن مستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية قد صرح يوم وصول مستر دالاس :

« يبدو أن مصر تقبل أن تكون أمريكا طرفا ثالثا فى مباحثات الجلاء » !

وكان السفير كافرى قد عرض على هذا فعلا ، لكننى رفضته . وسألت دالاس عن تصريح تشرشل ، فقال :

ـ قرأت التصريح .

ولم يعقب .

فخشيت أن يكون ما قاله تشرشل صحيحا ، وخشيت أن يكون هناك اتفاقا بين أمريكا وبريطانيا على ذلك ، وخشيت أن يؤثر تصريح تشرشل على الثورة ، فخرجت من اجتماع دالاس ، وقلت للصحافيين تعقيبا على تصريح مستر تشرشل :

« إننا لن نقبل خصما ثانيا . . فما قاله تشرشل غير صحيح » .

وغضب دالاس من كلامى . .

وسافر إلى بيروت ، حيث كان كميل شمعون رئيسا للجمهورية ، وصائب سلام رئيسا للوزراء . . وأستقبل هناك بمظاهرات معادية ، وهتافات صاخبة .

وكما قلت من قبل :

« كانت زيارة دالاس لمصر قد مضت هادئة ، إلا أن أحمد أبو الفتح كتب مقالا ينقد فيه تصرف سفيرنا فى واشنطن أحمد حسين الذى هرع إلى القاهرة ليكون فى أستقبال دالاس بعد سفره لأمريكا بعشرة أيام وتقديم أوراق اعتماده بخمسة أيام .

وقد دفعنى موقف الشعب اللبنانى إلى التساؤل :

لمَ لمْ تتحرك مصر فى مظاهرات ضد دالاس ؟

وأرجعت ذلك إلى عدة عوامل . . منها ثقة الجماهير فى وطنية الثورة ومنها الغاء الأحزاب السياسية التى كانت تحرك الجماهير ومنها أيضا أننا لم نستطع خلق تنظيم قوى يكتسب ثقة الناس .

هيئة التحرير تكونت فى ظروف لاتسمح بخلق تنظيم سياسى قوى . . لأنها اعتمدت على العسكريين الذين لايحسنون فهم العقلية الشعبية ولا يجدون المرونة السياسية . . وانتشر الضباط كما سبق أن أو ضحت فى مختلف تنظيمات الهيئة على امتداد الجمهورية . . وكانت هناك حساسية قد بدأت تظهر بين المدنيين والعسكريين . . بعد أن أساء التصرف عدد من العسكريين .

ولذا فإن تنظيمات هيئة التحرير قد خلت من الشخصيات السياسية النظيفة التى مارست العمل السياسى قبل الثورة ، وعفت عن الانتساب إليها العناصر الحزبية التى كنت أتمنى أن تلحق بها ، ولم يعد يتهافت عليها الا نوع جديد من المتسلقين والانتهازيين وكان مفروضا أن تكون هيئة التحرير هى أساس وحدتنا الوطنية فى مواجهة قوات الأحتلال . . ولكنها تحولت مع الاسف إلى هيئة ضعيفة متهالكة لاتظهر إلا فى الاجتماعات العامة حيث أجادوا جمع الجماهير للاستماع إلى الخطب فى السرادقات .

كنت اتمنى أن تنطلق فى القاهرة تظاهرات ضد زيادة دالاس الذى قلت عنه لزملائى إنه « تاجر أحلاف » يود أن يرغمنا على شراء بضاعته . . ولكننى لم أكن أود أنه تكون حركتها باشارة من السلطة . . كنت أود أن تكون حركة ذاتية نابعة من عواطف الجماهير . . ولكن يبدو أن الاجراءات الاستثنائية التى اتخذت بتشكيل مجلس الثورة ومحاكمات الضباط وأعتقال السياسيين قد أضعفت من مبادرات الجماهير فى التعبير عن رأيها وإرادتها .

وكان مبدأ عدم الأرتباط بأية أحلاف عسكرية قد أصبح يقينا وعقيدة منذ أعلنت حكومة الوفد ذلك ، بعد أن تقدم سفراء أمريكا وبريطانيا وفرنسا وتركيا يطلبون بطلب مشترك إلى الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية يطلبون فيه دخول مصر فى حلف دفاعى يسمى « منظمة حلف الشرق الأوسط » . . وأعلنت حكومة الوفد فى البرلمان رفضها لذلك . . وواصلت الثورة الرفض وسافر دالاس

وهو يحمل ما قلته له . .

وعاد إلى واشنطن . .

وانتظرت ما يرد به . . لكن شيئا جديدا من أمريكا لم يصل .

لا رأى فى الموقف من مباحثات الجلاء ، ولا ما وعدوا به من سلام .

فبعد الثورة عرفت أن الملك فاروق تعاقد مع أمريكا على صفقة سلاح قيمتها

خمسة ملايين دولار . . وعرفت آن الانجليز عطلوا الصفقة لأنهم كانوا لايريدون الاعتماد على غيرهم فى تسليحنا . وكانوا لا يسمحون لنا بشراء أسلحة من دول آخرى ، الا من التى يحددونها ، كما فعلوا عندما استوردنا الاسحلة القديمة والفاسدة من إيطاليا وأسبانيا . .

وبعد أن عرفت بأمر هذه الصفقة ، طلبت من الأمريكان أن ينفذوها ، مع تغيير فى بعض أنواع الأسلحة المتفق عليها . . وأبلغت هذا الطلب للسفير كافرى ، ولدالاس . . وقدمت لهما قائمة جديدة . .

وقدمت القائمة مرة ثالثة لوليم فوستر مساعد وزير الدفاع الأمريكى عندما زار مصر ، والذى قبلها مسرورا ، وطلب إرسال بعثة مصرية للتحدث مع المسئولين فى البنتاجون حول السلاح المطلوب . . وسافرت البعثة ، على رأسها على صبرى ، وعادت بعد ٨ أسابيع بخفى حنين .

ولم أحصل من أمريكا على سلاح ، سوى المسدس الذى أرسله لى أيزنهاور كهدية ، والذى لم أجد له ذخيرة مناسبة إلى الآن .

وعندما يئست من ذلك ، صرحت للصحافة :

« ولا بد أن نحصل على أسلحة حديثة من دولة ما ، وفى حالة أمتناع أمريكا والديمقراطيات الغربية عن مساعداتنا فمن البديهى فى هذه الحالة أننا سنلجأ إلى غيرها »

ولم أتصور أن يحدث هذا التصريح أثره بسرعة . .

فبعد أيام جاء لى السفير السوفيتى بنيامين سولود ، زيارة عادية ، نشرب فيها القهوة ، وندردش . . وأثناء شرب القهوة ، والدردشة فوجئت به يقول لى :

ـ لماذا تقفون مع الغرب ضدنا ؟

فقلت فى تهكم وسخرية واضحة :

ـ لأن الغرب ، خاصة الانجليز أصدقاؤنا . . أما أنتم فتحتلون بلادنا !

ولم يفهم سولود النكتة . . وتعجب من كلامى وقال مستنكرا :

ـ نحن نحتل بلادكم ؟

قلت وأنا أواصل المزاح الثقيل الذى لم يفهمه :

ـ نعم ولهذا نحن ضدكم !

وعندما أدرك سولود مزاحى ، هدأت أعصابه ، وانفرجت أساريره وحل الارتياح

محل الدهشة فى وجهه ، وقال :
ـ اذا كان الانجليز يحتلون بلادكم فلماذا لاتطردونهم .
قلت له :
ـ لأننا لانملك السلاح الكافى الذى يجعلنا نحارب ٨٠ الف جندى يحتلون بلادنا .
ثم خطرت على رأسى فكرة عابرة ، لم تأت لى من قبل . . فقلتها له على الفور !
قلت له :
ـ لماذا لاتقدمون لنا السلاح أنتم ؟
قال فى صراحة واستفزاز :
ـ إذا قدمنا لكم السلاح أستخدمتموه ضدنا
قلت له :
ـ كيف ؟
لم يرد . .
قلت :
ـ كيف نستخدمه ضدكم ؟ هل سنعبر سيناء وإسرائيل وسوريا وتركيا والقوقاز لنقاتلكم على أرضكم ؟
وأضفت :
ـ المنطق يقول إننا أصدقاء لكم ولايوجد سبب واحد للعداوة معكم . . فكل قطعة سلاح تشجعنا على محاربة الاستعمار .
وسكت سولود لثوان ثم قال :
ـ هل السيد الرئيس جاد فيما يتحدث به ؟
قلت :
ـ تماما . . انني مستعد للحصول على السلاح من أى دولة تمدنا به .
فقال :
ـ سأكتب إلى موسكو وأرد عليك .
وبعد ثلاثة أسابيع جاء سولود ليزورنى فى بيتى . . وكان يوم جمعة . .
وقال لى :
ـ إن موسكو وافقت على إعطائكم السلاح من ناحية المبدأ ونحن ننتظر منكم قائمة ما تطلبون .
وفرحت جداً . .

فرحت لأن جيشنا سيصبح قويا
فرحت لأننى سأرد على الأمريكان . .

وأرسلت السفير الى عبد الحكيم عامر بصفته قائد الجيش ووزير الحربية ، ليعد له القائمة المطلوبة . . وتابعت الموضوع مع عامر فى حدود ما تسمح به مشاغلى . .

وكان عامر يقول لى دائما :

ـ ان الموضوع محل دراسة ، لأن تغيير السلاح سيسلتزم تغيير التكتيك فى الجيش .

واعتبرت الموضوع فى غاية السرية لا أتحدث عنه ولا أصرح به . .

ولم يكن حلم تنوع مصادر السلاح هو فقط ما كنت أسعى عليه . . كان هناك حلما آخر هو اعطاء الانجليز درسا لاينسونه ، بعد قطع المباحثات ، فى مقاطعة بضائعهم . . وقررت تقييد التعامل معهم بحظر توريد المواد الغذائية والمشروبات وخامات الصناعات والبناء إلى قواتهم فى القنال إلا بترخيص من وزارة التموين .

كنت أعتبر هذا القرار هو الرصاصة الأولى فى معركتنا مع الانجليز بعد توقف المباحثات .

وقد خلق هذا القرار جوا متوترا بيننا وبينهم .

وفى هذا الجو المتوتر زار القاهرة ضيف صديق له خبرته الطويلة فى محاربة الانجليز وتحرير بلاده منهم . .

كان هذا الضيف هو الزعيم الهندى جواهر لال نهرو . .

وكانت زيارته فى ٢ يوليو ١٩٥٣ . .

وكان معه محمد على رئيس وزراء الباكستان ، وكانا فى طريقهما إلى بلادهما ، عائدين من لندن بعد مؤتمر للكومنولث .

وجلس نهرو معنا يتحدث عن تجربته فى مكافحة الاستعمار وعن سياسة العملاقين (أمريكا والسوفيت) اللذين يحاول كل منهما جذب دول آسيا وأفريقيا الى مناطق نفوذه . .

باختصار شرح لنا فكرة عدم الانحياز . .

فى ذلك اليوم كنا نحتفل باعلان الجمهورية . . ووقف نهرو إلى جانبى فى شرفة قصر عابدين ، لنطل على الجماهير الغفيرة التى احتشدت وراحت تهتف باسمى . . وقال :

ـ إن مشهد الجماهير هو أروع مشاهد الحياة .

ثم همس فى أذنى قائلا :
ـ إن المفاوضين البريطانيين سوف يجبرون على العودة إلى مائدة المفاوضات وقبول الجلاء غير المشروط ما دامت صلتك بالجماهير قوية إلى هذا الحد .
لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أقابل فيها نهرو . . قابلته قبل ذلك أثناء توقفه فى مطار القاهرة فى طريقه إلى بلاده . . ومن يومها أعجبت بشخصيته . . والتقيت معه فى أفكاره الديمقراطية التى كان يتحدث عنها فى ثقة شديدة . . ويومها قال فى مؤتمر صحفى :
ـ أننى لا أرى ضرورة لقيام أحلاف عسكرية .
وبعد أن أنتهى المؤتمر الصحفى قلت له :
ـ إنك تحارب معنا فى معركتنا .
فقال :
ـ إن انتصارك فى معركة الأحلاف هو انتصار لنا .

وفى زيارة يوليو ١٩٥٣ خرجنا مع نهرو فى رحلة ألى القناطر ، وكان معنا جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح سالم وخالد محيى الدين . . وكان كل كلام نهرو فى ذلك اليوم يدور حول أهمية الديمقراطية فى بناء الشعوب ودورها فى بناء التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى . . ولكن كل ماقاله نهرو ذهب فى الهواء .
وعاد نهرو إلى بلاده . .
وأحسست بقوة روحية تسيطر على ، جعلتنى أعطى الضوء الأخضر لبدء عمليات الفدائيين ضد الانجليز فى منطقة القناة . . وكانت هذه العمليات تتم تحت إشراف وقيادة ضباط من المخابرات المصرية ، ولم يكن للخبراء الألمان أى دور فيها كما أدعى ونستون تشرشل . . فالخبراء الألمان استخدمهم زكريا محيى الين ، بموافقتى ، فى تنظيم جهاز المخابرات ، ولم يكن هذا غريبا ، لأن المخابرات الأمريكية نفسها استعانت بالخبراء الألمان فى تنظيم عملها .
وبمجرد أن بدأت العمليات الفدائية فى القناة حتى أحتجت السفارة البريطانية ، وكان ردى دائما على احتجاجاتها المتكررة هو :
« إننى سأعمل على حفظ الأمن مع تقديرى للشعور الوطنى الملتهب »
وحمل لى هذا الاجتماع ذات مرة ريتشارد كروسمان عضو البرلمان البريطانى ، وقال :
ـ انكم تدفعون الأمور إلى حافة الصدام .

فقلت له :

ـ قل لحكومتك إن صبر مصر أوشك ان ينفد وأن فرصة الوصول إلى اتفاق مشرف لن تظل سانحة إلى الأبد .

وبعد أيام من لقاء كروسمان ، قال لى كافرى :

ـ إن حوادث الصدام بين مصر وبريطانيا تهدد باضطراب فى منطقة الشرق الأوسط وهى منطقة يهم أمريكا استمرار الهدوء فيها فى هذه الفترة التى التهبت فيها الحرب الباردة بينها وبين السوفيت .

فقلت له :

ـ إن مراوغة الانجليز كانت السبب المباشر فى قطع المفاوضات وفى عودة حرب العصابات .

وكما قلت من قبل :

عرض كافرى وساطة الأمريكان مرة أخرى بعد أن كانوا قد توسطوا فى تسهيل بدء المفاوضات . . واقترح أن يشتركوا فى المفاوضات كطرف ثالث ضمانا لنجاحها ولكنى ، رفضت هذا الاقتراح لاعتقادى بأن المصالح الأمريكية البريطانية أكثر اقترابا من المصالح المصرية الأمريكية .

وعرض كافرى اقتراحا آخر يتضمنه عرضا للوساطة بيننا وبين الانجليز بقصد تضييق شقة الخلاف وتحديد المحادثات إذا بدأت فى التفصيلات مما يزيد فى فرصة النجاح . . وقبلت ذلك على ألا يرتبط حديث الجلاء بموضوع تسليح القوات المصرية أو التعاون الأقتصادى أو موقف مصر الدولى من النزاع بين الكتلتين .

وقد كانت وجهة نظرى ، فى ارتباط المصالح الأمريكية أكثر المصالح البريطانية ، صحيحة ، فقد صرح دالاس بعد ذلك بشهور طويلة :

« إن بلاده لاتستطيع إنتهاج سياسة مستقلة عن حليفتها بريطانية وفرنسا فى الشرق الأوسط »

وإن كانت أمريكا ، فى نفس الوقت قد مارست ضغطا على بريطانيا ، أكثر من مرة ، للعودة إلى مفاوضات الجلاء . . لكن . . الضغط الأكبر فى رأيى كان الفدائيين المصريين فى القناة .

فقد كان الانجليز يماطلون ويسوفون فى عودة المفاوضات ، حتى تنتهى الانتخابات السودانية ، وقد أعلنت ذلك ، صراحة فى حفل بنادى الضباط أقيم لتكريم مديرى الجامعات المصرية وأساتذتها فى ٦ نوفمبر ١٩٥٣ ، فقلت :

ـ ان الحكومة البريطانية تتعمد تأجيل مفاوضات الجلاء عن مصر حتى تنتهى الانتخابات السودانية خشية أن يؤثر فوز مصر فى مفاوضات الجلاء على تلك الانتخابات فتساعد على إنجاح مرشحى الأحزاب التى تطالب بالاتحاد مع مصر .

وعندما انجلى الموقف فى السودان ، فى يناير ١٩٥٤ بفوز مرشحى الأحزاب المطالبة بالاتحاد مع مصر ، أضافت الأحداث الداخلية عوائق أخرى ، ومن هذه الأحداث اتهام الاخوان بالاعتداء على السفارة البريطانية والخلاف بينى وبين عبدالناصر .

وتخلى تشرشل عن منصبه فى رئاسة الوزارة البريطانية . .

وتولى أنطونى أيد وزير الخارجية مكانه . .

وفى أول مارس ١٩٥٤ أعلن أيدن فى مجلس العموم :

ـ لايمكن لحكومتى أن تستأنف المباحثات مع مصر حول الجلاء عن منطقة القناة بسبب الأحداث الجارية فى مصر وفى منطقة القناة بالذات .

وكان أيدن يشير بهذه العبارة الى العمليات الفدائية ضد الانجليز والتى وصلت إلى مداها فى ديسمبر ١٩٥٣ .

وكرر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانى نفس الكلام تقريبا .

وقبلت أن تخف هذه العمليات . .

وقبل الانجليز عودة المفاوضات . .

وقلت الى صحيفة الديلى هير :

« اننا نريد تسوية مع بريطانيا كما إننا لا نريد الاشتباك فى أى نزاع وأنما نريد أن ننهى النزاع القديم الى غير رجعة » وتكلمت عن مسألة الفنيين البريطانيين الذين سيستعان بهم فى صيانة القاعدة والتى كانت أحد أسباب قطع المفاوضات ، وقلت :

ـ انهم ينبغى أن يكونوا تحت اشراف الحكومة المصرية .

ومضيت أقول :

ـ لايمكن أن تروا اننا غير معقولين . . أننا نريد أن تظل القاعدة قديرة على أداء وظيفتها ولكن فيما يتعلق بالفنيين فلاعتبارات تتعلق بسيادتنا فى بلادنا ينبغى أن يكونوا تحت أمرة الحكومة المصرية لأنهم فى الواقع سيكونون جنودا وأن كانوا سيرتدون الملابس المدنية وليس فى وسعنا أن نوافق على أن تبقى فى بلادنا قوات

أجنبية حتى ولو كانت مرتدية ثيابا مدنية ، خاصة اذا كانت هذه القوات تتلقى أوامرها من حكومة أجنبية .

وقلت :

ـ ان وجود الفنيين البريطانيين فى مصر وجعلهم تحت امرة الحكومة البريطانية يشبه استمرار الاحتلال ، ولا يوجد مصرى يقبل هذا ولا يمكن لأية حكومة مصرية أن توافق عليه . بل ان مجرد عرض مثل هذا الاقتراح يزعزع الثقة ويثير الشك .

كان على أن أذكر بنقاط الخلاف التى أدت الى قطع المفاوضات ، قبل عودتها ، من خلال الوساطة الأمريكية الجديدة . . وقد قبلت وساطة الأمريكان حتى لاتدخل أجتماعات المحادثات فى دوامة الأحاديث التى يجيد البريطانيون إثارتها لتضيع الحقيقة وسط التفاصيل الكثيرة .

وكما قلت من قبل :

« دارت الوساطة على مدة سحب القوات المعسكرة فى القناة وعلى المدة اللازمة لتصفية قاعدة القناة ، وقد تبين من المباحثات السابقة أن فيها من المنشأت والمستودعات ما أعد لتجهيز جيش قوامه مليون جندى للحرب فى الشرق الأوسط خلال أيام محدودة . . ولما لاح أن شقة الخلاف قد ضاقت إلى الحد الذى يرجى معه أن ينتهى الأمر بالاتفاق بدأت المحادثات للمرة الثانية .

ولم تقم صعوبات كثيرة لتحديد المدة اللازمة لسحب القوات البريطانية إذ اتفق على تحديدها بثمانية عشر شهرا . واتفق أيضاً على أن يتم ذلك تدريجيا ، وأن تحل القوات المصرية محل القوات المنسحبة أولاً بأول .

« كنت أعلق اهتماما كبيرا على أن تصبح قاعدة القناة فى نهاية المدة المذكورة مصرية تماما وتحت يدنا ، حيث كان هذا هو الضمان لتنفيذ الاتفاق على تصفية القاعدة . . وواجهتنا عند هذه النقطة صعوبات نشأت من اختلاف وجهات النظر .

« وكان الأمريكان يقولون إن قاعدة القناة لم تعد قاعدة بريطانية بقدر ما أصبحت قاعدة غربية استراتيجية أعدت للدفاع عن منطقة الشرق الأوسط بأكملها . . وإن تصفية هذه القاعدة فى الظروف الدولية الراهنة إنما تعنى نقلها إلى موقع آخر ما لم ينجلى الموقف عن استبعاد وقوع الحرب تماما .

« ولذا كان الاتفاق على الجلاء مرتبطا بأن تكون المدة التى تحدد لتصفية القاعدة

كافية لنقلها أو لزوال خطر الحرب . . على أن تبقى خلال هذه المدة فى حالة تصلح لاستعمالها وأن تعود إليها القوات البريطانية عند الضرورة .

« ودار نقاش طويل حول مدة تصفية القاعدة . . اقترحت أن تكون ثلاث سنوات ونصفا بعد الثمانية عشر شهرا التى يتم فيها الجلاء . . فى حين كان الجانب البريطانى يتمسك بأن تكون المدة خمس سنوات ونصف السنة .

وحدث خلاف أكبر حول حق العودة للقاعدة إذا تمسكت بأن يحدد على نحو منضبط يقتصر على حدوث هجوم مسلح على مصر أو الدول العربية المشتركة فى ميثاق الضمان الجماعى العربى ، فى حين دخل الانجليز فى تعميمات حول العودة فى حالة خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة ثم انتهوا إلى المطالبة بإضافة تركيا وإيران ثم استبعدوا إيران وأصروا على تركيا وأخيرا استبعدوها وأقروا وجهة نظرنا كاملة

« وكان الأمريكان يتوسطون لتقريب وجهات النظر خارج قاعة الاجتماعات . . وأستطاعوا أن يصلوا مع البريطانين إلى اتفاق بأنه إذا زدنا مدة التصفية تنازلوا عن عسكرة الخبراء . . بعد استشارات مع المختصين المصريين وافقت على ذلك .

ولكن فوجئت والمفاوضات تمضى فى طريقها بعدول الانجليز عما كانوا قد قبلوه بخصوص ضبط حالة العودة إلى القاعدة ، ملحين فى أن تشمل هذه الحالة أى هجوم على الشرق الأوسط وهو رقعة مائعة المعالم تضم إيران وتركيا .

ولم يقفوا عند هذا الحد بل ظهر من مذكراتهم الأخيرة أنهم يقصدون إلى بقاء القاعدة ذاتها بعد إنهاء مدتها .

وهنا كان الكيل قد فاض بى . .

وأعلنت مرة ثانية دون تردد قطع المباحثات .

ورغم أننى قطعت المفاوضات للمرة الثانية بلا تردد ، فإن الانجليز فى الحقيقة لم يكونوا على خطأ ، لتراجعهم فيما توصلنا اليه ، بشأن حالة العودة للقاعدة ، فقد أحسوا بالخلافات التى نشبت بينى وبين عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة ، وأدركوا امكانية ، استثمار ، هذه الخلافات لصالحهم ، ولتحقيق مكاسب أكبر لهم .

ولم تكن الخلافات خارج قاعدة التفاوض معهم ، انما كانت داخلها أيضاً . .

فعندما كنت أجلس مع باقى أعضاء الوفدين المصرى والبريطانى على مائدة المفاوضات ، كنت أجد ظاهرة غريبة ، أقرب إلى لعب الصغار . . كان بعض الأعضاء المصريين يكتبون أوراقا صغيرة ويمررونها إلى جمال عبدالناصر ، الذى كان يقرأها ويشير إلى مرسلها بهزة رأس خفيفة . . ولاحظ الانجليز ذلك أيضاً . . ولأن هذه الحركة كانت لا تأتى الا من العسكريين فقط ، فقد أحس المفاوض الانجليزى بأن جبهة المفاوض المصرى بها ثقوب ، وغير متحدة ، وهذا ما كنت أسعى اليه وأنا فى القاعة ، أن نبدوا متماسكين ، متحدين ، لا خلاف بيننا ،لكن عبدالناصر كان له رأى آخر ، وكان يوحى بأننا على خلاف ، وكان يريد أن يثبت للانجليز أنه الرئيس الفعلى من خلال الحركات التى كان يقوم بها رجاله داخل القاعة أمامهم .

ويوم وقعت هذه الظاهرة أول مرة ، استدعيت جمال عبدالناصر بعد الاجتماع ، فى مكتبى وثرت فى وجهه ، وقلت له فى غضب لاحد له :

ـ ان تصرفاتك أمام المفاوضين الانجليز لا تضعفنى أنا وانما تضعف مصر . . أنت مسئول عن كل نتيجة نصل إليها ، لأن مثل هذه التصرفات تعلن أن بيننا خلافات . . وسوف يستفيد الانجليز منها وسيسعون إلى تعميقها . . وإذا كنت أقبل فيما بيننا فأنا أرفضه على مائدة مفاوضات العدو .

وأحنى عبدالناصر رأسه ولم يرد . .

وتصورت أنه استوعب الدرس . . لكننى اكتشفت أننى كمن يؤذن فى مالطا . . وعادت ريمة لعادتها القديمة .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أخرج فيها ما فى صدرى ، و أعلن عن خلافى مع مجلس قيادة الثورة بصراحة . . فحتى هذه اللحظة كنت أنظر الى أعضاء المجلس على أنهم أولادى أو إخوتى الصغار . . لكنى فى هذه الجلسة شعرت أنى أحمل عبئا لا أستطيع احتماله .

وقلت لسليمان حافظ دون أن أروى له حكاية الورقة :

ـ إنى أفكر فى الاستقالة .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أعلن فيها القرار .

ورفض سليمان حافظ أن أنسحب فى هذه الظروف الدقيقة .

وكانت قد وقعت قبل ذلك مفاجأة ، لم أعرها أهتمام ولم أصدقها فى وقتها ، لكنها

شغلتني بعد ذلك ، وأجبرت على تصديقها .
ففى أواخر عام ١٩٥٣ ، قال لى قائد حرس محمد رياض :
ـ أنا أحمل لك رسالة من المليونير أحمد عبود .
قلت له :
ـ عبود المليونير ؟
قال :
ـ نعم !
وتعجبت ، فليس لى صلة به ، وكل ما أعرفه عنه أنه كان يملك مشروعات كبرى معظمها مشروعات صناعية .
فقلت :
ـ ماذا يقول عبود باشا ؟
قال محمد رياض :
ـ كان عبود فى زيارة للولايات المتحدة للحصول على قرض أمريكى لتنفيذ مشروع للسماد فى السويس ، وهنا قال له الأمريكان أن عبدالناصر يتآمر ضدك هو وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة . . وقد طلب منه الأمريكان ابلاغك بذلك ، وقالوا له أنهم مستعدون للوقوف إلى جانبك للتخلص من جمال عبدالناصر ومجلس الثورة .
وفى الحقيقة أنا لم أشك كثيرا فى صدق هذه الرسالة ، فقد كان عبود صديقا للأمريكان فعلا . .
وكان ردى على عبود الذى حملته لمحمد رياض هو :
ـ أنا أعرف أنك صديق للأمريكان وأنا لا أسمح لك بمزاولة هذا النشاط مع رفضى البات لهذا العرض وأرسل لك تحذيرا بأننى سأصدر أمرا باعتقالك إذا واصلت هذا النشاط .
ونقل رياض رسالتى لعبود ، الذى أصابه الفزع من تهديدى له بالاعتقال ، لكنى ضحكت من رد فعله ، لأنه ليس من طبعى أن أعاقب رسولا حمل إلى رسالة مهما جاء فيها . .
ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تصلنى رسالة من الأمريكان بهذا المعنى . .

فقد وصلتنى رسائل شفهية أخرى منهم ، خلال بعض الشخصيات العربية وكلها تؤكد أن عبدالناصر يخطط لعزلى وأن الأمريكان مستعدون للعمل بجانبى للخلاص منه ومن رفاقه فى مجلس قيادة الثورة . . وكنت أرد على من يحملها لى : بأننى لا أرضى ، ولا أسمح بأن أستعين بأجنبى واحد على أبناء بلدى . . ويبدو أن ردى على الأصدقاء الذين حملوا هذه الرسائل كان شديدا ، وغضبوا منه ، فابتعدوا عنى بعض الوقت ، لكنهم فهموا موقفى بعد ذلك وعذرونى ، وأصبحنا أصدقاء كما كنا .

كان الأمريكان فى الحقيقة يسعون جاهدين للتسلل داخل السلطة فى مصر ، ورغم أننى كنت فى صراع حاد مع عبدالناصر ، الا أننى رفضت الاستعانة بهم ، ورغم أن عبدالناصر كان يفعل المستحيل للتخلص منى ، فاننى لم أكن أعتمد فى وجودى الا على جماهير الشارع .

ويبدو أنهم عندما يئسوا منى قرروا التحالف مع عبدالناصر ، ضدى . فبعد قرارات ٢٥ مارس ١٩٥٤ ، قال خالد محيى الدين ان صحفيا فرنسيا اسمه روچيه استيفانو أخبره أنه عرف بحكم صلته بالسفارات الأمريكية والبريطانية والفرنسية أن جمال عبدالناصر وبعض رفاقه أعطوا للأمريكان إشارة بالتساهل فى توقيع اتفاقية الجلاء وادخال تركيا فى حالة العودة إلى القاعدة وذلك ثمنا لتأييدهم له فى معركته ضدى .

وبعد شهور تبينت صحة هذا الكلام عندما وقع عبدالناصر مع بريطانيا اتفاقية الجلاء ٢٧ يوليو ١٩٥٤ .

وكانت هذه الاتفاقية تنص على :

١ ـ إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وإحلال الاتفاقية الجديدة مكانها .

٢ ـ الاتفاقية الجديدة مدتها سبع سنوات وفى نهاية هذه المدة سيجلس الطرفان لاقرار صيغة الغائها .

٣ ـ ان جزءا من القاعدة البريطانية سيظل فى حالة تأهب للعمل فورا حسب النص التالى :

(أ) فى حالة هجوم أى قوة خارجية على مصر أو على أى دولة من دول الجامعة العربية ، أو تركيا ، فإن مصر سوف تقدم المساعدات الضرورية لتجهيز القاعدة وعليها أن تستعد لذلك .

(ب) فى حالة أى تهديد محتمل على الدول المذكورة فإن مصر وبريطانيا تقومان بالاستشارة الفورية وتبادل الآراء .

٤ ـ لبريطانيا الحق فى تحريك أى مواد منها واليها (القاعدة) ولكن بشرط أن تقبل الحكومة المصرية ذلك .

٥ ـ أن تجلو القوات الانجليزية من كل الأراضى المصرية فى خلال ٢٠ شهرا ابتداء من يوم توقيع الاتفاقية .

٦ ـ أن تنص الاتفاقية على أن قناة السويس جزء لايتجزأ من مصر لكن بشرط احترام حرية الملاحة حسب اتفاقية عام ١٨٨٨ .

٧ ـ أن تحظى بريطانيا بمركز الدولة الأولى بالرعاية فى استخدام التسهيلات المصرية .

وصدقت الدولتان على هذه الاتفاقية فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ .

وكانت المفاوضات قد أستؤنفت بين البلدين للمرة الثالثة ، وفى هذه المرة رأس جمال عبدالناصر وفد مصر ، وفى هذه المرة وقع الاتفاقية . . وكنت منذ أزمة مارس لم أره سوى مرة واحدة وفى هذه المرة نصحته الا يبرم الاتفاقية قبل أن يستمع لملاحظاتى . . ولذا كانت مفاجأتى شديدة عندما وقعها بهذه السرعة .

وكانت ملاحظاتى فى ايجاز هى :

١ ـ وجود الفنيين الانجليز غير الخاضعين لسلطة الحكومة المصرية يضعف من سيادتنا على أرضنا .

٢ ـ قبول عودة القوات البريطانية فى حالة الهجوم على تركيا أمر يورطنا .

وأرسلت ملاحظاتى له ، لكنه كما هو واضح لم يأخذ بها .

وكما هو واضح أيضاً كانت الاتفاقية جزء من الصراع للتخلص منى .

وهناك دليل آخر سبق الاتفاقية على المساومة بين عبدالناصر وبريطانيا وأمريكا على حسابى .

فقد اختطف الفدائيون المصريون جاويشا بريطانيا فى منطقة القناة . . وهاج البريطانيون وطالبوا بعودته . . وحاصر القائد البريطانى مدينة الإسماعيلية وعزلها تماما للتفتيش عنه وأرسل انذرا لوكيل المحافظة بإتخاذ اجراءات عنيفة ضد المدينة . . ووصل الأمر الى البرلمان الانجليزى الذى ناقش الانذار وأقره : ورفضت الأنذار . .

وأمرت وكيل المحافظة برفضه هو الآخر . .

وطلب مستر هافكى الوزير المفوض البريطانى مقابلتى لبحث الموضوع ، فرفضت .

وفجأة ظهر الجاويش فى باريس ثم فى لندن .

وعرفت أن بعض أعوان عبدالناصر هربوا الجاويش إلى الخارج كعربون محبة لعقد الصفقة الكبرى للتخلص منى . وتأكدت من ذلك عندما قرأت فى مذكرات الجنرال روبرتسون كبير المفاوضين العسكريين أن جمال عبدالناصر كان يتصل بهم سرا فى هذه المرحلة .

وفى الحقيقة أنا لم أرفض هذه الاتفاقية لأنها كانت جزء من صفقة للتخلص منى ، وانما للأسباب وللملاحظات التى ذكرتها وأرسلتها لجمال عبدالناصر ، وأيضاً لأنه لم يعرضها على الشعب فى استفتاء عام بعد الغاء الأحكام العرفية . وبينى وبين نفسى قررت الا أصدق على الاتفاقية باعتبارى رئيس الجمهورية ، لكن اكتشفت أن الدستور المؤقت لا ينص على ضرورة أن يصدق رئيس الجمهورية على الاتفاقيات والمعاهدات .

وطلبت من سليمان حافظ أن يقول لى ما أفعله .

لكنه كان قد انسحب من الحياة العامة بعد حادث الاعتداء على السنهورى ومجلس الدولة .

وعلمت أن عبدالناصر عرض الاتفاقية على مجلس الوزراء ، وأن المجلس وافق عليها بالإجماع ، كما نشرت صحف اليوم التالى للاجتماع . . لكن فى الحقيقة لم يوافق المجلس لا بالاجماع ولا بالاغلبية . . فقد كان عبدالناصر يقرأ بنود الاتفاقية ، فلمح مظاهر الاعتراض على فتحى رضوان فقال له :

ـ لعل الأخ فتحى معارض .

فقال فتحى رضوان :

ـ فعلا لكنى أنتظر أن تفرغ من القراءة .

ولكن عبدالناصر لم يقرأ الاتفاقية كاملة فقد دخل عليه اسماعيل الأزهرى وبعض الوزراء السودانيين وانصرف جمال معهم الى مكتبه الخاص ، ثم عاد لينهى الجلسة ، دون أن يكمل القراءة .

ثم فوجئت بسليمان حافظ ينصحنى بعدم التصديق على الاتفاقية فإن صدرت فليس أمامى الا أن أستقيل .

لكن د . وحيد رأفت نصحنى بعدم الاستقالة واقترح على أن أسجل اعتراضى فى كتاب رسمى ابراء لذمتى أمام التاريخ . . ووافقت على الاقتراح .

وكانت مذكرة وافية وتحمل كل ما كنت أريد أن أقوله ولم يعرف أحد بها ، لسنوات طويلة ، وأنا الآن أنشرها كاملة لابراء ذمتى أمام التاريخ :

١ ـ لقد أطلت النظر فى الاتفاق الموقع بالأحرف الأولى فى ٢٧ يوليو الماضى بيننا وبين الحكومة البريطانية وبالرغم من أن تفاصيل ذلك الاتفاق لم يتم تحديدها بعد ولا علم لى بها ، إلا أن الخطوط الرئيسية التى تم التفاهم عليها فى يوليو كافية لتكوين فكرة واضحة وصحيحة عنه .

٢ ـ لاشك أننا بتوقيع هذا الاتفاق نربط مصيرنا بمصير دول الكتلة الغربية لمدة أقلها سبع سنوات وبالتالى سنعادى دول الكتلة الشرقية ولن يغفر لنا الاتحاد السوفيتى وأعوانه قبولنا مختارين بقاء قاعدة بريطانية فى أراضينا . وسواء ظلت ادارة هذه القاعدة وصيانتها بيد القوات العسكرية البريطانية كما هو الحال الآن أم انتقلت إلى يد المدنيين البريطانيين الفنيين الخاضعين للاشراف العسكرى البريطانى فإن الكتلة الشرقية تعلم أن هذه القاعدة سوف تستعمل ضدها حتما زمن الحرب .

٣ ـ فعلينا أن نتوقع تدابير انتقامية غاية فى الشدة والعنف من جانب تلك الدول الشرقية اذا تأزمت الأمور . ولن تقتصر آثارها على منطقة قناة السويس وحدها بل ستعم فى الغالب شتى أنحاء البلاد المصرية أو بالاقل المناطق الشمالية المكونة لدلتا النيل فنعرض مرافقنا ومراكزنا الحيوية ومدننا الآهلة بالسكان بما فى ذلك عاصمة البلاد نفسها لأشد الأخطار . وحتى زمن السلم لا نستبعد ان ترد الدول الشرقية على الاتفاق بتضييق الخناق علينا اقتصاديا بقفل أسواقها فى وجه قطننا ومحاصيلنا الأخرى ومنتجاتنا فيضطرب اقتصادنا القومى الذى تبذلون الآن قصارى الجهد لانعاشه ويزداد اعتمادنا وتتبعنا للغرب فى هذه النواحى ويعود الانجليز من جديد الى التحكم فى أسعار قطننا وسائر محاصيلنا والسيطرة على أسواقنا .

٤ ـ ولا يمكن أن تخفى هذه الاعتبارات على الكثير من المواطنين وان كانت المسائل الاقتصادية لدقتها لا يتناولها الا الخاصة فإن البلاد بأسرها مازالت تذكر ما

تعرضت له أبان الحرب العالمية الثانية وما أصابها من خسائر فى الأرواح والأموال بسبب الغارات الجوية لدول المحور . والشعب يدرك بفطرته السليمة أن تلك الخسائر لاتعد شيئا إلى جانب ما سوف يتعرض له من أهوال لو قدر لمصر ان تشترك بأية كيفية أو بأى نصيب فى الحرب العالمية القادمة التى تتجمع فى الأفق نذرها وبشائرها .

٥ ـ واتفاق ٢٧ يوليو عنى بتنظيم قاعدة السويس فى زمن السلم والحرب لصالح انجلترا أكثر من عنايته بموضوع جلاء الجنود البريطانيين عن الأراضى المصرية وامساكه عن الكلام عن التحالف أو الدفاع المشترك بين مصر وبريطانيا لا يكفى لاقناع الشعب بأنه خال منها ، مع النص فيه على بقاء قاعدة السويس لمدة أقلها سبع سنوات تحت الادارة الفنية البريطانية والاشراف العسكرى البريطانى والترخيص للقوات البريطانية على مختلف الأسلحة بالعودة اليها فى حالة الهجوم على مصر أو على احدى دول الجامعة العربية . . أو على تركيا من جانب دولة أجنبية ووضع مطاراتنا وموانينا وطرق مواصلاتنا وغير ذلك من التسهيلات تحت تصرفها ، مما يعيد الى الذاكرة نص المادة الثامنة وملاحقها من معاهدة الصداقة والتحالف الموقعة فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا .

٦ ـ فليس بغريب أن يثير أتفاق ٢٧ يوليو ١٩٥٤ الأنتقاد والمعارضة لدى فئة مخلصة من الأمة ولولا الرقابة الشديدة على الصحف والقيود الموضوعة حاليا على الحريات العامة لقويت هذه المعارضة وأودت بهذا الاتفاق كما حصل فى العراق فى عهد حكومة صالح جبر .

وإذا كان هدف بعض المعارضين للاتفاق هو مناوءة حركتنا لأغراض شخصية لا تخفى فلا شك أن البعض الأخر يعبر بحق عن مخاوف البلاد من أن يلقى بها فى حرب ضروس تهلك الحرث والنسل بسبب نصوص الاتفاق أنفة الذكر وتنفيذها .

٧ ـ وتجنب البلاد ويلات الحرب رغبة طبيعية مشروعة تجتذب الأن بلادا عديدة فى آسيا وأوربا وتكسب كل يوم أنصارا لا فى بلد اثر الحياد كالهند فحسب بل وحتى فى انجلترا نفسها . ولقد سبق أن قلنا للشعب مرارا منذ حركة ٢٣ يوليو أن العهد الجديد لن يفاوض الانجليز ليحالفهم بل فقط لتنظيم الجلاء الناجز الشامل عن آخر جزء من أرض الوطن . ولذلك كانت صدمة للكثيرين وللرأى العام أن تسفر المفاوضات بعد الغاء معاهدة الصداقة والتحالف فى سنة ١٩٣٦ عن تحالف

جديد لمدة سبع سنوات يقرر خبراء الحرب والسياسة العالميين أنها أخطر سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية شأنا .

٨ - وزاد من هذه الصدمة ادخال تركيا بين الدول التى ينبغى الهجوم عليها من جانب الاتحاد السوفيتى أو غيره تحريك التزاماتنا الخاصة بالسماح للقوات البريطانية بالعودة الى مصر ووضع قاعدة القنال وموانينا ومطاراتنا ومواصلاتنا تحت تصرفها .

٩ - هذا فضلا عما جاء فى الاتفاق هنا وهناك من أحكام تفيد الأعتراف لبريطانيا بوضع ممتاز سواء فيما يتعلق بتحليق طائراتها الحربية فى جونا أو فى الدفاع عن قناة السويس .

١٠ - وأخشى ما أخشاه أن يتخذ دعاة الانفصال فى جنوب الوادى من توقيعنا هذا الاتفاق تكأه لتعزيز نشاطهم الانفصالى بحجة تجنيب الجنوب ويلات الحرب ، خاصة إن أرتباطات تركيا العديدةمع الباكستان ويوغوسلافيا واليونان وسائر دول منظمة حلف شمال الأطلس تجعل اشتراكها فى الحرب العالمية القادمة أمرا محتوما ويجرنا الى هذه الحرب عن طريقها .

١١ - وليست هناك قوة تستطيع اقناع الشعب المصرى بأن مصر ستكون مقصودة لذاتها بالهجوم أو بالإعتداء لاعتقاده الراسخ أن سبب ذلك وجود جيش أجنبى أوقاعدة أجنبية فى بلادنا هى اللذان يوجه اليهما العدوان الروسى ، وان هذا الجيش أو القاعدة سيكونان الذريعة التى سيتذرع بها الروس لمهاجمة مصر .

١٢ - واذا كان من العسير اليوم تعديل الأسس التى تم التفاهم عليها فى ٢٧ يوليو

فلا أقل من العمل على حصر الخطر فى أضيق جدوده الممكنة وذلك بتحديد الأماكن التى تعود اليها القوات البريطانية والموانى التى يسمح لطائراتها الحربية بالهبوط فيها وقت الحرب أو السلم خلال مدة سريان ذلك الأتفاق وأن يكون مفهوما أن مغادرة هذه القوات الأجنبية لجميع الأراضى والمياه الأقليمية المصرية يجب ان يتم بمجرد انتهاء العمليات الحربية التى أستلزمت وجودها فيها .

١٣ - وان الألتزامات الخطيرة التى وضعتها على عاتق مصر وشعبها فى اتفاق ٢٧ يوليو ١٩٥٤ والتى ستقتضيها الشيء الكثير فى

الا نفس والأموال لتعطينا الحق الكامل فى أن نطالب الانجليز بمطالب مقابلة لاغنى عنها كتسليح جيشنا تسليحا كاملا بحيث تكون القوات المصرية فى البر والبحر والجو أحسن ما تكون إعدادا وأن تتحمل الحكومة البريطانية القسط الأكبر إن لم يكن بجميع النفقات الخاصة بتجهيز البلاد بأحدث الوسائل لوقاية المدنيين والمنشآت العامة من أخطار الغارات الجوية حتى لاتتحول مدننا ومنشأتنا العامة إلى أطلال فى الأسابيع الأولى من إعلان الحرب فضلا عن وجوب تحمل الحكومة البريطانية بجميع نفقات صيانة قاعدة السويس وإدارتها .

١٤ ـ والتسليم بأن تظل إدارة هذه القاعدة بين الفنيين البريطانيين طوال مدة السبع سنوات يجب أن لايغنى بحال من الأحوال عن إعداد الفنيين المصريين الذين سوف يحلون محلهم ومن الخير أن يتم ذلك تدريجياً ومنذ الآن سنة فسنة بحيث لا تنتهى تلك المدة حتى يكون جميع الفنيين بالقاعدة من المصريين الذين دربوا على ذلك تدريباً عاليا .

١٥ ـ وفى أعتقادى اننا مهما طالبنا وغالينا فى مطالبنا فلن يكون هذا شيئا يذكر إزاء الترخيص للقوات البريطانية بالعودة ثانية إلى الأراضى المصرية فى حالة الحرب وما يتبعه من تعريض البلاد لويلاتها . ولا أخفيكم أننى أشعر بالضيق والحرج بل هو أشد من الحرج كلما جال بخاطرى أن الحرب قد تقع خلال مدة السبع سنوات المتفق عليها وأتصور ما قد يصيب مصر خلالها .

١٦ ـ ولما كنتم تعلمون أن المشروع الذى أعدته لجنة الدستور ارتضى لمصر فى مستقبلها النظام الجمهورى البرلمانى ويلزمنى أن أستلهم ما أمكن هذا الوضع وهو يترك مسئولية الحكم بين الوزارة دون أن يحرم على رئيس الجمهورية إبداء النصح والتنبيه والتحذير عند الاقتضاء فها أنا أبدى لكم نصحى وملاحظاتى قياما بواجبى الرسمى والوطنى فى مثل هذه الظروف وإن خطورة هذا الاتفاق من حيث التزاماته وآثاره تحدونى إلى أن أطلب اليكم عرضه على برلمان يمثل البلاد تمثيلا صحيحا لبحثه وإقراره فلا نتحمل وحدنا ـ ونحن بشر عرضة للخطأ والصواب ولشتى المؤثرات ـ مسئولية اعتماده أمام التاريخ .

وفقنا الله جل شأنه إلى ما فيه الخير .

الفصل الثالث عشر

بداية التحول الاجتماعى

- أراد الأمريكان أن يحصلوا على مصر مجانا .
- ضحكت اسرائيل على أمريكا ونجحت فى اقناعها بعدم جدوى مساعدة مصر .
- مندوب من مجلس القيادة لحضور افتتاح شيكوريل بعد تجديده .
- توقعت أن تتقدم اسرائيل بمعاهدة سلام بعد تغيير الحكم فى مصر .
- الوحدة العربية تبدأ بالغاء تأشيرة الدخول ورفع القيود الجمركية بين الدول العربية .
- فتوى شيخ الأزهر التى جعلت فاروق يتخلص منه .
- تشجيع رأس المال الفردى والأجنبى كان من أهدافنا فى الخمسينيات .

قبل أن توقع اتفاقية ٢٧ يوليو مع بريطانيا ، كانت أمريكا تسعى إلى ملء الفراغ الذى سيتركه الانجليز فى مصر . . كانت أمريكا تحلم بميراث الامبراطورية العظمى .

ولكن الأمريكان كانوا يريدون أن يحصلوا على مصر مجاناً . . أو ببضعة أجوال من قمح المعونة . . ولم يكونوا على استعداد لأن يدفعوا أكثر من ذلك . . كأن يمدونا السلاح مثلا .

وأعتقد أن سر إحجام الأمريكان عن تقديم المعونة العسكرية لمصر هو تصورهم بإمكانية الاستفادة من الصراع الذى نشب بينى وبين عبد الناصر ، بحيث يقفوا بجانب عبد الناصر وينصرونه على فيصبح مدينا لهم بالسلطة . . وقد وقف الأمريكان بجانب عبد الناصر فعلا . . لكنه لم يوف بعهده تجاههم .

وأعتقد أن هناك سببا آخر وراء هذا الإحجام هو موقف أمريكا المصيرى من إسرائيل . . فقد كانت إسرائيل تعارض المساعدات العسكرية التى تقدم لمصر وللدول العربية بحجة أن ذلك يهدد وجودها ، وقد انخدع الأمريكان بهذه الدعايات فعلاً .

وكان حلمى أن يسلح الجيش المصرى ويصبح جيشا قويا . .

وكان وراء هذا الحلم جرح غائر فى القلب بعد ما جرى لنا فى فلسطين . .

فقد كان سر هزيمتنا فى فلسطين هو ضعف تسليحنا . . وضعف عتادنا وأمكانياتنا الحربية . .

ووصمنا بهذا الضعف بأشد هزيمة ، وبأصعب دعاية مضادة ، حيث قيل أن سبعة جيوش عربية تحارب بجموعة من العصابات اليهود ، وأنتهى الأمر بفوز العصابات وهزيمة الجيوش العربية .

ولو كنا ، كما قلت ، حاربنا فى فلسطين على طريقة حرب العصابات ما كان جرى لنا ما جرى .

ولهذا كان قلبى يقفز من الفرح عندما وافق السوفيت على مدنا بالسلاح ، وهى الصفقة التى نفذها عبد الناصر فيما بعد ، وبنى عليها جزء من شهرته ، وتحديه للغرب .

كنت أعتبر هذه الصفقه ستحولنا إلى جيش قوى ، حقيقى ، لايتعرض للفضيحة التى عاشها فى حرب فلسطين .

ورغم أننى حاربت فى فلسطين ، وجرحت فيها حتى كدت أموت ، وحصلت فيها

على أعلى وسام ، الا أننى أرى أننا تورطنا فيها ، دون استعداد حقيقى . .
كانت مظاهرة سياسية للملك فاروق . .

لكننا لم نتعلم من هزيمتنا فى حرب فلسطين . . ولم ننظر إلى أرض الواقع التى نقف عليها . . فقد أضاعت الحكومات العربية بمزايدتها السياسية فرصة الاستفادة من مشروع التقسيم الذى حاولت الأمم المتحدة فرضه بعد الحرب ، وقبلته إسرائيل . . وأعتقد الآن أن سبب رفض الحكومات العربية لمشروع التقسيم هو أنها لم تكن حكومات محررة . . وكان المستعمر الذى كان يعمل لصالح إسرائيل ، يدفع هذه الحكومات لضرب المشروع حتى تستفيد إسرائيل بالأراضى وبتعاطف الرأى العام العالمى .

وهذا الفهم جعلنى أقول لأدلى سيتفنسون الذى كان مرشحا للرئاسة الأمريكية عام ١٩٥٣ ، وزار مصر فى ذلك العام أيضا :

ـ « أعتقد أن من المناسب أن تعيش إسرائيل فى المنطقة كدولة رمزية مثل الفاتيكان ، ولاتكون لها أطماع توسعية فى الأراضى العربية »

وكان هذا ردا على كلامة الذى قال فيه :

ـ « إن إسرائيل والبلاد العربية يجب أن يعيشا معا » .

فقلت :

ـ إن اقتراحك يمكن أن يكون نقطة بدء للبحث فى استقرار الأمور فى الشرق الأوسط .

فى ذلك الوقت كانت إسرائيل دولة ضعيفة ، لكنها كانت تحت مظلة الحماية الأمريكية وتحت رعاية الحكومة السوفيتية ، أى أنها ببساطة كانت أمرا واقعا منذ وقف إطلاق النار فى حرب فلسطين .

وكانت إسرائيل فى ذلك الوقت مستعدة أن تعيش كدولة صغيرة وسط جيران كبار . . لكننا لم نكن مستعدين لذلك . . وأيضاً لم نكن نسعى جديا إلى تحرير فلسطين . . فقد كان شعار تحرير فلسطين وإزالة إسرائيل شعارا رفعته الحكومات العربية للأستهلاك المحلى ، ولاستمرار طرح قضية وطنية تلهى الناس عن القضية الاجتماعية أو الديمقراطية . . ولو كان هذا الشعار حقيقة ما تحول إلى هزائم وكوارث واحتلال وقوة إضافية لإسرائيل .

وفى المقابل كانت إسرائل تبدو ، ولو أمام الرأى العام العالمى ، دولة صغيرة

ضعيفة ، تريد السلم ، وتحلم بعلاقات حسن الجوار مع جيرانها الأقوياء .. العرب .

وفى يقينى بالطبع أن هذا غير حقيقى .. فلم يحمل العرب لليهود فى أى يوم من الأيام أية كراهية أو اضطهاد .. بل أن اليهود لم يتعرضوا عبر تاريخهم الطويل لأى اضطهاد عنصرى أو دينى وسط المسلمين ولا المسيحيين العرب .
ففى تاريخ مصر الحديث يهود وصلوا إلى أعلى مراكز الدولة .. كانوا مثلا وزراء .
وحتى عام ١٩٥٥ كان يعيش فى مصر حوالى ٨٥٫٠٠٠ يهوى ولدوا فيها .. وكانت لهم نفس الحقوق التى يتمتع بها باقى المصريين .. فقد كانت الثورة حريصة فى البداية أن تفرق بين الصهيونية واليهودية .. وبين إسرائيل والمجتمع اليهودى الذى يعيش فى مصر .. وعند افتتاح شيكوريل اليهودى محله الجديد ، بعد الذى احترق فى حريق القاهرة ، أرسلنا أحمد أنور قائد البوليس الحربى مندوبا عن القيادة ليحضر الافتتاح ..

وأكثر من مرة حرصت على أن أزور معابد اليهود فى القاهرة والأسماعلية فى يوم كيبور ، وأمضيت وقتا طويلا مع الحاخام الأكبر حاييم ناحوم الذى كان عضوا فى مجمع اللغة العربية والذى كنت أدعوه دائما لحضور المناسبات الرسمية مع شيخ الأزهر ، وبطريرك الأقباط ..

وفى الحقيقة كنت أتوقع فى ذلك الوقت أن يتقدم الإسرائيليون بمعاهدة سلام ، وربما قبلنا هذه المعاهدة فى ذلك الوقت ، على شرط الا يكون السلام على حساب وسلامة العرب الموجودين هناك أو على حساب الفلسطينين .. وعلى شرط أن تقنع إسرائيل جيرانها العرب أنها مستعدة للحياة ومستعدة أن تترك الآخرين يعيشون أيضاً ..

وقد قلت فى ذلك الوقت :
إنه لكى تكون إسرائيل دولة معترفا بها ولكى تكون دولة معتمدة على نفسها يجب أن تشترك فى تجارتها السلمية مع الدول العربية لصالح الجميع .. وسوف تظل المقاطعة العربية لها إلى أن تثبت بإخلاص أنها مستعدة للعيش فى سلام مع جيرانها .

وبدلا من الشكوى فإن الاسرائيلين يفعلون خيرا اذا تقدموا ببنود اتفاقية سلام إلى الجامعة العربية وإذا ما تم الصلح فإننى أعتقد أن المقاطعة العربية سوف ترفع وتعود الحياة التجارية بطريقة حرة بين دول الشرق الأوسط وعندئذ تكون الجامعة العربية قادرة على أن تركز جهودها على إقامة اتحاد فيدرالى عربى .

وفى ذلك الوقت ، كنت أرى أن إسرائيل ليست هى عدونا الأول ، وإنما إنجلترا ، التى تحتل قناة السويس ، وتضع على أرضنا أكثر من ٨٠ الف جندى من جنودها .

وكثيرا ما تعجبت لموقف الجيش المصرى الذى يعبر عدوه الحقيقى ليحارب عدوا آخر . . يترك الانجليز ويحارب اليهود . . ولكن . . لاشك أن هذا الموقف كان لصالح الانجليز . . الذين سمحوا لنا ، أن نسرق أسلحة من مخازنهم لنحارب بها فى فلسطين . . كانوا يعرفون بمثل هذه التصرفات أنهم يبعدوننا عن الهدف الذى كان علينا أن نلتفت إليه . .

وكثيرا ما تساءلت :

« هل يرضى الانجليز أن ندخل معركة لايرضون عنها » ؟

وكانت الأجابة بالطبع :

ـ لا !

لذلك كنت أعتبر الانجليز ، بعد الثورة هم هدفنا الأول ، وتحرير بلادنا منهم هى مشكلتنا الأولى ، أما مشكلة فلسطين ، فكانت استراتيجيتنا فى التعامل معها ، كما قال جان ماند لستام ، هى « الاقتراب الحذر والمعقول » منها .

وكما قلت من قبل :

إن ديفيد بن جوريون أدلى بتصريحات يتمنى فيها النجاح لثورتنا . . وأعلن سياسة جديدة للأنفتاح على مصر « الجديدة » . . وتحدثت جريدة « هاآرتس » عن فرص الحل السلمى مستندة على إمكانيات وضحت فى اتصال على ماهر رئيس وزراء مصر ، بزعماء الوكالة اليهودية خلال الفترة بين ١٩٣٦ ، و١٩٤٢ ، وإلى بعض تصريحات للدكتور محمد فوزى سفيرنا فى لندن ، والذى أكد على إمكانية التعايش السلمى بين العرب وإسرائيل .

كما أن بعض الكتاب الاسرائيليين تفاءلوا عندما عرفوا أن جمال عبد الناصر الذى كان على اتصال ببعض ضباط المخابرات الاسرائيلية فى حرب فلسطين ، هو أحد رجال الثورة .

وقد كان من الممكن أن تستمر علاقة الثورة بالقضية الاسرائيلية ـ الفلسطينية هى علاقة الاقتراب والحذر المعقول ، فإذا ما جاء الوقت المناسب ، سارعنا بالتدخل المناسب . . لكن . . أراد جمال عبد الناصر أن يكون زعيما مهما كان الثمن . . فبعد أن أضاع فرصة الوحدة بين مصر والسودان جرى إلى وحدة فاشلة بين مصر وسوريا . . وبعد أن أعطى لبريطانية شروطا أفضل للبقاء فى قاعدة قناة السويس ، سارع بتغطية الموقف بالمزايدة بقضية فلسطين ، حتى انتهى بنا الأمر باحتلال سيناء فى يونيو ١٩٦٧ .

وكان خطأ العرب جميعا وخطأ الفلسطين هو أنهم لم يؤمنوا ولم يعترفوا بالأمر الواقع ، الا بعد أن يفرض عليهم أمرا واقعا آخر أشد وأصعب . . فقد رفضوا مشروع التقسيم ، لكنهم عادوا وعملوا به بعد هزيمة ١٩٦٧ . . ورفضوا عودة أراضيهم مقابل الاعتراف باسرائيل وعادوا وعملوا بهذا بعد أن رفضت اسرائيل . . وهكذا من خطأ إلى آخر حتى وصل الأمر بأن أصبح الفلسطينيون يقاتلون بعضهم البعض بدلا من أن يقاتلوا الاسرائيليين .

وكما دبت الفرقة بين أبناء الهدف الواحد . . دبت أيضا بين أبناء الدول العربية المختلفة . . وكان لنا دورا كبيرا فى ذلك . . فقد فرقنا ، رغم شعارات الوحدة التى رفضناها فى نهاية الخمسينات والسيتنات ، بين العرب . . ووصفنا بعضهم بالثورية . . ووصمنا بعضهم بالرجعية . . ولم نحاول أن نزيل ما فى صدورهم من أحاسيس ضد الثورة وضد مصر ، بل سعينا إلى زيادتها . . وهذا كان مفاجأة لى . .

فلم يكن هذا ما أتفقنا عليه فى سنوات الثورة الأولى . .

كان أتفاقنا أن نقرب العرب الينا لا أن نبعدهم . . وأن نوحدهم لا أن نفرقهم . . وأن نساعدهم لا أن نحاربهم . . وأذكر أننى ساعة أن أديت فريضة الحج عام ١٩٥٣ ، لم يستقبلنى الملك عبد العزيز آل سعود وأدعى أنه مريض . . كنت أعرف أن فى صدره بعض الألم من بعض الكلام الذى قيل ضده من بعض رجال الثورة . . وهمس فى أذنى البعض الا أذهب الى زيارة الملك فى الطائف . . وأن أعود بعد الحج مباشرة الى القاهرة . . لكننى رفضت السماع لهذه النصيحة ، وقررت أن أذهب بنفسى الى الملك . . وقلت للملك عبد العزيز :

ـ أعرف أن صلتك قوية بالملك فاروق لكننا قمنا بثورة الجيش لنزيل الفساد من مصر وليس من أهدافى تصدير الثورة اليكم كما قيل أو إلى أى بلد عربى آخر . . إننا نحترم كل نظم الحكم العربية ، وندرك أن لكل بلد طبيعته الأقتصادية والأجتماعية الخاصة به . . ونؤمن أن ما ينفع لبلد لاينفع لبلد آخر . .

ـ إننا فى مصر نقدر ذلك العمل العظيم الذى قمتم به من أجل توحيد الجزيرة العربية . . ونحن نعرف أنك ستكون معنا إذا سعينا إلى تحقيق وحدة السياسة الخارجية بين العرب ووحدة منهاج التعليم وأن يكون للعرب جيش موحد ، مع بقاء جيش عربى فى نفس الوقت لكل بلد عربى . . إن الوحدة ليست أندماجا . . وليست سلطانايفرضه القوى على الضعيف ، وأنما هو عمل فيه مصلحة الجميع . .

وأنا كنت مؤمن بهذا الأسلوب فعلا . . أسلوب تقريب العرب ودمجهم فى مصلحة واحدة . . ولكى تتحقق الوحدة الكاملة لابد أن نمشى خطوات قصيرة . . تتبعها خطوات أكبر . . وهكذا . . كأن نبدأ مثلا بالغاء تأشيرة الدخول بين البلاد العربية . . ثم نرفع القيود الجمركية . . ثم نوحد مناهج التعليم . . ثم نقيم مشروعات مشتركة . . ثم . . ثم . . إلى أن نصل إلى الوحدة الكاملة ولو بعد عشرات السنين .

وعندما قلت للملك كل ما عندى ، قام ليضع يده فى يدى ، ثم قال :

ـ أن مصر والسعودية حليفتان وصديقتان ولن ينفصل جسر الارتباط بينهما .

وفتح الملك قلبه وقال :

ـ لقد حذرنى البعض منك ونصحونى بالحيطة منك خاصة عندما علمت أنك ذاهب إلينا للحج .

وخرجنا أصدقاء . .

وأهدانى سيفا ذهبيا أهديته للمتحف الحربى .

وحدث موقف معاكس تماما عندما جاء نور السعيد إلى مصر . .

كان معه مشروع لاتحاد البلاد العربية المتقاربة . . السودان ومصر وليبيا مثلا . . والعراق وسوريا والأردن مثلا . . تونس والجزائر والمغرب مثلا . . السعودية والخليج واليمن أخيرا .

لكننى لم أوافق على المشروع . . واعتبرته خرافة . . فقلت له :

ـ لا أريد أن أقفز فوق الحواجز لأسعى للوحدة قبل أن يتم جلاء الانجليز عن مصر .
لكنه لم يقتنع وأسهب فى إبراز مزايا المشروع اقتصاديا . .
فقلت له :
ـ إننى لا أريد جامعة عربية أخرى يباركها الانجليز وهم مازالوا يحتلون الدول التى تسعى أنت لربطها بمصر .
وقلت له :
ـ إن الوحدة لاتفرض بالقوة وإنما تأتى بالواقع والمصلحة . . إن علينا أن نوحد أفكارنا . . ونوحد مصالحنا . . ثم نوحد بلادنا .
لكن . .
ما رفضته وأنا أحكم مصر ، قبلوه من جاءوا بعدى . .
وكانت النتيجة نهاية أسوأ من البداية . .
كنت أرى أن نعالج متاعبنا الداخلية قبل أن نسعى للارتباط بغيرنا . . خاصة أن متاعبنا كثيرة . . انجليز يحتلوننا . . وفساد لايزال يمد جذوره فى التربة المصرية . . إقطاع يمص دماء الفلاحين . . فقر يشمل أكثر من نصف السكان . . جهل لم ينج منه سوى ١٥ ٪ فقط من المصريين . . ظلم اجتماعى لاحد له ولا ضمير . . ومتاعب اقتصادية واجتماعية لاحصر لها . .
كانت الأمور قد وصلت إلى منتهاها يوم قامت الثورة . . وأنا أعتقد أن الالتفاف السريع من جماهير الشعب حولنا كان سببه انهيار إلى هذا المستوى .
إن مستوى الكارثة التى كانت فيها جماهير الشعب قبل الثورة مباشرة هى التى حولت ٢٣ يوليو من انقلاب عسكرى إلى ثورة شعبية ، يلتف حولها الناس ولايعاديها أحد منهم .

فقبل الثورة مباشرة كانت كثير من القيادات الحزبية تتكلم عن الاصلاح ولا تعمل به . . وتتحدث عن الجماهير دون أن تعرفها . . وكانت كلمات مثل الفقر والجهل والمرض مجرد كلمات يتحدث بها المثقفون ويتاجربها أصحاب النفوذ ، دون أن يزيلوها ، أو يحاولوا ، من قاموس الحياة المصرية .
ووصلت المأساة بهذا الشعب إلى حد أن ارتفعت البطالة ومعها الأسعار إلى حد صعب أن يتعايش معه . . وأضربت فئات مختلفة ، ومنها ضباط البوليس ، الذين

كان عليهم أن يفضوا المضربين .
وأعترف أننى لم أكن ، فى بداية الثورة ، أملك فكرة واضحة عن الأسلوب المناسب لتغيير المجتمع المصرى ، لكن كنت مقتنعا بما كان يكتبه د . عزيز فهمى ود . محمد مندور وأحمد حسين وغيرهم عن العدالة الاجتماعية . . وكنت أعرف أن الثورة يجب أن ترتبط بالطبقات الدنيا . . الحفاة . . والفقراء . . والجائعين . .

وكانت الضربة الأولى ، كما قلت من قبل ، هو قانون الاصلاح الزراعى . .

كنت مقتنعا بضرورة اعادة توزيع الأرض توزيعا عادلا لإصلاح الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مصر ، وذلك لأننى كنت مؤمن بأن الحياة الديمقراطية السليمة التى كنت أسعى لفرضها لايمكن أن تقوم دون تحرير الناخب من سلطان مالك الأرض ومن نفوذ لقمة العيش . .
ولكن رفضت المشروع الذى قدم لى ، لعدم إثارة العداوة بين الملاك القدامى والملاك الجدد ولعدم تفتيت الملكية ، وللأعباء الادارية والمالية التى ستكلفها الدولة من إنشاء وزارة للاصلاح الزراعى .
وبسبب أغلبية مجلس الثورة مر المشروع ونفذ .

وبعد قانون الاصلاح الزراعى ، فرضت قانون تخفيض إيجارات المساكن بنسبة ١٥ ٪ . . وألغيت الأوقاف ، عدا الأوقاف الخيرية . .
وألغيت البوليس السياسى . . ورفعت مرتبات الجنود من ٦٩ قرشا فى الشهر حتى وصلت إلى ٣ جنيهات . . وسعيت إلى تحرير الأزهر من قيود الارتباط بالحكم . فأصدرت قرارا بحل جماعة كبار العلماء . . وبدأت مواجهة شرسة من أجل تحديد النسل ، وتخفيض حجم المشكلة السكانية . . وسعينا لادخال مياه الشرب والجمعيات التعاونية والوحدات الصحية فى القرى . . وشددنا العقوبة على الاتجار بالمخدرات . .
وكان وراء كل قرار من هذه القرارات قصة أو معركة مستقلة . .
خذ مثلا ، معركة الأزهر . .
كان من المعروف أن الملك يحكم مصر بالجيش والأزهر . . الجيش يحميه والأزهر يبرر تصرفاته وقراراته . . وكان الملك قادرا عل أن يطيح بمن يعارضه من مشايخ

الأزهر . . كما حدث مع الشيخ عبد المجيد، شيخ الأزهر الذى قال أثناء رحلة الملك إلى فرنسا بالباخرة المحروسة :

ـ تقتير هنا وإسراف هناك . .

فأصر الملك على قبول استقالته .

وجاء الشيخ أحمد حمروش ليصبح شيخا للأزهر ، لكن الشيخ حمروش أفتى بأباحة دم الانجليز فى منطقة القناة . . فتخلصوا منه بعد إقالة حكومة الوفد ، وعاد الشيخ عبد المجيد سليم .

لكننى لم أسع لممارسة نفس اسلوب الملك فى السيطرة على مشايخ الأزهر ، لكننى اخترت فى البداية لمشيخته رجلا بعيدا عن تيارات السياسة المتلاطمة هو الشيخ محمد خضر حسين الذى لم يستمر فى منصبه طويلا .

وأحسست أن الأزهر يجب أن يجدد دمه بشباب مشايخه . . الذين دفعهم الاستقرار إلى الجمود وعدم ملاحقة العصر . . فأصدرت قرار حل هيئة كبار العلماء ، وحددنا سن العضوية فيها ما بين ٤٥ إلى ٦٥ عاما ، فخرج ثلاثة من مشايخ الأزهر السابقين هم الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ خضر حسين وكانوا جميعاً فوق السبعين .

وعندما قررنا تحديد النسل ، أو ضبطه ، واقتحام المشكلة السكانية ، قال شيخ الأزهر فى سبتمبر ١٩٥٢ :

ـ الدعوة لتحديد النسل هدم لكيان الأمة وجريمة فى حقها .

وتبعه بطريرك الأقباط قائلا :

ـ تحديد النسل جريمة لاتستند الى حقيقة الدين واعتراض على مشيئة الخالق .

ولم أقتنع بهذا الكلام . .

فأنا رجل مؤمن . . وأعرف دينى جيدا . . وأعرف حقيقة جوهره . . . فأحسست أن ذلك تخلفا عن طبيعة العصر . . وأحسست أن من الضرورى أن يرتبط رجل الدين بروح العصر واقترحت ضرورة أن يدرس الأزهر علوم الحياة بجانب علوم الدين .

أما تخفيض الايجارات وضبطها بقانون فقد كان محاولة للحد من مغالاة أصحاب المساكن ، وحماية لسكان المدن من الطبقة المتوسطة . . وكان أحد الأسباب التى

دفعتنى لإلغاء البوليس السياسى ، الافتراء الذى كان يعامل به الوطنيين . . وقد قرأت ضمن ملفات الملك السرية ، والتى كانت تصل من البوليس السياسى ، تقريرا بخط يد حسين سرى عامر ، يقول فيه :

« اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة شقيق اللواء محمد نجيب مدير المشاة يسيطر على ضباط حامية قسم القاهرة كلها وعددهم ١٥٠٠ ضباط وطبعا مطلوب من الشقيق مساعدة شقيقه .

الحركة القائمة الآن يغذيها الوفد لشطر الجيش وتسلل الحزبية لصفوفه .

الأسماء التى نشرت بجريدة المصرى يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٥١ لمجلس ادارة النادى كلهم من الضباط الذين يسيطر عليهم هؤلاء وتتخذون منهم تكأة لإفساد الجيش وقد ساعدهم فى نشر ذلك بالمصرى الصاغ ثروت عكاشة شقيق حرم أحمد أبو الفتح رئيس التحرير .

« كانت المنشورات السرية للضباط الأحرار توزع فى فترات ، أما بعد تعيين محمد نجيب مديرا للمشاة فقد صارت توزع دورية وبتواريخ كالنشرة الأولى والثانية التى وزعت وهى بنفس الحبر الذى وزع به منشور الأعضاء والرئيس الذى يريدون أنتخابه لمجلس إدارة نادى الضباط أمس واليوم والتى فيها تم انتخاب محمد نجيب رئيسا للنادى » .

إلى هذه الدرجة وصل انحطاط القيم بضابط يحمل درجة لواء . .

وقد سمحت بنشر هذا التقرير للتدليل على فساد قيادات العهد السابق . . ولأنى كنت مؤمنا بضرورة مصارحة الشعب بكل شىء . . فالتحول الاجتماعى بدون حرية خراب . . والتحول الاجتماعى بدون ديمقراطية هبة من الحاكم . . يمكن أن يسحبها .

وفى كل قرار كنت أتخذه ، كنت ألجأ للخبراء وأهل المعرفة . .

فإذا ما قرأت رأيا أعجبنى ، استدعيت صاحبه وناقشته فيه . . وإذا ما قرأت فكرة ، طلبت من صاحبها أن يحولها إلى واقع . . وحدث أن قرأت مقالا للدكتور سيد عبد الواحد فى جريدة المصرى ، يتوقع فيه أن تحدث أزمة خانقة فى المواصلات والمرور إذا لم نسارع بالتخطيط لمواجهتها . . واقترح د . عبد الواحد ان ننفذ مشروع مترو الأنفاق . .

كان منذ ٢٨سنة تقريبا . .

وكانت تكلفة الكيلومتر أيامها لاتزيد عن ٦٥٠ الف جنية وهى الأن تصل على ما أسمع إلى ٧ ملايين جنية .
وطلبت من وزير الواصلات أن يناقش فكرة د . عبد الواحد ، لنرى كيف يمكن تنفيذها .. لكن .. ضاعت الفكرة بعد أن اعتقلت .. ولم يؤخذ بها الا فى الثمانينات .

وقد كنت من أنصار تنوع مصادر الدخل القومى .. وأن لانعتمد على الزراعة كل هذا الأعتماد الكبير .. كنت مع التصنيع .. ولكن ليس مع هذا التصنيع الفجائى الضخم الذى دفعنا إلى إهمال الزراعة ، وتحولت مصانعه إلى دعاية سياسية وخسارة اقتصادية .. كما حدث مثلا فى صناعة الحديد والصلب .. فقد نصحنا الخبراء الأجانب عندما فكرنا فى ١١ فبراير ١٩٥٤ فى تأسيس شركة الحديد والصلب أن لانفعل ذلك ، لأن التكلفة الاقتصادية للحديد والصلب المصرى لن تكون مجزية .. لكننا لم نسمع هذه النضيحة .. وسعدنا بالكلام الدعائى عن هذه المصانع ..

كنا نقول : إذا كانت الهند وتركيا وجنوب أفريقيا قد أقامت التصنيع فى هذا العصر ، فلماذا لاتقوم مصر بذلك أيضاً ؟ وعلى ذلك قامت صناعات مختلفة كإطارات السيارات وبطاريات العربيات والأدوية والنسيج وصناعة الورق من مصاصات القصب .

وكان لابد فعلا من التصنيع ..
لكن كان علينا أن نلجأ إلى التصنيع التدريجى ، لا الفجائى .. أن نلجأ إلى الصناعات الاستهلاكية ثم الوسيطة فالثقيلة ، لاأن نصنع كل شىء بلا حساب ..

وقد كان عندنا نماذج رائعة كان لابد أن نمشى على طريقها مثل طلعت حرب . لكننا كنا نتصور أننا يمكن أن نفعل المستحيل وأن نصنع المعجزات وأن لاشىء يمكن أن يقف أمامنا ..
وكانت النتيجة هو ما نعيشه الآن ..

صناعات تخسر . . وبضائع عاجزة على المنافسة . . ودول كثيرة بدأت بعدنا أصبحت أفضل منا . . وعمال يعملون أحيانا أقل مما يتقاضون . . وحقوق بلا واجبات . . وتسيب . . وبطالة مقنعة . . وروتين شرس .

ولقد حددت فى ١١ أكتوبر ١٩٥٢ سياستى الاقتصادية أثناء اجتماعى فى الغرفة التجارية مع رجال الاقتصاد والمال والصناعة فقلت لهم :
ـ أنا بوجه عام أستطيع أن أقرر أن سياستنا الاقتصادية والمالية تتلخص فى :
أولا ـ العمل على الاستقرار الاقتصادى وهذا هو أهم ما نعمل على تحقيقه بتركه للمختصين ليدرسوه ويضعوا الأسس اللازمة له ـ نحن لانتدخل مطلقا الا عندما تقضى الضرورة بذلك وبعد استشارة المتخصصين بالأمر .
ثانيا ـ العمل على تشجيع استثمار رؤوس الأموال الأجنبية ورؤوس أموال الأفراد داخل القطر لتستثمر فى الأوجه النافعة لتنمية الاقتصاد وتقويته .

كما أننا نعمل على إحاطتها بكل الضمانات اللازمة لتشجيعها للمضى فى هذا السبيل ، كما أننا نعمل على تشجيع الأفراد والهيئات ليزداد نشاطها الإقتصادى وبالتالى يزداد نمو الثروة القومية وهذا هو الركن الأول من نهضتنا .
ثالثا ـ عدم التدخل من جانبنا فى هذه الشئون ومحاربة كل شىء يرمى إلى الطفرة أو إلى تغيير فجائى بقدر مانستطيع بل وأكثر من ذلك أقول أننا نشعر جميعا بشدة الحاجة إلى معاونة حضراتكم لانكم أنتم عماد النهضة ـ بل أنكم كنتم أكثر من هذا كما أرجو ألا يضن أحد من حضراتكم علينا بأية ملاحظات أو نظريات أو أفكار لها قيمتها فى نهضة البلاد اقتصاديا كما أننا نعمل دائما على ملاحظة حالة العمال ونقوم ببث الدعاية بينهم حتى يكونوا بالنسبة لكم بمثابة الجندى تجاه قائده فى الجيش .

وبالطبع انقلبت كل هذه الأسس بعد أن أفلت من الحكم . . فزع رأس المال الفردى . . أصبح العمال هم القادة . . لم تعد هناك ضمانات للاستقرار أو للاستثمار . . كل شىء كان ينفذ بأسلوب الطفرة . . وضاع أهل الخبرة وجاء أهل الثقة . . ودخل الضباط كل المشروعات والمرافق . . من إدارة المصانع إلى لجان الاقطاع . . ومن التعاقدات الخارجية الى تسيير الأتوبيسات . . ومن إعداد الدراسات الفنية إلى فرض القوانين الملائمة لهم .

إن المشروعات الضخمة التى أقيمت فى الستينات ، كانت بلا تخطيط ، وبلا كوادر تديرها . . كانت مبانى بلا معانى . . وكانت دعاية لاضرورة أقتصادية . .
ووصل التزوير فى بعضها إلى حد الاعلان عن إنتاجه السنوى دون أن يفتح المصنع أصلا .
ووصل التزوير إلى نكتة أطلقت فى سماء القاهرة مع القاهر والظافر .
حتى عندما أقيم المشروع الضخم المسمى بالسد العالى ، كان الاهتمام بالجانب السياسى والدعائى فيه أهم وأكبر من الجانبين الاقتصادى والفنى . .

كان لابد أن نقيم المشروعات المكملة له ، وإلا فقدنا الكثير من المميزات التى كنا نتمتع بها قبل بنائه . وهذا ما حدث فعلا . . فجاءت مميزات السد أقل من عيوبه .
لقد كانت كل الدراسات الفنية ودراسة جدوى المشروع متوافرة أمامنا وأنا لا أزال بعد رئيس للجمهورية . . وعندما كنا نناقشها فى أحد اجتماعات مجلس الوزراء ، نبتت فى رأسى فكرة إرسال بعثات اقتصادية إلى مختلف دول العالم بما فيها الدول الاشتراكية ، للاطمئنان على امكانية تمويله بلا متاعب .
فقال أحد الوزراء :
- لكن هذا قد يغضب أمريكا وبريطانية ونحن مازلنا معهما فى حالة صراع .
وكما قلت من قبل :
لم أقبل هذه الحجة بل اعتبرت اتصالنا بدول هذه الكتلة قد يحقق لنا منافع اقتصادية وفى نفس الوقت يعطينا فرصة للحركة قد تغير من خطة الأعداء وتجبرهم على تغير موقفهم .

وأعددنا دارسة لكل مشروعاتنا وأرسلناها إلى مختلف الدول بما فيها الاتحاد السوفيتى وسافرت أول . بعثة اقتصادية مصرية إلى أوروبا الشرقية يرأسها الأمه الاى المهندس حسن رجب الذى أصبح فيما بعد سفيرا لمصر فى الصين . .
وافتتحت بنفسى معرض ألمانيا الديمقراطية التى أبدت استعدادها لتوريد مصانع كاملة لمصر . . ورصدت دخل المعرض كله للجمعيات الخيرية المصرية . . إننى لم أكن أرى إلا مصلحة مصر . .
وفى سبيل هذه المصلحة ضحيت بكيانى وأحلامى وأعصابى . .

إن شعار « مصر فوق الجميع » كان شعاراحقيقيا فى عهدى . . ولكن . . الشعار أنقلب تماما فى أيام أخرى تلت اختفائى من على المسرح .

الفصل الرابع عشر

أيام المعتقل

- رفضت أن أهرب خارج مصر بحجة وجود خطر على حياتى .
- تمنيت أن يعاملونى لحظة التخلص منى كما عاملت الملك الفاسد فاروق .
- الذين قاموا بالثورة طحنتهم والذين نافقوها رفعتهم .
- شطبوا اسمى من كتب التاريخ فلم يصدق أطفالى اننى كنت رئيسا لمصر .
- ابنى الأكبر مات بعد الاعتقال والاوسط مات مقتولا فى ألمانيا والثالث طردوه من عمله بقرار جمهورى .
- ضربت وأهنت وتعرضت للموت فى حادث اختطافى عام ١٩٥٦ .
- سمعت خبر وفاتى باذنى فى اذاعات العالم نقلا عن مصادر مطلعة فى القاهرة .

ثلاثون عاما مرت على هذه الذكريات التى لا أعرف بماذا أصفها ؟

هل هى ذكريات سيئة ؟

هل هى ذكريات تنطبق عليها القاعدة القرآنية الشريفة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ؟

لا أعرف بالضبط ؟

كل ما أعرفه هو أننى أعطيت لمصر كل ما كنت أملك من حب وإخلاص ووفاء .

وكل ما أعرفه هو أننى فعلت المستحيل لينصلح حالها ، ولترفرف الديمقراطية إلى جانب علمها .

وإذا كنت قد أخطأت فبحسن نية .. وجل من لايخطىء .

وإذا كنت قد أخطأت ، فأن خطأى لم يكن سوى قطرة ماء اذا ما قورن بمحيط العذاب الذى غرقت فيه ، من يوم أن خرجت من قصر عابدين فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ حتى الآن .

فى ذلك اليوم أنهى عبد الناصر أزمة مارس ، التى أشعلها بينى وبينه ليستولى على السلطة بكلمة نقلها لى عبد الحكيم عامر ، الذى قال .

« إن مجلس الثورة قرر إعفاءكم من منصب رئيس الجمهورية » .

وخرجت من مكتبى فى هدوء وصمت ، حاملا المصحف ، مع حسن إبراهيم فى سيارة وحيدة إلى معتقل المرج .. إلى فيلا زينب الوكيل ، حرم النحاس باشا التى أعدتها لتكون استراحة ريفية لها ..

وفى ذلك اليوم أيضا قال لى عبد الحكيم عامر :

- إن إقامتك فى فيلا زينب الوكيل لن تزيد عن بضعة أيام ، تعود بعدها إلى بيتك .

ولكنى من يوم دخلت هذه الفيلا ، وحتى أكتوبر ١٩٨٣ ، لم أتركها .. حوالى ٢٩ سنة .. وذلك عندما طلب ورثة زينب الوكيل أن تعود إليهم .. ورفعوا الأمر للقضاء ، واستجاب القضاء لهم .. ونقلت من الفيلا التى عشت فيها كل هذه الأعوام ، وحفظت كل ركن وكل شبر فيها ، إلى شقة أمر الرئيس حسنى مبارك بتخصيصها لى .

وقد كنت أريد أن أموت فى هذه الفيلا .. فقد كان من الصعب على أن أموت فى مكان آخر غيرها . بعد كل هذه السنوات من العشرة ..

ولكن ليس لى نصيب فى تحقيق هذه الأمنية . . وبذلك لا أكون قد اخترت المكان الذى أعيش فيه ولا المكان الذى أموت فيه .

إن الزمن يجبر الإنسان على الألفة والتعايش مع ما يحب ومع ما يكره . . ومع ما يريده وما لا يريده . . حتى مع السجن ومع المعتقل . . وقد كانت بيننا ، أنا وتلك الفيلا المهجورة البعيدة عن قلب القاهرة بأكثر من ٢٠ كيلو مترا ، ألفة وعشرة وارتباط . . وكان بيننا أيضاً إحساس مشترك بفقدان الحرية . . وهذا طبيعى . . فأوجاع السجان النفسية لاتقل عن أوجاع السجين النفسية . . والسجن نفسه يحزن على قدره الذى جعله يلعب دورا لايرضاه . . ولابد أن فيلا المرج أحست بهذه الأحاسيس ، فقد قدر لها أن تتحول من استراحة إلى معتقل . . وتتحول من تحفة إلى خرابة .

فيوم دخلتها أول مرة . كانت عروساً ، شابة حلوة ، نظيفة ، لامعة ، منسقة ، مثمرة ، نضرة ، ورائعة . . ويوم تركتها ، آخر مرة ، كانت خرابة . . ولم أكن أنا السبب . . وإنما الذين حولوها إلى سجن .

الأعشاب الشيطانية حاصرتها . . الصدا أكل بوابتها الحديدية الضخمة . . الاهمال أحرق أشجارها المثمرة . . وكتائب الحراسة حولت النخيل إلى وقود يتدفئون به فى الشتاء . . وحولت جراج الفيلا إلى مأوى لبعض أفرادها .

وقد حولت أنا الدور الأرضى من الفيلا إلى مخزن كبير ، أضع فيه مئات الكتب التى جمعتها وقرأتها طوال سنوات إقامتى بها . . كتب فى كل فروع المعرفة وبلغات مختلفة . . فى الأدب ، والطب ، واللغات ، والتاريخ ، واليوجا ، والفلك ، والاقتصاد . . وفى ذلك المخزن وضعت ما تبقى لى من أوراق خاصة ، وصور شخصية ، وخطابات من وإلى أسرتى ومعارفى وأصدقائى وفى ذلك المخزن الذى أغلق وأهمل فى السنوات الأخيرة عاشت مع الكتب والأوراق الحشرات والفئران والثعابين وكميات لاوزن لها من الأتربة .

أما الدور الأول من الفيلا فكان عبارة عن صالة بها ترابيزة سفرة قديمة ، تؤدى إلى حجرة صغيرة ، فقيرة الأثاث ، تعيش فيها خادمتى المخلصة فتحية ، وامرأة عجوز أخرى تشاركها أعباء الخدمة . . وتؤدى الصالة الى « فرندة » بها « عشة » فراخ وتمثال من البرونز لسعد زغلول . . وتؤدى الصالة أيضا إلى حجرة نومى ، وهى فى نفس الوقت حجرة معيشتى . . وهى الحجرة التى عشت فيها كل هذه

السنوات الطويلة . . فى هذه الحجرة سرير قديم من الخشب أنام عليه ، وأضع عليه الكتب والمجلات التى أقرأها ، وأضع عليه عصا من البوص اللين ، أؤدب بها برقة قططى وكلابى . . بجانب السرير ، منضدة متوسطة من الخشب ، تمتلىء فى فوضى وأرتباك بالأدوية ومجموعة البايب وكوب من الماء وأوراق مبعثرة ، وعليها مفرش من المشمع الذى يستخدم عادة فى المطابخ ، وأمامها ثلاجة صغيرة جدا ، وبالقرب منها كنبة عليها كتب قديمة ، ينام عليها الكلاب أحيانا . . وبالقرب من الكنبة صناديق من الكرتون تمتلىء بالأدوية والصور الشخصية والذكريات القديمة . . وعلى الجدران صور شخصية ، صورة للكعبة المشرفة وبعض آيات من القرأن الكريم وأحاديث للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ولعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) أغلبها يؤكد على معنى واحد هو أن النفع بيد الله والضرر بيد الله ، لابيد البشر ، ولو اجتمعت الأمة على ذلك . . حجرة متواضعة . . شديدة التواضع . .

عشت فيها وأنا أحمل لقب أول رئيس جمهورية لمصر .

إن ما حدث لتلك الفيلا المظلومة ، حدث لى . .

وفى نفس اليوم . .

يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ .

لم يكن هذا اليوم يوما عاديا بالنسبة لى . .

ففى الصباح ، عندما تحركت من بيتى ، فى شارع سعيد بحلمية الزيتون ، متجها إلى قصر عابدين ، لاحظت تراخيا من ضباط الحرس الجمهورى والبوليس الحربى . . ولم يؤدوا لى التحية العسكرية .

كنت أشعر أننى أقف وحيدا وسط حصار عبد الناصر ورجاله .

فقد أجبر خالد محيى الدين على الرحيل إلى سويسرا . . وطرد يوسف صديق من المجلس أيضا . . وهرب قائد حرسى محمد رياض الى السعودية فى اللحظات الأخيرة قبل أن يقبض عليه بتهمة تدبير انقلاب ضد عبد الناصر مع الأخوان المسلمين .

وكانت المرة الأخيرة التى رأيت فيها محمد رياض ، فى أكتوبر ١٩٥٤ ، وتمت المقابلة بصورة سرية ، فى منزل أحد أقربائى ، بالزيتون ، وبعد أن غافلت

الحراس الذين لم يعينوا لحمايتى وإنما لمراقبتى . . وفى ـ تلك المقابلة قال لى محمد رياض :

إن هناك خطة عربية وضعت لتهريبى خارج مصر ، بعد أن تأكدنا أنهم سيعزلونك .

قلت بإصرار :

ـ لا

قال :

ـ لكن هناك خطرا على حياتك .

قلت :

ـ لا . . بل إننى أنصحك بالبقاء فى مصر لتواجه الموقف بشجاعة .

لكنه رفض ، وهرب فعلا إلى السعودية ، ومن يومها لم التق به الا بعد أن رفعت القيود عنى تماما عام ١٩٧١ .

ومن يوم أن قابلت محمد رياض سرا ، وعرفت منه هذه الأخبار ، كنت أدرك ان ساعة القبض على آتية لاريب فيها . . وكنت أنتظرها بين لحظة وأخرى . . فلم أكن أملك سوى الانتظار .

ولذلك أحسست ، من تراخى البوليس الحربى ، أن هذا اليوم لن يمر على خير . . ورغم ذلك لم أغير طريقى ، واتجهت إلى قصر عابدين . . ولكن . . ما أن نزلت من سيارتى ، ودخلت القصر حتى فوجئت بصاغ من البوليس الحربى اسمه حسين عرفة ، وكان ضابطا فى الحرس الملكى يوم خروج الملك فاروق ، ثم نقل إلى البوليس الحربى لأنه يمت بصلة نسب إلى البكباشى أحمد أنور قائد البوليس الحربى فى ذلك الوقت . . فوجئت به ومعه ضابطان وعشرة جنود من البوليس الحربى أيضا ، يحيطون بى . . يحاصروننى ، وهم يحملون مدافعهم الرشاشة . . ووجدت نفسى أصرخ فيهم :

ـ أبتعدوا . . أبتعدوا عنى وإلا جاء الحرس الجمهورى وتحول الموقف إلى مذبحة .

وفى الحقيقة لم أكن متأكدا أن الحرس الجمهورى سيقاتل إلى جانبى ، وسيتدخل لحمايتى والدفاع عنى ، بعد أن عين عبد الحكيم عامر

اللواء محمد عبد المنعم صالح كبيرا للياوران ، وقام اللواء صالح بتغيير طاقم الحرس ، واختار ضباط تابعين له ، وغير مستعدين على تكسير أوامره . . لكنى رغم ذلك قلت هذا الكلام . . ويبدو أنهم لم يتوقعوا ذلك منى ، فابتعدوا عنى فعلا .

ودخلت المكتب . .

وجاء عبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم . . وأبلغنى عامر بقرار الإعفاء . . وصحبت حسن إبراهيم إلى فيلا زينب الوكيل .

وقبل أن نصل إلى الفيلا ، كان قد سبقنا إليها أحمد أنور قائد البوليس الحربى ، الذى زرع عشرين نقطة قوية من نقاط الحراسة ، حول الأسوار . . وفوق السطح . . وفى المداخل . . وكان تسليحها قويا . . مدافع رشاشة ، وقنابل يدوية ، ومدافع صغيرة ، وكان أحمد أنور يتصرف فى تلك الساعة وكأنه يقود معركة حربية شرسة .

وعندما دخلت حديقة الفيلا ، جلست على أقرب كرسى ، وأشعلت البايب ، ورحت أتأمل ما يجرى حولى ، وما جرى من قبل فى هدوء . . هل كانت لحظات اندهاش . . فعلا .

هل كانت لحظات ضيق وتوتر وقلق . . أكيد .

هل كانت لحظات مراجعة سريعة لكل ماحدث . . صحيح .

فكل ما حولى كان يدفعنى لذلك . .

فقد سارع ضباط وجنود البوليس الحربى بقطف ثمار البرتقال واليوسفى من الحديقة . . وحملوا من داخل الفيلا كل ما كان بها من أثاث ، وسجاجيد ، وستائر ، ولوحات ، وتحف . . وتركوها عارية الأرض والجدران تماما . . وحملت سياراتهم المطابخ والثلاجات وحلل الطهى . . وبقى المكان على ما هو عليه إلى الآن .

وكما صادروا أشياء لايملكونها فى بيت لاشأن لهم به ، صادروا أوراقى ، وكتبى ، وتحفى ، وتذكاراتى ، ونياشينى وقلاداتى ، وسيوفى ونقودى ، وكل شىء يخصنى ، كان فى بيتى .

وكل ما سمحوا به ، زوجتي وأولادى ، وثلاث حقائب والشغالة .
ياسبحان الله . .
ماذا فعلت ليفعلوا بى كل هذا !!
إننى يوم ودعت الملك ، الذى انتهك الحرمات ، وأحل الفساد محل النقاء .
وجلب الخراب والهزيمة على البلاد ، لم أفعل ذلك ، على العكس . .
كنت حريصا على أن يكون وداعه وداعا رسميا ، مشمولا بكل مظاهر التكريم والرعاية والاحترام . . سمحت له بأن يأخذ أشياءه الخاصة والشخصية . .
وتركت السفراء والوزراء والحاشية يودعونه . . وأمرت أن تطلق المدفعية . . ٢١ طلقة ،وأن تعزف الموسيقى نوبة مساء والعلم ينزل من على سارية ، ليحتفظ به الملك الذى نزل فى غاية الوقار الى اليخت المحروسة .
حافظت على الأصول والتقاليد . .

لكن . . لم يحافظ عبد الناصر لا على الأصول ولا على التقاليد ،أنا الذى فعلت كل هذا من أجله ومن أجل مصر ومن أجل الثورة . . تعاملوا معى كأننى لص . . أو مجرم . . أو شرير . . لم يتصل بى عبد الناصر . . لم يقل لى كلمة واحدة . . ولم يشرحوا لى ما حدث . . ولم يحترموا سنى ولارتبتى ولا مركزى ولا دورى . . والقوا بى فى النهاية فى أيدى لا ترحم وقلوب لا تحس ، وبشر تتعفف الحيوانات من الأنتساب لهم .

ما أقسى المقارنة بينى وبين فاروق عند لحظات النهاية والوداع . . ودعناه بالاحترام وودعونى بالإهانه . . ودعناه بالسلام الملكى والموسيقى . . وودعونى بالصمت والاعتقال . . ودعناه بالمصافحة وودعونى بإعطاء ظهورهم لى .

أن أصعب شيء على المرء أن يكتب أو أن يتحدث عن آلامه الخاصة . . لكن هنا أنا لا أكتب عن قضية خاصة وإنما أكتب عن أسلوب الثورة فى التعامل مع رجالها . . وفى التعامل مع الناس الآخرين . . أكتب عن قضية ضرب الحريات وإهدار الحقوق وتحطيم كرامة الإنسان المصرى ، فإذا كان هذا حدث معى ، وحدث أيضا مع العديد من رجال الثورة ، فما الذى حدث مع الآخرين ؟!

لقد قلبت الثورة كل معايير التعامل مع البشر . .
الذين قاموا بها طحنتهم . .
والذين نافقوها رفعتهم . .
وتعجبت . .

تعجبت أن تترك الثورة الحرية الشخصية للاقطاعيين الذين مصوا دماء الفلاحين ، وأن تترك حرية اختيار مكان الاقامة للرأسماليين الذين تحالفوا مع الانجليز ، وأن تفتح ذراعيها للاجئين السياسيين . . وتلقى برئيس جمهوريتها المعزول فى منزل عار من الأثاث والرحمة . . خال من سبل الاقامة وسبل الكرامة . .

وتقبلت ما حدث لى فى صمت وهدوء . .

رفضت أن أشكو من المنزل المهجور ، والحياة اليومية الصعبة ، والحصار اللاإنسانى الذى وجدت نفسى فيه ، حتى لاتتحول هذه الشكوى إلى دعاية مرضية ، رخيصة ، على يد وزير الإرشاد الموتور ، صلاح سالم .

وتحملت كل هذا فى صبر وقوة . .

وتحملت زوجتى كل هذا أيضا . . والأولاد .

وكانت زوجتى تقول لى دائما ، كلما ضججت مما حولى :

ـ تصور أن حريقا شب فى منزلنا والتهم كل شىء . . العوض على الله .

وقبلت الأمر الواقع وبدأت رحلة التكيف مع الوضع الجديد . .

كنت أقضى يومى فى ممارسة بعض التمارين الرياضية . . وفى قراءة الصحف . . وفى سماع الأذاعات . . وفى تسجيل ملاحظاتى حول الأحداث التى تجرى فى البلاد . . وبعد ذلك فى تربية القطط والكلاب . .

لكنى . .

ما كنت أرصده وأسمعه وأسجله من أخبار كان لايسرنى . . كان يغم قلبى ويكتم صدرى ويشعرنى باليأس والألم والضيق .

فبعد حادث المنشية بدأت مهزلة اعتقال ومحاكمة الأخوان المسلمين . .

بدأت هذه المحاكمات قبل اعتقالى بيوم وانتهت بعد اعتقالى بيوم ، ورأسها جمال سالم ، وتمت فى جو من الإرهاب والضغط ، والسخرية بكل شىء . . بالأنسان . . وبالمبدأ . . وبالقيم . . وبكتاب الله أيضا . . إلى حد أن جمال سالم طلب من بعض أفراد الإخوان المتهمين أمامه أن يقرأوا القرآن بالمقلوب . .

كانت مشاعرى معهم .. مع الإخوان .. رغم أنهم تخلوا عنى وعن الديمقراطية ورفضوا أن يقفوا فى وجه عبد الناصر إبان أزمة مارس ، بل أنهم وقفوا معه ، وساندوه ، بعد أن اعتقدوا ، خطأ ، أنهم سيصبحون حزب الثورة وأنهم سيضحكون على عبد الناصر ويطوونه تحتهم .. فإذا بعبد الناصر يستغلهم فى ضربى ، فى ضرب الديمقراطية ، وفى تحقيق شعبية له ، بعد حادث المنشية .. إن الإخوان لم يدركوا حقيقة أولية ، هى أنه إذا ما خرج الجيش من ثكناته فإنه حتما سيطيح بكل القوى السياسية ، المدنية ، ليصبح هو القوة الوحيدة فى البلد .. وأنه لايفرق فى هذه الحالة بين وفدى وسعدى ، ولابين إخوانى وشيوعى .. وأن كل قوة سياسية مدنية عليها أن تلعب دور القيادة العسكرية الديكتاتورية ثم يقضى عليها .. لكن .. لا الاخوان عرفوا هذا الدرس ، ولاغيرهم استوعبه .. ودفع الجميع الثمن .

ودفعته مصر أيضاً ..

دفعته من حريتها وكرامتها ودماء أبنائها ..

فالسلطة العسكرية ، أوالديكتاتورية العسكرية لاتطيق تنظيما آخر ، ولاكلمة واحدة ، ولانفسا ولاحركة ، ولاتتسع الأرض لها ولا أحد غيرها .

وكما قلت من قبل

كان حزنى شديدا على عبد القادر عودة الذى صعد درجات المشنقة شجاعا ، وتذكرت يوم استدعيته قبل ذلك بشهور فى شرفة القصر الجمهورى بعابدين ليطل معى على أنصاره فى الميدان ، ويطلب منهم الانصراف بهدوء بعد أن قلت لهم أن عودتى هى عودة الحياة البرلمانية وإن المسئو لين عن جرحاهم سوف يحاسبون . والتحول من العمل الجماهيرى إلى الإرهاب أعطى دلالة بالغة على فقدان الثقة فى الشعب وهو ما سقطت فيه قيادات الإخوان المسلمين .

ولم يدفع الإخوان الثمن بمفردهم ..

دفعه شباب مصر ، ورجالها ، ودفعه أيضا أبنائى ..

فالأرهاب يولد إرهابا .. والدم يفجر الدم .. والقسوة تعشق القسوة .. والديكتاتورية العسكرية لاتحكم الا بدولة المخابرات ..

لقد أسس زكريا محيى الدين دولة المخابرات .. وكان يطلق عليه « بيرية » .. أو الرجل الغامض .. ثم جاء تلاميذه ليتفوقوا عليه .. وليثبتوا للنظام أنهم معه ،

بعقولهم وقلوبهم وعضلاتهم وكلابهم وبشراستهم وبغلاظة قلوبهم . . فثمن البقاء في السلطة كان دائما دماء أبناء مصر ودماء خيرة شبابها . .

وكان ابنى فاروق أحد هؤلاء الشباب . .

تعذب فاروق وهو صبى صغير نفسيا ، وتعذب جسمانيا وهو شاب ورجل . .

فعندما جئنا إلى معتقل المرج ، جاء إلى فاروق ، ليسألنى فى اهتمام شديد :

ـ أبى . . هل صحيح أنك كنت رئيسا للجمهورية ؟

وتعجبت للسؤال . . لكنى أبتسمت لفاروق ، وداعبته ، وقلت له :

ـ نعم يابنى . . لكن ما الذى جعلك تسأل هذا السؤال . . هذا تاريخ مضى وأنقضى .

ولمحت دموعا حائرة فى عينى الصبى ، وهو يقدم لى كتابا فى المطالعة ، جاءت فيه هذه العبارة :

« وجمال عبد الناصر هو أول رئيس لجمهورية مصر » .

رفعت المطابع أسمى من كافة الكتب . . شطبوا اسمى من التاريخ . . وزوروا التاريخ . . بل وحاولوا أن يتعاملوا معى كأننى لم أوجد ولم أولد وكأننى كذبة أو خرافة أو إشاعة . .

هكذا يزيف التاريخ ببساطة . . وهكذا يتعلم الأولاد الكذب . . لكننى على كل حال لست أول من فعلوا به ذلك . . فقد سبقنى ، على الأقل ، سعد زغلول الذى وصفوه بأنه قفز على ثورة ١٩١٩ ونصب نفسه زعيما عليها دون وجه حق . . وفعلوا نفس الشيء بمصطفى النحاس ، الذى عندما مات ، قبضوا على كل من مشي فى جنازته ، وظل محرما على المصريين أن يذكروه أو يتحدثوا عنه .

إلى هذا الحد تصور عبد الناصر أنه يمكن أن يعيد صياغة وكتابة التاريخ حسب مايريد .

لكن . .

هل يمكن أن يغير التزييف حقيقة التاريخ .

لا أعتقد .

وقلت لصغيرى :

ـ لا تبتئس يابنى هذه إرادة الحاكم وليست ارادة الشعب .

ولا أعرف ما إذا كان ابنى قد فهم هذا الكلام أم لا . . ولا أعرف ما إذا كان قد صدقنى ، ساعتها ، أم صدق كتبه المدرسية . . لكننى أعرف أننى حزنت جدا لان ابنى قد يعتبرنى كاذبا ، وهو أشق ما يمكن أن يتحمل أب من ابنه . . وحزنت جدا لانهم أصدروا حكم الإعدام على اسمى وأنا لا أزال على قيد الحياة . . وأعرف أن فاروقا ، عرف الحقيقة كاملة عندما كبر . . بل أنه ذاق العذاب على يد زبانية عبد الناصر الذين تسببوا فى تحطيمة وانهياره وموته فى النهاية فعندما كبر فاروق شرب من نفس الكأس الذى شربت منه . . فقد استفزه أحد المخبرين الذين كانوا يتابعونه ويسيرون وراءه . .

قال له :

ـ ماذا فعل أبوك للثورة . . لاشيء . . إنه لم يكن أكثر من خيال مآتة . . ديكور . . واجهة . . لا أكثر ولا أقل .

فلم يتحمل فاروق هذا الكلام علىّ ، وضربه . .

ويومها لم يعد فاروق إلى البيت . .

ولم ينم فيه . .

قبض عليه . . واتهموه بالإعتداء على النظام وبسبه ، ودخل ليمان طره مع المعتقلين السياسين ، وبقى هناك خمسة شهور ونصف . . خرج بعدها محطما ومنهارا ومريضا بالقلب . . وبعد فترة قليلة مات . . مات من القسوة والغم والقرف .

كان ذلك عام ١٩٦٩ . .

وقبل ذلك بعام واحد ، قتل ابنى الثانى . . « على » . . فى ألمانيا الغربية .

كان على يدرس فى ألمانيا ، وكان زعيما طلابيا له نشاط واسع ضد اليهود هناك . . كان يقيم المهرجانات التى يدافع فيها عن مصر وعن الثورة وعن حق الفلسطينين . . ولم يعجب هذا بالطبع ، رجال المخابرات المصرية ، الذين رأوا فى نشاطه إحياء للكلام عن أبيه . . عنى . .

وفى ليلة ما كان على يوصل زميلا له بعد أن انتهيا من استذكار دروسهما . . فإذا بعربة جيب بها ثلاثة رجال وامرأة تهجم عليه وتحاول قتله . . وعندما هرب . . جرت وراءه السيارة ، وحشرته بينها وبين الحائط ، ونزل الرجال الثلاث وأخذوا يضربونه حتى خارت قواه ونزف حتى الموت .

وتمدد على غارقا فى دمائه على الأرض ، دون أن يتقدم أحد لإنقاذه .

ونقل جثمانه من ألمانيا إلى مصر ، ودفن ، دون أن يسمح لى بأستقبال نعشه ، أو

قراءة الفاتحة على قبره .
أما ابنى الثالث يوسف ، فلم يكن رغم بعده عن النشاط العام ، أكثر حظا من أخويه . . فبعد أن تخرج من معهد العلوم اللاسلكية أشتغل فى إحدى شركات الدولة ، ولكنهم لم يتركوه فى حاله . . افتعل أحد أقارب شمس بدران مشاجرة معه ، انتهت بإصدار قرار جمهورى برفته والتخلص منه . .

ولم يجد يوسف ما يفعل سوى أن يعمل على سيارة أجرة فى الضواحى . . وهو الآن أسعد حالا لأنه يعمل فى شركة المقاولون العرب سائقا فى الصباح ، وعلى تاكسى أشتراه بالتقسيط فى المساء .
لقد تعذب أولادى كما تعذبت أنا . .
تعذبنا جميعاً منذ دخلنا معتقل المرج . .

كان ممنوعا علينا أن نستقبل أحدا . . وبعد سنوات طويلة سمحوا لنا بذلك ، لكن على شرط أن يجلس معنا ضابطا ليسجل كل ما يقال . . وكانت إحدى نقاط الحراسة تقع على السطح ، وكان لابد للجنود والضباط ليصلوا إليها أن يمروا بحجرة نومى . .

وكان من الطبيعى ومن المعتاد أن يفزع الجنود أفراد أسرتى بإطلاق الرصاص فى الهواء ، فى منتصف الليل ، وفى الفجر . .
وفى أى وقت يتصورون أنه مناسب لراحتنا . .
وكانوا يؤخرون عربة نقل الأولاد إلى المدارس ، فيصلون إليها متأخرين ، ولاتصل العربة إليهم فى المدرسة الا بعد مدة طويلة من انصراف كل من فى المدرسة ، فيعودون إلى المنزل مرهقين ، غير قادرين على المذاكرة . . وكل ما يفعلونه هو أن يأكلوا ويناموا .

وكان على كل من فى البيت الا يخرج منه من الغروب حتى الشروق . . وكان علينا أن نغلق النوافذ فى عز الصيف . . تجنبا للصداع الذى يسببه عمدا الجنود والضباط ، وهربا من جحافل الناموس التى تملأ المنطقة . .
كانت نسمة الهواء ليلا فى الصيف محرمة علينا .

ولم تفلح الشكوى التى اضطررت اليها بسبب الأولاد ، إلى عبد الحكيم عامر ، وإلى غيره . .
وقد كتبت لعبد الحكيم عامر عشرات الخطابات بلا جدوى . .

ـ انهم قرروا سفرنا الى نجع حمادى . . وسنقوم الليلة الساعة ٦,٣٠ مساء بقطار مخصوص .

وركبنا عربة مخصوصة لا قطارا مخصوص .

ودخلت ديوانا ، أغلقوه على من الخارج ، وأوقفوا على بابه جنود البوليس الحربى . . ولم أستطع ليلتها أن أنام من شدة الزكام والصداع ومن قلة الطعام . .

وكنت أرى على رصيف كل محطة يمر عليها القطار عددا كبيرا من جنود البوليس يخلونها من الناس . .

وبعد ٤٨ ساعة وصلت نجع حمادى . . وصلنا عند شروق الشمس تقريبا . . واتجهنا الى استراحة الرى . . وكانت استراحة معقولة . . من دورين . . كانت اقامتى فيها بالدور الاعلى . . وكل نصف ساعة كانوا يطمئنون على وجودى رغم صعوبة الهرب من المكان . . وكنت لا أزال مضربا عن الطعام لاظهار سوء المعاملة .

واستمر اضرابى التام عن كل شيء حوالى ٤٤ ساعة من الساعة ١,٢٠ صباح الخميس الى ٩,٢٥ مساء الجمعة .

وظهر الجمعة قالو لى :

ـ ابنك فاروق على التليفون .

وكلمت فاروق وطمأنته وكان الى جوارى الملازم أول رفيق بدر أبو على . . وانتهت المكالمة لنجلس جميعا معا ونسمع الاخبار . . كانت الاخبار سيئة للغاية . . سيناء ضاعت . . وقطاع غزة أيضا . . والطائرات تدمر المنشآت والأرواح المصرية . . وانتهى اليوم بأن تناولت كوبًا من عصير الليمون .

وبعد ٤٨ ساعة قضيتها فى هذه الاستراحة فوجئت بحضور ضابطين من ضباط البوليس الحربى هما جمال القاضى ومحمد عبدالرحمن نصير . . جاءا لينقلانى الى مكان آخر . .

لم أعرف الى أين . . ولم يقولا لى . .

وعندما سألتهما . . كان الرد بشعا . . اعتذر عن ذكره . . وأشعر بالقيء كلما تذكرته . . كان الجواب سيلا من الشتائم ، حاولت وقفه بصرخة احتجاج ، فإذا بضابط منهما يدفع يده فى صدرى ويلكزنى فيه . . ودارت بى الدنيا . . وهانت على الحياة . . وهممت بالهجوم عليه ، لكن أيدى الجنود حالت بينى وبينه .

وساعتها أدركت ماذا فعلت حركة يوليو فى مصر . . كيف ازالت الاحترام بدلا من الفوارق بين الطبقات . . كيف أطاحت بالكرامة فى الوقت الذى كانت تقول فيه ارفع راسك يا أخى . .

أى تغيير وقع فى مصر . .

أى انهيار حدث فى تقاليد الجيش . .

كيف تتجرأ رتبة صغيرة على سب رتبة أكبر منها وضربها إذا استدعى الأمر . .

وعدت للاضراب عن الطعام . .

وانزويت اتابع اخبار العدوان . . وأسجلها . .

وهذا بعض مما سجلته فى تلك الأيام . .

السبت ١٩٥٦/١١/٣ :

أنا متعب . . وقست درجة الحرارة فكانت ٣٧,٥ ولكنى لن استسلم للراحة اذ كيف يستريح من يرى بلاده تنتحر وتدمر ويغزوها اليهود ويسمع ان الحاكم العام قد وقع وثيقة الاستسلام وأخذ أسيرا (محمد فؤاد الدجوى) يسمع ان جنودنا ينسحبون بلا حماية من الجو .

وجمال عبدالناصر مازال يعتقد أنه سيد مصر والعروبة والاسلام .

تابع ١٩٥٦/١١/٣ :

اعلن أمس جمال عبدالناصر نفسه قائدا عسكريا عاما . فهو الحاكم العسكرى وهو رئيس الجمهورية وهو كل شىء .

الثلاثاء ١٩٥٦/١١/١٣ :

صحيت بعد طلوع الشمس وصليت كالمعتاد وتلوت ما تيسر من القرآن .

الاخبار أهمها ان همرشلد سيقوم من نيويورك ليصل مصر يوم الخميس بعد أن قبلت مصر أمس فى مجلس الوزراء اقامة القوات الدولية البوليسية على أراضيها .

الأربعاء ١٩٥٦/١١/١٤ :

قال راديو لندن إن خسائر مصر فى بورسعيد هى ١٠٠ قتيل و٤٤٠ جريح .

وقال ان ديون مصر الاقتصادية وصلت فى اسابيع الى ٤٠٠ مليون دولار .

الجمعة ١٩٥٦/١١/١٦ :

فى الثامنة والنصف مساء حضر الاستاذ حسن محمد من مصر . . الاخبار تقول ان

همرشلد قابل عبدالناصر وبولجانين ارسل الى انجلترا وفرنسا واسرائيل يحذرها من العواقب الوخيمة التى تنتظر اسرائيل اذا ما قامت بعمليات حربية بعد اليوم وكذلك ينذر الجميع بالجلاء من الاراضى المصرية ويطالب لمصر بتعويضات من لندن .

الاحد ١٩٥٦/١١/١٨ :

أشعر بأننى معرض للاعتداء على بالقتل فى أى وقت فأنا محظور بمعنى الكلمة وهكذا يعاملوننى . . وفى هذا اليوم كتبت خطابات الى احمد انور قائد البوليس الحربى عن المتاعب هنا وعن عدم الاطمئنان على أولادى حتى الآن . . والى على نجيب ومعه شيك رقم ٧٠٥٨٤٥ بتاريخ ٥٦/١٢/١ بمبلغ ١٦٠ جنيها . . والى زوجتى وأولادى . . وخطاب لعبدالحكيم عامر ومعه شيك رقم ٧٠٥٨٤٧ بتاريخ ٥٦/١١/١٨ مساهمة فى المجهود الحربى .

وبعد أيام حضر حسين عرفه ضابط البوليس الحربى وقائد المباحث العسكرية الجنائية ، يعتذر لى عما بدر من الضباط ويبلغنى أننا سننتقل الى جهة أخرى بعد تغيير الضابطين جمال القاضى وعبدالرحمن نصير .

وانتقلنا الى بيت محامى فى طما ، عرفت أنه زوج شقيقة أحمد أنور وعديل حسين عرفه .

وبقيت هناك فى احدى الغرف ٥٩ يوما كاملا ، فى حجرة رطبة ، لا تدخلها الشمس ، وعند النوم ، أنام ومعى حراسة مشددة داخل الحجرة . . حتى حرية النوم بمفردى فقدتها .

وكما سافرت بلا مقدمات . . عدت إلى المرج بلا مقدمات أيضا . . جاء حسين عرفه وصحبنى الى القاهرة وفى الطريق عرفت منه أن اقامتى كانت سرية حتى على رجال وزارة الداخلية . . وعلمت منه أن صوت الدعاء الذى كان يتسرب الى غرفتى كان صادرا من والدة أحمد انور التى كانت تقيم هناك .

وحتى الآن لم أفهم :

ـ لماذا تصرف عبدالناصر معى على هذا النحو ؟

ولم أجد اجابة قاطعة . .

قيل أن أحد أهداف العدوان الثلاثى كانت اعادتى للحكم . . وقيل أن المخابرات البريطانية تسعى لمعرفة مكانى . . ولكن . . لا اصدق هذا الكلام . .

التعليل الوحيد الذى اتصور انه مناسب هو خوف عبدالناصر من ان ينقلب الناس ضده فى تلك الظروف الحرجة ويطالبوا بعودتى .. لكن ..

ـ لماذا هذه المعاملة السخيفة ؟

لا اعرف لا بالضبط ولا بالتعليل ..

وقد عرفت ، فيما بعد ، من بعض رجال عبدالناصر الذين جاءوا يطلبون منى ان اسامحهم على ما فعلوه بى ، ان تعليمات صدرت أثناء خطفى بقتلى واخفاء جثتى تماما باذابتها فى حامض مركز .. ولكن ضمير البعض استيقظ فرفض تنفيذ التعليمات ، ودفع ثمن ذلك من مستقبله ، كما أن احساس عبدالناصر بالخطر قد زال بعد تدخل الروس والأمريكان لاجلاء القوات الاسرائيلية .

واذا كان عبدالناصر طلب اذابة جثتى فى حامض شرس .. فأنا طلبت منه أن أتطوع كجندى عادى فى جيش مصر ، فى تلك الحرب التى اوقعنا فيها .. وكتبت له الخطاب التالى من مكانى المجهول الذى خطفت اليه .. والتى سميته بلدة « س » :

فى يوم الاثنين ، ربيع الثانى ١٣٧٦

الموافق ٥ فبراير ١٩٥٦

إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر

السلام عليكم ورحمة الله ـ وبعد فقد يظن غيركم أنى هازل أو محاول الدعاية لنفسى أو غير ذلك ، ولكنكم تعرفون أخلاقى ومن ميزاتكم الفريدة القدرة على معرفة الرجال كما ان اى رجل شجاع او اى وطنى حميم يستطيع بسهولة ان يؤمن بصدق ما اكتبه اليكم الآن :

أريد ان نضرب للمواطنين مثلا جديدا عل إنكار الذات والتضحية بكل شىء فى سبيل البلاد ، أريد أن نقف رجلا واحدا ندافع عن الوطن العزيز فى هذه الساعة الحرجة .

أريد منك ان تسمح لى بأعز امنية وهى المشاركة فى أقدس واجب وأشرفه وهو الدفاع عن مصر ، فاسمح لى بالتطوع جنديا عاديا فى جبهة القتال باسم مستعار وتحت أية رقابة شئت ، دون ان يعلم احد بذلك غير المختصين ، وإنى اعدك بأثمن ما أملك ، أعدك بشرفى أن أعود الى معتقلى اذا بقيت حيا بعد انتهاء القتال . وبذلك تغسلون ما لحق بى من آلام .

● صورة الخطاب بالوثائق ص ٣٧٩ .

كما تسعدون العدد الكبير من الضباط والجنود المعينين لحراستى والمحرومون مثلى من شرف الاشتراك فى القتال وتوفرون مبلغا كبيرا ينفق على هذه الحراسة . وانا لا أريد سوى أن أختم حياتى ختاما شريفا .

ولو خامركم الشك فيما أقول فانى مستعد ان أقوم بعمل انتحارى كقيادة طوربيد أو أن أسقط بطائرة أو مظلة محاطة بالديناميت على أية بارجة أو هدف مهم من أهداف العدو . وهذا اقرار منى بذلك .

والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته .

ولم يرد عبدالناصر على خطابى . .

ولم أجد ما اشارك به فى المعركة سوى التبرع بمبلغ بسيط هو خمسة جنيهات ، هو كل رصيدى فى البنك ، فارسلت الشيك رقم ٧١٥٨٤٧ على البنك الأهلى باسم عبدالحكيم عامر ، لكننى فوجئت بالشيك يعود الى ومعه خطاب من أحمد أنور يسبنى فيه ، ويسفه دورى فى الثورة ويؤكد انها ليست فى حاجة لأموالى .

قال أحمد أنور :

« إن القوات المسلحة لم تكن ولن تكون بعون الله وبهمة رجالها وبالروح التى بعثتها الثورة من العزة والكرامة التى خلقها زعيمنا فى نفس كل فرد من أفراد الأمة فى حاجة الى مثل هذا المبلغ » .

« ان نفسى لتبرأ ان تحيط القائد العام علما بتبرعك حتى لا أبعث فى نفسه اشمئزازا من تصرف رجل انتسب الى الجندية وانتسب الى مصر فى يوم من الأيام » .

« لذلك أرى ـ رحمة بك ـ أن أرد لك هذه القروش فمثلك أولى بها فربما تعوضك عن بعض ما فاتك من البذل والفداء الذى يبذله أبطالنا اليوم » .

كان ذلك فى ١٩٥٦/١١/٢١ .

وواضح أن أحمد أنور تعمد اهانتى ليرضى قادته الذين ارسل لهم صورا من هذا الخطاب الذى كان فى الحقيقة موجه لهم أكثر مما هو موجه لى .

وليس صحيحا ما جاء فى هذا الخطاب . .

وقد رددت عليه بعد يومين بخطاب مهذب لعله يشعر بالكسوف . .

فى ١٩٥٦/١١/٢٣ كتبت له :

● صورة للخطاب فى الوثائق ص ٣٨٠ .

السيد القائمقام أحمد أنور

بعد التحية ارجو ان تطلعوا على حسابى فى البنك فهو حوالى الخمسة والسبعين جنيها منها ٦٤ جنيه رصيد شيكات مسحوبة منى لم تصرف بعد (ومن ضمنها ٥٠ جنيها تبرعات لمشروعات قومية) وآسف انكم ثرتم وبنيتم خطابكم على ثروة وهمية لم يدخل فى ذمتى منها مليما وقد شرحت للسيد محمود (عزت) تفاصيل كل شيء وأنا لم أتبرع إلا ارضاء لضميرى ولن يكون هذا التبرع هو الأخير .

« فإن مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا » .

وسل أخى على نجيب لتعرف منه انى اصبحت مدينا له بما لا يقل عن المائتى جنيه حيث اضطررت أن أقترض لأكمل المبلغ المطلوب لدراسة ابنى فاروق بالمانيا .

لقد أبقيت المبلغ حتى أستطيع أن أضيف إليه ما يرفع قيمته الى ما يتناسب مع ثرائى العريض ثم أتبرع به .

والسلام عليكم ورحمة الله .

ولم تمر اسابيع قليلة حتى فوجىء أحمد أنور بخطابى المؤرخ برقم ق . م / استبدال /٢ / ٥٧ الى السيد قائد عام القوات المسلحة ووزير الحربية الذى اطلب فيه استبدال ٢٠ جنيها من معاشى ، لأنى فى حاجة الى مبلغ لاجراء عملية جراحية فى عظام الرأس لأحد ابنائى ولتغطية نفقات تعليم أولادى ، خاصة وأن صافى معاشى لم يزيد عن ١٧٦ جنيها .

وعرف أحمد أنور بالطبع الى أى مدى كان متجنيا على . . لكنه لم يكلف نفسه بالطبع الاعتذار ولو شفهيا .

لقد كانت سنوات المرج الاولى أشد سنوات عمرى قسوة . .

وضاعف من احساسى بالقسوة أن البلد كلها كانت تتجه بسرعة خرافية الى حكم الفرد والى تمركز السلطة فى يد جمال عبدالناصر دون أن يجرؤ أحد أن يقول له : لا .

فبعد أن كان كمال الدين حسين يشغل تسعة مناصب خرج من السلطة بلا عمل واحد ، وكان لا يزال تحت الخمسين .

وخرج جمال سالم . .

ثم حسن ابراهيم . .

فعبد اللطيف البغدادى . .

● صورة من الخطاب فى الوثائق ص ٣٨١ .

● صورة خطاب طلب استبدال المعاش ص ٣٨٢ .

وزكريا محيى الدين ..
واغتيل عبد الحكيم عامر او انتحر .. الله اعلم ..
وذاق الذين ساندوا الديكتاتورية من نفس الشراب الذى ساقوه للآخرين ..
انهم لم يسكتوا على الخطأ فقط وانما ساندوه ايضا .. ودافعوا عنه .. وبرروه ..
وفى كثير من الاحيان اسهموا فيه .. ومع ذلك عندما انتهى دورهم اطيح بهم ..
واصبحوا مثلى ، عليهم ان يخرجوا ليقولوا بصدق ما عاشوا ..

وليس لهم العذر الذى حاولو اشاعته ، وهو قلة خبرتهم السياسية ، وكثرة اعداء الثورة ، وطبيعة النظام العسكرى الذى خرجوا منه والذى يؤمن بتنفيذ الامر مهما كان غير منطقى او غير سليم ..

فإذا كانوا يعرفون ذلك ، فلماذا لم يعودوا الى الجيش ويتركوا السياسة لأصحابها .

فالسياسة تختلف عن العسكرية ، فهى تفاعل حى وحر لآراء الجماهير ومعتقداتها .. وهى أن تمشى وراء الجماهير لا أن تجعلها تمشى وراءك ..

ولو كانو قد قرأوا قليلا فى التاريخ او فى السياسة ، لعرفوا ان عبد الناصر نفذ بنصائح مكيافللى فى « الأمير » خاصة تلك التى تنصح الحاكم بالتخلص من كل الذين ساعدوه فى الوصول الى الحكم واستبدالهم بآخرين يدينون له بالطاعة والولاء .. فبعد ازمة مارس تخلص عبد الناصر تدريجيا من رفاقه القدامى ، وجاء بجدد لم يكن لهم هم سوى ارضائه .

وبعد ست سنوات داخل معتقل المرج ، سمح لى ان اتحرك فى بعض الزيارات العائلية او زيارات المجاملات ، على ان يرافقنى بعض ضباط المخابرات ويذهبون معى الى كل مكان اذهب اليه .

وكان ان ذهبت الى جمال سالم لتعزيته فى وفاة شقيقة صلاح سالم الذى فوجىء بحضورى ، وتساءل مندهشا :

- هل انت الرئيس محمد نجيب ؟

وهززت رأسى ..

قال :

- هل تعزى فى صلاح وتعزينى بعد كل ما فعلناه بك ؟

قلت له :

ـ الواجب يا جمال .

فبكى .

ورحت لزيارة جمال سالم مرة أخرى عندما سقط بمرضه . . واصبح قريبا من الموت وعلى بعد خطوات من لقاء ربه . . وأجهش جمال سالم فى البكاء عندما رآنى . . وامام الحرس الخاص بى ، قال لى :

ـ سامحنى يا نجيب فقد دفعنا الشيطان الرجيم ضدك .

وسرحت قليلا . .

ليت المشكلة فى أن اسامحه . .

واذا سامحته انا فهل يسامحه الشعب ويسامحه التاريخ . .

ابدا . .

لن يسامحهم ضحاياهم . . ولن يسامحهم التاريخ . .

اللهم لاشماتة . .

ولكن . . للحقيقة التى عاشتها الاجيال المعاصرة اقرر ان الدوائر دارت عليهم ، وخرجوا من دائرة السلطة الى دائرة الوحدة . . ومن النفوذ الى النسيان . . ومن الضوء الى الظل . . وانتهى الأمر بهم اما الى الاستقالة واما الى الانتحار .

اللهم لاشماتة . .

لكن علينا ان نستوعب الدرس وان نحفظه ولانفرط فى التجربة التى عشناها ودفعنا فيها ثمنا باهظا . .

انى اعتقد احيانا ان حظى كان افضل من حظ باقى أعضاء مجلس الثورة . . فذنوبهم كانت اكثر من ذنوبى . . وخطاياهم كانت أشد . .

وما فعلته لم يجرؤوا أن يفعلوه . .

لقد قنعت باقامتى فى معتقل المرج . . وتآلفت مع كل ما فيها . . قرأت الكثير من الكثير من الكتب فى كل فروع المعرفة من الطب الى التاريخ . . ومن علم الكف الى علم الفراسة . . ومن علوم الاحياء الى الجيولوجيا . . كل فروع المعرفة بلا استثناء . .

وتعلمت لغات أجنبية كنت لا أعرفها . . حتى اللغة العبرية درستها . . وانشغلت بتربية القطط والكلاب . . وانا اعتبر القطط والكلاب اكثر وفاء من

البشر . . حتى انني نجحت معها فى تغيير طبيعتها . . انني لازلت احتفظ بصورة نادرة لكلبة من كلابى ، ترقد على جنبها وترضع منها قطة فقدت امها . . ان هذه الصورة دليل على ان العداء التقليدى والطبيعى بين الحيوانات يمكن ان يذوب ويتلاشى بالحب والرعاية . . وهذه الصورة دليل على ان الحيوانات اكثر ليونة ورقة فى التخلص من شراستها ، من البشر .

انني لم انجح فى تطبيق شعار : الاتحاد والنظام والعمل الذى رفعته بعد الثورة مباشرة الاعلى القطط والكلاب التى أربيها نجحت فى الاتحاد بين القطط والكلاب . . وفرضت النظام عليها . الاكل بمواعيد والنوم بمواعيد . . نجحت فى ان يكون العمل هدفا لها . . كل منها حسب الوظيفة المناسبة . . الكلاب للحراسة . . والقطط لتنظيف البيت من الفئران والحشرات .

لقد كان هؤلاء الاصدقاء الأوفياء سلوى وحدتى فى سنوات الوحدة . تلك السنوات المرة التى وصلت فيها درجة الافتراء الى حد اشاعة خبر وفاتى . . وقد سمعت هذا الخبر بأذنى من اذاعات العالم . . وقرأته بعينى فى كتاب ضباط الجيش فى السياسة والمجتمع والذى وضعه كاتب إسرائيلى يدعى اليزير بيير . . قال اليزير بيير :

« ان محمد نجيب توفى عام ١٩٦٦ ».

ولا اعتقد ان احدا فى العالم قصد اذاعة او كتابة مثل هذه الاخبار عن عمد او عن مقصد ، كل ما فى الأمر ان العزلة الصارمة التى فرضت على جعلت مثل هذة الاخبار ، التى كانت بلا تكذيب فى اغلب الاحيان ، امرا طبيعيا .

وبعد كل مرة كان ينتشر مثل هذا الخبر فى العالم ، كانت برقيات التعزية تصل الى المرج ، والطريف انني كنت اقرأها بنفسى .

ان كل المحاولات التى جرت لينسانى العالم قد ذهبت هباء . . .

وليس أدل على ذلك من تلك القصة البسيطة التى شهد تفاصيلها صديق صحفى شاب . . كان ذلك الصديق فى زيارتى عندما جاء لى خطاب من الدنمارك . . ولأن عينى كانتا تؤلمنى فى ذلك اليوم ، طلبت منه ان يفتح الخطاب ويقرأه . . وقرأ الصحفى الشاب الخطاب وكان من طالب صغير يهوى جمع توقيعات الرؤساء والقاده والزعماء ، ويطلب ان يضم توقيعى لمجموعته ، وارسل بجانب خطابه الرقيق ورقة بيضاء مقواة لأوقع عليها ومظروف يحمل عنوانه وشهادة بريدية تفيد بأن رسوم الرد خالصة .

كان عمر التلميذ ١٧ سنة . .

وتعجب الصحفى الشاب . .

وقال :

ـ كيف يعرفونك فى الدنمارك ولانعرفك فى مصر . . كيف يعرفك صغار العالم ولايعرفك اغلب الكبار فى مصر ؟

وقال :

ـ اننى بهذه المناسبة اذكر ان احد السفراء الذين اعرفهم حكى لى انه عندما كان يقدم اوراق اعتماده لرئيس جمهورية فنزويلا سأله الرجل عنك وقال له : نحن نعرف مصر الفرعونية ونعرف محمد نجيب وجمال عبد الناصر كرر الرجل نفس الكلام للسفير وهو يودعه عائدا لبلاده .

وقال :

ـ هذا قدرك ياسيدى . . ان يذكرك العالم ونحاول ان ننساك نحن ، ولكن لا احد يستطيع ان يقف امام قطار التاريخ . . صدقنى لا احد . .

وضحكت . . فأنا اعرف ذلك جيدا . .

واعرف ان ألاباطيل مثل السحب سرعان ما تنقشع .

والدليل على ذلك ، ما جرى بينى وبين محمد حسنين هيكل . .

ادعى هيكل على بالباطل ، فى كتابه ناصر والعالم أننى تسلمت من المخابرات الامريكية ثلاثة ملايين دولار ، هى التى بنى بها برج القاهرة . . قال هيكل بالنص :

« وذات يوم كان عبد الناصر واعضاء مجلس قيادة الثورة يبحثون مسألة بناء برج لاسلكى للاتصالات العالمية التى تقوم بها وزارة الخارجية وادارة المخابرات ، وقيل لعبد الناصر انه سبق وان تم شراء بعض المعدات ولما احتج بأنه ليست هناك اموال مرصودة فى الميزانية لهذا الأمر قيل له إن المال جاء من اعتماد امريكى خاص ، ودهش عبد الناصر إذ كانت هذه اول مرة يسمع فيها بوجود اى اعتماد خاص وقيل له ان وكالة المخابرات المركزية وضعت تحت تصرف اللواء محمد نجيب ثلاثة ملايين دولار ».

« وكان المبلغ قد تم تسليمه بواسطة عميل امريكى فى حقيبة ضخمة عبئت بقطع نقدية من فئة المائة دولار ، وسلمت الحقيبة فى الواقع الى ضابط فى المخابرات المصرية كان يعمل كضابط اتصال بين المخابرات المصرية ووكالة

المخابرات الامريكية وتمت عملية الدفع والاستلام فى بيت العميل الامريكى فى ضاحية المعادى الانيقة » .

« واستشاط عبدالناصر غضبا عندما سمع ذلك وتوجه بالسيارة فورا الى مجلس الوزراء وطلب تفسيرا من محمد نجيب الذى كان آنذاك رئيسا للوزراء .
« واصر نجيب على أنه فهم انه ليس للمخابرات الامريكية علاقة بذلك المبلغ وأنه مرسل من الرئيس ايزنهاور الذى خصص اعتمادات مالية لبعض رؤساء الدول ليتمكنوا من تجاوز مخصصاتهم المقيدة بالميزانية من اجل الدفاع عن انفسهم وعن بلادهم ضد الشيوعية »

« وهنا طلب عبد الناصر ايداع المال فى خزينة إدارة المخابرات وامر بعدم صرف اى شىء منه الا بإذن من مجلس قيادة الثورة .
وفى النهاية بنى البرج وكان مخططا له فى الاصل ان يكون برجا بسيطا يعلوه هوائى لاسلكى وشبكة اسلاك تنحدر الى الأسفل عبر وسطة لكن جمال عبد الناصر قرر ان يبنيه كنصب يشهد على حماقة وكالة المخابرات الامريكية فاستخدم الأموال الامريكية لبناء البرج الفخم المزركش وبنى المطعم الدوار الذى فى قمته والذى يطل اليوم على منظر القاهرة كلها .

وقد لقى البرج انتقادا شديدا عند تشييده لأنه لم يكن فى وسع واحد ان يفهم سبب اهدار المال عليه . واذا كان قسم المواصلات فى مبنى البرج جديا وجوهريا فقد كانت الاعتمادات المتاحة معقولة ولم يكن هناك بأس من بناء المطعم ومن الهندسة الباذخة وبشكل ما فإن ذلك كان اهانة الى وكالة المخابرات الامريكية .
وقد غضب عبد الناصر من الامريكيين غضبا شديدا بسبب هذه الحادثة التى اعتبرها محاولة للافساد .
قرأت ما كتبه هيكل وضحكت . .
الى هذا الحد يمكن ان تصل الفبركة بكاتب . .
الى حد التلفيق والافتراء . .

لكنى ادركت للوهلة الاولى من قراءة هذة الرواية الباطلة ان الكذب لا أقدام له . . فأنا لم تكن لى صله بهذا الموضوع لسبب بسيط هو انى كنت معتقلا يوم وصل هذا المبلغ الى مصر .

وقد شرحت من قبل علاقتى بالامريكان وعلاقة عبد الناصر بهم .

يضاف الى ذلك ما نشره رجل المخابرات الامريكى الشهير « مايلز كوبلاند » فى كتابه « لعبة الامم » والذى قال فيه بصراحة انه سلم المبلغ لرجل المخابرات المصرى حسن التهامى ، صديق عبد الناصر المقرب ، واحد الذين يعتمد عليهم فى اتصالاته السرية ، والذى اشترك معه فى محاولة اغتيال حسين سرى عامر واشترك معه فى كل الاتصالات التى جرت بين الامريكان والثورة .

واردت ان القن هيكل درسا علنيا يوجعه . .

رفعت دعوى ضده فى نوفمبر ١٩٧٢ امام محكمة جنايات الجيزة .

وعرف هيكل بالدعوى . . وسارع بالاتصال بالمحامى الذى تولى رفع الدعوى وهو الاستاذ رفعت الشهاوى ، وطلب منه ان يتوسط عندى لسحب الدعوى . .

قلت :

ـ على شرط ان ينشر بيانا فى الاهرام والديلى تليجراف والنهار اللبنانية يعتذر فيه عما نشره ويكذبه .

ووافق هيكل . .

ونشر البيان التالى :

« كان الاهرام قد بدأ فى ١٧ سبتمبر ١٩٧١ وعلى مدى عدة اسابيع فى نشر فصول من الكتاب الذى صدر بعد ذلك لمحمد حسنين هيكل عن عبد الناصر والعالم والذى ترجم اخيرا الى اللغة العربية .

وفى اول هذة الفصول وهو الخاص (بعبدالناصر ودالاس) ومحاولات الولايات المتحدة احتواء الثورة المصرية وغوايتها ، ذكرت واقعة بناء برج القاهرة من حصيلة مبلغ ثلاثة ملايين دولار كانت المخابرات الامريكية قد ارسلته ليوضع تحت تصرف رئيس الدولة فى مصر وقتئذ .

وقد جاء فى رواية هذه الواقعة فى الكتاب المنشور ان هذا المبلغ كان قد وضع تحت تصرف اللواء محمد نجيب وانه دفع من الاعتمادات التى يخصصها الرئيس ايزنهاور لبعض رؤساء الدول ليتمكنوا من تجاوز مخصصاتهم المقيدة بالميزانية من اجل الدفاع عن انفسهم وعن بلادهم ضد الشيوعية .

وبقدر حرص الأهرام والأستاذ محمد حسنين هيكل على رواية التاريخ المعززة بالوثائق والأسانيد ، بقدر حرصه على عدم المساس بكرامة الشخصيات التى تتعلق بها هذه الوقائع .

وقد جاءنا من اللواء محمد نجيب انه لم يعلم عن هذه الواقعة فى حينها ، ولم يتم اى اتصال بشأنها .

ويريد محمد حسنين هيكل ان يؤكد ان ما نشر عن اللواء محمد نجيب فى هذه الواقعة لم يقصد به المساس به وبالدور الوطنى الذى لعبه فى بداية الثورة . والذى يملك التاريخ وحده الحكم عليه .

فواضح من سياق الخبر أن الولايات المتحدة لم تضع هذا الاعتماد تحت تصرف اللواء محمد نجيب ولكنها وضعته تحت تصرف السلطة المصرية تنفيذا لسياستها حينذاك فى محاولة احتواء الثورة المصرية .

وينشر الاهرام هذا الايضاح دفعا لأى لبس وتأكيدا لمعنى يحرص عليه وهو انه فيما ينشره فى وقائع التاريخ المعاصر يتوخى الحقيقة وصدق الاعتماد .
كان ذلك فى اهرام الجمعة ٢ يونيو ١٩٧٢ .

وواضح من البيان أنه يكذب ولا يكذب . . وصاحبه يلف ويدور كعادته . .
وأصررت ان اذهب الى محكمة جنايات الجيزة لاحضر المحاكمة بنفسى . .
فقال لى المحامى :
ـ هذا لا يجوز . . فيجب الا تقف امام قضاة كانوا يصدرون احكامهم باسمك باعتبارك رئيس جمهورية .
فقلت له :
ـ لا . . ان حضورى المحكمة ووقوفى امام القضاء هو تعبير عن احترامى لهم . .
ثم انني اريد ان اخاطب الشعب المصرى وأسجل كلمتى للتاريخ فى سجلات العدالة المصرية التى حرمت منها سنوات طويلة .

لقد رويت هذه القصة من قبل . . واحب ان ارويها مرة اخرى ، حتى يتعظ كل من يتصور نفسه قادرا على تزوير التاريخ . . ففى المحكمة وامام منصة القضاء ، قلت :

وحيث الذى يعنينى فى مقام هذه الدعوى هو ان يثبت فى محضر الجلسة ان الواقعة موضوع الادعاء غير صحيحة على الاطلاق وأننى لم اتقاض اية مبالغ تتصل بهذا الموضوع من قريب أو بعيد ، فضلا عن أننى لم يصل الى علمى أى شىء بأية صورة من الصور طيلة مدة رئاستى يتعلق بهذا الموضوع عليه

ويشرفني بهذه المناسبة ان يثبت فى محضر الجلسة انني افخر بانني رجل فقير لا يملك من حطام هذه الدنيا شيئا ، فلست أملك مالا او عقارا ، اللهم الا بعض جنيهات أتقاضاها كمعاش شهرى ، ولم اكن طيلة حياتى من الباحثين عن المال او الحريصين على جمعه ، وتشهد ملفات الدولة أننى عندما وليت أمر هذه الأمة رئيسا للجمهورية تنازلت عن نصف مرتبى للدولة .

وأخيرا فإننى أرجو ان يكون واضحا من هذا البيان أننى لا اقصد الاساءة الى اى انسان او التشهير باى شخص ولكننى فقط ارجو ان تثبت هذة الحقائق للتاريخ تأكيدا لطهارة ذمتى ونقاء صفحتى حتى اورثها لابنائى ولأبناء مصر الغالية بيضاء كما كانت دائما طيلة حياتى التى قدمتها ضابطا مقاتلا مازال جسده يحمل أثار الرصاص وقائدا ثائرا محررا لبلاده من طغيان كان يجثم فوق صدرها ورئيسا شريفا أمينا أدى واجبه على أشرف واكمل صورة .

حمى الله وطنى من غائلات الاعداء وحرره من عدوان المعتدين ليعود مرة اخرى حرا عزيز الجانب .

وتنازلت عن الدعوى . .

ورفضت التعويض الضخم الذى كان يمكن أن أحصل عليه واعتبرت ادانة هيكل لنفسه اكبر تعويض لى ، رغم اننى كما قلت ، لا املك سوى معاشى . .

وقد كان معاشى فى بداية اعتقالى ١٠٠ جنيه . . رفع بعد ذلك الى ٢٠٠ جنيه . . وأمر الرئيس السادات بزيادته ١٠٠ جنيه اخرى . . لكن . . كان اهم من زيادة معاشى ، الذى لم يكن يكفى مصاريف الحياة والعلاج ، قرار الرئيس السادات برفع القيود عنى .

فبعد ان انتهى عصر الارهاب ، قال لى السادات :

ـ انت حر طليق !

ولم اصدق نفسى . . هل استطيع ان اخرج وادخل بلا حراسة . . هل استطيع ان اتكلم فى التليفون بلا تصنيت . . هل استطيع ان استقبل الناس بلا رقيب !

لم اصدق ذلك بسهولة . .

انظر الوثائق كشف حساب البنك الأهلى المصرى ص ٣٨٣ .

فالسجين فى حاجة لبعض الوقت ليتعود على سجنه ، وفى حاجة لبعض الوقت ليعود الى حريته . .

وانا لم اكن سجينا عاديا . . كنت سجينا يحصون انفاسه . . ويتصنتون على كلماته . . ويزرعون الميكرفونات والعدسات فى حجرة معيشته . . وكنت اخشى أن اقترب من أحد حتى لا يختفى . . واتحاشى زيارة الاهل والاصدقاء حتى لا يتعكر صفو حياتهم . . وابتعد عن الاماكن العامة حتى لا يلتف الناس حولى ، فيذهبون وراء الشمس .

لكن . . بعد فترة . . وبالتدريج . . عدت الى حريتى . . وعدت الى الناس . .

وعدت الى الحياة العامة . .

وياليتنى ماعدت . .

فالناس جميعا كان فى حلقها مرارة من الهزيمة والاحتلال . . وحديثهم كل شكوى وألم ويأس من طرد المحتل الأسرائيلى . . وبجانب هذه الاحاسيس ، كانت هناك أنات ضحايا الثورة . . الذين خرجوا من السجون والمعتقلات . . ضحايا القهر والتلفيق والتعذيب . . وحتى الذين لم يدخلوا السجون ولم يجربوا المعتقلات ، ولم يذوقوا التعذيب والهوان كانوا يشعرون بالخوف ، ويتحسبون الخطى والكلمات . .

وعرفت ساعتها كم كانت جريمة الثورة فى حق الانسان المصرى بشعة . .

وعرفت ساعتها اى مستنقع القينا فيه الشعب المصرى . .

فقد حريته . . فقد كرامته . . فقد ارضه . . وتضاعفت متاعبه . . المجارى طفحت . . المياه شحت . . الازمات اشتعلت . . الاخلاق انعدمت . . والانسان ضاع . .

أين الاهداف العظيمة والتى نادت بها الثورة !؟

أين كرامة الانسان الذى قال له جمال عبدالناصر أرفع رأسك يا أخى ؟!

لقد قمنا بثورة . . فإذا بهم يحولونها إلى عورة !

قمنا من اجل الناس . . فإذا بهم يعملون من أجل انفسهم .

قمنا من اجل رفع مستوى المعيشة . . فاءذا بهم يعملون على خفض مستوى كرامة البشر .

وإذا كان الزمن لا يتوقف والشعوب لا تنتهى والمستقبل لا يعود إلى الوراء ، واذا كان الشعب قد حرر بلاده وارضه من اليهود ، فأنه لا أمل فى ان يسترد كل ما فقده ، ولا أمل فى ان يتقدم ، سوى بالديمقراطية .
الحرية قبل الخبز احيانا .
الديمقراطية قبل العدالة الاجتماعية احيانا .

وقد دفعت أنا ثمن هذه الكلمة الخالدة « الديمقراطية » ودفع الشعب ثمنها ايضا .. ولكننى الان لا استطيع ان افعل المزيد .. فقد هدتنى الشيخوخة واقعدتنى ، وحاصرتنى امراضها ، وأصبح على ان انتظر لقاء ربى بين لحظة واخرى .. لكن .. الشعوب التى تعوض شيخوختها بشبابها وماضيها بمستقبلها ، تملك الفرصة الذهبية فى تغيير واقعها السياسى والاقتصادى والاجتماعى .
ولايبق ان اكرر ما قوله دائما وابدا ..

ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا او اخطانا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا * ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

أهداء ألي منتدي أل : DVD4ARAB

Blackdivel2000